نظريات الجزء الذي لا يتجزأ في التراث العربي الإسلامي

الدكتور عبد الكريم اليافي

نريد أن نشرح هذه النظريات في اطار التراث العالمي قديمه وحديثه ٠

اذا عرضنا تاريخ النظريات التي تتأمل بنية المادة وتتعرف تركيبها نجد في غالبيتها القول بالجزء الذي لا يتجزأ وذلك طوال عصور الحضارات المختلفة قديمها ومتوسطها وحديثها ، مع أنه كان من الممتنع على وسائل العلم إفراد هذا الجزء الدقيق ولا يزال ممتنعاً على الرغم من تقدم الفيزياء الحديثة ذلك التقدم الكبير المعروف في العصر الحاضر ٠

هذا وان القول بالجزء الذي لا يتجزأ قد تختلف مذاهبه كما تختلف دواعيه الفلسفية والدينية والعلمية ٠

نجد ذلك التفكير في جوانب من الفلسفة اليونانية وجوانب من التفكير الهندي وعند غالبية المعتزلة وعلماء الكلام المسلمين وفي مراحل من التفكير لدى الغرب في العصور الحديثة كما نجد ذلك في مضمون العلم الحديث ٠

لقد أراد بعض المفكرين أن يتلمّس الأسباب التي تكمن وراء هذه النظرية والتي تجعل الفلاسفة والعلماء يعاودونها في الحين بعد الحين ويستندون اليها في بيان بنية المادة وتركيبها على اختلاف منطلقات بحوثهم وتأملاتهم ٠

يرجع المفكر الفرنسي غاستون بشلار في كتابه « الحدوس الذرية » هذا النجاح التاريخي الذي لقيته تلك النظرية الى أن وراءها صورة حدسية

حسيـة تطالعنـا في الحـين بعـد الحـين وهي ظاهرة الهباء أو الغبـار · ولكـي يوضح رأيه يعمد أول الأمر الى برهـان سلبي · يتخيل عالماً مكوناً كله من أجسام صلبة معينة الحجوم ومعينة الأمكنة تتميز فيه الأجسام بمقاديرها بشرط أن تكون تلك الأجسام متقاربة في المقادير والحجوم ولا تتفاوت الا في نطاق محدود · فليس بينها الضئيل الدقيق ولا الجسيم الضخم · لا شك أن التجزئة المادية في هذا العالـم تغدو بمثابة عمل من الأعمال المتكلفة الصنعية · نتكلـم في هـذا العالـم على التحطيم والكسر لا على التجزئة الطبيعية · ولو تقدم العلم في هـذا العالم الخيـالي لاقتصر على تحليل الجسم الصلب تحليلا هندسياً · وهذا التحليل الهندسي يُطبَع بطابع الفكر والنظـر والخيال فهـو من نطاق الممكن الصرف المجرد ولا يقابلـه شيء في الواقع ·

نستبدل بهذا العالم الخيـالي عالماً آخر يبدو فيه كل شيء عجينياً مائعـاً كأن تكون درجة الحرارة فيه عالية تكفي لاماعة الأجسام بعض الاماعة · عندئذ تغدو الأشكال العجينية عبارة عن مراحل وقتية للتغير والصـيرورة ، وتصبح التجزئـة والتقسيم هما القاعدة الأساسية اذ كـل شيء لين يسيل ويتغـير شكله وينقسـم ويتجزأ الى ما لا نهاية · وأمثل صـورة لهذه الحال الماء الجاري الذي يعـادل انقسامه وتجـزؤه في السهولة تجمعـه وانضمامه · يصعب في هذا العالم الخيالي أيضاً كما في العالـم الخيالي السابـق أن نتصور الجزء الذي لا يتجزأ · كلا هذين العالمين الخياليين لا يشمل مستنداً حسياً حدسياً يوحي بالجزء الذي لا يتجزأ ، لأن تجزئة المادة في العالم الأول غير طبيعيـة وفي العالم الثاني هي القاعدة وهي يسيرة الانجاز والتطبيق فيه دائماً ·

عالمنا الواقعي الذي نعيش فيه يحتوي على أجسام صلبـة وأجسام مائعـة ولكنه يحتوي أيضاً على أجسام في حالة ذرورية · وهذه الحالة الأخيرة ذات أهميـة ينوه بها بشلار ويذكر تأثيرها الكيماوي الخاص وهو العمل بالتماس كما يذكـر أن المسحوق قد يوحي بفكرة السم · هو اكسير يُعطى فيجلب بتفاوت مقاديره اما الموت واما الدواء · وكأن الجسم متـى تفتت أو سحق أضاع قسماً من فرديتـه وكسب تلقـاء ذلك صفة سرية وغـدت عناصره مواتية لكل تركيب ممكن · وربما تكون نسبة الخلود للجوهر في بعض الفلسفات القديمة ناشئة عن مثل هـذا الاعتبار ·

كذلك نجد في أساس حدس المساحيق والغبار أحكام قيم غريبة لأنها في شكلها الذروري تبدو تارة ذات نشاط وذات خواص قوية كالعمل بالتماس الذي أشرنا اليه آنفاً أو كالشفاء في الدواء وتبدو تارة أخرى بمثابة الفضلات حين نتذكر بعض الحالات التاخّة والنَخِرة والسائسة والصدئة أو نتذكر انحتات الأجسام الصلبة ومحقها كالخاتم بالاصبع والحجر الذي يتواتر وقوع حبات المطر عليه ويد التمثال من الشبه التي يلثمها المؤمن به حين يمر عليه وأبواب المعابد تمسها أيدي الداخلين كل ذلك يبلى شيئاً فشيئاً أو تنفصل منه أجزاء ضئيلة لا ترى • فالأجزاء التي لا تتجزأ أجسام صلبة دقيقة بالية • وكل شيء بعد وجوده يتفكك ويبلى ويختلط • وقد نجد مثل هذا التفكير عند كثير من الفلسفات المادية والدينية تطبق تشاؤمها على بلى الكون واندثاره وزوال بهجته •

وقد يطالعنا من وراء كل ذلك مشهد نادر ولكنه مهم • هو مشهد الهباء الخفيف الذي يمتنع على اللمس أو المس ولكنه يرى حين يرتجف في شعاع الشمس • هذا المشهد في رأي بشلار هو الحدس الحسي الأساسي الذي تستند اليه نظرية الجزء الذي لا يتجزأ • ذلك مشهد نتأمله فنحلم • ان حبة الهباء اللاعبة في النور توحي في اختلاف تلونها وتباين تشكلها بتعدد خواص الجزء الذي لا يتجزأ • انها لا تلمس ولكنها ظاهرة للبصر • الغائب الخفي المستتر يلوح فجاءة للنظر • تبدو الغرفة خالية فارغة ما لبث النور يملؤها بسنا واحد متسق • وعندئذ لا يظهر في جوها أثر للهباء • حتى اذا نفذ شعاع من الضوء جلي هندسي الشكل كشف لنا عن عالم مجهول • هذه عند بشلار هي التجربة الأولى لنظرية الجزء الذي لا يتجزأ • هنا يجد الفكر ما يستند به الى حدس مباشر • يسعنا اذاً أن نفترض وجود مادة لا تقع تحت الحس اذ قد حسرت التجربة لنا عن أشياء دقيقة لم تكن مرئية • وهكذا يجوز أن نفرض وجود الجزء الذي لا يتجزأ وراء التجربة الحسية • ان حبة الهباء تسبح في الخلاء وكأنها تتبع في حركاتها هواها • تتأثر بالنفخ ولكنه تأثر مشحون بالانطلاق والحرية • فهي تصور في ذلك تصويراً بديعاً ما ذكره أبيقوروس عن حرية الجزء وسماه لوقريطس بالحيد أو الانحراف Clinamen • ففي نظرية لوقريطس وأبيقوروس عن الجزء صفات هذه الحادثة • وهما يريان أن الأجزاء في انهمالها أو هطولها القديم تستطيع أن

تحيد وتنحرف عن مواقعها ليتصل بعضها ببعض فتؤلف مختلف الأجسام التي نعرفها ٠

العالم النمساوي ارفين شرودنغر حين بحث أصول نظرية الجزء رأى أن التفكير الحديث في الجزء انما هو وريث العلم اليوناني القديم ٠ وهو في ذلك يرجع الى ما قبل أبيقوروس ولوقريطس٠ يرجع الى الفيلسوف اليوناني القديم طالس من مدينة ميلي اوميلتوس كانت في آسية الصغرى تشرف على بحر ايجي وهذا قد اطلع على العلم البابلي والعلم المصري القديمين والى أنكسمنس مواطن طالس ومن مدرسته الفكرية الأيونية ٠انتبه هذا الى بعض الظواهر الطبيعية واسترعى نظره التخلخل والتكاثف٠ استند أنكسمنس الى ملاحظة أن قطعة من المادة قد تأخذ الحالة الصلبة والسائلة والغازية(النارية كما يدعوها) وأن التبدل من حال الى حال لا يتضمن تغيراً في طبيعة المادة وانما يتعلق بقضية هندسية ٠ وذلك أن كمية من المادة تشغل حيزاً يتسع شيئاً فشيئاً (وهذا هو التخلخل) أو يضيق وينضغط فتصبح كمية المادة في حجم أقل(وهذا هو التكاثف) ٠ فالتبدل في خواص المادة أثناء التخلخل يعود الى أن أجزاءها يتباعد بعضها من بعض بمسافات تزيد شيئاً فشيئاً ٠ ان الرياضيين في عصر أنكسمنس وهو القرن السادس قبل الميلاد كانوا يعتبرون الخط الهندسي مؤلفاً من نقاط ٠ فاذا تصورنا الخط مادياً وطفقنا نشده أفلا تتباعد نقاطه بعضها من بعض تاركة بينها فجوات أو ثغرات ؟! فالشد لا يحدث نقاطاً جديدة ٠كذلك لا يمكن للنقاط التي يتألف منها الخط أن يشغل كل منها حيزاً أو مسافة أكبر ٠ وأبسط وسيلة للخلاص من هذه الصعوبات اعتبار المادة تتألف من نقاط فردية أو من أجزاء صغيرة يتباعد بعضها من بعض حين يحصل التخلخل وتتقارب حين يقع التكاثف ، وهي في غضون ذلك تبقى هي أنفسها دون أن تتبدل٠ فملاحظة التكاثف والتخلخل هي التي أوحت الى الفلاسفة القدماء الطبيعيين اليونان في رأي شرودنغر بفكرة الجزء الذي لا يتجزأ أو بفكرة تألف المادة من الذرات ٠

هذا ونشوء هذه المدرسة الايونية على شاطىء آسية الصغرى يشير في رأينا الى اقتباس معارفها مما كان رائجاً في حضارة بلاد الرافدين خاصة ٠ ان شرودنغر يقف عندما ذكرناه في بحثه أولية التفكير في الجزء الذي لا يتجزأ ٠

ونحن نتمم بحثه فنذكر شيئاً من تسلسل التفكير اليوناني · لقد هرب فريق من الايونيين من وجه الفرس وذهبوا الى شاطىء ايطالية الغربي، فبنوا مدينة ايليا التي نشأت فيها الفلسفة الأيلية · من أقدم المفكرين الايليين أكسانوفان الذي ولد في بلدة من أعمال إيونيا على الشاطىء الغربي لآسية الصغرى · طاف في بلاد اليونان ثم ذهب الى ايليا وأقام بها · ولكن المؤسس الحقيقي للمدرسة الفلسفية الأيلية هو بارمنيدس · ومن أهم المفكرين اليونانيين لوقيبوس وديمقريطس · ويذهب مؤرخو الفلسفة اليونانية الى أن نظرية ديمقريطس ولوقيبوس في الجزء الذي لا يتجزأ مشتقة من المدرسة الايلية: أما لوقيبوس فيرجح أنه ولد في مَلَطْيَة بجنوبي آسية الصغرى في شمالي بلاد الشام ورحل الى ايليا وأخذ عن زينون تلميذ بارمنيدس ثم جاء أبديرة على الساحل في الشمال الشرقي من اليونان وأنشأ فيها مدرسة وقد أخذ ديمقريطس عنه القول بالجزء · لقد نوّه بارمنيدس بالكينونة التي هي عنده الحقيقة الكلية ولا شيء سواها · ثم عمد لوقيبوس وديمقريطس مُمثلا مدرسة أبديرة فحفظا للكينونة نصيباً من الوحدة ولكنهما جزآها وبعثراها خلال المكان وخلعا على هذه الأجزاء الدقيقة صفات الكينونة وهي أنها بسيطة ثابتة الأشكال أزلية وأبدية · عاش ديمقريطس قبل الميلاد (٤٧٠ – ٣٦١) وكان تلميذ لوقيبوس وصديقه · وقد قضى أرسطو على هذه النظرية · ولكنها ظهرت في شكل آخر بسيط فيما بعد عند أبيقورس (٣٤١ – ٢٧٠ ق·م) ثم عند المفكر الروماني لوقريطس (٩٦ ؟ – ٥٥ ق·م) وقد تأثر بابيقورس وهو الذي وصف حَيْدَ الأجزاء وانحرافها كما سلف آنفاً ·

بيد أن القول بالجزء الذي لا يتجزأ ظهر عند الهنود · يرجع تاريخه فيما وصلنا من معلومات الى ما حول القرن الخامس الميلادي · نجده في مذهب الجاينا ولدى فرقتين بوذيتين هما الويبها شيكا والسوترانتيكا ، وكذلك لدى فرقتين فلسفيتين من فرق البراهمة وهما النيايا والوايششيكا · جاء في مذهب النيايا أنه لو كان الجزء الذي لا يتجزأ غير موجود لكان في ذرة الغبار من الأجزاء ما في الجسم الكبير لأن كلا منهما لولا وجود الجزء لقبل الانقسام الى غير نهاية · وفي لفظ الغبار ما يذكرنا كلام بشلار على الحدس الحسي كما أن مثل هذا البرهان سنجده عند بعض المتكلمين المسلمين · وقد حاول المستشرق بينيس أن يربط

بين مذاهب الهند ومذاهب المتكلمين ويزعم شيئاً من الاتصال بينهما ولكن هذا مجرد رجم يحتاج الى دليل واضح لثبوت صحته ٠

نظرية الجزء الذي لا يتجزأ في التفكير العربي الاسلامي :

الاعتقاد بوجود الجزء الذي لا يتجزأ مذهب فريق واسع من المسلمين وهم غالبية المعتزلة وجمهور المتكلمين ٠ ولم تصدر آراؤهم بادىء الأمر عن دواع علمية بمقدار صدورها عن دواع دينية وفلسفية ٠ حتى ان هؤلاء المفكرين قلّ أن يعللوا الظواهر الطبيعية بالأجزاء التي يسمونها أيضاً الجواهر الفردة والذرات ٠ يرى أبو القاسم البلخي المعتزلي (ت ٣١٩ هـ ــ ٩٣١ م) مثلا أن امتداد الجسم ناشيء عن التأليف بين الجواهر الأفراد لا لأن للجواهر الأفراد حجوماً ٠ ومن أوائل المعتزلة الذين قالوا بالجوهر الفرد أيضاً أبو الهذيل العلاف (ت ٢٢٧ هـ ــ ٨٤١ م أو ٢٣٥ــ٨٤٩ م) والجبائي (ت ٣٠٣ هـ ــ ٩١٥ م) ٠

وجاء أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤ هـ ــ ٩٣٥ م) فأخذ هذه النظرية عن سابقيه واعتمدها في دعم اتجاهه الديني وهو في هذا يتفق مع أولئك المعتزلة ٠ حصر التناهي في المخلوقات والأشياء المحدثة وترك اللاتناهي لله ٠ لقد ورد في القرآن الكريم « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » (سورة يس ٣٦ ــ ١٢) وورد أيضاً فيه «وأحصى كل شيء عدداً» (الجن ٧٢ ــ ٢٨) ٠ ولا يتم الاحصاء الا بما له نهاية ٠ فيجب أن تكون أجزاء الجسم متناهية في عددها ٠ ثم أتى تلميذ تلميذه القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ ــ ١٠١٢ م) فكتب في «التمهيد» أن « المحدثات كلها ثلاثة أقسام فقسم مؤلف وجوهر منفرد وعرض موجود بالأجسام والجواهر ٠٠٠ والدليل على اثباته (اثبات الجوهر) علمنا بأن الفيل أكبر من الذرة (النملة) ٠ فلو كان لا غاية لمقادير الفيل ولا لمقادير الذرة لم يكن أحدهما أكثر مقادير من الآخر ٠ ولو كانا كذلك لم يكن أحدهما أكبر من الآخر كما أنه ليس بأكثر مقادير منه »٠

ولقد تسربت فلسفة أرسطو الطبيعية التي أنكرت وجود الذرات

بالترجمة الى ميادين الفكر الاسلامي فلاغرو أن نجد بين المعتزلة من أنكر وجود الذرات أيضاً .

كان ابراهيم النظام (ت بين عامي ٢٢١ و ٢٣١ هـ ـ ٨٣٥ و ٨٤٥ م) من خصوم مذهب الجزء الذي لا ينقسم .وهنالك في الفلسفة اليونانية مفارقات زينون الايلي الذي أراد أن يبرز الخلف في فكرة الحركة المتصلة فمثل آخيل ذا القدمين الخفيفتين يلحق بسلحفاة فلوكان الطريق متصلا أي مؤلفاً مما لا نهاية له من الأجزاء لكان آخيل كلما قطع نصف المسافة مثلا بينه وبين السلحفاة ووصل الى النقطة التي كانت بها السلحفاة لزم أن تكون السلحفاة قد قطعت مسافة ما وهكذا لا يمكن له أن يلحق بها منطقياً مع أن الواقع بلوغه مكانها . هذا وقد رُدَّ على النظام بمثل هذه المفارقة وذلك بأنه لولم يوجد الجزء لكان الماشي الذي يقطع مسافة متناهية يقطع ما لا نهاية له لأن هذه المسافة تقبل القسمة الى غير نهاية . ولكن النظام تخلص من هذه الصعوبة بأن قال بالطفرة ومعناها أن الجسم المتحرك لا يماسّ كل أجزاء المسافة التي يقطعها بل يصير الى مكان دون أن يمر بالذي قبله .

هذا وينسب الى أبي بكر محمد بن زكريا الرازي (ت ٣١١ هـ ـ ٩٢٣ م) القول ان القدماء أو الجواهر خمسة وهي البارىء والنفس الكلية والهيولى الأوّلة والمكان والزمان .ويذكر البيروني في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » الذي أورد ذلك أن الرازي حكى هذا المذهب عن أوائل اليونانيين . ويذكر ابن تيمية في كتاب « منهاج السنة النبوية » ان هذا القول يحكي عن ذيمقراطيس واختاره ابن زكريا المتطبب .

ويعد الشيخ الرئيس أبو الحسين علي بن سينا ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠ م ـ ٤٢٨ هـ /١٠٢٧ من أكبر ممثلي الفلسفة المشائية (فلسفة تلاميذ أرسطو) وأبرزهم في الحضارة العربية الاسلامية . وقد قالوا ان الجسم كم متصل . (والاتصال معناه قبول الانقسام ويقابله الانفصال وهو وقوف الانقسام عند حدٍ ما) وفرقوا بين الانقسام بالفعل والانقسام بالقوة فأجازوا الثانية الى ما لا نهاية وأنكروا الأولى .

ولما تحاور أبو الريحان البيروني(٣٦٢ هـ/٩٧٣ م-٤٤٣ هـ/١٠٥١ م)* وابن سينا جاء في السؤال الرابع الذيسأله البيروني ابن سينا في الرد على المعلم الأول : «لم استشنع أرسطو طاليسقول القائلين بالجزء الذي لا يتجزأ ؟ » • وقد شعر البيروني بالصعوبة التي تكمنفي هذا القول • ولكنه وجد صعوبات أكثر في القول المقابل فأشار الى أن« القول بأن الجسم يتجزأ الى ما لانهاية أشنع • » • ثم يسأل كيف التخلص منحرج كلا الموقفين • ويجيب ابن سينا أن أرسطو انما أراد الانقسام بالقوة ولكنالبيروني يلزمه اذ ذاك بمشكلة أنه لو انقسمت الأبعاد انقساماً غير متناهلوجب أن يساوي قطر المربع احدى أضلاعه • ويبدو فيما سبق أن النظريةتجاوزت الميدان الديني وأصبحت قضية مطروحة للبحث في الفلسفة الطبيعية عندالفلاسفة المسلمين من ممثلي الفلسفة المشائية ومن المستقلين عن تلكالفلسفة البارزين الأعلام أمثال البيروني وأبي البركات هبة الله البغدادي •

عالج أبو البركات (توفي سنة ٥٤٧ هـ -١١٥٢ م) هذا الموضوع معالجة مناسبة وعرض أقوال الحكماء الطبيعيينعرضاً وافياً • يذكر أن أجزاء الأجسام التي لا تتجزأ لا تخلو من أن تكون « متساوية الأقدار أو مختلفتها أو لا تكون ذوات أقدار » ويمنع ألا يكون لها أقدارلأن ما يكون كذلك لا يكون لمجموع كثير منه قدر « اللهم إلا ألا يُعنى بلا مقدارسلب العِظَم مطلقاً بل تصغيره جداً فيدخل حينئذ في القسمين الأولين أعنيمتفقات الأقدار ومختلفتها » ثم ينفي اختلاف أقدارها ليناقش أخيراً وحدةالجسم واتصاله من جهة وكثرته بالتجزؤ وانفصاله من جهة ثانية فيحقق القولفي وحدة الجسم الذي هو الهيولى الأولى وكثرته التي له بذاته فيقرر « من حيثأن الجسم يقبل الاتصال والانفصال والتجدد بالصغر والكبر يُعْلم أنه بذاتهومن حيث هو جسم لا متصل ولا منفصل أعني ولا واحد ولا كثير اذ لو كان بذاتهواحداً متصلا لما انفصل أو كثيراً منفصلا لما اتصل وذلك هو قولنا لا واحدولا كثير (الفصل السابع والثامن من الجزء الثاني) وهو يرد القول بالطفرة •« فان الطفرة معناها وجود حركة سريعة بين حركات بطيئة » •

★ اغلب المترجمين للبيروني يذكرون وفاته سنة ٤٤٠ هـ ولكننا نرى تاريخها ما اثبتناه • انظر كتابنا « معالم فكرية » •

ثم عمد المفكرون المسلمون فلاسفة ومتكلمين الى البحث عن حجج وبراهين يؤيد بها كل منهم موقفه أو يعرض تلك البراهين المتناقضة • ومن أهم هذه البحوث ما نجده عند فخر الدين الرازي (٥٤٤ هـ/١١٥٠-٦٠٦ هـ/ ١٢١٠ م) في كتابه المباحث المشرقية • وقد لخص في الفصل الثاني من الجزء الثاني من كتابه هذا مختلف المذاهب في احتمال الأجسام للانقسام فذكر «إما أن تكون الانقسامات الممكنة فيه حاصلة بالفعل أو غير حاصلة بالفعل • وكلا القسمين إما أن يكون متناهياً أو غير متناه فحصل من هذا التقسيم أقسام أربعة :

الأول : أن يكون في الجسم أجزاء متناهية بالفعل •

الثاني : أن يكون فيه أجزاء غير متناهية بالفعل •

الثالث : ألا تكون الأجزاء حاصلة فيه بالفعل بل بالقوة وتكون متناهية •

الرابع : أن تكون فيه أجزاء بالقوة غير متناهية •

فالمذهب الأول مذهب جمهور المتكلمين • وهم زعموا أن كل واحد من تلك الأجزاء لا يقبل الانقسام لا قطعاً لصغرها ولا كسراً لصلابتها ولا وهماً لعجز الوهم عن تمييز طرف منها عن طرف ولا فرضاً لأنها تلزم من ذلك الفرض محالات •

وأما الثاني فهو مذهب النظام ومن الأوائل انكسافراطيس •

وأما الثالث فهو مذهب اختاره محمد الشهرستاني ويحكى قريباً منه عن أفلاطون فانه قال : الجسم ينتهي بالتجزئة الى أن ينمحق فيعود هيولى •

وأما الرابع فهو مذهب الجمهور من الحكماء • »[1]

ويلخص في الفصل الثالث « الأدلة على بطلان الجزء الذي لا يتجزأ • وبراهينه عشرون » بعضها يتعلق بالمماسة وهي قضية كانت ذات شأن عند المتكلمين في اثبات الجزء أو نفيه • ولا بأس أن نورد جانباً من هذه القضية وهو البرهان الأول من العشرين • « انا لو قدرنا جزءاً بين جزءين فالوسط اما أن يمنعهما عن التلاقي أو لا يمنعهما • فان منعهما فالوجه الذي يلاقيه أحد الطرفين غير الوجه الذي يلاقي الطرف الآخر فاذاً هو منقسم • وان لم يمنعهما من التلاقي كان الطرفان متداخلين في الوسط لكن التداخل محال • »

جميع هذه البراهين نظرية • وهي تعتبر الجزء الذي لا يتجزأ في حالتي اثباته ونفيه في نطاق المقياس البشري المعتاد المستند الى الحواس وتظل بعيدة من الصفة العلمية ، كما تستند في نفيه الى الحساب واقتضاء وجود الكسور اذا اعتبرنا الجزء الذي لا يتجزأ بمثابة الرقم (١) فالبرهان الثاني عشر يعتمد على نظرية فيثاغورس وينص « لو قدرنا زاوية قائمة كل واحد من الضلعين المحيطين بها عشرة أجزاء (لا تتجزأ) فالحاصل من ضرب كل واحد من الضلعين في نفسه مائة فالمجموع مائتان والحاصل من ضرب وتر الزاوية القائمة في نفسها مساو للحاصل من ضرب الضلعين كل واحد في نفسه كما بينه أوقليدس • فيكون الحاصل من ضرب وتر هذه الزاوية مائتين فيكون وتر هذه الزاوية جذر مائتين وليس للمائتين جذر صحيح فلا بد أن تنكسر الأجزاء • »

كذلك البرهان الثالث عشر « لو قدرنا خطاً مركباً من جزءين فأمكننا أن نعمل عليه مثلثاً متساوي الأضلاع ولايحصل ذلك الا اذا وقع كل واحد على متصل الآخرين وذلك يوجب التجزئة • »

ان نظرية فيثاغورس يتكرر الاعتماد عليها فالبرهان الرابع هو أنه «لو أخذنا خطاً من جزءين ووضعنا على أحد الجزءين جزءاً آخر فتحصل هناك زاوية قائمة فوترها ان كان من جزءين كان وتر الزاوية القائمة مساوياً لواحد من الضلعين المحيطين • هذا خلف • وان كان من ثلاثة أجزاء كان الوتر مساوياً لمجموع الضلعين. هذا خلف • فاذاً هو أكثر من الاثنين وأقل من الثلاثة • فقد وجد الأقل من الجزء »[٢] •

وهكذا تتواتر البرهانات بأشكال شتى على اقتضاء وجود كسر لرفض وجود الجزء الذي لا يتجزأ وذلك لاعتبار الجزء بمثابة الرقم (١) كما أسلفنا • ولا بأس عندنا أن نعرض برهانين آخرين :

« البرهان السادس عشر أن اقليدس برهن على أن كل خط فانه يصح تنصيفه فالخط المركب من الأجزاء الفردة يصح تنصيفه فينتصف الجزء وهو المدّعى •

البرهان السابع عشر اذا أوقعنا خطاً مستقيماً كالوتر على زاوية قائمة حتى

يحصل الوتر جذر مجموع مربع الضلعين وفرضنا الضلعين كل واحد منهما خمسة كان هذا الوتر جذر خمسين فان حركنا طرف هذا الوتر من أحد الجانبين جزءاً تحرك الطرف الآخر لا محالة أقل من جزء فانه ان تحرك جزءاً حتى حصل أحد الضلعين ستة والآخر أربعة حصل الوتر جذر اثنين وخمسين • هذا خلف • فاذاً قد تحرك أقل من جزء »(٣) •

أما الفصل الرابع فيقابل الفصل الثالث ويناقضه وهو « في ابطال قول من قال الجسم مركب من أجزاء غير متناهية بالفعل وعليه برهانان »(٤) أولهما امتناع قطع مسافة الا في زمان غير متناه وثانيهما يعود الى امتناع مساواة الجزء للكل • ويلي ذلك فصلان لمناقشة القسمة الانفكاكية وحكاية شُبـه مثبتي الجزء الذي لا يتجزأ والجواب عنها • وهما مهمان في هذا الصدد نرجع القارىء الكريم اليهما، ولولا مخافة التطويل لعرضنا ما فيهما من حجج لطيفة يرجع غالبها الى ما سبق ذكره •

وعلى الرغم من الصفات النظرية لهذه الحجج والبراهين المتعارضة نرى أن هؤلاء المفكرين قد أكدوا صعوبة كلا الموقفين وحرجه • وكأنهم أقروهما على تناقضهما وهذا ما سنراه عما قريب في فلسفة الفيزياء الدقيقة الحديثة •

ان هذه الحيرة العلمية التي يحيط العالم بها دون أن تحيط به نجدها تستمر عند بعض العلماء المتأخرين • نجدها عند بهاء الدين العاملي (٩٥٣ هـ / ١٥٤٧ م ــ ١٠٣١ هـ/١٦٢٤ م) •

فهو يعقد فقرة في كتاب «الكشكول» يبرهن فيها على ابطال الجزء فيقول : « مما سنح بخاطر جامع الكتاب تفرض دائرة مركبة من الأجزاء وتخرج فيها خطين مارين من المركز بين طرفيهما جزء واحد من محيط الدائرة فهما متقاطعان على المركز • فالانفراج الذي بينهما قبل التقاطع اما أن يكون بقدر الجزء أو أكثر أو أقل والكل باطل لاستلزام الأول كون المتقاطعين متوازيين والثاني كون المتقاربين في جهة متباعدين فيها والثالث الانقسام »(٥) •

ولكنه في الكتاب نفسه يذكر لنفسه برهاناً على امتناع اللاتناهي • وهذا يدل على أنه كان مدمن الفكر في قضية اثبات الجزء أو نفيه فقد ورد في اثبات

الجزء قوله : « ليس لمثبتي الجزء حجة أقوى من حكاية وضع الكرة على السطح المستوي اذ لو انقسم موضع الملاقاة لوصل من طرفيه الى مركزها ليحدث مثلث متساوي الساقين ويخرج من ملاقاة القاعدة عمود الى المركز • فالخطوط الثلاثة الخارجة من المركز الى المحيط متساوية لأنها كذلك ويلزم أن يكون أطوال الساقين أكبر من العمود لأنهما وترا القائمتين وهو وتر الحادتين »(٦) •

على أن علماء الكلام جروا على اثبات الجزء دائماً ليس غير • جاء في « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوى أن الجزء يطلق على معان منها « الجزء الذي لا يتجزأ المسمى بالجوهر الفرد وعرّف بأنه جوهر ذو وضع لا يقبل القسمة أصلا لا قطعاً ولا كسراً ولا وهماً ولا فرضاً أثبته المتكلمون ونفاه بعض الحكماء » ثم يعمد المؤلف الى شرح هذا التعريف • « فالجوهر بمنزلة الجنس فلا يدخل فيه النقطة لأنها عرض • وقولهم ذو وضع أي قابل للاشارة الحسية وقيل أي متحيز بالذات يخرج المجردات عند من أثبتها لعدم قبولها الاشارة الحسية ولا التحيز • وقولهم لا يقبل القسمة يخرج الجسم ، وقولهم أصلا يخرج الخط والسطح الجوهريين لقبولهما القسمة في بعض الجهات ، والقسمة الوهمية ما هو بحسب التوهم جزئياً • والفرضية ما هو بحسب فرض العقل ••• وفائدة ايراد الفرض أن الوهم ربما لا يقدر على استحضار ما يقسمه لصغره أو لأنه لا يقدر على احاطة مالا يتناهى • والفرض العقلي لا يقف لتعقّله الكليات المشتملة على الصغير والكبير والمتناهي وغير المتناهي كذا في شرح الاشارات فان قلت لا يمكن أن يتصور وجود شيء لا يمكن للعقل فرض قسمته قلت المراد من عدم قبول القسمة الفرضية أن العقل لا يجوّز القسمة فيه لا أنه لا يقدر على تقدير قسمته أي على ملاحظة قسمته وتصورها فان ذلك ليس بممتنع وللعقل فرض كل شيء وتصوره حتى وجود المستحيلات وعدم نفسه » •

هذا وما زلنا نتذكر كيف كنا في صغرنا نحفّظ متن جوهرة التوحيد للشيخ ابراهيم اللقاني (توفي سنة ١٠٤١ هـ ـ ١٦٣١ م) التي في أواخرها •

وجود شيء عينه والجوهر الفرد حادث* عندنا لا ينكر

★ ينبغي تسكين الثاء في حادث لضرورة الشعر كما ينبغي قطع همزة الوصل في الفرد (هذا شعر تعليمي يصاغ للحفظ)•

أي لا ينكر ثبوته وتقرره في الوجود فجميع الأجسام تركبت منه مع تناهي آحاده فيها خلافاً لحكماء الفلاسفة كما جاء في شرح الجوهرة لابن ناظم الجوهرة عبدالسلام بن ابراهيم (متوفى سنة ١٠٧٨ هـ ـ ١٦٦٧ م) ٠

على أن بحث التناهي واللاتناهي تجاوز المادة عند المفكرين المسلمين فتأملوهما في الأبعاد والأطراف والزمان والمكان والسطوح والحجوم والعلل والقوى وغير ذلك وكتاب المعتبر لأبي البركات والفلسفة المشرقية لفخر الدين الرازي وأمثالهما وشروح كتب الحكماء حافلة به ٠

ذكرنا آنفاً أن تألف الأجسام من أجزاء لا تتجزأ يطلق عليه الانفصال وانقسام الأجسام انقساماً غير متناه يطلق عليه الاتصال ٠ وهما لفظان شاع استعمالهما في التراث العربي وانتقلا الى اللغات الأجنبية فيقال مثلا في اللغتين الانكليزية والفرنسية للمتصل Continu, continuous وللمنفصل discontinu, discontinuous وثمة لفظ ثالث فيهما وهو discret بمعنى المنفصل ولكنه يطلق على بعض الحوادث المفردة ٠

ولما لخصنا في فصل واسع من كتابنا « الفيزياء الحديثة والفلسفة » كتاب بشلار الذي سلف أن نوهنا به قبلا عرضنا جوانب من المذاهب الفكرية التي شاعت في الغرب والتي تقول بالجزء الذي يتجزأ كالمذهب الايجابي والمذهب الانتقادي والمذهب الأكسيومي أو مذهب المصادرات ٠ فلا محل هنا للتطويل وتلخيص التلخيص وانما الذي يهمنا في هذا البحث هو جلاء هذا الموضوع في التراث العربي والتعقيب عليه ببيان حال العلم الحديث تجاه انفصال المادة واتصالها ٠

نظرية الجزء الذي لا يتجزأ في العصر الحاضر

لقد كان الاتصال صفة من صفات الفيزياء الاتباعية التي سادت في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ومازالت سائدة في المقياس الاعتيادي الانساني بالنظر الى الحواس والآلات التي تكمل الحواس ٠ فالمكان فيها مطلق أوقليدي متصل والزمان مستقل عن المكان وهو متصل اتصالا حقيقياً ويجري

جرياً منتظماً متجانساً الى غير ذلك من صفات الفيزياء الاتباعية كالحتمية والموضوعية والواقعية والايجابية وأمثالها • ونريد هنا أن نعرض قضيتي الاتصال والانفصال كيف برزتا كلتاهما للعلماء الغربيين الحديثين •

فقد اضطر العلماء منذ أوائل القرن التاسع عشر شيئاً فشيئاً الى التخلي عن فكرة الاتصال في مجالات تجاربهم وتأملاتهم • غدوا يتصورون المادة تتألف من ذرات ولكن تصورهم كان مبهماً اضطروا اليه اضطراراً ، بدت الأجسام لهم صنفين : أجساماً مركبة يمكن تحليلها وتجزئتها الى أجسام أبسط منها وأجساماً بسيطة هي العناصر التي تقاوم التحليل وتقف دون التجزئة • ثم ان دراسة القوانين الكمية لاتحاد هذه العناصر البسيطة بعضها ببعض كقانون النسب المحدودة (بروست)(٧) وقانون النسب المضاعفة (دالتون)(٨) أفضت بالكيماويين الى اعتبار الجسم البسيط مؤلفاً من أجزاء صغيرة متشابهة ومتناهية وهي الذرات واعتبار الجسم المركب مؤلفاً من جزيئات، وكل جزيء من جزيئات الجسم المركب أياً كان يتألف من ذرات في نسب ثابتة لا تتغير • فالاتحاد بين العناصر البسيطة يجري على شكل أعداد تقابل أجزاءً معينة من كل منها ، فهو يشف عن بنية منفصلة لتلك العناصر البسيطة •

ولما أتى العالم الايطالي أفوغادرو اعتبر أن الجزيء الغرامي لجسم من الأجسام وهو الذي يشغل في الحالة الغازية حسب أحد قانوني غيلوساك(٩) ٢٢٫٤ لتراً في شرطي الحرارة والضغط النظاميين (درجة الصفر وضغط ٧٦ سم زئبقياً) يتألف من عدد ثابت من الجزيئات الحقيقية أياً كان نوع ذلك الجسم •

أما عدد الجزيئات الحقيقية فلم يكن يأتي حسابه على بال أفوغادرو ولا على بال غيره من العلماء • كان العلماء يتكلمون على وجود الذرات الحقيقية كما يتكلمون على أمور الغيب لأنه كان يتعذر عليهم ملاحظتها أو الاطلاع عليها فكانوا يجدون حرجاً في الكلام على أوزانها الحقيقية فيستبدلون بها الأوزان الغرامية مضخمة مكبرة بل كانوا يستبدلون بالأوزان الغرامية ألفاظاً تتحامى الاشارة الى الذرات كالقيم الاتحادية المقرونة بالعناصر تمشياً مع المذهب الايجابي الذي لا يجيز التحدث عن شيء ما لم تؤيده التجربة ويكشف عن حقيقته البحث •

ولكن العلم تقدم واستطاع العلماء بعد حين حساب عدد الجزيئات الحقيقية في الجزيء الغرامي فوجدوه يساوي ٦٫٠٢٢ × ١٠^٢٣ وأصبح يدعى ذلك العدد عدد أفوغادرو ٠ ان أخف الأجسام البسيطة الهيدروجين ٠ جزيء الهيدروجين مؤلف من ذرتين منه واذا اعتبرت كتلة ذرة الهيدروجين الغرامية (١) فان كتلة جزيء الهيدروجين $\frac{٢}{٦ \times ١٠^{٢٣}}$ تقريباً وكتلة الذرة منه تساوي

$$\frac{١}{٦ \times ١٠^{٢٣}} = ١٫٦٦ \times ١٠^{-٢٤} \text{ (غرام) }$$

ويطلعنا جدول مندلييف أو جدول التصنيف الدوري على أوزان ذرات العناصر البسيطة الغرامية أو قيمها الاتحادية تتعاقب وفق ازدياد القيم أو الأوزان ٠ ويمكن حينئذ حساب كتل ذراتها الحقيقية ٠

وظن العلماء أنهم بلغوا نهاية المادة حين وصلوا الى اعتبار ذرات الأجسام الحقيقية وحساب كتلها ٠ فأطلقوا على تلك الذرات المختلفة في النوع والكتلة باختلاف العناصر اللفظ اليوناني وهو آتوم بمعنى الجزء الذي لا يتجزأ ٠

غير أن الانفصال تجاوز المادة الى الكهرباء فأدت بحوثهم في الكهرباء الى اعتبارها ذات بنية حبيبيه أي منفصلة والى اعتبار الكهرب (الكترون) حبة الكهرباء ٠ ثم أفضى بهم البحث الى اعتبار ذرات الأجسام تلك التي ظنوها لا تتجزأ ولا تنقسم مؤلفة من كهارب يختلف عددها باختلاف العناصر تدور حول نواة لها في كل ذرة ٠ وهنا ينبغي أن نفرق بين لفظ آتوم الدال على الذرة ولفظ الجزء الذي لا يتجزأ الدال على نهاية تقسيم المادة وهو غير الذرة لأن الذرة غدت تنشطر الى الجسيمات المتناهية في الصغر وهي التي تتألف منها حسب كل عنصر ٠ وهنا لابد من الاستطراد وبيان أرجحية اللغة العربية في هذا الميدان من التعبير العلمي ٠ فان لفظ أتوميسم Atomism يعني النظرية التي تقول بوجود الآتوم أي بانقسام المادة انقساماً متناهياً أو نظرية الجزء الذي لا يتجزأ مع أن لفظ الآتوم يطلق على الذرة التي غدت تتجزأ ٠ فاللغة العربية تفرق بين الجزء الذي لا يتجزأ وهو الجسيم من الجسيمات

الدقيقة النهائية في المادة كالكهارب مثلاوبين الذرة التي تقابل الآتوم وهو الذي معناه أنه لا يتجزأ ولكنه أصبح قابلاللتجزئة ٠

ان العلماء لمّا كشفوا الكهرب وجدوا أن كتلته أصغر من كتلة الهيدروجين بمقدار ١٨٤٠ فهي تساوي $\frac{١٫٦٦ \times ١٠^{-٢٤}}{١٨٤٠} = ٠٫٩ \times ١٠^{-٢٧}$ من الغرام ٠

وهنالك أجزاء أخرى دقيقة في الذرة متنوعة تتألفمنها نوى الذراتكالأوّيل (proton) والأويم (neutron) على حد تعبيرنا وغيرهما مما يعرفه المتخصصون بالفيزياء الحديثة ومما يطول بنا البحث لو عمدنا الى عرضها وبيان خصائصها ٠ وقد فصلناها في كتابنا« تقدم العلم » ٠

ولكن الانفصال تجاوز المادة والكهرباء الى الطاقة لما درس العالم الألماني بلنك سنة ١٩٠٠ تبادل الجسم الأسودوالاشعاع للطاقة فوجد أن التبادل يحصل بانفصال على أشكال حبات من الطاقةدعا حبة الطاقة بالكم أو الكوانتوم ومقدارها طا = هـ × د ٠ (طا مقدارالطاقة ، د ، تردد الاشعاع د = $\frac{سر}{ط}$ ط طول الموجة سر سرعة الاشعاع ،هـ كوانتوم العمل يساوي $٦٫٥ \times ١٠^{-٢٧}$ ارغة/ثانية) ولما كانالاشعاع يتفاوت تردده كان ثمة حبات مختلفة بالمقادير من الطاقة ٠

ثم تجاوز الانفصال الطاقة والكهرباء والمادة فدخل بنية الضوء لما كشف العلماء الظاهرة الكهرضوئية التي يحصلفيها تيار كهربائي بتأثير الضوء فيصفيحة معدنية والتي لم يمكن تفسيرها الاباعتبار الضوء ذا بنية منفصلة أيضاً ٠ وحبة الضوء هي الكوانتوم نفسه الذيأشار اليه بلنك وقد دعيت حبة النور هذه « فوتوناً photon وترجمناها نحنبالسنية (تصغير السنا والحاق تاء التأنيث به ٠) وكذلك ببنية الضوءالمنفصلة استطاع العلماء تفسير ظاهرة كمبتون سنة ١٩٢٣ وهي تبادل الكهربوحبة النور قسطاً من الطاقة كما تصطدم

* الأويل تصغير أول والأويم بابدال اللام ميماً مأخوذاً من المعتدل ٠

كرة البليار بكرة أخرى ، وتفسير ظاهرةرامان سنة ١٩٢٨ وهو تبادل وسط شفاف (سائل صاف أو غاز أو بلورات)والضوء نصيباً من الطاقة أيضاً ٠

هذا الانفصال في الضوء والطاقةوالكهرباء والمادةشتت شمل نظامالفيزياء في أوائل القرن العشرين اذ كان ثمة ظواهر لا تفسر الا بطبيعة الضوء الموجية المتصلة على حين برزت ظواهر جديدةكالتي عددناها لا تفسر الا بطبيعة الضوء الحبيبية المنفصلة الى غير ذلك من الظواهر التي استرعت أنظار العلماء واجتذبت اهتمامهم٠ حتى جاء الفيزيائيالفرنسي لويس دوبْر'وي'[١٠] فأنشأ عام ١٩٢٣ نظرية الميكانيك الموجية وهي تقرن بالكهرب طول موجة ط = $\frac{هـ}{كحك}$

(هـ كوانتوم العمل الذي سلف ذكره ،كحك كمية حركة الكهرب أي جداء كتلته في سرعته) وعقبه العالم الألمانيهيزنبرغفأنشأ الميكانيك الكوانتية الجديدة واعتبر كلا العالمين لكلٍّ من المادة والضوءجانبين أحدهما موجي متصل والآخر حبيبي منفصل ٠

نحن اذاً في العلم الحديث مضطرون الى اعتبار الانفصال والاتصال في تعرّف بنية المادة وتعرّف بنية الضوء ، الىاعتبار الجانب الجسيمي المنفصل والجانب الموجي المتصل في تركيب كليهما٠ وهما جانبان متقابلان لا يظهران معاً للباحث اذا برز له جانب توارى الجانبالآخر ٠ واذا كنا نُعجب بأمر فاعجابنا يذهب الى حدس العلماء الطبيعيين العرب القدماء حين وجدوا في تأملاتهم وبحوثهم صعوبات في الاقتصار علىالاتصال دون الانفصال في طبائع الأجسام أو على الانفصال دون الاتصال فيهاونوهوا بتلك الصعوبات والعقبات الفكرية ٠

ان الماديين الجدليين يعتبرون ذلكالتقابل بين الجانبين المتصل والمنفصل أو الموجي والجسيمي صورة لتقابل حدين من حدودالجدل المخامر للطبيعة كلها٠

وان فلاسفة العلوم الحديثين الغربيين يدعون ذلك التقابل بالتتامية Complementarity, Complémentarité وهي ليست مقصورة على هذين الجانبين

في كل من المادة والضوء بل هي تدخل فيكثير من طرق البحث والتنقيب في المعرفة العلمية الحديثة كدخول الذاتية الىجانب الموضوعية وحوار الأشكال القبلية a priori والأشكال البعدية a posteriori وحوار العياني والمجرد والنظر والتجربة والخاص والعام ٠

قد يبدو لفظ التتامية غامضاً فيمجال الفيزياء وهو الذي استعمله العالم الدانمركي نيلز بور ٠ ولكنه يتضح بمثال نأخذه من ميدان الحياة ٠ لو أردنا أن ندرس كائناً حياً كالأرنب فاما أن نحاول تشريحه فنتعرف تركيب جسمه ومحتواه وعندئذ نقضي عليه ، ونغفل عن نهج نموه وتغذيه وتناسله ، وإما أن نتابع نشوءه وتناسله وتغذيه ونموهونطلع على تطوره في خلال الزمان وعندئذ نضرب صفحاً عن تركيب جسمهوتشريحه ٠ وهكذا لاتستيسر دراسة أحد المظهرين الحيويين السكوني والتطوريالا على حساب المظهر الآخر ولا يتهيأ الايغال في تفهمهما الا تباعاً أي أحدهماتلو الآخر وعلى حسابه ٠ فهذه تتامية جلية في مجال الحياة تشبه التتامية بينالمتصل والمنفصل بين الجسيم والموج والتجزؤ واللا تجزؤ ٠

والخلاصة أن المعرفة العلميةمع أنهاتاريخية وجدلية فلا شك أن المعرفة العلمية الحديثة وليدة المعارف السابقةووريثتها٠ وان بعضالاعتبارات الفكرية الجديدة مرتبطة مع تطورها بسياقالاعتباراتالفكرية التالدة٠ وعلى الرغم من صيرورة المعرفة وتغيرها الدائم فلابد من أن تحتفظ بجملة واسعةمن مكاسبها السابقة وان كان تطور العلوم يحملعلى اعادة النظروتنقية الأفكار والمفاهيم والعمل على تنسيقها وتنظيمها والاتيانبالجديد الذي لايلبث أن يستدعي جديداً آخر ٠ ثم ان المعنى الكلي أو المفهوملا يخلق تام الصنع من لا شيء بل هو يخرج من الماضي ولكنه لا يلبث أن يتبدلبالاستعمال والتطبيق ٠ ان الجزء الذي لا يتجزأ أو الجوهر الفرد قد تغيرتدلالته واختلفت الاعتبارات فيه في غضون الزمان حتى تناقضت أحياناً ٠ وتنقيةالمفاهيم والأفكار مقترنة بالتقدم العلمي الحثيث وهي من أخص صفات المعرفةالعلمية وسمات الجدل العلمي الحديث ٠

الحـواشي :

١ ـ طبع الهند ص ٨ ـ ٩ قوله ويحكي قريبا منه عن افلاطون نائب الفاعل عن افلاطـون وقريبا نائب المفعول المطلـق .
٢ ـ ج ٢ ص ٢٠ ـ ٢١ .
٣ ـ ص ٢١ ـ ٢٢ .
٤ ـ ص ٢٣ ـ ٢٤ .
٥ ـ الكشكول ، تحقيق أحمد الزاوي ج ٢ ص ٦٠ .

٦ ـ المرجع نفسه ج ٢ ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ، وفي الكتاب برهان آخر على امتناع اللاتناهي يسهل الرجوع اليه في ج ٢ ص ٥١ ويذكر المؤلف برهانا ينسبه للسيد السمرقندي على امتناعه ج ٢ ص ١٩٧ ـ ١٩٨ . هذا وقد اصـدر معهد التـراث العلمي العربي بجامعة حلب كتابا جيداً هو «رياضيات بهاء الدين العاملي» بقلم الدكتور جلال شوقي يشمل قسمه الثاني مسائل الحساب والجبر والمساحة الواردة في كتاب الكشكول ولم يعرض المؤلف هذه البراهين الأربعة التي هي من الرياضيات أيضا .

٧ ـ قانون بروست او قانون النسب المحدودة هو أن العناصر البسيطة يتحد بعضها ببعض لتكوين جسم مركب بنسب كتلية محدودة ثابتة ، فالهيدروجين مثلا يتحد بالأكسجين لتكوين الماء بنسبة كتلية ثابتة هي ١ الى ٨ .

٨ ـ قانون دالتون او قانون النسب المضاعفة اذا اتحـد جسمان بسيطان احدهما بالآخر فكوّنا اجساماً مركبة متعددة وقايسنا بين كمية معينة واحدة من احد ذينك الجسمين وكميات الجسم الآخر الداخلة معها في التركيب كانت هـذه الكميات اضعافاً مضاعفة بسيطة لاحداها .

٩ ـ قانونا غيلوساك :
١ ـ بين حجوم الغازات المتحد بعضها ببعض لتكوين جسم معلوم نسبة بسيطة .
٢ ـ اذا اتحد عنصران غازيان وكوّنا جسماً غازاً فان بين حجم الغاز المتكون وحجمي العنصرين الغازيين اللذين كوّناه نسبة بسيطة .

١٠ـ كتبنا اسم الأسرة كما يلفظ بالتأكيد لمعرفتنا السابقة بالعالم نفسه ، ولا عبرة لبعض المعجمات الانكليزية والأمريكية والفرنسية التي تشير الى أن اللفظ هو دوبرولي (باللام) انظر أيضاً لاروس القرن العشرين .

★ ★ ★

بعض المراجع :

١ ـ أبو بكر محمد بن زكريا الرازي .
ـ رسائل فلسفية .

٢ ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .
ـ الحيوان .

٣ ـ القاضي أبو بكر محمد الباقلاني
ـ التمهيد في الـرد على الملحدة المعطلـة والرافضـة والخوارج والمعتزلة .

٤ ـ أبو الريحان محمد بن احمد البيروني
ـ تحقيق ما للهند من مقولة

٥ ـ أبو علي الحسين بن عبدالله بن علي بن سينا
ـ الشفـاء
ـ النجـاة
ـ الاشارات والتنبيهات
ـ اجوبة الشيخ الرئيس عن مسائل أبي الريحان البيروني

٦ ـ أبو عبدالله محمد بن احمد بن يوسف الخوارزمي
ـ مفاتيح العلوم

٧ ـ أبو البركات هبة الله البغدادي
ـ المعتبر في الحكمة

٨ ـ فخر الدين محمد بن عمر الرازي ٠
ـ المباحث المشرقية في علم الالهيات والطبيعيات

٩ ـ بهاء الدين العاملي
ـ الكشكـول

١٠ـ عبدالسلام بن ابراهيم اللقاني المالكي
ـ اتحاف المريد بجوهرة التوحيد

١١ـ محمد محيي الدين عبد الحميد
ـ النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد

١٢ـ عبدالنبي بن عبد الرسول الأحمد نكري
ـ جامع العلوم الملقب بدستور العلماء

١٣ـ محمد علي التهانوي
ـ كشاف اصطلاحات الفنون

١٤ـ س٠ بينيس
ـ مذهب الذرة عند المسلمين ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة

١٥ـ ارفين شرودنغر
ـ العلم والثقافة الانسانية (الفيزياء في زماننا)
ترجمة عبد الكريم اليافي

١٦ـ عبد الكريم اليافي
ـ الفيزياء الحديثة والفلسفة
ـ تقدم العلم

١٧ـ E. Bréher
— Histoire de la philosophie.

١٨ـ G. Bachelard :
— Les intuitions atomistiques.
— Essai sur la connaissance approchée.
— La philosophie du non.
— Le nouvel esprit scientifique.

١٩ـ L. de Broglie :
— Continu et discontinu en physique moderne.
— Physique et microphysique.
— Matière et Lumiére.

٢٠ـ A. Ducrocq :
— L'atome univers fantastique.

٢١ـ P. Rousseau :
— L'histoire de l'atome.

٢٢ـ Encyclopædia Universalis.

٢٣ـ — Encyclopædia of Religion and Ethics (atomic theory).

آطريلال

الدكتور مختار هاشم
دكتور في الطب

كلمة يستغربها جمهور القراء ، ذلك أنهم لم يسمعوا بها في حديث ولم يقرؤوا عنها في كتاب ، واذا بحثوا عنها في المعجمات القديمة لم يعثروا عليها ، أضف الى ذلك غرابة صيغتها فهي لا تطابق وزنا من أوزان العربية الفصحى حتى ولا العامية • فهذا القاموس المحيط يذكرها في غير مادتها فيقول في (غرب) : « رحل الغراب : ضرب من صر الابل لايقدر معه الفصيل أن يرضع أمه ، وحشيشة آطريلال ••» ثم يذكر بذرها المحلى بالعسل ويورد منافعه • وهذا ما دعا الشارح الزبيدي الى التعليق بما يلي :

وهذا الذي ذكره المؤلف مذكور في التذكرة وغيرها من كتب الطب مشهور عندهم وانما ذكرها لغرابتها ولما فيها من الخاصية العجيبة فأحب ألا يخلي كتابه من فائدة لأنه القاموس المحيط والله أعلم •

وقد أعفاني الزبيدي طيب الله ثراه من الاعتذار الى جمهور القراء عن ايراد هذه الكلمة التي من حقها أن تبقى قابعة في كتب المفردات ، فان هذه الكتب لا تحظى الا بالقليل من القراء ومرجع ذلك الى :

أن فئة الأدباء واللغويين الحراص على التراث العربي الأصيل يرونها خارجة عن نطاق الأدب واللغة ويكلون الاهتمام بها الى الأطباء والمهتمين بالعلوم•

أن فئة أرباب العلوم يرون البحث في الكتب الطبية القديمة مضيعة للوقت لأنه يرجع بهم القهقرى الى القرون الوسطى فيرمون عبئها على الأدباء والمؤرخين. لذلك ظل قسم كبير من كتب التراث منسياً لا يلقى ما يستحقه من عناية الا في المناسبات التي تفرض علينا اظهارها يكون لنا باعثاً على الفخر والاعتزاز. والا فما بال المثقفين منا يعزفون عن هذه الكتب وفيها من المتعة والفائدة ما لا يقل عما يجدونه منهما في كتب الأدب الصرف.

ويبدو لي أن هذا الموقف نابع من نظرتنا الى التراث من حيث انه يدل على الآثار التي خلفها لنا أجدادنا الغابرون لا أنه جزء من حياتنا قد مضى ، وان الماضي والحاضر متصلان ، وهما يتفاعلان ومن هذا التفاعل تكون ولادة المستقبل.

* * *

ولنأخذ الآن في تبين المقصود من هذه الكلمة ، وقد جرت العادة في مثل هذه الحالة اللجوء الى المستشرق الهولندي الشهير العلامة دوزي ونحن اذا بحثنا عن هذه الكلمة في معجمه « تكملة المعاجم العربية » وجدنا ما يلي :

أ اطريلال
— Cerfeuil (plante potagère).
— Corne - de - cerf (plante sauvage et cultiuée)

وهو ينقل المعنى الأول عن ابن البيطار ويتبع ذلك بذكر رقم الجزء والصفحة والمادة من كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، وينقل المعنى الثاني عن معجم بقطر . وانني أضرب صفحاً عن المعنى الثاني لأنه بعيد عن المطلوب وأكتفي بالمعنى الأول . انه يقول ان Cerfeuil هو أ اطريلال . والكلمة الفرنسية تدل على بقلة معروفة يأكلها الفرنسيون في السَلَطة ، كما يؤكل البقدونس في بلادنا وهي تشبهه الى حد كبير ، لذلك ترجمت في المعاجم الفرنسية العربية الحديثة بالمقدونس الافرنجي . يقال لها بلسان العلم .Anthriscus cerefolium L وهذا النبات ينتسب الى الفصيلة الخيمية ، شأنه شأن اطريلال ، ولكنهما نباتان مختلفان ،وان اشتركا في الانتساب الى فصيلة واحدة .

ولا يفوتني أن أذكر هنا أن الاعتمادعلى معجم دوزي في فهم الكلمات العربية يبقى بالضرورة محدوداً لأنه لم يؤلـفمن أجل العرب ، لا أقول ذلك لأنه يفسر الكلمات العربيـة بالفرنسية بل لأنـه يحيل الى مصـادر بعيـدة عن متنـاول القرّاء العرب • مثال ذلك أنه عندمـا يحيلك الى مفردات ابن البيطار لا يذكر رقم الجزء والصفحة والمادة كما جـاءتفي طبعة بولاق التي صدرت عام ١٨٧٤ م بل الى ترجمة Sontheimer لمفـــردات ابن البيطـار التي صـدرت في Stuttgart عام ١٨٤٠ ويقول بهذا الصدد :

ان طبعـة بولاق مليئة بالأخطـاء ،وان هذا الكتاب (أي م• ابن البيطار) لا يمكن نشره في بلاد الشرق لأنه مشحون بكلمات يونانية واسبانية وأبناء الشرق يجهلون هاتين اللغتين • هذا والكتـاب بجملته مطبوع بغاية الاهمال •

هذا حكم صدر قبل مئة عام ونيّفولا يمكنني الطعن في صحته باعتبار ذلك الوقت • أما في الوقت الحاضر فقد تغيرالوضع وأصبح بالامكان الاعتماد علـى أنفسنافي احياء ثقافتنا القومية الأصيلة•وانني أتسـاءل ماذا يحول دون تأليـف معجم جـديد يستدرك ما فات المعجمـات العربية الأصلية ، وبذلك يفتح البـاب على مصراعيه أمام فهم كتب التراث بدلامن الاعتماد على مراجع ثانوية تجاوزها الزمـن •

★ ★ ★

ولنحاول الآن الالمام بتاريخ اطريلال من خلال تتبعـه في بعض الكتب الطبيـة القديمـة :

١ ــ كتاب القانون لابن سينا
لا نجد فيه ذكراً لهذا الدواء •

٢ ــ كتاب الصيدنة للبيروني •
لا يأتي على ذكره أيضاً •

٣ ــ الجامع لمفردات الأدوية والأغذيـةلعبـد الله بـن أحمـد المالقي المعـروف بابن البيطار : (آ اطريلال) اسم بربري وتأويله رجل الطائر • وهـذا النبت يعرف بالديار المصرية برجل الغراب وبعضهم يعرفـه بجزر الشيطان

أيضاً • وهو نبات يشبه الشبْث فيساقه وجُمّته[1] ، غير أن جمة الشبث زهرها أصفر ، وهذا النبات زهرهأبيض • ويعقد حباً على هيئة ما صغر من من حب المقدونس أو كبزر النباتالذي يعرف بمصر بالخِلَّة، غير أنه أطول منه بقليل وأصغر جرماً ، وفيه حرارة وحرافة ويسير مرارة ، وهو عند ذوقه يحذي اللسان • وهو حار يابس في آخر الثانية، وبزره هوالمستعمل منه خاصة في المداواة ، ينفع من البهق والوضح نفعاً بيّنا ، شرباً ، وأول ما ظهرت منفعة هذا الدواءواشتهرت بالمغرب الأوسط من قبيلة من البربر تعرف ببني أبي شُعيب من بنيوجهان من أعمال بجاية ، وكان الناس يقصدونهم لمداواة هذا المرض ،وكانوا يضنون بها ويخفونها عن الناس ولا يعلّمون بها الا خلفاً عن سلف، الى أن أظهر الله على بعض الناس فعرفها وعرّفها لغيره ، فانتشرذكرها وعرف بين الناس عِظم نفعها •

٤ ـ كتاب الشامل في الصناعة الطبية لابن النفيس • (الجزء الثاني من الفن الثالث) خصص مقالة لـ (اطريلال) جاء فيها ما يلي :

ان هذا الدواء ، لأجل تفتيحه وجلائه ، ينبغي أن يكون من أدوية اليرقان ، ولم نجد للأولين كلاماً في هذا الدواء، وانما تكلم فيه المتأخرون ، ولم يعرف بالبلاد المشرقية الا في زماننا ، وهو الآنلم يعرف في البلاد البعيدة عن بلاد مصر بعداً كثيراً • وأول تعرّفه انما كانلأجل نفعه من البرص وذلك لأن طائفة من البربر كانوا يشفون به البرصويخفونه عن الناس ، ولا يعرفه غيرهم ثم عرف بعد ذلك واشتهر •

وجاء فيها :

ينبغي أن يكون مفتتاً للحصاة ، لأنهمع مرارته وحرافته وحدته ، ملطّف مقطّع نفّاذ ، فلذلك ينبغي أن يكون منالأدوية الحصوية •

★ ★ ★

١ ـ الجمة لغة : مجتمع شعر الرأس، واصطلاحاً مجتمع الزهرفي اعلى الغصن فيطلق على الخيمة في فصيلة الخيميات وعلى الرؤيس في الفصيلة المركبة •

يُفهم من النصوص السابقة أن أول من عرف نفع هذا النبات من البرص هم البربر ثم انتشرت معرفته في البلادالمشرقية ومنها مصر وسورية في القرن السابع للهجرة ، وقد أخذ الأطباء العرب يدرسون تأثيراته الدوائية الأخرى فلاحظوا نفعه في اليرقان والحصيات ،ولعل ذلك تابع" لخاصة المادة للتشنج •

أما لفظ آ اطريلال فهو من لسان البربر ، وتبدأ الكلمة بلفظ آ وهو يدل على أداة التعريف عندهم (أعني تعريف المذكر) ووجود آ في أول الكلمة جعلها في أول حرف الألف ولولاها لتأخرت اطريلال وجاءت بعد الأثل مثلا • الا أن المؤلفين كثيراً ما يحذفونها وتبقى أطريلال مجرّدة عن آ المذكورة •

أما ماهية هذا النبات فقد ظلت موضوع اختلاف ، وقد ذكرنا أن دوزي فسرها بـ Cerfeuil وليس غريباً أن يخطىء في هذا التفسير ولكن الغريب أن يجاريه في خطئه كثيرمن أصحاب المعجمات وفيهم فطاحل اللغويين •

ولعله استمد تفسيره للكلمة من قول ابن البيطار :

(ويعقد حبّاً على هيئة ما صغر من حب المقدونس) •

ولكن آخرين اعتمدوا على التشبيه الثاني اذ يقول :

(أو كبزر النبات الذي يعرف بمصر بالخِلّة) •

وقد أصابوا في تفسيرهم كما نرى فيما بعد •

والخِلّة عشب حولي مشهور في العطارة منذ القدم أنه مدرّ للبول ونافع للحصيات البولية ، وهو دواء شعبي اعتاد الناس شرب مغلي بزوره ويسمى بلغة العلم : .Ammi visnaga L.

ويوجد نوع آخر من الخِلة وهو عشب حولي يشبه الخلة العادية غير أنه أكثر ارتفاعاً وأوراقه أكبر وخيمته لا تنكمش عند يُبسها كما في النوع الأول• وهذا الذي ينطبق عليه وصف ابن البيطار لاطريلال •

ويدعى هذا النوع بالعربية (خلة شيطانية) وبلسان العلم : .Ammi majus L.

★ ★ ★

وفي المرحلة التي تلت الحرب العالمية الثانية، أجريت في القطر العربي المصري بحوث واسعة وتجارب دقيقة على نوعي الخلة فتبين :

ان النوع الأول له تأثير مضاد للتشنج وينفع في الاصابة بالحصى والمغص الكلوي وفيه عدة عناصر فعالة منها مادة مبلّرة سميت خلّين وقد اقتبست المعامل الأوربية هذا الاكتشاف ودعت المادة Khelline هذا وقد أصدر معمل ممفيس المصري عدة مستحضرات للمغص الكلوي والحصى الكلوية وخناق الصدر ، وهي معروفة لدى الأطباء (لينامين ، غلوكو لينامين ، اميكاردين) ٠

وان النوع الثاني ذو تأثير فعال في داء البهق وداء الثعلب بأشكاله المختلفة وقد ظهر في السوق الدوائية مستحضر ميلادينين Meladinine وهو مؤلف بنسبة معينة من عنصرين فعالين موجودين في الخلة الشيطانية ٠

* * *

في السنوات الأخيرة ، أخذ اطريلال يحتل مكانه بين الأدوية المضادة للسرطان واليك نبذة مما قرأته[٢] أخيراً للمهندس الزراعي محمد حراز مدير محلات عبدالرحمن حراز المشتهرة بتجهيز النباتات الطبية وتصديرها اذ يقول :

زار محلاتنا السنة الماضية الدكتور فتسباترك أستاذ الأمراض الجلدية بمستشفى بوسطون العام بأميركا وذلك لدراسة امكانية الحصول على كميات من بزور الخلة الشيطانية المعروفة بأمي ماجس حيث انه اكتشف أن المادة الفعالة بها تشفي سرطان الجلد ٠ وقد كانت تعرف هذه البذور باسم اطريلال في الطب القديم وكانت تستعمل في علاج البرص والأمراض الجلدية ٠

وهكذا فقد صح ما قاله الزبيدي في شرحه للقاموس المحيط : وانما ذكرها لغرابتها ولما فيها من الخاصية العجيبة ٠

٢٠/٢/٨٢ **الدكتور مختار هاشم**

٢ ـ كتاب العطارة والعطارين في الشرق الأوسط ـ واتاروميكي وزملاؤه ٠

تدرّج المعاني

صلاح الدين الزعبلاوي

من النقاد من يتعلق بظاهر النص المدرج في المعاجم ، على اختصار وجمود ، وعلى قصد واجمال ، وفي غير بسط أو احاطة أو استيعاب . والكشف عن دلالات الكلم مرهون بتبين أصول اشتقاقها واجتلاء مدارجها في المجاز والنقل ، وتعرّف مساريها في أداء أغراضها والتعبير عن قصودها ، واستشفاف قرائنها في متباين مواقعها في الاستعمال والتركيب .

فمن الخطأ أن يظن ظان أن معاجم اللغة وما اليها من أسفار النحو وحواشيها ، وكتب الصرف وشروحها ، هي عدة اللغوي وحدها ، وأن نقولها معوّل تحقيقه وغاية بحثه وحكمه دون سواها . والصحيح أن مراجع اللغوي ، الى ذلك ، كتب التفسير والأدب ودواوين الشعر وصحف الرسائل والرقاع ، ومصنفات القوم في التاريخ والأخبار والأسفار ، بل مؤلفاتهم في مختلف العلوم والصناعات ووضائعهم في الحكم والأمثال .

وقد دأب الأئمة الأوائل في كثير مما دونوه وألّفوه على البحث عن أصل اللفظ ، لما تواضعوا عليه من أنه لا بد للكلم في كل مادة أن يشتق بعضها من بعض فترد الى جنس من المعنى يعد أصلا لما يشتق منها جميعاً . بل تابع بعضهم البحث في تدرج معناه وفي تقلبه وتنقله وتجدد دلالاته في مراحل حياته ، ولكنهم لم يستوفوه فيتخذوه منهجاً وسنناً .

وقد عني علم اللغة الحديث بهذا منذ القرن الماضي وأسمى العلماء أصول البحث فيه : علم معاني الأسماء Science de Sémantique واللفظ مستعار من اليونانية Sêmantikos أي المعنى . ولعل أول رسالة ألّفت في ذلك رسالة العالم اللغوي الفرنسي (ميكال بريال : Michel Bréal عام ١٨٩٧ ، وعنوانها Essai de Sémantique و (بريال) هذا من العلماء المحققين في علم اللغة التاريخي ، وقد توفي ١٩١٥ م(١) .

يقول العالم الانكليزي (سكيت ولتروليم) المتوفى عام ١٩١٤ : (يُنصح المؤلف بتحقق طبيعة استعمال اللفظ في أول نشأته . ويُعين في هذا التحقق ملاحظة النصوص المنقولة التي جرى اللفظ في أثنائها منذ نشأته الأولى)(٢) . ويقول الأستاذ عبدالرحمن الحاج صالح في مقاله الطريف (مدخل الى علم اللسان الحديث)(٣) : (اللسان لا يحدد مضمونه المادي والصوري الا على أساس المواقع التي تقع فيها وتتعاقب عليها عناصره ، اما في درج الكلام فيما يخص الوحدات الدالة ، واما في مدارج الجهاز الصوتي فيما يخص العناصر غير الدالة(٤) ، وذلك مثل مدلولات الألفاظ فانها لا تحدد الا بسياقاتها ، لا بما تذكره المعاجم من معانيها ، لأن المعاجم تكتفي غالباً بذكر بعض المعاني بالاعتماد على بعض السياقات . وانما يكون المعجم هو الأساس في تحديدها اذا لم يرد اللفظ في أي نص الا في الذي يذكره هو وحده)ويردف (فبتلك المواقع التي يشاهدها اللغوي في الكلام المسموع يستطيع أن يعرف ، بالموضوعية المطلقة، أنواع الأداء وتشعبات المعاني الجزئية . ثم بالنظر في كيفية تقابلها بعضها ببعض ، وتعاقبها على الموضع الواحد ، ودخول هذه على تلك، يستطيع أيضاً أن يكشف عن وضعها ونظامها..) فعلى الناقد اذاً ألا يتلمس معاني الكلم في نصوص معاجمنا وما يتصل بها وحسب ، بل عليه أن يبتغيها في معالمها الأخرى ، ويتطلبها من مآتيها المتعددة . ويؤديه هذا الى البحث عن أوجه تصرف الكلم في متنوع النصوص المحكية ، وصور دلالاتها في سائر الموضوعات المطروحة ، كما يقتاده الى التماس وجوه التقلب التي تلحق بها وصور تجدد أغراضها ومراميها ، وانحرافها عن أصولها وتشعبها عن جذورها وذلك بتبدل الموضوعات والبيئات وتغير الأفكار والأحكام واختلاف العصور والأزمان .

والأصل في اللفظ أن تتباين شعاب معانيه فيكون له من تدرجه وتقلب دلالاته مجال بسيط ومذهب فسيح ٠

* * *

هذا والسبيل الى تدرج المعاني هو المجاز والنقل ٠ والذي نريده ها هنا بالمجاز معناه اللغوي الشامل الذي أخذ به المبرّد في كامله (٢/ ٣٠١) وابن جنّي في خصائصه (٢/ ٤٤٦) وابن رشيق في عمدته ٠ وهو طريق القول ومأخذه على حد تعبير ابن رشيق ، أي كل ما جازت به الأصل لمناسبة في التركيب والاستعمال فاحتاج في اعادته اليه ، الى تأويل باظهار مواضع الحذف أو الزيادة أو التقديم أو التأخير أو غير ذلك ٠ فهو لا يقتصر على استعارة أو مجاز كما فعل أصحاب البيان ٠ فقد ذهب هؤلاء الى أن المجاز هو انتقال اللفظ من المعنى الذي وضع له الى المعنى الذي انتهى اليه بمناسبة أو علاقة تبنى على مجرد التشبيه كالاستعارة أو غير التشبيه كسببية أو مجاورة كما هو المجاز المرسل أو تشبيه تمثيل كما هو المجاز المركب ٠ ولم يتعدوا به هذا الحد الى ما يتناوله علم البيان وهو يشمل التشبيه والمجاز والكناية جميعاً ، أو ينطوي عليه البديع من وجوه تحسين الكلام ٠

قال المبرّد : (من الآيات التي ربما يغلط في مجازها النحويون قوله تعالى : فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، والشهر لا يغيب عنه أحد، ومجاز الآية : فمن كان منكم شاهد بلده في الشهر فليصمه ٠ والتقدير فمن كان شاهداً في شهر رمضان فليصمه ٠ ونصب الشهر للظرف لا نصب المفعول) ٠ كما حكاه الثعالبي في فقه اللغة (٥٤٦) ٠ وأوضح المبرد كلامه فقال (أي أن نصب الشهر نصب الظروف لا نصب المفعول به) ٠

وقال ابن جني : (أبواب الحذف والزيادات والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف كلها من المجاز) ٠

ومهما يكن من أمر فانه اذا أريد باللفظ ما وضع له أصلا ، في التقدير ، فانه الحقيقة ، واذا جازوا به موضعه الأول هذا في اللغة فأوقعوه موقعاً آخر بسبب يصل ما انتقل منه بما انتقل اليه ، فانه المجاز ٠ فلا بد أن يكون ثمة سبب يصل المجاز بالحقيقة ٠ وقد جاء في المزهر (١/ ٢١١): (المجاز كل كلام تجوز به عن موضوعه

الأصلي الى غير موضوعه الأصلي لنوع مقارنة بينهما في الذات أو المعنى) ٠ وقال الشريف الجرجاني في تعريفاته :(المجاز ما تعدى محله الموضوع له الى غيره بمناسبة بينهما ، اما من حيث الصورة أو من حيث المعنى اللازم المشهور ، أو من حيث القرب أو المجاورة) ٠ ومن ثم كان لا بد لكل مجاز من حقيقة ٠ قال صاحب الكليات (٥٠) :(الأصل أن يكون لكل مجاز حقيقة) ٠

هذا وليس يبعد أن يعتد المجاز بكثرة استعماله أصلا فيتفرع عليه مجاز آخر ، لكنه لا يخرج عن كونه مجازاً ٠ ولا بد هنا من وضوح العلاقة بينه وبين الأصل الأول على كل حال ٠ قال الزمخشري في الأساس : (ومن مجاز المجاز تداعت ابل بني فلان هُزلت أو هلكت)، وأصله الأول (تداعى القوم لهم) اذا دعا بعضهم بعضاً فاجتمعوا لأمر مهم ٠ وقد بُني على هذا قولهم (تداعت الحيطان للخراب) كأن بعضها دعا بعضاً للسقوط والانهيار ٠ ثم تفرع على هذا قولهم (تداعت عليه الحيطان) اذا تهدمت و (تداعى البنيان) اذا تصدع ، وتداعت الابل اذا هزلت أو هلكت ٠ فليس ينكر، على هذا ، أن يتفرع مجاز على مجاز ، بتعاقب الحقب والأجيال ، وأن يختلف القول بالأصلية والفرعية بتباين وجهات النظر والاعتبار ٠

* * *

هذا ويكون تدرج المعنى بالنقل ،وذلك بأن يغلب على لفظ معناه المجازي حتى يشتهر به ويُعرف بلا قرينة ٠ وهوما أسماه أصحاب البيان المجاز الراجح ، فيدعى كسب اللفظ معناه الجديد هذا نقلا ٠ ومن ذلك غلبة الألفاظ الاسلامية كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها ، على ما قُصد بها شرعاً ، ومنه شهرة ألفاظ بمعانيها المستحدثة في موضوعات وعلوم وصناعات شتى ، كمصطلحات النحو والصرف والوضع والمعاني والبديع والبيان والعروض والحكمة والعقائد والأصول ، ومصطلح الحديث والتفسير ، وسواها من مواضعات الطبيعة والفلك والعلوم الرياضية ٠٠ قال الشيخ طاهر الجزائري الدمشقي في كتابه (توجيه النظر الى أصول الأثر) :(الاصطلاح اتفاق القوم على استعمال لفظ في معنى غير المعنى الذي وضع له في أصل اللغة ٠ وذلك كلفظ الواجب فانه في أصل اللغة بمعنى الثابت واللازم ٠ وقد اصطلح الفقهاء على وضعه لما

يثاب على فعله ويعاقب على تركه ٠٠)، ثم قال : (واللفظ اذا استعمل في المعنى الذي وضعه له المصطلحون يكون حقيقة بالنسبة اليهم ومجازاً بالنسبة الى غيرهم٠ قال في المفتاح : الحقيقة هي الكلمة المستعملة في معناها بالتحقيق ٠ والحقيقة تنقسم عند العلماء الى لغوية وشرعية وعرفية ٠٠٠ فقلت لغوية ان كان صاحب وضعها واضع اللغة ، وقلت شرعية ان كان صاحب وضعها الشارع ، ومتى لم يتعين قلت عرفية ٠ وهذا المأخذ يعرفك أن انقسام الحقيقة الى أكثر مما هي منقسمة اليه، غير ممتنع في نفس الأمر)٠

ويدخل في النقل ما وضع لمعنى خاص فاستعمل عاماً ٠ وقد مثل صاحب المزهر لهذا بـ (النجعة) فأصلها طلب الغيث ، ثم صار كل طلب انتجاعاً ٠ و (المنيحة) وأصلها الناقة أو الشاة تعطى الرجل ليشرب لبنها ثم أصبحت كل عطية منيحة ٠ ونقل المزهر (١/٢٥٣) قول ابن فارس في فقه اللغة (كان الأصمعي يقول أصل الورد اتيان الماء ، ثم صار اتيان كل شيء ورداً) ٠ ونظيره (الصَدَر) فان أصله الانصراف عن الماء ثم أصبح كل انصراف صدراً ٠ قال صاحب المفردات (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ــ الآية ــ والصدر في الحقيقة صدر عن الماء) ٠ وقال الجوهري في الصحاح (وطريق صادر أي يصدر بأهله عن الماء) ثم قال (والصَدَر بالتحريك الاسم من قولك صدرت عن الماء وعن البلاد) ، وأردف (وفي المثل تركته على مثل ليلة الصدر ، يعني حين يصدر الناس من حجهم) ٠ فأورده خاصاً ثم عممه ٠

و (المجلة) وضعت لمعنى خاص فقيل انها الصحيفة التي تكون فيها الحِكَم ، كما قال الجرجاني في تعريفاته ، لكنها استعملت لكل كتاب ٠ ففي الصحاح (والمجلة الصحيفة فيها الحكمة ٠ قال أبو عبيد : كل كتاب عند العرب مجلة)٠

ومما اجتهد فيه أحمد فارس الشدياق في كتابه سر الليال في القلب والابدال (٥٥١) قوله : (ألا ترى لفظة الدارمثلا في الأصل من داريدور ، فحقيقة معناها الأصلي ربع مستدير ، ثم أطلق على كلّ شكل من البناء)، وقوله (بل الأمر نفسه من هذا القبيل لأنه في الأصل ما يؤمر به ثم عمم ، وكذلك الشيء فانه في الأصل مصدر شاء) ٠

ومن النقل أن يوضع اللفظ لمعنى عام ثم يخصص · وقد عرّفوا التخصيص فقالوا انه قصر العام على بعض ما يتناوله ، كلفظ (الدابة) · قال الجوهري في الصحاح (دبّ على الأرض يدبّ دبيباً ، وكل ماشٍ على الأرض دابة ··) فجاء بمعنى الدابة عاماً ، ثم قال (والدابة التي تُركب) فخصص · وقال صاحب المصباح : (وكل حيوان في الأرض دابة··· وهو قوله تعالى : والله خلق كلّ دابة من ماء · قالوا أي خلق الله كل حيوان مميزاً كان أو غير مميز) ثم قال : (وأما تخصيص الفرس والبغل ، عند الاطلاق ، فعرف طارىء) ·

ومما نقل من العام الى الخاص الصفات الغالبة ، وهي التي أفردت عن موصوفها فخصّت بدلالة وغلبت عليها الاسمية · ف (نكباء) في قولك (ريح نكباء) صفة لها عموم الدلالة لأنها جارية على الفعل فهي تصف (ريحاً) بأنها تتنكب · وهي لا تختص في الأصل بالريح · أما (النكباء) في قول المرزوقي في شرح الحماسة (٨٠٦) : (والنكباء ريح تنكبت عن الرياح الأربع) فانها صفة غالبة أُفردت عن موصوفها وخُصت بنوع من الرياح ، فأنزلت لذلك منزلة الأسماء وجمعت جمعها على (نكباوات) · قال المرزوقي (واذا كثرت النكباوات واشتد هبوبها شمل القحط) ·

و (الخضراء) في الأصل صفة للبقلة ، لكنها استغنت عن موصوفها فخصصت دلالتها فقيل (ليس في الخضراوات صدقة) أي في البقول ، فأنزلت منزلة أسماء الجنس · فالخضراء الصفة الغالبة تدل على البقلة دون النظر الى اللون ، وتجمع على الخضراوات لا على الخُضْر ·

و (الدكّاء) صفة (للأرض) اذا انبسطت ، ولكنها قُطعت عن موصوفها وخُصصت فعُدَّت اسماً للرابية ، وجمعت جمع الأسماء على (دكاوات) ·

و (الدنيا) في الأصل صفة (للحياة) أو (للدار) · ثم أفردت عن موصوفها فقيل (الدنيا) ، كما قيل (الأولى) ،وهما بمقابل (الآخرة) · قال تعالى (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ـ النساء/١٣٣) ، وقال (وللآخرة خير لك من الأولى ـ الضحى/٤) وقال (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا··يوسف/١٠٩). فالدنيا اشتقاقها من (الأدنى) وهو الأقرب · قال الشيخ أبو حاتم الرازي في

كتابه الطريف (الزينة في الكلمات الاسلامية العربية ٢/١٤٣) : (أي أن هذه الحياة الآخرة هي الحياة الأخرى ،وكل شيء له طرفان فالأدنى منهما اليك الدنيا والأبعد هو الآخرة) • وقال صاحب المفردات (ويعبر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية كما يعبر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى) ، وقال (وقد توصف الدار بالآخرة تارة ، ويضاف اليها تارة أخرى ••) • وقال الفراء في هذه الاضافة (هذا كثير في كلامهم أن يضيفوا الشيء الى نعته اذا اختلف فيه اللفظان كقوله : ولدار الآخرة ، وكقوله حق اليقين) •

وذكر (الرائد) فيما كان عاماً فخصص • قال ابن الأثير في النهاية (وفي حديث علي – رضي الله عنه – في صفة الصحابة، رضي الله عنهم : يدخلون رواداً ويخرجون أدلة ، أي يدخلون عليه طالبين العلم وملتمسين ما عنده ، ويخرجون أدلة للناس) • ثم قال : (وأصل الرائد الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث) • وقد اعتمد هذا الدكتور علي عبد الواحد وافي في كتاب علم اللغة (٢٢٩) فقال : (والرائد في الأصل طالب الكلأ ثم صار طالب كل حاجة رائداً) • وجرى على ذلك الأستاذ محمد المبارك عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، في كتابه (فقه اللغة) •

أقول ان هذا وان صح ، لا يمنع أن يكون لكل من (رائد الكلأ) و (رائد القوم) دلالة خاصة كما هو شأن الصفة الغالبة • ويتبين ذلك اذا رُدّا الى معنى الفعل في الأصل ف (راد) على ما جاء في مفردات الراغب (تردد بطلب الشيء برفق) • فالرائد الصفة اذاً المتردد لطلب الشيء برفق ، أما الرائد الصفة الغالبة التي أفردت عن موصوفها فان بها خصوصاً • فليس (رائد الكلأ) أو (رائد القوم) الطالب للشيء يبتغيه وحسب • وما أظن قول الدكتور عبد الواحد (ثم صار طالب كل حاجة رائداً) هو الوجه ، والا كان كل من احتاج فابتغى حاجته رائداً • بل ما اخال قول الأستاذ المبارك (ثم عمم لكل من يتقدم القوم بطلب شيء) قد أحاط بالدلالة المقصودة واستوفى ملامحها• ذلك أن الرائد هو متقدم قومه الصادق الأمين فيما يطلب لهم وينشد ، ومن ثم قيل (الرائد لا يكذب أهله) • وجاء في حديث علي (يدخلون روّاداً ويخرجون أدلة) وحديث عبد القيس (لكنا قوم رادة أي نرود الخير والدين لأهلنا) •وقد تفرع على هذا ما جاء في الحديث

(الحمى رائد الموت) • قال ابن الأثير (أي رسوله الذي يتقدمه كما يتقدم الرائد قومه) أقول بل هي رسوله الصادق الجاد في طلبه •

ومما يدخل في الصفات الغالبة : السائبة للناقة اذا تركت راغدة لا تُهاج ولا تمنع من ماء أو مرعى ، والراحلة للابل اذا صلحت للرحيل ، والسارية لكل ما دب بليل من الهوام ، وللسحابة تمطر ليلا ، والسابغة للدرع الواسعة، والصاعقة للنار تسقط من السماء ، والجارية للسفينة والأمَة • قال صاحب المصباح (والجارية السفينة سميت بذلك لجريها في البحر ، ومنه قيل للأمَة جارية على التشبيه لجريها مستسخرة في أشغال مواليها)• ولفظ (الدابة) الذي أتوا به مثالا متعارفاً لانتقال العام الى الخاص ، ليس الا صفة غالبة ، وكذلك (الماشية) على أنها من مشت المرأة اذا كثر أولادها • ففي الأساس : (وناقة ماشية : ولاّدة ، ومنه الماشية والمواشي على التفاؤل) •

* * *

هذا ولا بد أن نأتي بأمثلة نكشف بها عن وجه اشتقاق الكلم بعضه من بعض، وسبل تجدد معانيها وتدرّج دلالاتها بالمجاز وتحولها بالنقل من حال الى حال • وقد يسلُس الأمر ويستيسر فيبدو داني القطوف قريب النجعة ، وقد يصعب وينبو فيبدو شديد المطلب وعث المبتغى فيلجئك أن تتلطف له وتتأتى ، وتسلك اليه كل سبيل •

قالوا (لا أبالي) ومعناه لا أهتم ،فما هو أصل اشتقاقه ؟

قال جماعة المبالاة من البلاء بالفتح• والبلاء في الأصل الاختبار • قال المرزوقي في شرح الحماسة (٧١) : (فلان لا يبالي العواقب ، يقال ما باليته بالة وبالية ومبالاة وبلاء وما باليت به، وكأنه أخذ من البلاء) • ونحو من ذلك في اللسان والتاج • ففي الأول والبلاء الاختبار ، وفي الثاني أصل الابتلاء الاختبار •

وليس بعيداً عن هذا قولهم (المبالاة) من (البلاء) وهو الهم كما حكاه صاحب المصباح عن أبي زيد ، وأوردوا البلاء مصدراً لبالَى كما جاء في اللسان والتاج•

وعلل المرزوقي كيف انتهى (بالى)من معنى البلاء وهو الاختبار الى المفاخرة فكان الامتناع من مفاخرة القرن استهانة به واستخفافاً ، فقال (وقوله لا يبالي العواقب ‥ كأنه أخذ من البلاءواستعمل في المفاخرة وتعداد الخصال الحسنة عند المنافرة ، ثم كثر استعمالهحتى صار يقال في الاستهانة بالشيء) . واستشهد بقول الشاعر (مالي أراك قائماًتبالي) أي تفاخر . وقال في موضع آخر : (وقوله تبالى تفاعل من البلاءفاذا قال لا أباليه كأنه أراد لا أحتفل به فأعادّه بلائي وبلاءه وأفاخره ، هذاأصله) . أي أن تبادل الاختبار يقود الى المفاخرة والمنافرة ، فاذا أبيت أن تفاخرخصماً أو تنافره أو تكاثره فقد استخففت به .

وأحسب دون ما ذكرناه قول آخرين ان المبالاة من البال وهو الروع والخاطر، انتقل فيه حرف العلة بالقلب فكان وسطاًفأصبح طرفاً ، كما قال ابن فارس في مجمله والزمخشري في أساسه ، وقول جماعة ان أصله المبادرة الى الاستقاء فمعنى لا أبالي لا أبادر اهمالا له ، كمارتآه ابن فارس في مجمله ، وقد انتهى الى رده الى (البال) في مقاييسه ، وذكره الفيومي في مصباحه .

ولعل قولهم (لا أباليه) متعدياً ،انما يدل على أصله في التعدية لأنه مفاعلة من البلاء ، وهو الاختبار ، وقولهم (لا أبالي به) محمول على ما انتهى اليه من معنى ، وهو لا أحتفل به ولا أعتد .

* * *

وتقول في معنى ما أباليه وما أبالي به ، ما اكترث له . وقد جاء في اللغة كرّثه وأكرثه وكرّثه فاكترث . فمامعناه الأول ؟ أقول دلّ على ذلك الزمخشري فقال في الأساس : (كرّثه الأمر اذا حركه ، وأراك لا تكترث لذلك ولا تنوص : لا تتحرك له ولا تعبأ به ،وكرّثته الكوارث أقلقته) . فالكرث والاكراث والتكريث هو التحريك فيالأصل . وكذلك الاقلاق والازعاج فحقيقتهما التحريك . فاذا كرثك الشيءفقد جعلك تضطرب حقيقة أو مجازاً ، ومن ثم قيل كرثه : ساءه ، كما حكاهاللسان .

وتأسيساً على ذلك كان اكترث في الأصل كتحرك واضطرب ، وكاستاء واغتم واهتم في المجاز • وعندي أن قولك (ما اكترث له) متعدياً باللام بني على أصل معناه ، أي لا أتحرك له ولا أقلق من أجله • ولكن هل يقال (ما اكترث به) متعدياً بالباء ؟ أقول قد جاء ذلك نصاً ، وأرى أنه محمول على قولك لا أغتم به ولا أهتم ولا أُعنى ، وهو ما انتهى اليه معناه •

على أن من المعاجم ما خطّأ قول القائل (ما اكترث به) كالتاج ، فقد جعل صوابه (ما أكترث له) ونسب الخطأ في الأصل الى الصحاح • وأخذ بهذا الأستاذ محمد العدناني في معجم الأخطاء الشائعة • أقول لم يخطىء الجوهري حين قال (ما اكترث به) ، فقد قاله الراغب في مفرداته وقد عايش صاحب الصحاح • قال الراغب الأصبهاني (البال الحال التي يكترث بها ، ولذلك يقال ما باليت بكذا بالة ، أي ما اكترثت به) • وقد قاله صاحب النهاية في موضعين وحكاه عنه ابن منظور في غير مجال •

* * *

وقيل في نحو ما أكترث له (ما آبه له) • ففي المعاجم (أبِه) بالكسر كفرح ، و (أبَه) بالفتح كمنع ، وقد عدوا الأول باللام والباء فقالوا ما أبهت له وما أبهت به ، وعدوا الثاني باللام دون الباء فقالوا ما أبهت له ، كما حكاه ابن القوطية والجوهري وصاحب النهاية واللسان • فما أصل معناه ؟

يعتد ابن القوطية (أبه) مما جاء على فعَل وفعِل بمعنى واحد • ويجعل معناه (تنبّه) • فاذا استقر هذا فأبِه له بالكسر والفتح تنبه له • وكذلك ما جاء في الصحاح • ولما كان ما يتنبه له في الغالب هو الجليل ، فالذي لا يتنبه له ولا يؤبه هو التافه الحقير • ومن ثم قيل فلان لا يؤبه له أي لا يلتفت اليه لحقارته. وعلى ذلك ما جاء في النهاية • وقد عُدّي الفعل بالباء لما انتهى اليه معناه ، في السلب ، من الاستهانة •

ولكن لِمَ خصت التعدية بالباء هذه بأبِه المكسور العين في الماضي دون المفتوح؟ أقول قد يكون ذلك لأن الغالب في اللازم أن يكون ك (أبِه يأبَه) مثل نَبِه ينبَه

الذي هو بمعناه ، من باب فرح يفرح ،فهو الأصل • وقد اتّسعوا بتعديته بالباء كما اقتضاه الاستعمال لما آل اليه معناه من الاستهانة • أما (أبَه يأبَه) من باب منع يمنع فلم يتجاوزوا به تعديته الأولى باللام ، فليس هو الأصل ، لأنه لا يكثر في اللزوم • ولا يُقطع في هذا بيقين على كل حال • على أني رأيت الشدياق في (سر الليال) يسوي بين البابين في التعدية فيقول (وأبه له وبه كمنع وفرح أبْها وتحرك ، فطن أو نسيه ثم فطن له) فهل وقف فيه على نص ؟

★ ★ ★

ويستعمل (التنزه) لترويح النفس بالخروج الى المكان النزه • أما أصل معناه فكما قال صاحب النهاية (نزه نزاهة وتنزه تنزهاً اذا بَعُد) • وقد منعه ابن السكيت على ما حكاه المصباح وجعله فيما تضعه العامة في غير موضعه • وصححه ابن قتيبة فقال : (ذهب بعض أهل العلم في قول الناس خرجوا يتنزهون الى البساتين أنه غلط ، وهو عندي ليس بغلط • لأن البساتين في كل بلد انما تكون خارج البلد • فاذا أراد أحد أن يأتيها فقد أراد البعد عن المنازل والبيوت، ثم كثر هذا حتى استعملت النزهة في الخضر والجنان) • وأكد الزمخشري هذا فقال في الأساس (خرجوا يتنزهون يطلبون الأماكن النزهة ، وهي النزهة والنزه مثل غرفة وغرف) • كما أيده علي بن حمزة البصري اللغوي في التنبيهات (٢٩٨) رداً على ابن السكيت فقال : (فلما كانت الروضة اذا بعدت عن الناس كان أحسن •• وجب على المتنزه أن يقصدها ويعتمدها بنزهته • وهو لا يصل اليها حتى يبعد كل البعد عن الناس والمياه فقالوا لمن قصد ذلك تنزه فوافق قولهم الحق ووضعوه في موضعه ثم نقلوه الى من أراد مثل ذلك فيما هو على المياه وبقربها ••) •

★ ★ ★

ويقال (رُشّح فلان للرئاسة) اذا أُهّل لها • قال الجوهري في الصحاح (والترشيح أن ترشّح الأم ولدها باللبن القليل تجعله في فيه شيئاً بعد شيء الى أن يقوى على المص • وتقول فلان يرشّح للوزارة أي يربى ويؤهل لها) • وقال المرزوقي في شرح الحماسة (٧٣/١) : (والترشيح أصله التنبيت والتربية •

ومنه قيل رشحت المرأة ولدها اذا درّجته في اللبن . ثم قيل رشح فلان لكذا توسعاً). ولا يخفى أن تنبيت الشجر غرسه ، ومنه تنبيت الصبي تربيته . ونحو من ذلك في الأساس للزمخشري .

* * *

وقال صاحب المصباح في (تعالى) :(وتعالى تعالياً من الارتفاع أيضاً . وتعالَ فعل أمر من ذلك . وأصله أن الرجل العالي كان ينادي السافل فيقول: تعالَ ، ثم كثر في كلامهم حتى استعمل بمعنى هلمَّ مطلقاً ، سواء كان موضع المدعو أعلى أو أسفل أو مساوياً ، فهو في الأصل لمعنى خاص ثم استعمل في معنى عام) . وفي كتاب الفروق لاسماعيل حقي نحو من ذلك . وكذلك في شرح الحماسة للمرزوقي (٥٦) .

* * *

وهكذا (عثر) فأصل معنى العثور أن تزلّ القدم بشيء كحفرة فيسقط صاحبها ، ومثله (تعثر) . ومن ثم كان (العاثور) هو الحفرة ، ففي اللسان (.. ومن هذا يقال فلان وقع في عاثور شرٍّ اذا وقع في ورطة لم يحتسبها ولا شعر بها ، وأصله الرجل يمشي في ظلمة الليل فيتعثر بعاثور المسيل أو في خدخد سيل المطر ..) . وعلى هذا فأنت تقول عثر فلان بعاثور أي بحفرة ، على الأصل ، كما تقول عثر بعاثور شر أي مكيدة أو ورطة على المجاز .

وقد تدرج معنى العثور من الكبو والسقوط الى الخطأ في العمل والنطق ، تقول عثر فلان أو عثر لسانه اذا تعثر . قال الزمخشري (ومن المجاز عثر في كلامه وتعثر) .

وقد آل به التوسع فقيل عثر الحظ اذا خاب صاحبه ، وعثر جده اذا تعس ، وأعثره الله أتعسه ، وفي الأساس (وعثر الزمان به وجدّ عثور وأعثر به عند السلطان اذا قدح فيه وطلب توريطه وأن يقع في عاثور) .

بل قيل (عثر عليه) اذا اطلع . قال صاحب المقاييس (وقال بعض أهل العلم انما قيل عثر من الاطلاع وذلك لأن كل عاثر لا بد أن ينظر الى موضع عثرته) .

وعندي أن الفعل قد عُدّي بعلى بطريق التضمين • فكأن قولك عثرت عليه ، على تقدير عثرت به فاطلعت عليه • ثم شاع أمره • وفي العربية مالا يحصى من الأفعال تجاوزوا بها الأصل الى المجاز فعدّوهـا بحرف غير حرفها، ثم شاع استعمالها بهذا الحرف وكأنه الأصل • وقد عقدت لذلك فصلا في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (المجلد ٥٥ ، الجزء الأول، عام ١٩٨٠)• فأنت تقول مثلا (أنس به) • قال ابن القوطية (وأهلت بالشيء وأنست به)ونحـو من ذلـك في الصحاح وغـيره من المظان • لكنهم عدوا الفعـل بـ (الى) فقالوا (أنست اليه) كما قالوا (استأنست اليه) ، ذكره الزمخشري في أساسه • وكان من حقه أن يفرده فيسلكه في المجاز كما فعل في (سكن اليه واطمأن اليه وركـن اليه وانبسط اليه) لكنه لم يفعل، اذ قال: (وأنست به واستأنست به وأنست اليه واستأنست اليه) • ولعـل عذره هـو اشتهار تعديته بـ (الى) • وقل مثل ذلك في (استأنس لـه وتأنس) فلـم يلحقـه بالمجاز واكتفى بأن قال (واستأنس لـه وتأنس : تسمّع) وقد يكون تسمّح به أيضاً وكثيراً ما قرن المجاز بالحقيقة متى اشتهر وشاع • وعندي أن (أنس اليه) على تضمين الفعـل معنى (مـال) أو نحـوه •

* * *

وانظر الى تدرج معنى (تفقـد)، فقد جاء في معجم الأخطـاء الشائعـة للأستاذ محمد العدناني أن قول القائـل(تفقد مزرعته) خطـأ •• ، صوابـه (زارها ودرس أحوالها) لأن تفقد معناه(طلب الشيء عند الغيبة) • ثم استدرك فأدرك ما أتى به المعجم الوسيط (تفقد أحوال القوم ودقق النظر فيها ليعرفهـا حق المعرفة) ، وقال (وأنا أؤيده على أن يفوز بموافقـة المجمع) ! أقـول اذا كان أصل (التفقد) تطلب الشيء عند الفقد ، فقد تجاوز الفعل هذا المعنى الى تتبع الشيء وتعرّف أحواله ، ثم تعدى هذا الى متابعة النظر في كل ما يستقيـم به حال الشيء أو الشخص الذي تتفقده• فقد جاء في مفردات الراغب (التفقد التعهد ، ولكن حقيقة التفقد تعـرّف فقدان الشيء) ، وهذا يعني أن أصـل التفقد تعرّف الفقدان لكنه آل بالمجاز الى التعهد أو الى ما انتهى اليه التعهد • ففي المصباح (وتعهـدت الشيء ترددت اليه وأصلحته ، وحقيقته تجديد العهـد به ، وتعهدته حفظته) •

وقد جاء في نهج البلاغة (ثم تفقدمن أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهم ـ ٣/١٠٢) و (تفقد أمر الخراج بمايصلح أهله ـ ٣/١٠٦) ، وقول ابن قتيبة في أدب الكاتب (فان رأيتالكتاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم ··) ، وقول أبي حيان في البحر(١٠/٦٤) : في قوله تفقد الطير ـ أي قوله تعالى : وتفقّد الطير ـ النمل/٢٠ـ دلالة على تفقد الامام أحوال رعيته والمحافظة عليهم) ·

وهكذا صح (التفقد) في التعبيرعن الرعاية والتربية والعناية والبر · قال المرزوقي (لم أزل أجري في تربيتهوتفقده الى أن استكمل شبابه/٧٥٧) وقال (لحسن توفره وجميل تفقده لأصحابه/٩٢٣) ، وقال (واستصلاح الرعية وتفقد مصالحهم/١٠٩١) ·

بل نحوا بالتفقد فعنوا به الانعاموالافضال وكأنهم ضمنوه هذا المعنى · قال المرزوقي (بل قد وصّى بها وبأمثالهافيُتفقدن بأوفر الأنصباء عند قسمة الجذور/١٠٥٠) · وقال أبو حيان التوحيدي في (أخلاق الوزيرين/٣٣٦) : (فان كان قد كتب بخطه : يُتفقد فلانبكذا أو يسأل عن فلان لينظر في مصلحته) ·

فأين هذا كله من قول العدناني(التفقد طلب الشيء عند الغيبة) ولزومه هذا المعنى، وتعلقه بظاهر النصالمدرج في المعاجم على قصد واجمال ، بل سكونه اليه لا يبرحه ولا يتحول عنه·وقد استبان بهذا أن قول الكتاب (تفقد مزرعته) بمعنى تعهدها ورعاها وتوفرعليها ، صحيح مستقيم ، غني عن أن يجيزه مجمع لغوي أو يقر صحته · وقدقالوا قديماً (فلان يتعهد ضيعته) المغني ٢/١١٣ ·

فيتضح بما قدمنا وفصّلنا القولفيه أن لا وجه لجمود المعنى في اللفظ كما يبدو ذلك حيناً في كثير من المعاجم العربية، وأن اعتماد كثير من المحدثين على ظاهر النص والتعويل عليه في التخطئة والتصويب مخالف لأصول ارتقاء اللغة وسنن تحول معانيها وطرائق تعبيرها بتحولالعصور والأجيال · ولو كانت تؤلف في العربية معاجم حديثة على مثال ما يؤلففي اللغات الحية الأخرى ، دقة واحكاماً

واستقصاء لأنست بالتجدد والتدرج والتوالد في معاني الكلم ، ولمست بمعارضة النصوص المحكية بعضها ببعض ترجمة لحياة كل كلمة تظهرك على قصة حالها وتقفك على مسالك تحولها ودروب تنقلها والتدرج بها حالا بعد حال . وأنت لو لم تطف بمراحل التقلب جفا عليك وجه الاعتداد به البتة . يقول العالم النفسي السوفييتي ل.س. فيجوتسكي المتوفى عام ١٩٣٤ ، انه لا سبيل الى احتساب معنى الكلمة أمراً ثابتاً ، بل لا بد من تصوره في نمو مطرد وتحول مستمر دائب(٥) . والبحث في تاريخ معاني الكلم وأصول اشتقاقها موضوع شائق له في اللغات الحية الأخرى شأن أي شأن . وأحوج ما يكون اليه المشتغلون بتاريخ الأدب وفقه اللغات . وليست معالجة هذه المسألة في العربية وتدارك ما فات من أمرها بعدما كان من الاغفال ، على شيء من اليسر والسهولة . ولا ننسَ ما انتحاه المستشرق الأستاذ فيشر وقد أمضى أكثر عمره (بين سنة ١٩٠٧ و ١٩٥٠ م) في اعداد معجم تاريخي للغة الآداب العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، أي حتى منتهى ما وصلت اليه اللغة الفصحى من الكمال كما يقول ، فلم يخلّف بعد جهد جاهد ونصب ناصب وطول عناء ، غير جذاذات لهذا الذي بذل الطوق في اعداده . ولا بد أن تضطلع المجامع اللغوية باستتمامه واستفراغ الوسع في اصداره فلا تدخر دون ذلك سعياً . ولكن هل يمم أئمتنا قديماً مثل هذا السمت من البحث وحاولوا ارتياده والجري على منهاجه ؟ أقول لا شك أن كتاب (الزينة) قد استن بهذه السنة ونهج هذا السبيل فانه لوناً طريفاً من ألوان البحث اللغوي التاريخي . فقد وضع الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي المتوفى ٣٢٢ هـ كتاباً جامعاً في أوائل القرن الرابع الهجري كان أول مرجع يستفتى في الأسماء العربية التي نطق بها القرآن الكريم فكانت من مصطلحات الاسلام ، كما أشار اليه الدكتور حسين الهمداني في مقدمة الكتاب . وقد حاول مؤلف الكتاب أن يجمع بين ألفاظ عربية شتى تغيرت مدلولاتها ومعانيها في العصر الاسلامي عما كانت عليه في العصر الجاهلي ، ففات أقرانه في وضع اللبنة الأولى في علم معاني الأسماء العربية والمصطلحات الاسلامية وكان رائداً متأنقاً في هذا المضمار بل اماماً بارعاً في هذا الركن: Arabic Islamic Sémantics .

فانظر الى ما ذكره الرازي مثلا في (الاثم ٢٢٥) ، فقد أتى بأصل معناه

فقال (قال أبو سعيد سمي الاثم اثماً لأن الآثم يُبطىء عن طاعة ربه ، ويقال أثِمَ اذا أبطأ والآثم المبطىء • ويقال أثمت الناقة اذا أبطأت) • ثم تحول الى ما تدرج اليه معناه فقال : (فالاثم ضد الأجر يقال فلان مأثوم وفلان مأجور ، لأن المأجور يسعى في الطاعة •• وذلك الثواب هو أجر له بعمله • والآثم لم يعمل وأبطأ عن الطاعة فلا أجر له فهو آثم أي مبطىء عن الطاعة) • فحاول الربط بين الأصل والمجاز • ثم تابع البحث عن تدرج آخر فذكر أن الاثم ضد البر ، وأتى بالحديث (البر ما سكنت اليه القلوب واطمأنت اليه النفوس ، والاثم ما حك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه) وهكذا ••

وقد ذهب الأستاذ عبدالعزيز الميمني الى أن المفضّل بن سَلَمة المتوفى ٢٩١هـ قد ضرب على هذا القالب في كتابه (الفاخر) ، وكذلك فعل أبو بكر بن الأنباري المتوفى (٣٢٨ هـ) في كتابه (الزاهر) • أقول أما كتاب الفاخر فان مضامينه تدور كما ذكر مؤلفه في مقدمة الكتاب حول (معاني ما يجري على ألسن العامة في أمثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب وهم لا يدرون معنى ما يتكلمون به من ذلك) • وأردف المؤلف يقول (فبيناه من وجوه اختلاف العلماء في تفسيره ليكون مَنْ نظر في هذا الكلام عالماً بما يجري من لفظه ويدور في كلامه) • وقد عمد صاحب الفاخر في تحقيق ذلك الى حكاية ما روي من أحداث دفعت الى النطق بالأمثال مما كانت تطوع به ألسنة الناس في محاوراتهم ومخاطباتهم ، وذكر أول من نطق بها ، وبحث في اشتقاق ما جاء بها من ألفاظ وردها الى أصلها وفصّل القول في معانيها • وقد أفاد أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري في كتابه (الزاهر) من كتاب الفاخر هذا وبسط ما جاء فيه وكثّره بالشواهد كما قال مختصر الكتاب أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي • قال الزجاجي (وكان المفضل بن سلمة صاحب الفراء قد أنشأ كتاباً في هذا المعنى سماه ••• فعمد أبو بكر محمد بن القاسم لذلك الكتاب فنقله نقلا ••• وبسطه وكثّره بالشواهد) • ولا يزال كتاب (الزاهر) مخطوطاً لم يطبع •

هذا وليس كتاب الفاخر والزاهر ولو أفادا في اصابة الغرض الذي ابتغيناه ككتاب الزينة في تحقيق النهج اللغوي التاريخي والجري على أسلوبه •

يقول الدكتور داود حلمي السيد في كتابه (المعجم الانكليزي بين الماضي والحاضر) : (فليس بخاف أن معجميي العربية المحدثين تشدهم تجربة ضاربة في أعماق التاريخ وتقيد حركتهم تقاليد معجمية راسخة تجعلهم دائماً يتلفتون الى الوراء حين يقررون أي المناهج يتبعون كلما شرعوا في وضع معجم حديث للغة العربية ، أهو المنهج التقليدي برمته ، أم المنهج الغربي الحديث برمته • أم يأخذون من هذا وذاك ما يتفق مع طبيعة اللغة العربية)• وقال : (ولم أجد أمامي الا المعاجم العربية القديمة التي مضى على أحدثها أكثر من قرن ونصف من الزمان ، أو بعض المحاولات المعجمية الحديثة التي لا ترقى الى المستوى الذي يجب أن تكون عليه معاجم اللغة العربية في العالم المعاصر ، والتي سنعرض لها ••) • ثم عرّف المعجم الحديث فقال : (فالمعجم بالدرجة الأولى كتاب كلمات • فهو يحتوي بين غلافيه على مفردات اللغة مصحوبة بمعلومات عن اتيمولوجيتها ــ أي أصول اشتقاقها الأولى ــ ومعانيها ومدلولاتها واستعمالاتها) • أقول لا شك أن الطريقة النشوئية في القرن التاسع عشر قد أدت الى ازدهار المباحث اللغوية التاريخية ،والى وضع معاجم تكشف عن أصول الكلم وتدرج معانيها ، وتأكيد اعتقاد أن الظاهرة اللغوية ــ لا تتسم بسمة الوضوح أو الجلاء الذي يراد لها ما لم تدرج في سياقها التاريخي(٦) • وقد ألّف (سكيت ولتر وليم) العالم الانكليزي المتوفى عام ١٩١٢ معجمه الشهير الذي عول فيه على اللون التاريخي من التسجيل اللغوي ، فذكر أصول الكلم وألقى الضوء على هذه الأصول بالرجوع الى جملة من النصوص التاريخية التي عرضت بها هذه الكلم ليظهر القارىء على أصولها الصحيحة ودلالاتها الأولى، وتدرّج هذه الدلالات من عصر الى عصر،كما أشار اليه الدكتور السيد الخلوي ، وقد أومأنا اليه في موضع آخر •

ولكن اذا كان قد أدى اشتغال علماء اللغة الفرنسيين مثلا الى تأليف معاجم في تاريخ الكلم وأصولها وتسنى ذلك بالعودة الى الأصول التي تحدرت منها لغتهم يونانية كانت أو لاتينية أو غير هذه وتلك ، فليس كذلك حال العربية التي لا يصح ردها الى ما أسموه باللغة السامية الأولى التي تصوروا أنها أم اللغات السامية ، كما كانت اللاتينية مثلاً أمّاً للفرنسية والايطالية والاسبانية ،

اذ لم يقف البحث العلمي التاريخي على لغة من هذا القبيل ، وانما يعوّل على الأصول العربية وحدها • ولكن أليس يصح في العربية الاستعانة في تقرير أصول الكلم وتاريخها حيناً ، والكشف عن ظلال معانيها بالعودة الى بعض اللغات السامية ؟

يقول الدكتور داود الحلبي في كتابه (الآثار الآرامية في لغة الموصل العامية) المطبوع عام ١٩٣٥ : (ان تمييز الكلمات الآرامية من الكلمات العربية صعب جداً • وما سبب هذه الصعوبة الا كون اللغتين شقيقتين ، أي فرعين من اللغة السامية الأم • حتى ان نحو أربعة أخماس الكلمات الآرامية تشترك والعربية اما حرفاً أو باختلاف يسير في التلفظ أو تبديل بعض الحروف ••) • وقال : (على أني وجدت بعض كلمات مشتركة معانيها ، واضحة كل الوضوح في المعاجم الآرامية ، ولكنها في المعاجم العربية مضطربة لم يبت لغويو العرب فيها وذهب كل منهم فيها مذهباً • حتى ان بعضهم أتى في صدد ايضاح أصلها بتأويلات غريبة ••) • ثم قال (ولو كان للغويين العرب القدماء وقوف على الآرامية لما وقعوا في حيص بيص عند بيان معاني أمثال هذه الكلمات • اذ لا يشك في أن معرفة الآرامية وغيرها من اللغات السامية يكون واسطة لحل مشاكل لغوية كثيرة في العربية ، كما أن معرفة اللغة العربية تحل مشاكل أخواتها اللغات السامية) •

أقول ذلك ما بحثه الدكتور محمد حسني قنطر في مقاله حول العربية واللغات السامية (من دراسات الملتقى الرابع لابن منظور في قفصة ، في آب ١٩٧٦) • قال الدكتور قنطر :(انه من واجب الباحث عن كنه الكلمة العربية وعن تاريخها شكلا ومضموناً ،أي عن التطور الذي اعتراها من حيث هي ظرف ومظروف أن يتجه الى أخوات اللغة العربية ويستنطقها بالدرس والمقابلة والمقارنة عله يدرك الغاية ويجدحل المشكلة ويتمكن من الاجابة عن الأسئلة التي قد تثيرها الكلمة لديه) •وقال : (فاذا عُدت للعبرية مثلا لفهم كلمة عربية وتعرّف حالها تاريخاً واشتقاقاً ، فذلك لا يعني أن اللفظة العربية تولدت من لفظة عبرية ، بل حدثتك العبرية فعرّفتك بالعربية والعكس بالعكس) •

وقد أتى الدكتور قنطر بأمثلة فأخذ على معجم اللسان أنه لم يوضح مثلا معنى (لأك) الذي اشتق منه لفظ (الملَك والملائكة) فقال ولعل الباحث لا يوفق الى المعنى للمادة ، وهو معنى الرسالة • فلأك يعني أرسل ، والملَك بالفتح المرسل) • وأردف : (فالعودة الى اللغات السامية القديمة التي عرفت هذه المادة تيسّر ادراك الحقيقة اللغوية) •

أقول ان معجم اللسان قد أشار الى معنى المادة ، ولو أن التعويل على معجم عربي واحد في القطع بحرف ومعناه وأصل اشتقاقه ليس بالوجه • فقد جاء في اللسان (فالملك من الملائكة واحد وجمع • قال الكسائي أصله مألك بتقديم الهمزة من الألوك وهي الرسالة) وفي اللسان أيضاً (قال ابن بري ملأك مقلوب من مألك ، ومألك وزنه مفعل في الأصل من الألوك • قال وحقه أن يذكر في فصل ألك ، لا فصل ملك) • فابن بري وسواه قد جعلوا الأصل (ألك) ثم قلب فأصبح (لأك) ، فما الذي قالته المعاجم في (ألك) •• قال الجوهري (الألوك الرسالة •• وكذلك المألك والمألكة بضم الميم فيهما) • وقال ابن القوطية (وألك بين القوم ألْكا وألوكا ترسّل والألوك الرسالة منه ، والملائكة أيضاً) • وقال ابن دريد في الاشتقاق (ومنه قولهم ألكني الى فلان أي كن رسولي اليه) • بل في اللسان ألك بمعنى ترسل • أفليس في هذا ما يجزي لايضاح معنى الفعل واشتقاقه ؟ وقد تصرف العرب في (ألك) فقالوا (استألك) • فانظر ما جاء في الأساس (ألِكْني الى فلان واحمل اليه ألوكي ومألُكتي وهي الرسالة • قال : ألِكني اليها عمرك الله يا فتى : بآية ما جاءت الينا تهاديا • ومن يستألك لي اليه أي من يحمل رسالتي • وجاء فلان فاستألك ألوكته) • أفليس هذا واضحاً جلياً • ومن الطريف أن يكون قائل هذا البيت سحيماً وهو عبد بني الحسحاس ، وهو حبشي اشتراه أبو سعيد فشبب بابنته عميرة • وقد نسب لفظ (ألك) فيما نسب الى الحبشية •

هذا ولا يخفى أن في المظان اللغوية العربية أن (الملائكة) من (ألك بين القول) ، وأن أصل المادة عبري أو سرياني أو حبشي • وليس يعني هذا بالطبع أن ثمة تبعية لغوية بين سامية وأخرى • بل ليس في لغات الأسرة لغات أمهات وأخرى بنات كما يقول الأستاذ (فندريس) في كتابه (اللغة)[٧] • ولا يمنع هذا أن

يكون بين الألفاظ السامية المشتركة ماهوأعلق بلغة،منه بلغةأخرى· ولا يُقطع بهذا حتى يوقف على اشتقاق الكلمة · فقد تكون في لغة أظهر وأبرز منها في لغة أخرى أي أكثر تصرفاً· أو تكون واضحة الأصل في احداها فريدة غريبة يتيمة في سواها · أو تكون الكلمة في المعنى الشائع للزنة التي جاءت بها في لغة ولا تكون كذلك في غيرها وهكذا ··

وقد عُني الأب أنستاس ماري الكرملي برد بعض الألفاظ العربية الى السامية والاستعانة بالأصول السامية في استبانة معانيها وفك مُشكلها واظهار مكنونها على نحو ما فعل في مجلة الثقافة القاهرية ، وسواها ·

هذا ما وددت الكشف عنه والتمثيل له في سبل تدرج المعاني في الكلم العربية وما تشعب عن ذلك من وجوه الرأي ·وأرجو أن أكون قد وفقت الى ايضاح المنهاج وجلاء الغامض والافصاح عن المضمون فيما حاولت تحريره من المسائل في هذا القصد ·

دمشق ١٠/٢/١٩٨٢ صلاح الدين الزعبلاوي

★ ★ ★

الحواشي :

١ ـ الدكتور حسين الهمداني في (مقدمة كتاب الزينة للشيخ ابي حاتم الرازي) والدكتور بدر الدين القاسم في ترجمة (تاريخ علم اللغة لجورج مونين) ·

٢ ـ سكيت واتجاهاته في اللسانيات للدكتور شكري السيد الخلوي في (مجلة اللسانيات لمعهد العلوم اللسانية والصوتية بجامعة الجزائر) ، العدد الرابع ٧٣/١٩٧٤ ·

٣ ـ المصدر السابق ·

٤ ـ في علم اللغة الحديث تقسم البنية اللغوية الى وحدات لغوية دالة ، واخرى غير دالة · ويقصد بغير الدالة حروف المباني اي حروف الهجاء ، وهي اصغر صورة معتمدة ،ويدعونها بالفونام · ويقصد بالدالة اصغر وحدة لغوية ذات معنى كالأسماء والأفعال وحروف المعاني ويدعونها بالمورفام ، فالفونام اصغر وحدة للأصوات والمورفام اصغر وحدة للمعاني · وقد ميز العالم البولوني بودوان كورتناي المتوفى عام ١٩٢٩ ، بين مفهوم الصوت اللغوي وبين الفونام الذي

هو وحدة لغوية اساسية • ذلك ان الفونام لا يتضمن اصواتا لغوية وانما يتالف من صور صوتية هي وحدات نفسية لا مادية • ومن ثم فرّق كورتناي بين العلم الصوتي الفيزيائي ، وهو علم الصوت نفسه ، وعلم الصوت النفسي الذي سيغدو بارتقائه وتقدمه علم الأصوات الشفهية • ولكن ما حد الكلمة عند النحاة وحد المورفام في علم اللغة الحديث ؟ •

قال الامام جلال الدين السيوطي في الهمع : (وقد اختلفت عباراتهم في حد الكلمة اصطلاحا • واحسن حدودها : القول المفرد المستقل او المنوي معه ـ كالضمير المستكن وجوبا • فخرج بتصدير الحد بالقول غير ذلك من الدوال كالاشارة والخط •• وبالمفرد ، وهو ما يدل جزؤه على جزء معناه ، المركب كغلام زيد فهما كلمتان • وبالمستقل ابعاض الكلمات الدالة على معنى كحروف المضارعة وياء النسب وتاء التانيث والف ضارب ، فليست كلمات لعدم استقلالها) •

فتبين بهذا ان ما يدخل في حد المورفام من حروف المضارعة وياء النسب وتاء التانيث وغيرها مما سمي ابعاض الكلمة لايدخل في حد الكلمة ، على ما اختاره السيوطي ، لانه ليس مستقلا • على انه استدرك فقال (ومن اسقط هذا القيد ، قيد استقلال اللفظ ، راى ما جنح اليه الرضي ، من انها مع ما هي فيه كلمتان ••) • وهكذا اشبه حد المورفام في علم اللغة الحديث حد الكلمة عند الرضي ، وبدا هذا العلم مؤيدا لما جاء به بعض النحاة في ابراز البنية اللغوية • قال الرضي في شرح الكافية : (ان قيل ان في قولك مسلمان ومسلمون وبصري وجميع الأفعال المضارعة جزء لفظ كل واحد منها يدل على جزء معناه ، اذ الواو تدل على الجمعية والألف على التثنية ، والياء على النسبة ، وحروف المضارعة على معنى في المضارع ، وعلى حال الفاعل ايضا ، وكذا تاء التانيث في قائمة ، والتنوين ولام التعريف والف التانيث ، فيجب ان يكون لفظ كل واحد منها مركبا ، وكذا المعنى ، فلا يكون كلمة بل كلمتين ، فالجواب ان جميع ما ذكر كلمتان صارتا من شدة الامتزاج ككلمة واحدة ، فاعرب المركب اعراب الكلمة ••) •

وانت ترى ان الحكم في ذلك اعتباري • ولكن أليس فيما ذهب اليه الرضي من ابراز البنية اللغوية للفظ جلاء لشان هذه الدوال في تاليف هذه البنية وتحديد معناها ؟ والرضي مع ذلك لم يخرج في تصوره لحد الكلمة ورسم نطاقها عن حدود الأوائل في تعريف الكلمة والاقتياس بها • فاذا كانت هذه الدوال قد دلت على ما دلت عليه من المعاني ، فكيف تعتد من حروف المباني اي حروف الهجاء ، كما فعل الآخرون ، وحروف الهجاء لا تعني غير الأصوات لا تختلف الا باختلاف مقاطعها ؟ الم يقل سيبويه في فاتحة الكتاب (فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل) ، والدوال المذكورة حروف جاءت لمعان ، وليست هي باسماء ولا افعال ، فهي على هذا الحد ، كلم ، كما ذهب اليه الرضي وغيره •

٥ ـ التفكير واللغة لفيجوتسكي ترجمة الدكتور طلعة منصور المعرفة ١٧٨ لعام ٩٧٦ •

٦ ـ البنوية والعقلانية لأنطون شاهين ـ المعرفة ١٣٦ لعام ١٩٧١ •

٧ ـ ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلي والأستاذ محمد القصاص •

★ ★ ★

الخصائص البنيوية للفعل والاسم في العربية

الدكتور جعفر دك الباب

ذكرت في مقالة « اعجاز القرآن وترجمته »(١) أن البلاغة عند الامام الجرجاني لا ترتبط بالكلمة المفردة دون اعتبار موقعها في النظم ، وأن النظم عنده يتم وفق قوانين النحو • ويعني ذلك أنه لايجوز فصل النحو عن البلاغة • وقررت في ضوء ذلك أن عنوان كتاب الجرجاني (دلائل الاعجاز في علم المعاني) يفيد أن (دلائل الاعجاز تكون في معرفة ارتباط معنى الكلام بالموقف أو الحال الذي يقال فيه ، وبالسياق الكلامي الفعلي الذي يدخل فيه) • وأكدت أن فصل البلاغة عن النحو ينعكس سلبياً على فهم خصائص بنية العربية ، ويؤدي بالتالي الى القول بان القرآن الكريم معجز فقط في بعض مواضعه •

أنتقل الآن الى بيان خصائص بنية العربية • وأنطلق في دراسة البنية اللغوية من نظرية الامام الجرجاني اللغوية التي بلورتهافي كتابي « الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني »(٢) • تقضي نظرية الجرجاني اللغوية بتمييز مستويين في بنية الجملة :

١ ــ مستوى البنية النحوية (الساكنة) للجملة الذي يرتبط بالسياق الكلامي الفعلي الذي تدخل الجملة فيه • تتم دراسة هذا المستوى في علم النحو وتمكن من معرفة الارتباط النحوية بين الكلم •

٢ ــ مستوى البنية الاخبارية (المتغيرة) للجملة الذي يرتبط بالموقف أو الحال الذي يقال الكلام فيه • تتم دراسة هذا المستوى في علم المعاني (أحد علوم البلاغة)وتمكن من معرفة ارتباط معنى الكلام بالموقف الذي يقال فيه •

وسأقتصر في هذه المقالة على بيان خصائص بنية الفعل والاسم في العربية الناجمة عن اشتمال النظام اللغوي للعربية على طريقة اندماج (أو اتصال) الكلمات • وانطلاقاً من خصائص الفعل والاسم في العربية ، سأعمد ــ في مقالة تالية ــ الى عرض نظرة جديدة الى النحو العربي تبين كيف ترتبط البنية النحوية للجملة ببنيتها الاخبارية •

لدى مقارنة نظرية أقسام الكلم في علم اللغة العربية بنظرية أقسام الكلم في علم اللغة الأوربي (المتبعة مثلا في دراسة اللغتين الانكليزية والفرنسية) ، يتضح أن الكلمات يمكن أن تقسم الى مجموعتين كبيرتين :

١ ــ كلمات مستقلة بالفهم (Autosemantic words) ويقابلها في العربية الاسم والفعل•

٢ ــ كلمات غير مستقلة بالفهم (Syntactic words) ويقابلها في العربية الحرف •

ولكن النظام اللغوي للعربية يتميز بوجود طريقة اندماج أو اتصال الكلمات (Incorporation) التي تتجلى في الضمائر المتصلة • والاندماج هو اتصال الكلمات بعضها ببعض في لفظة واحدة توحدها • ويكون أمامنا بنتيجة الاندماج تركيب نحوي متحد في وحدة متصلة تبدو في الظاهر وكأنها كلمة واحدة ،كما في (ضرباه) و (كتابك) •

ترتبط وظيفة الضمائر بعملية الكلام التي تتم بين المتكلم والمخاطب • فهناك ضمائر خاصة بالمتكلم (الشخص الأول) ، وضمائر خاصة بالمخاطب (الشخص الثاني) ،وضمائر خاصة بغير المتكلم وغير المخاطب (الشخص الثالث الذي قد يكون شخصاً أو شيئاً ، وسميناه ضمير الشخص الثالث تجاوزاً) • ويرتبط بوجود طريقة اندماج الكلمات أن كلا من الفعل والاسم في العربية يتمتع بجملة خصائص بنيوية مميزة •

أولا ــ الخصائص البنيوية للفعل العربي •

يتميز الفعل في العربية بأنه يكون دائماً في صيغة شخصية معرفة (Finit form of the verb) أي في صيغة مسندة حتماً الى مسند اليه • وبذا

تكون **صيغة الفعل العربي غير مستقلة بالفهم عن الاسم الذي يجب أن تسند اليه** سواء أكان ضميراً (بارزا متصلا أو مستتراً) أم اسماً ظاهراً ٠

اذا لم يلحق (يتصل) بآخر صيغة الفعل العربي ضمير رفع متصل بارز (ضمير المسند اليه) ، فان السياق الكلامي يحدد هل يتصل أو لا يتصل بصيغة الفعل ضمير مستكن (مستتر) وجوباً أو جوازاً ٠ ويرتبط ذلك بنوع اسناد الفعل (الى المتكلم أو الخاطب أو غيرهما) من ناحية ، ومن ناحية أخرى بموقع صيغة الفعل في سياق الكلام (في بداية السياق أو ليس في بدايته) ٠ وتبعاً لذلك يمكننا أن نميز نوعين لاستخدام الفعل العربي :

١ ــ **استخدام مطلق للفعل** حين يكون مع صيغة الفعل ضمير رفع بارز أو مستتر ، مثلا (قرأت) و (نقرأ) ٠

٢ ــ **استخدام غير مطلق للفعل** حين لا يكون مع صيغة الفعل ضمير رفع بارز أو مستتر ، مثلا (قرأ ٠٠٠) في بداية سياق كلامي ٠

لجميع صيغ الفعل في العربية ــ باستثناء صيغة الشخص الثالث المفرد ــ استخدام مطلق ٠ أما صيغة الفعل للشخص الثالث المفرد ، فيمكن أن يكون لها استخدام مطلق أو غير مطلق تبعاً لسياق الكلام ٠

آ ــ **حين لا تكون صيغة الفعل في بداية السياق ، أي حين يكون قد ذكر قبلها اسم ظاهر ٠** يمكن في هذه الحالة تحديد المسند اليه من سياق الكلام السابق ٠ وتكون صيغة الفعل تلك مستخدمة استخداماً مطلقاً ٠

ب ــ **وحين تكون صيغة الفعل في بداية السياق ، أي حين لا يكون قد ذكر قبلها اسم ظاهر ٠** لا يمكن في هذه الحالة تحديد المسند اليه ٠ وتكون صيغة الفعل تلك مستخدمة استخداماً غير مطلق ، ويكون المسند اليه بالضرورة اسماً ظاهراً مرفوعاً يلي الفعل ٠

اذا حلّلنا المثال التالي : (فرح أخي وغنّى) نجد أن الفعل الأول (فرح) استخدم استخداماً غير مطلق ، لأنه جاء في بداية سياق كلامي ٠ لذا لا تشتمل صيغته على ضمير رفع يدل على الفاعل ، ، وفاعله هو الاسم الظاهر المرفوع الذي جاء بعده (أخي) ٠ ونجد أن الفعل الثاني (غنّى) استخدم استخداماً مطلقاً ، لأنه لم يأت في بداية السياق ٠ لذا بالامكان أن نحدد من سياق الكلام السابق أن الفاعل (هو) يعود على (أخي) ٠ وهذا هو السبب في أن صيغة الفعل (غنّى) تشتمل على ضمير رفع مستتر يدل على الفاعل ٠

وعليه فان **صيغة الفعل العربي المستخدمة استخداماً مطلقاً تشتمل على مسند ومسند اليه ، وتفيد بالتالي جملة ٠ أما صيغة الفعل العربي المستخدمة استخداماً غير مطلق فلا تفيد جملة ، لأنها لا تشتمل على مسند اليه ، وتستوجب بالضرورة ذكر اسم ظاهر مرفوع يلي الفعل ويكون مسنداً اليه** ، ويعتبر لذلك بمثابة جزء من الفعل الذي يسبقه ٠

وفي ضوء ذلك يجب أن نفهم تأكيدعلماءالعربية أن الفعل لا يستقل بالدلالة دونفاعله الذي يليه ويعتبر كالجزء منه ٠ عرّف الزمخشري الفاعل بأنه « هو ما كان المسند اليه من فعل أو شبهه مقدماً عليه أبدأكقولك(ضرب زيد) و (زيد ضارب غلامه وحسن وجهه) ، وحقه الرفع ورافعه ما أسند اليه ،والأصل أن يلي الفعل لأنه كالجزء منه »(٣)٠ وذكر ابن يعيش أن « ٠٠٠ خبر الفاعلالذيهو الفعل لم يتقدم لمجرد كونه خبراً اذ لو كان الأمر كذلك لوجب تقديم كلخبر من نحو(زيدقائم) و (عبدالله ذاهب) ٠ فلما لم يجبذلك في كل خبر علم أنه انما وجب تقديم خبرالفاعل لأمر وراء كونه خبرا وهو كونه عاملا فيه ورتبةالعامل أن يكون قبل المعمول ٠وكونه عاملا فيه سبب أوجب تقديمه فاعرفه ، وفي الجملة الفاعل في عرف هذه الصنعة أمر لفظييدل على ذلك تسميتهم اياه فاعلا في الصور المختلفة من النفي والايجاب والمستقبل والاستفهام ما دام مقدماً عليه ٠٠ ويؤيد اعراضهمعن المعنى عندكوضوحاً أنكلوقدمتالفاعل فقلت (زيد قام) لم يبق عندك فاعلا وانما يكون مبتدأ وخبراً معرضاً للعواملاللفظية »(٤) ٠

يقول الزجاجي « واعلم أنه يجوز تقديم خبر المبتدأ عليه الا اذا كان فعلا فانه لا يجوز تقديمه عليه ٠٠٠ فان كان خبرالمبتدأ فعلا ثم قدمته عليه ارتفع وزال معنى الابتداء ثم تتول (قام زيد) فترفعه بفعله »(٥) ٠ ويورد السيوطي القاعدتين التاليتين : « الفاعل كجزء من أجزاء الفعل » و «الأصلتقديم الفاعل وتأخير المفعول ، قال ابن النحاس وانما كان الأصل في الفاعل التقديملأنه يتنزل من الفعل منزلة الجزء ولا كذلك المفعول »(٦) ٠

وهكذا نرى أن علماء العربية اعتبروا الفاعل بنيوياً بمثابة جزء من الفعل الذي يسبقه ٠ ونستنتج من ذلك أن الفعل وفاعلهالذي يليه يكوّنان معاً وحدة نحوية لا انفصام فيها ٠ وقد أشار الدكتور عثمان أمين الىذلكبقوله « الفعل لا يستقل بالدلالة دون الذات، والذات متصلة بالفعل في تركيبهالأصلي »(٧)٠

اني أقترح تسمية **حالة رفع الفاعلالمعبرعنه باسم ظاهر يلي الفعل (قام زيدٌ) حالة رفع غير مطلق ،** لأنه مقيد في وجوده بوجودالفعل الذي يسبقه ٠ كما اقترح تسمية **حالة رفع المبتدأ (زيدٌ قام — زيدٌ أخوك) حالةرفع مطلق** ، لأنه ينوي فيه ابتداء الكلام وغير مقيد في وجوده بوجود الفعل بعده ٠

ان وجود الضمائر المتصلة في النظاماللغوي للعربية قد انعكس بالضرورة لدى تحديد مفهوم (الكلمة) في علم اللغة العربية٠ عرّف الزمخشري الكلمة بأنها « اللفظةالدالة على معنى مفرد بالوضع ، وهي جنس تحته ثلاثة أنواع الاسم والفعل والحرف » (٨) ٠ وأكد ابن يعيش أن الكلمة تدل على معنىمفرد وبذلك تختلف عن اللفظة المركبة ٠فمثلا (ضربا) تشكل لفظة واحدة تتألف منكلمتين: فعل (ضرب) وضمير متصل (الألف) يدل على أن الفاعل (هما) (٩) ٠ ويعني ذلكأنمصطلح (الكلمة) في علم اللغة العربيةيتميز عن مصطلح (الكلمة) في علم اللغة الأوربي ،بأنه قد يفيد أصغر جزء ذي معنى من اللفظة

فيقابل حينئذ مصطلح (المورفيم) • ويعود السبب في ذلك ــ برأينا ــ الى خصائص بنية الفعل العربي • لأن صيغته المستخدمة استخداماً مطلقاً تفيد جملة تشتمل على مسند ومسند اليه ، لذا اعتبرت مؤلفة من كلمتين أيضاً •

ثانياً ــ الخصائص البنيوية للاسم العربي •

بعد تقسيم الكلم الى اسم وفعل وحرف ، عمد علماء العربية الى تقسيم الأسماء الى نوعين :

١ ــ **أسماء غير متمكنة** ــ تتضمن معنى حرف أو تشبهه أو تقع موقع مبني •

٢ ــ **أسماء متمكنة** ــ لا تتضمن معنى حرف ولا تشبهه ولا تقع موقع مبني • ويكون الاعراب فيها • ويمتاز الاسم المتمكن في العربية من الناحية البنيوية بأنه لا يخلو من حالات ثلاث :

آ ــ **معرّف بأل •**

ب ــ **غير معرّف بأل** ولكنه منوّن •

جـ ــ **غير معرّف بأل وغير منوّن** • ويكون الاسم في هذه الحالة مضافاً حتماً ، **لأنه** لا يمكن أن يبقى منفصلا بمفرده، ويفتقر الى أن يضاف اما الى ضمير متصل أو اسم آخر يستند اليه ويكوّن معه وحدة متكاملة معنوياً وبنيوياً •

اذا أضيف الاسم غير المعرف بأل وغير المنوّن الى ضمير متصل (كتابك) كوّن الاثنان تركيباً نحوياً اندماجياً يبدو وكأنه كلمة واحدة • واذا أضيف الى اسم آخر (كتاب الطالب ــ كتاب طالبٍ) كوّن الاثنان تركيباً نحوياً غير اندماجي ، ولكنه عبارة عن وحدة نحوية لا انفصام فيها بين جزأيها : **الأول** (المضاف) والثاني (المضاف اليه) • وتتجلى تلك الوحدة في كون الجزء الأول من التركيب غير معرّف بأل وغير منوّن دائماً ، **لأن ذلك** يشير الى أنه يرتبط بالجزء الثاني الذي يليه مباشرة ويفتقر اليه • كما تتجلى في كون الجزء الثاني من التركيب في حالة جر على الدوام ، لأن ذلك يشير الى أنه يرتبط بالجزء الأول الذي يسبقه مباشرة ويفتقر اليه •

لنحلل المثال التالي : (كتاب الطالب ــ كتاب طالبٍ) • يشكل الاسم الأول (كتاب) مع الاسم الثاني (الطالب ــ طالب) وحدة متكاملة من حيث المعنى والبنية • وان اقتصار العبارة على كلمة (كتاب) يُشعر أن معنى هذه الكلمة لم يتم بعد ، وأنها لما تكتمل بنيويا بسبب خلوها من التعريف بأل ومن التنوين • فهي تشبه ــ والحالة هذه ــ كلمة لفظنا جزءاً منها ولا تكتمل الا بلفظ الجزء الثاني المتمم لها •

وتجدر الاشارة هنا الى أنه في حالة كون الاسم الثاني (المضاف اليه) غير معرّف بأل وغير منوّن ، لا يكتمل المعنى ويحتاج تركيب (المضاف والمضاف اليه) الى أن يضاف الى اسم معرّف بأل أو منوّن حتى يكتمل التركيب من حيث المعنى والبنية • فتركيب (كتاب

طالب ۰۰۰) غير مكتمل ، ويصبح مكتملا اذاقلنا مثلا (كتاب طالب العلم – أو علم) ۰ وكذلك فان تركيب (كتاب طالب علم ۰۰)غير مكتمـل ، ويصبح مكتملا اذا قلنا مثـلا (كتاب طالب علم الزراعة)(۱۰) ۰

ان مقارنة عبارة (كتاب الطالب –كتاب‌طالب) بما يقابلها في اللغات الأوربية تبـين مايلي : اذا اعتبرنا أن الاسم الأول يحمـل‌الرقم (۱) والاسم الثاني يحمل الرقم (۲)، فان الاسم (۱) هو (المضاف اليه منطقيا)لأننا أضفنا اليه الاسم (۲) ۰ والاسم (۲) بالتالي هو (مضاف منطقياً) الى الاسم (۱)وهذا يعني أن التحليل المنطقي يبين ما يلي : الجزء (۱) من التركيب (كتاب) – مضاف‌اليه ، والجزء (۲) من التركيب (الطالب– طالب) – مضـاف ۰ أما التحليـل النحوي‌العربي فيقتضي باعتبار الجزء (۱) – كتاب– مضافاً ، واعتبار الجزء (۲) – الطـالب (طالب) – مضافاً اليه ۰ فهل يعنـي ذلك أن علماء النحو العربي قد ارتكبوا ، كما قـديتوهم البعض ، خطيئة منطقية ؟ ! وجوابنا هو : كلا ، انهم لم يرتكبوا خطيئة منطقية ،لأنهم حين قالوا ان‌الاسم (۱) مضاف الى الاسم (۲) قصدوا أن الاسم (۱) يفتقر بنيويـاً‌الى أن يضاف الى الاسم (۲) ۰ وبهذا المعنى البنيوي فان الاسم (۱) مضاف والاسم (۲)مضاف اليه ۰

وكذا الحال بالنسبة لعبـارة (كتابك)التي تكوّن تركيباً نحوياً اندماجياً ۰ فالاسم (كتاب) هو المضاف اليه منطقياً ، لأننا أضفنااليه الضمير المتصل (ك) ۰ والضمير المتصل هو مضاف منطقياً الى الاسم ۰ وبما أن الجزءالأول من التركيب (كتاب) يفتقر بنيوياً الى أن يضاف الى الجزء الثانـي (ك) ، يعتبرالاسم الأول (بهـذا المعنى البنيوي) مضافاً ويعتبر الضمير المتصل به مضافاً اليه ۰

كتب ابن الخشاب حول العلاقة بين المضاف والمضاف اليه ما يلي : « ۰۰۰ والكسرة في آخر الاسم المضاف الى ياء المتكلم كسرة بناءعارض ، وذلك أن المضاف يتنزل من المضاف اليه منزلة بعض الكلمة من بعض ۰ هذا اذاكان المضاف اليه مما يمكن أن يكون مستقلا بنفسه ۰ فاذا انضم الى ذلك كون المضاف اليه‌ما لا يقوم بنفسه ولا ينفرد ، اشتد اتصالـه بما قبله حتى يجري الأول من الثاني والثاني‌من الأول مجرى بعض الكلمة من بعض حقيقة لامتزاجهما ، فيغلب على الأولى حكم الثانية۰وهذه الصفـة موجودة في المضـاف الى يـاء المتكلم ۰۰۰ »(۱۱) ۰

وكتب الدكتور عثمان أمـين عن الاضافة ما يلي : « وكذلك الاضافة في اللغة العربية تتم بانشاء علاقة ذهنية – وبالتالي جوانية –لا تحتاج الى لفظ يشير اليها ۰ مثال ذلك‌قولنا (كلية الاداب) فهو كاف لايقاع الاضافة‌بين(الاداب) و (الكلية) ، خلافاً للغات الأخرى التي‌تعمد الى اثبات لفظ خاص‌يدل‌عليها»(۱۲)

ونعقب هنا بأن الدكتور عثمان أمـين أغفل الاشارة الى أن العنصر (أو الجزء)الأول من تركيب الاضافة غير معرّف بأل وغيرمنوّن، وأن العنصر الثاني مجرور ۰ لقد استشهد د۰ أمين لكي يدعم رأيه بالقول التالي لابن‌خلدون : (ولما كانت الملكات الحاصلة‌للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها ابانة عـن‌المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من

المعاني ، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول ، والمجرور أعني المضاف ، ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال الى الذوات من غير تكلف ألفاظ أخرى ٠٠٠) ٠ ولكننا اذا حللنا قول ابن خلدون ، نجد فيه اشارة واضحة الى الحركات ، وانه بوساطة الكسرة يتم تعيين المضاف اليه ٠

ثالثاً ـ التراكيب الاسنادية وغير الاسنادية في العربية ٠

أشرت في مقالة « اعجاز القرآن وترجمته » الى أن عبارة الجرجاني (الألفاظ أوعية للمعاني وخادمة لها) تعني أنه توجد وحدة لا تنفصم بين شكل الكلمة (أي لفظها) ومضمون الكلمة (أي معناها) ٠ وبينت أن تعبير (نظم الكلم) يفيد عند الجرجاني (ترتيب الكلمات وتأليف الكلام) ٠ **فما المقصود من (ترتيب الكلمات) و (تأليف الكلام) ؟**

اننا نفهم (التركيب) على أنه اجتماع كلمتين أو أكثر ٠ والتراكيب نوعان : **تركيب اسنادي** هو الذي يشتمل على مسند ومسند اليه ، **وتركيب غير اسنادي** هو الذي لا يشتمل على مسند ومسند اليه ٠ يستخدم في علم العربية مصطلحا (الجملة) و (الكلام) للاشارة الى الكلم المجتمعة ٠

يوجد رأيان حول تحديد مضمون (الجملة) و (الكلام) ٠ يرى بعض العلماء كالزمخشري(١٣) أن الكلام والجملة مترادفان ٠ ويؤدي هذا الموقف الى تعريف الجملة انطلاقاً من توافر أمرين فيها : الاسناد والفائدة ٠ ويرى آخرون كابن هشام (١٤) أن الكلام والجملة ليسا مترادفين ٠ ويؤدي هذا الموقف الى تعريف الجملة انطلاقاً من توافر أمر واحد فيها هو الاسناد فقط ٠ وبذا يختلف الكلام عن الجملة ، لأن الكلام يشتمل على الاسناد والفائدة وكان سيبويه(١٥) قد أفرد باباً خاصاً للمسند والمسند اليه ٠ ولم يطلق على (المسند والمسند اليه) تسمية (الجملة) أو (الكلام) ٠

انصب اهتمام علماء العربية على دراسة الجملة والكلام ، لأن كلا منهما ـ حسب الرأي الأول أو الثاني ـ يشتمل على مسند ومسند اليه ٠ ويعني ذلك أن الجملة والكلام تركيبان اسناديان ٠ ولم يهتم علماء العربية بدراسة التراكيب غير الاسنادية ، بل اكتفوا بالاشارة الى أنها اجتماع كلمات غير مؤتلفة ٠ ويعود السبب في ذلك الى أن علماء العربية استخدموا في دراستهم للعربية منهجاً بنيوياً وظيفياً ، لأن دراستهم استهدفت اكتشاف القوانين التي تحكم اللغة العربية كنظام ، فاستوجب ذلك منهم الانطلاق من الوحدة التي لا تنفصم بين الشكل والمضمون ، لأن البنية اللغوية لا تستقل عن وظيفة الاتصال التي تؤديها اللغة ٠ وقد توسع الامام الجرجاني في استخدام هذا المنهج البنيوي الوظيفي حين بحث في نظم الكلم ٠ فعمد الى بيان ارتباط خصائص بنية الكلمة المفردة بالوظيفة التي تؤديها في الكلام ، انطلاقاً من الوظيفة الأساسية للغة كوسيلة لاتصال الناس بعضهم ببعض ٠

يستهل الامام الجرجاني « دلائل الاعجاز » بما يلي : « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض ٠ والكلم ثلاث : اسم وفعل

وحرف ، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة ،وهو لا يعدو ثلاثة أقسام ، تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بهما ٠٠ ومختصر كل الأمر :أنه لا يكون كلام من جزء واحد ، وأنه لا بد من مسند ومسند اليه ٠٠ وجملة الأمر : أنه لايكون كلام من حرف وفعل أصلا، ولا من حرف واسم الا في النداء نحو (يا عبدالله) ٠ وذلك أيضاً اذا حقق الأمر كان كلاماً بتقدير الفعل المضمر الذي هو (أعني وأريد وأدعو) ، و (يا) دليل عليه وعلى قيام معناه في النفس ٠ فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض ٠ وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه » (١٦) ٠

ويؤكد الجرجاني أن التعلق يكون بين معاني الكلمات ، فيقول : « ٠٠٠ الفصاحة لا تكون في أفراد الكلمات ، وأنها انما تكون فيها اذا ضم بعضها الى بعض ٠٠ التعلق يكون فيما بين معانيها لا فيما بينها أنفسها ٠ ألا ترى أنا لو جهدنا كل الجهد أن نتصور تعلقاً فيما بين لفظين لا معنى تحتهما لم نتصور ٠ ومن أجل ذلك انقسمت الكلم قسمين : مؤتلف وهو الاسم مع الاسم ، والفعل مع الاسم ،وغير مؤتلف وهو ما عدا ذلك ، كالفعل مع الفعل والحرف مع الحرف ٠ ولو كان التعلق يكون بين الألفاظ ، لكان ينبغي أن لا يختلف حالها في الائتلاف ، وأن لا يكون في الدنيا كلمتان الا ويصح أن يأتلفا لأنه لاتنافي بينهما من حيث هي الفاظ ٠٠٠ » (١٧) ٠

تتميز اللغة العربية بأنها لغة معربة ٠ لذا فان علامات الاعراب في أواخر الكلم تشير الى نوع ارتباط الكلم في التراكيب ٠ وقد ميز النحويون نوعين من العلاقة بين الكلمات في التركيب :

١ ـ **علاقة مؤثر ومتأثر** ٠ وسموا المؤثر الذي يغير حركة أواخر الكلمات المتأثرة (عاملا)، كما سموا الكلمة المتأثرة (معمولة) ٠وبحثوا هذه العلاقة في **نظرية العوامل** ٠

٢ ـ **علاقة تابع ومتبوع** ٠ وبحثوا هذه العلاقة في **نظرية التوابع** ٠

قسم علماء العربية الأوائل العوامل الى قسمين : لفظية ومعنوية ٠ وجاء ابن جني فنبه الى أن هذا التقسيم شكلي (بنيوي) ،لأن العمل في حقيقته هو للمتكلم نفسه ٠عرّف ابن جني في « الخصائص » الاعراب والبناء كما يلي : « باب القول على الاعراب ٠ هو الابانة عن المعنى بالألفاظ ٠ ألا ترى أنك اذا سمعت (أكرم سعيد أباه) و (شكر سعيداً أبوه) علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ٠ ولو كان الكلام شرجاً واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه »(١٨) ٠«باب القول على البناء ٠ هو لزوم الكلمة ضرباً واحدا من السكون أو الحركة ، لا لشيء أحدث ذلك من العوامل ٠ وكأنهم انما سموه بناء لأنه لما لزم ضرباً واحدا فلم يتغير تغير الاعراب سمي بناء ، من حيث كان البناء لازماً موضعه، لا يزول من مكان الى غيره ٠٠ »(١٩) ٠

وأكد ابن جني بعد ذلك على جانب المعنى في الاعراب فقال : « باب في مقاييس العربية ٠ وهي ضربان : أحدهما معنوي والآخر لفظي ٠ وهذان الضربان وان عمّا وفشوا في هذه اللغة ، فان أقواهما وأوسعهما هو القياس المعنوي ٠٠ وانما قال النحويون:

عامل لفظي وعامل معنوي ، ليروك أن بعض العمل يأتي مسبباً عن لفظ يصحبه كـ(مررت بزيد) و (ليت عمراً قائم) وبعضه يأتي عارياً من مصاحبة لفظ يتعلق به ، كرفع المبتدأ بالابتداء ، ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم . هذا ظاهر الأمر ، وعليه صفحة القول. فأما في الحقيقة ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم انما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره . وانما قالوا : لفظي ومعنوي لمّا ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامة اللفظ للفظ ، أو باشتمال المعنى على اللفظ . هذا واضح . واعلم أن القياس اللفظي اذا تأملته لم تجده عارياً من اشتمال المعنى عليه ... » (٢٠).

وقد تابع الامام الجرجاني التأكيد على جانب المعنى في الاعراب ، فكتب في « دلائل الاعجاز » : « .. اذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الاعراب هو الذي يفتحها ، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وانه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع اليه .. »(٢١) .

وبالنسبة للعوامل سار الامام الجرجاني في كتابه « العوامل المئة » على النهج المتبع قبله في النحو ، فقسم العوامل الى قسمين : لفظية ومعنوية ، وقسم اللفظية الى سماعية وقياسية(٢٢) . ولكنه أحجم في كتابه «الجُمل» عن متابعة ذلك التقسيم (البنيوي) للعوامل. وأخذ بتقسيم جديد (بنيوي وظيفي) للعوامل، فجعلها ثلاثة أنواع: عوامل من الأفعال وعوامل من الحروف وعوامل من الأسماء . وذلك بعد مقدمة تحدث فيها عن أقسام الكلم ، والاعراب والبناء ، ونوعين للكلمات المعربة : ما ليس له عامل ظاهر لفظي ، وما كان له عامل ظاهر لفظي . واختتم الجرجاني كتاب « الجمل » بفصل في أشياء منفردة تطرق فيه الى مباحث (المعرفة والنكرة) ، (التوابع) ، (التذكير والتأنيث) ، (الاعراب الأصلي وغير الأصلي) وطرح هنا قسمة أخرى (وظيفية) في الاعراب هي الاعراب الصريح والاعراب غير الصريح. واختتم الكتاب بباب (المفرد والجملة) .

كتب الامام الجرجاني عن القسمة الوظيفية في الاعراب ما يلي : « اعلم أن الاعراب على ضربين : صريح وغير صريح . فالصريح على ضربين : أحدهما بالحركات ، والآخر بالحروف ــ كما تقدم . وغير الصريح أن تكون الكلمة موضوعة على وجه مخصوص من الاعراب وذلك في المضمر نحو (أنت) فانه وضع للمرفوع ، و (اياك) للمنصوب . والمضمر متصل ومنفصل ومستكن . فالمنفصل أربعة وعشرون : مرفوعه اثنا عشر .... ومنصوبه أيضاً اثنا عشر .. وليس له مجرور. والمتصل ثلاثة وعشرون : مرفوعه أحد عشر . .. ومنصوبه اثنا عشر ... والمجرور كالمنصوب . والمستكن لا يكون الا مرفوعاً . ومعنى المستكن أن تقول (افعل) فيكون (أنت) مستكناً في النية والمعنى . وهو لازم وغير لازم .. »(٢٣) .

وحول ائتلاف الكلمات ذكر ابن الخشاب في « المرتجل » (الذي شرح فيه كتاب «الجمل» للجرجاني) ما يلي : « اعلم أن الكلم الثلاث اذا ألف بعضها مع بعض حصل من ذلك ستة تآليف : اثنان مفيدان افادة مطردة ، وآخر منها مفيد افادة مخصوصة بموضع واحد

مقصورة عليه ، وثلاثة مطرحة لأنها لاتفيد• والقسمان الأولان : الاسم مع الاسم كقولك (زيد منطلق) و (الله الهنا) ، والفعل مع الاسم كقولك (قام زيد) و (انطلق بشر) • والثالث المخصوص وهو الحرف مع الاسم في النداء خاصة كقولك (يا زيد) • والثلاثة المطرحة هي الفعل مع الفعل والحرف مع الفعل والحرف مع الحرف• فاذا وقعت الفائدة بالتأليف على ما ذكرنا ، سمي ذلك المؤتلف كلاماً • فالكلام اسم للمفيد من القول عند النحويين »(٢٤) • ويعني هذا أن **التأليف نوعان :**

١ ـ **تركيب كلمات يشتمل على فائدة تامة** يحسن السكوت عليها (٢٥) ، هو **تركيب نحوي اسنادي** •

٢ ـ **تركيب كلمات لا يشتمل على فائدة تامة** يحسن السكوت عليها ، هو **تركيب نحوي غير اسنادي** •

في ضوء تقسيم التراكيب الى اسنادية وغير اسنادية ، وانطلاقاً من المبادىء التالية التي حددها الامام الجرجاني :

١ ـ الاعراب على ضربين : صريح وغير صريح (« الجمل » ص ٣٨) •

٢ ـ الأفعال هي الأصل في العمل • وكل فعل يرفع اسماً واحداً بأنه فاعله اذا أسند اليه مقدماً عليه ، فان لم يكن ظاهراً فمضمر (« الجمل » ص ١٣) •

٣ ـ حروف الجر من شأنها أن تعدي الأفعال الى ما لا تتعدى اليه بأنفسها من الأسماء (« دلائل الاعجاز » ـ المدخل) •

٤ ـ العوامل من الأسماء على ضربين : ضرب يعمل عمل الفعل ، وضرب يعمل عمل الحرف• وما يعمل عمل الحرف من الأسماء يعمل الجر والجزم ، فالجر بالاضافة • والاضافة على ضربين : أحدهما أن تكون بمعنى اللام نحو قولك (دار زيدٍ) تريد (دار لزيد)، واضافة بمعنى (من) كقولك (خاتم فضة) تريد (خاتم من فضة) • (« الجمل » ص ٣٠) •

٥ ـ الكلام مداره على ثلاثة معان : الفاعلية والمفعولية والاضافة• فالرفع للفاعل والنصب للمفعول والجر للمضاف اليه ، وماخرج من هذه الأقسام فمحمول عليها وليس بأصل (« الجمل » ص ٣٦) •

اننا ندعو الى **تمييز حالتين لاندماج الكلمات في النظام اللغوي للعربية :**

الحالة الأولى ـ اندماج الكلمات الذي يؤدي الى نشوء تركيب اندماجي اسنادي يفيد جملة فعل وفاعل •

الحالة الثانية ـ اندماج الكلمات الذي يؤدي الى نشوء تركيب اندماجي غير اسنادي لايفيد جملة ، بل يكون جزءاً من جملة •

ونرى أن تمييز هاتين الحالتين **يفسر** سبب وجود صيغتين مختلفتين للضمائر المتصلة في النظام اللغوي للعربية : **صيغة خاصة بالمسند اليه** (تؤدي الى نشوء تركيب اندماجي اسنادي) ، **وصيغة خاصة بما عدا المسنداليه** (تؤدي الى نشوء تركيب اندماجي غير اسنادي) • وسنوضح ذلك باستعراض اتصال الضمير أولا بالفعل ثم بالحرف وأخيراً بالاسم •

١ ــ **اتصال الضمير بالفعل** • نميز هنا صيغتين للضمير المتصل بالفعل :

أ ــ **صيغة الضمير المتصل الخاصة بالمسند اليه (المرفوع) كما في (فعلتُ) •يكوّن الفعل مع ضمير المسند اليه المتصل تركيباً نحوياً اندماجياً اسناديا يفيد جملة فعل وفاعل •**

ب ــ **صيغة الضمير المتصل لغير المسنداليه (لغير المرفوع) كما في (أكرمكَ) •** اذا اتصل بالفعل ضمير للمرفوع وضمير لغير المرفوع ، تقدم الأول وتأخر الثاني كما في (أكرمتُك) ويكوّن الفعل معهما تركيباً نحوياً اندماجياً اسنادياً يفيد جملة فعل وفاعل ومفعول •واذا كان الفعل يستخدم استخداماً مطلقاً (أي تشتمل صيغته على ضمير للمرفوع مستكن) كما في (الرجل أكرمك) ، يكوّن الفعل مع الضمير المتصل **لغير المرفوع** ومع الضمير المستكن تركيباً نحوياً اندماجياً اسنادياً يفيد جملة فعل وفاعل ومفعول • أما اذا كان الفعل يستخدم استخداماً غير مطلق (أي لا تشتمل صيغته على ضمير للمرفوع مستكن) **كما في (أكرمك الرجل) ، يكوّن الفعل مع الضمير المتصل لغير المرفوع تركيباً نحوياً اندماجياً غير اسنادي** ، لأن هذا التركيب لا يفيد جملة ، لذا يحتاج الى ذكر اسم ظاهر مرفوع بعده ليكوّن معه جملة فعل وفاعل ومفعول •

٢ ــ **اتصال الضمير بالحرف** • ان صيغة الضمائر المتصلة بالفعل لغير المسند اليه (لغير المرفوع) هي نفس صيغة الضمائر التي تتصل بالحروف ، **لأن** الحروف تعدّي الأفعال الى ما لا تتعدى اليه بأنفسها من **الأسماء** ، كما في (كتبت به) و (مررت عليه) •ويكوّن **حرف الجر مع الضمير المتصل تركيبا اندماجيا غير اسنادي ، لذا يحتاج الى أن يتعلق** بفعل أو شبهه •

وتجدر الاشارة هنا الى أن **اتصال الضمير باللام ــ التي لا تستعمل كي تعدي الفعل الى** الضمير المتصل الذي لا يتعدى اليه بنفسه ــ كما في (لك ، له) ، يؤدي الى تكوين تركيب اندماجي غير اسنادي يفيد معنى التخصيص أو الملكية •

٣ ــ **اتصال الضمير بالاسم** • ان صيغة الضمائر المتصلة بالفعل لغير المسند اليه (لغير المرفوع) هي نفس **صيغة الضمائر التي** تتصل بالاسم في حالة اضافته اليها ، **كما في** (أبوك) و (أخوه) • **ويكوّن الاسم** مع الضمير المتصل به تركيباً اندماجياً غير اسنادي يفيد معنى **التخصيص أو** الملكية •

ومن هذا الاستعراض لاتصال الضمير بالفعل والحرف والاسم ، يتضح سبب تمييز صيغتين فقط للضمير المتصل في النظام اللغوي للعربية: صيغة خاصة بالمسند اليه (المرفوع)، وصيغة أخرى خاصة بغير المسند اليه (غير المرفوع ، وهي لذلك مشتركة بين المنصوب والمجرور) .

هذا وسأعمد في المقالة التالية ـ انطلاقا من الخصائص البنيوية للفعل والاسم في العربية ـ الى طرح نظرة جديدة الى النحو العربي .

دمشق في ١٩٨١/١٢/٢٢

الهوامش :

١ ـ المنشورة في « مجلة التراث العربي » ـ العدد ٧ .

٢ ـ مطبعة الجليل ـ دمشق ١٩٨٠ .

٣ ـ « المفصل في علم العربية » للامام الزمخشري ـ مطبعة التقدم بمصر ـ الطبعة الأولى (١٣٢٣ هـ) ـ ص ١٨ .

٤ ـ « شرح المفصل » ـ اصدار مكتبة المتنبي ـ القاهرة ، ج ١/ص ٧٤ .

٥ ـ « الجمل » تاليف الزجاجي ـ نشر وتحقيق وشرح ابن أبي شنب ـ باريس ـ الطبعة الثانية ١٩٥٧ ـ ص ٤٩ .

٦ « الأشباه والنظائر في النحو » للسيوطي ـ الطبعة الثانية ـ حيدر آباد (١٣٦١ هـ) ـ ج ٢/ص ٦٣ ـ ٦٤ .

٧ ـ « فلسفة اللغة العربية » ـ المكتبة الثقافية ١٤٤ ـ الدار المصرية للتاليف والترجمة ـ نوفمبر ١٩٦٥ .

٨ ـ « المفصل » ، ص ٦ .

٩ ـ ارجع الى « شرح المفصل » لابن يعيش ـ ج ١/ص ١٩ .

١٠ـ ارجع الى كتاب « نظرية أدوات التعريف والتنكير وقضايا النحو العربي » تاليف غراتشيا غابوتشان ، ترجمة د. جعفر دك الباب ـ اصدار وزارة التعليم العالي ـ مطبعة مؤسسة الوحدة ـ دمشق ـ ١٩٨٠ .

١١ـ « المرتجل » لابن الخشاب ـ حققه علي حيدر ـ مطبوعات دار الحكمة ـ دمشق ١٩٧٢ ـ ص ١٠٩ .

١٢ـ مقالة « الخصائص الفلسفية للغة » المنشورة في مجلة (الثقافة) الأسبوعية بدمشق ـ العدد ١٥ المسلسل ١٧٩٣، تاريخ ١٩٨٠/٤/١٢ .

١٣ـ «الكلام هو المركب من كلمتين أسندت احداهما الى الاخرى، وذلك لا يتاتى الا في اسمين كقولك (زيد اخوك) و (بشر صاحبك) ، او في فعل واسم نحو قولك (ضرب زيد) و (انطلق بكر) ويسمى الجملة » / « المفصل » ـ ص ٦/ .

١٤ـ « الكلام أخص من الجملة لا مرادف لها ، فان الكلام هو القول المفيد بالمقصد . والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت عليه » / « الأشباه والنظائر في النحو » للسيوطي ـ ج ١٦٦/٢ .

١٥ـ كتاب سيبويه ـ منشورات مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٦٧ ج ١/ص ١٤ .

١٦ـ « دلائل الاعجاز في علم المعاني » ـ تحقيق الامام محمد عبده ـ الناشر مكتبة القاهرة ـ ١٩٦١/المدخل ن ـ ف .

١٧ـ « دلائل الاعجاز » ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

١٨ـ « الخصائص » ، حققه محمد علي النجار ، دار الهدى ـ بيروت ، ج ١/ص ٣٥ .

١٩ـ « الخصائص » ، ج ١/ص ٣٧ .

٢٠ـ « الخصائص » ، ج ١/ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

٢١ـ « دلائل الاعجاز » ، ص ٢١ .

٢٢ـ انظر مقدمة كتاب « الجمل » للامام الجرجاني التي كتبها الأستاذ علي حيدر ـ منشورات دار الحكمة بدمشق ـ ١٩٧٢ .

٢٣ـ « الجمل » ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .

٢٤ـ « المرتجل » لابن الخشاب ، ص ٢٧ .

٢٥ـ « ... وحد الكلام انه جملة مؤلفة من الحروف المسموعة المتمايزة المفيدة فائدة تامة يحسن السكوت عليها ... » ـ « المرتجل » لابن الخشاب ، ص ٢٩ .

سكينة الشهابي

النسوة اللواتي ترجمهن الحافظ ابن عساكر

في تاريخ دمشق ومنهجيته في عرض أخبارهن

يترجم ابن عساكر في تاريخه الشهيرات من الدمشقيات ، ومن اللواتي وردن دمشق ، أو اجتزن بنواحيها • وتمتد هذه النواحي حتى تشمل مساحة كبيرة حول مدينة دمشق • وقد تطول الترجمة أو تقصر •

ومفهوم الشهرة عند ابن عساكر في أخبار النساء لا يختلف عنه في أخبار الرجال ، اللهم الا فيما يخص طبيعة كل من الجنسين • والشيء الذي يمتاز به بين المصنفين أنه يتحلى بروح علمية بعيدة عن التعصب ، ولذلك فانه يختار لتاريخه كل من أرادت له الحياة أن يبقى خالداً في قول أو فعل ؛ ولهذا فاننا نجد في التاريخ ترجمة لكل من له ذكر من الرجال والنساء • وكثير من النساء ذكرتهن كتب التاريخ والأدب لجمالهن ولاعجاب الرجال بهذا الجمال ، وهذا يكفي وحده سبباً في دخول المرأة تاريخ دمشق • قد يبدو مثل هذه الأخبار تافهاً في أعين عدد كبير من الناس ، ولكنه يأتي من الأهمية بمكان في تفسير كثير من الحقائق التاريخية(١) •

ولا تطول الترجمة ويستفيض الحديث الا اذا كانت المرأة صحابية معروفة في الرواية ، وهنا يجول المصنف جولته في جمع الأحاديث التي روتها مستقصياً

في ذلك الطرق[٢] ، والا اذا كانت صحابية لها دورها في بدء الدعوة ، وعندها لا يكثر من نقل ما روته عن النبي ،صلى الله عليه وسلم فقط ، بل يفيض في سرد أخبارها كلها على ما هو معروف عنده في نقل الأخبار ؛ يذكر اسم المترجمة ونسبها وبعض الأحاديث من روايتها ،وخَلْقها وخُلقها وشيئاً من علاقاتها الاجتماعية والسياسية ، ثم وفاتها • ولاينسى بعد ذكر اسمها أن ينقل خبراً يبين سبب ترجمتها في تاريخ دمشق[٣] •وكثيراً ما يكون جمع الطرق في الخبر الواحد سبباً في طول الترجمة ، وهذانجده في الأخبار الأدبية ، كما نجده في الأحاديث النبوية • ولعل أخبار سكينة بنت الحسين ما كنا نجدها بهذا الطول لولا حرص المصنف على رواية خبرها مع الشعراء من كل الطرق التي تهيأ له الوصول اليها •

ومثل الذي قلناه في أخبار سكينة نقوله في أخبار عائشة بنت طلحة ، فقد كانت عائشة جميلة ، ولمصعب بن الزبير معها أخبار معروفة، ويحرص ابن عساكر كعادته دائماً على تقليب بعض أخبارها المشهورة ، وجمع كل الطرق التي استطاع الوصول اليها في تلك الأخبار[٤]•

والشهرة في الحياة تكون دائماً نتيجة للتفوق في شيء منحه الله للانسان ، خصه به بين باقي بني جنسه ؛ فقد كانت شهرة عائشة بنت طلحة بالفضل والجمال والفصاحة، وكانت شهرة سكينة بنت الحسين بالجمال والفصاحة والأدب ، وخصها الله باحساس فني جعلها تميز فيه بين قول شاعر وشاعر ، وتحكم لبعضهم بالتفوق ولآخر بالتخلف • وكذلك امتازت أسماء بنت أبي بكر بالجزالة ورباطة الجأش ، والدمغ بالحجة القوية ، ورجاحة التفكير في المواقف الصعبة التي تتزعزع فيها ارادة الانسان ، ويفلت من يده زمام تفكيره • هذه المزايا التي ذكرها التاريخ للنساء الشهيرات أبرزها ابن عساكر بقوة حين عرض علينا ما قرأه وسمعه وحفظه؛ ولم يبين لنا رأيه في كل ما سمعه وقرأه وحفظه ، بل تركنا أمام الماضي كله لنقول ما نشاء ، بل لنفهم كل شيء على حقيقته ، ومن بعد ذلك يكون قولنا مستمداً من واقع الأخبار والآثار • كان ابن عساكر شيخ المؤرخين والموسوعة الكبيرة التي استوعبت كل شيء ، فلم يعطنا قولا ولكنه أعطانا كل ما قيل ، ولم يقدم لنا رأياً ولكنه ترك لنا الحرية في أن نرى ما نشاء ، وكأنه كان يقول : هذا

المتن وهذا السند فانظروا في أحوال الرجال ، واحكموا على صحة الخبر .

وانطلاقاً من هذه النزاهة العلمية ،والروح المحايدة في عرض الأخبار وتصنيفها ترجم ابن عساكر « سلامة القس » ، و « عريب المأمونية » ، فقد قيل انهما مرتا بدمشق ، اننا نذكر بامتنان ابن عساكر حين نقرأ لعريب هذا الشعر الكثير الذي حال ضياع المصنفات العربية بينه وبين الوصول الينا . كل الذي روته لنا الكتب المعروفة من أخبارعريب كان نتفاً قد يضم بعضها أبياتاً قليلة من الشعر . وقد شفى غليلنا ابن عساكر حين روى لنا من غزلها ووصفها ومديحها قصائد نفيسة قرأها في كتب لعل حوادث الأيام ، وما ألم بالأمة العربية من إحن قد جعلها أثراً بعد عين

وقد نظن ونحن نقرأ تراجم قريبات المصنف ــ : زوجته ، زوج أخيه ، ابنة خالته ــ أن مثل هؤلاء ليس في خبرهن ما يهم المؤرخ الباحث من قريب أو بعيد، وأنهن لو لم يكن قريباته لما ورد لهن ذكر في التاريخ[٥] . ولكن خطأنا هذا يتبين حين نتذكر رغبة المصنف في الاستقصاء ؛فهو يدخل في تاريخه كل اللواتي لهن ذكر ممن وردن دمشق ، أو اجتزن بها ، أوكن من ساكناتها . وأي ذكر أفضل من رواية الحديث ، وسماع الكتب الصحيحة؟!

ولكن رغبة المصنف في الاستقصاء قدتدعونا الى العجب حين نقرأ ترجمة « آمنة ذات الذنب »[٦] ، وكأن المصنف حين ساق خبر هذه المرأة ما كان يريد الا أن يلون في عرض الأخبار ، أو أن نزعة جاحظية ألمت به فجعلته لا يروي خبر هذه المرأة في ترجمتها فقط بل يعيده من طريقه مرة أخرى[٧] ، مما يؤكد لنا حرصه على هذا النوع من الأخبار ، وأنه كان يقصد الى ذلك قصداً .

وقد احتفى ابن عساكر أيما احتفاء بأخبار المتصوفات والملم أقوالهن ، وتحدث عن تقشفهن وزهدهن ، وفضلهن في ذلك على كثير من بليغات العرب ، ومن عرفن بالجرأة والفصاحة[٨] . وبعض هؤلاء الزاهدات كن شيخات له[٩] ، أو ممن حدثه عنهن شيوخه[١٠] .

ولعل ما عرف به ابن عساكر من زهد وتقشف وانصراف عن متاع الدنيا جعله يحسن انتقاء أخبار العابدات الزاهدات ، ويجعلنا نصغي الى مواعظهن

وأقوالهن ونحن نحس بمتعة روحية ،ورياضة نفسية يتغلب بها فينا المعنى الانساني على القالب المادي فننسى متاعب الحياة وهمومها ، ونسخر كما سخرن من قشورها ومظاهرها • ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن عساكر في أخبار أم الدرداء ، قال : « عن أم الدرداء أن رجلا أتاها فقال لها : إنه قد نال منك رجل عند عبد الملك ، فقالت : ان نؤبن بما ليس فينا فطالما زكينا بما ليس فينا » • وقال : « عوتبت أم الدرداء ، في شيء ، فقيل لها: لِمَ فعلت كذا وكذا ؟ قالت : نقص الناس فنقصت كما نقصوا ! » • وروى« عن اسماعيل بن عبيد الله قال : قالت لي أم الدرداء : يا بني ، ما يقول الناس في الحارث الكذاب ؟ قال اسماعيل : يا أمة ، يزعمون أنك قد بايعته ! قال :فلم تسل أم الدرداء من الذي قال لئلا يكون في صدرها غل على أحد » •

وانما ذكرت هذه الأمثلة لأبين للقارىء الكريم معنى الصوفية كما فهمها الانسان المسلم ، انها التسامح ، والمحبة ، والتواضع •• الى غيرها من الصفات الكريمة التي جاء بها القرآن ، وحث عليها الرسول ، صلى الله عليه وسلم • ومثل هذه الأقوال التي تأخذ بمجامع القلوب نجده مبثوثاً متفرقاً في أخبار عدد من الصوفيات اللواتي فهمن الطاعة بمعناها الحقيقي ، وقدرن أبعاد خطواتهن في هذه الحياة(١١) •

ولكن حب الاستقصاء قد يطغى في كثير من الأحيان على حسن الانتقاء ، فنجد في أخبار هؤلاء النسوة ما يدعو الى الابتسام لأنه تجاوز حد المعقول ، وبالغ في البعد عن الواقع •

وفي أخبار النسوة القرشيات سواء كن زوجات لبني أمية أم لغيرهم ، صورة صادقة للحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العصر ، نجد فيها وضع المرأة الاجتماعي وعلاقتها بالرجل • وجرأتها في الدفاع عن حقها ، والحفاظ على ما في يدها ، واستقلالها في تصريف شؤونها ،ومشاركتها في كثير من القضايا السياسية والاجتماعية ، وهذا لا ينطبق على القرشيات فقط ، ولكننا نجد نماذج له في أخبار كل النساء الحرائر • وما أكثر النسوة اللواتي جئن الى معاوية يرفعن اليه مظالمهن ، ويطلبن اليه العدل • وكم من امرأة كانت في جيش عليّ تحرض على القتال حتى اذا تبدل الحال ، وعلا معاوية عرش الخلافة استدعى من شاء

منهن مكرمات ليستعيد أقوالهن ، وليسمع رأيهن فيه وفي سلفه • ومهما كانت هناك من مبالغات في أقوالهن ، وأخبار جرأتهن وفصاحتهن فان تلك الأقوال والأخبار تؤكد لنا أن المرأة كانت تؤلف فعلا نصف المجتمع ، وأنها عاشت حياتها كاملة ، ولعبت في الحياة السياسية والاجتماعية دوراً كبيراً لا يقل عن دور الرجل ، حتى اننا نجد الواحدة منهن تتجشم عناء السفر ، لتدخل على معاوية في شأن من الشؤون ، وحين يذكرها بمناصرتها العلي لا نجدها مضطرة الى كلمة نفاق واحدة ، بل انها تبدي رأيها بكل قوة وجرأة ، أهو تسامح الخليفة ، أم شجاعة المرأة ، أم أنها الفطرة السليمة ، والتربية الاسلامية الصادقة ؟ وأجدني مضطرة الى أن أقتطع نتفة من خبر أم البراء[١٢] بنت صفوان مع معاوية علّ ما فيه من طرافة يكون حافزاً على مراجعة الخبر بتمامه •

دخلت أم البراء بنت صفوان على معاوية فذكرها بشعر قالته في حربه مع علي وكانت هذه المرأة أكثر اعتدالا من الزرقاء[١٣] بنت عدي ، وعكرشة بنت الأطش[١٤] ، وأم الخير بنت الحريش[١٥] ، فقالت : « يا أمير المؤمنين عفا الله عما مضى ومن عاد فينتقم الله منه » • وحين قامت لتخرج ، « عثرت بثوبها ، فقالت : تَعس شانئ علي ! فقال لها معاوية : يا أم البراء ، زعمت ألا •• قالت : هو والله ما تعلم ! وخرجت ، فبعث اليها بمال » •

وهذه سودة بنت عمارة بن الأسك دخلت على معاوية متظلمة من واليه • فأسمعته ما أسمعته من بليغ القول ، حتى اذا أراد انصافها دون قومها بكت ، وذكرت علياً ، رضي الله عنه ، فقد دخلت عليه تشكو والياً جار وظلم ، فأكرمها ، وأعادها بكتاب تعزل فيه ذلك الوالي ، فقضى معاوية حاجتها ، ولم تدفعه جرأتها الى أن يجور في حكم ، أو أن يغبن امرأة متظلمة[١٦] •

وقريب من خبر سودة هذه خبر امرأة ذكوانية وفدت على معاوية متظلمة من أخيه زياد بن أبي سفيان ، فقضى حاجتها وردها مكرمة[١٧] •

وفي كل خبر من أخبار النساء العربيات صورة صادقة للحياة الاجتماعية ، والسياسية ، واذا خصصنا القرشيات دون غيرهن استطعنا أن نكشف حياة طبقة من طبقات المجتمع العربي بيدها السلطة ، وعرفنا جانباً من تلك العلاقات بين الأسر

العربية المتدانية القرابة ، وكيف كانت المرأة العربيــة في ظروف معينة تتغلب عندها العصبية حتى إنها لتحس بنوع من الكره لأبنائها لانهم يشكلون جانباً مــن قوة زوجها وأقربائه • نجد مثل هـذا في خبر رملة بنت معاويــة ، وكانت عنــد عمرو بن عثمان بن عفان ، فقد « كتبت الى ابيها تشكو ال أبـي العاص وأنهــم يتكبرون علي حتى وددت أن ابني كان منبوذا في البحر • فكتب اليها معاوية : أنا أشقى من أن تكوني رجلا • قـال :وعزل مروان عن المدينة » • لقــد تغلب تعصب رملة لأبيها وآل أبي سفيان على حبها لزوجها وابنائها • وفي خبر آخـر يرويه ابن عساكر عن مصعب الزبيري أنها قـدمت الـى أبيهـا فقـال لهـا : « واسوأتاه ! وما للحرة تطلق ، أطلقـك عمرو !؟ فأخبرته الخبر ، وقالت : فمـا زال يعد فضل رجال بني أبي العاص على بني حــرب حتــى ابني عثمــان وخالــد ابني عمرو فتمنيت أنهما ماتا[١٨] » •

ويبدو أن خلافة معاوية لم تكن خيراً على بناته ، بل كانت سبباً غير مباشر في تدمير حياتهن الزوجية ، فقد أخبرنا ابن عساكر أن معاوية زوّج عبدالله بن عامر بن كريز ابنته هنداً[١٩] ، وكانت بـارة به ، « فجاءتــه يوماً بالمــرآة والمشــط ، وكانت تتولى خدمته بنفسها • فنظر في المرآة فالتقى وجهه ووجها في المــرآة ، فــرأى شـبابهـا وجمالهــا ، ورأى الشيب في لحيتــه قــد ألحقــه بالشـيوخ ، فــرفــع رأسـه اليهــا فقال : الحقي بأبيــك ، فانطلقت حتــى دخلت على أبيهـا ، فأخبرته بخبرهـا ،فقال وهل تطلق الحرة ؟! قالت : ما أُتي من قبلي ! وأخبرته خبرها ، فأرسل اليه، فقال : أكرمتك ببنتي ، ثم رددتها عليّ؟ قال : أخبرك عن ذلك : إن الله منّ عليّ بفضله ، وخلقني كريمــاً ، لا أحب أن يتفضل عليّ أحد ، وان ابنتك أعجزتني مكافأتها لحسن صحبتها ، فنظرت ، فاذا أنا شيخ ، وهي شابة ، لا أزيدها مالاً الى مالها ، ولا شرفاً الى شرفها ، فرأيت أن أردها اليك لتزوجها فتى من فتيانك كأن وجهه ورقة مصحف » •

وأخبار النساء العربيات ، والقرشيات منهن بشكل خاص يمكن أن تلقي ضوءاً على كثير من القضايا الاجتماعية التـي ما زالت تشغل فكــر الانسان العــربي ، وأهمها حرية المرأة، يريد أن يعرف الى أي درجة كـانت تتمتع المرأة بهـذه الحرية ، وكيف كانت علاقتها بالرجل • ويقيني أن هذا العرض للأخبار بأسانيدها الـى

كتب معروفة يمكن أن يرينا بالفعل لا بالقول أن المرأة كانت تخالط الرجال، وتجلس اليهم ، وتحدثهم ، وتبدي رأيها في كثير من القضايا، وتعرف أهمية الرجل الفاضل فتختاره ، وترسل من يخطبه لها[٢٠] • واذا كانت مراجعة هذه الأخبار تغني الباحث عن العودة الى كثير من الكتب فان فيها من الحقائق التاريخية ، والنوادر الأدبية ما لا نجده في مصدر آخر لأن الكتب التي بين يدي المؤلف قد أتى عليها الزمن ، وحفظ لنا ابن عساكر قطعاً نفيسة منها لا يمكن أن يفيد في موضعها سوى أصل الكتاب الذي كان ينقل منه • وهيهات !

ويمكننا بعد الذي تقدم أن نقول : ان نساء ابن عساكر وضعن بين أيدينا طرفاً من الحياة الاجتماعية والسياسية ، والأدبية والدينية عبر خمسة قرون من تاريخ الحضارة العربية ، بالاضافة الى أخبار وقصص عن القرون الأولى من الحضارة الانسانية نجدها في تراجم الكاهنات والقديسات والملكات من أمثال بلقيس ومريم وسارة وهاجر • وكانت أخبارهن مطبوعة بطابع التشويق ، يحس قارئها بالمتعة وهو يضيع في متاهاتها ، لا يشعر بالملل مع طول الخبر ، لأن طول الخبر تلازمه الطرافة والندرة دائماً •

وقد وجدنا أن بين هؤلاء النساء الأديبات، والشاعرات والمحدثات، ومنهن من عرفت بخبر نادر ، أو ملحة لطيفة • ولكثير منهن ذكر في كتب النسب والتاريخ، لأنهن عربيات من ذوات الحسب والنسب • وبعضهن كن زاهدات ، متعبدات ، وكانت حفاوة المصنف بهن كبيرة ، لأن الزهد والعبادة ، ومعرفة الله من أكبر الميزات التي تفتح باب التاريخ على مصراعيه أمام المترجمات ، ولذلك فقد احتلت أخبار التصوف والزهد جانباً كبيراً من تراجم النساء في التاريخ الكبير •

واذا كنت قد أطلت الحديث عن النساء اللواتي ترجمهن ابن عساكر فقد كانت اطالة لا بد منها لازالة تلك البقع الصفراء من صفحة ناصعة البياض ، مزدانة بحروف زاهية تؤلف ملحمة للكرامة ، والعزة ، والاباء ، والأنفة • تمثل دور البطولة فيها الأم العربية بشكل خاص ، والمرأة العربية بشكل عام •

سكينة الشهابي

الهوامش :

١ ـ يحدثنا التاريخ أن عبدالملك بن مروان حدد المهور باربعمائة درهم ، والسبب في ذلك انه خطب زينب بنت عبد الرحمن المخزومية فجاء من اغرى والدها بزيادة في المهر قبل أن يصل هذا الوالد الى عبد الملك الذي أرسل في طلبه ليخطب عليه ابنته . عندها قال عبدالملك ما معناه: ان فضليات النساء تذهب بهن كثرة المهور . انظر (ت ٣٤) من أخبار النساء في تاريخ دمشق .

٢ ـ انظر (ت ١٦ من اخبار النساء في تاريخ دمشق) .

٣ ـ انظر ت ١ من اخبار النساء .

٤ ـ انظر ت ٦١ من اخبار النساء .

٥ ـ انظر ت ٢ ، ١١ ، ٦٢ .

٦ ـ انظر ت ١٢ .

٧ ـ انظر ت ١٦٥ من اخبار النساء .

٨ ـ انظر ت ١٤٥ .

٩ ـ انظر ت ٣٨ ، ١١١ .

١٠ـ انظر ت ١٤ .

١١ـ انظر امثلة اخرى في ت ١١٢ .

١٢ـ انظر ت ١٣٠ .

١٣ـ انظر ت ٢٨ .

١٤ـ انظر ت ٧٢ .

١٥ـ انظر ت ١٤٤ .

١٦ـ انظر ت ٤٥ .

١٧ـ انظر ت ١٨٠ .

١٨ـ انظر ت ٢٣ .

١٩ـ انظر ت ١٢٤ .

٢٠ـ انظر ت ١٥٢ .

★ ★ ★

عبد الحميد الزهراوي

من التراث الحديث

مُصلحاً اجتماعياً

محمد راتب الحلاق

لمحة سريعة عن حياته :

في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية تترنح تحت ضغوط الأخطار الخارجية المتمثلة في مطامع الدول الأوربية ، وضغوط الأخطار الخارجية المتمثلة في مطامع الدول الأوربية ، وضغوط الأحداث الداخلية الناجمة عن انتشار الوعي القومي لدى القوميات الكثيرة التي كانت تنضوي تحت لوائها ، وكذلك نتيجة انتشار الجهل ، والتسلط ، وتفشي الرشوة ، وسوء الادارة ، وسوى ذلك من السيئات ، في تلك الفترة الحرجة من عمر الدولة العثمانية ، وفي عام ١٨٥٥* ولد في حمص لأسرة عريقة في النسب السيد عبدالحميد الزهراوي (١) وفي مسقط رأسه تعلم العربية ، ثم التركية ، ثم تتلمذ على علماء حمص فتعمق في الفقه وعلم التوحيد وعلوم الدين • وفي عام ١٨٩٠ سافر الى الآستانة ، ومنها الى مصر ، حيث أتيح له أن يتصل بالكثير من العلماء والأدباء • ثم عاد الى حمص والبلاد يومئذ رهينة الحكم الحميدي المستبد ، الذي كان يعتمد على الارهاب والبطش والجواسيس ، والذي كان يعد على الناس أنفاسهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، وصار الناس يومها « يخشون من الجدران أن تنم عليهم » (٢) ، ولكن نفس الزهراوي الأبية وتحسسه بهموم قومه ووطنه ، دفعه للمساهمة في مقاومة الاستبداد والظلم بالوسائل المتاحة• فأصدر في حمص جريدته السرية (المنير) التي كان يطبعها على الجلاتين ويوزعها على أصدقائه ومعارفه وبقية المواطنين ، مهاجماً فيها جور الحكم الاستبدادي الغاشم وفساده ويحاول أن يوقظ الشعور القومي(٣) وفي عام ١٨٩٥ غادر حمص الى الآستانة بقصد التجارة، وهناك اتصل ببعض الشخصيات السياسية والعلمية والأدبية ، مما دفعه الى طلب المزيد من المعرفة • فأخذ يرتاد المكتبات العامة ، ويطلع على ما فيها من الكتب ، لا سيما الكتب التي تتناول مواضيع العمران والاجتماع والتاريخ والسياسة •

وفي الآستانة أسهم باصدار جريدة « معلومات » التي كانت تصدر بالتركية ،

★ تاريخ ميلاده (١٢٨٨ هـ ـ ١٨٧١ م) ذكره الشيخ احمد النبهان والأمير مصطفى الشهابي والدكتور سامي الدهان ؛ خلافاً لما ذكره الزركلي في « الأعلام » ونقله عنه الدكتور الركابي اي عام ١٨٥٥ م • (المجلة)

وفيها قسم يصدر بالعربية ، كان الزهراوي يتولى أمر تحريره • وكان ينتقد فيه الأحوال السيئة ، مما دفع السلطات الى وضعه تحت المراقبة ، ثم نفته الى دمشق ووضعته تحت الاقامة الجبرية • ومن دمشق صار يراسل جريدة (المقطم) المصرية ، ونشر فيها سلسلة مقالات شكلت (رسالة في الامامة وشروطها) ، وبذلك يكون الزهراوي قد أدلى بدلوه في موضوع اجتذاب علماء وكتاب تلك الفترة ، اذ ندر أن تخلف واحد منهم عن الكتابة في هذا الموضوع ، وقد أورد الزهراوي (٢٢) اثنين وعشرين بنداً تثبت أن السلطان عبدالحميد لا يصلح للخلافة ، ويجب خلعه منها • ونشر رسالة أخرى عن الطلاق أثارت عليه ثائرة المتزمتين من المشايخ ورجال الدين • ولما استطاع أن يفلت من كيدهم دبروا له مكائد أخرى ، فأثاروا ضده مشاكل تتعلق بالتصوف (٤) وبالسياسة وهما من الأمور المحرمة يومئذ ، مما أجبر الوالي على أن يرسله مخفوراً الى الآستانة ولم يخرج من السجن الذي حكم به عليه الا بعد توسط الشيخ أبي الهدى الصيادي له ، فأعيد الى حمص ، ووضع في الاقامة الجبرية من جديد ولكنه استطاع أن يهرب الى مصر عام ١٩٠٢ حيث أتيح له أن يتصل برجالات الفكر فيها• واشتغل هناك بالصحافة ، حيث شارك في تحرير (المؤيد) وبقي في مصر حتى عام ١٩٠٨حين أطاح الانقلاب بالسلطان عبدالحميد، وتم اعلان الدستور ، والحكم النيابي ، وعاد الزهراوي الى حمص ، وانتخب نائباً في مجلس المبعوثان عن (حمص وحماه) • وفي الآستانة شارك في تأسيس حزب (الحرية والاعتدال)، ثم حزب (الحرية والائتلاف) المناوئين لحزب الاتحاديين وجمعية الاتحاد والترقي) • وأصدر هناك جريدته الأسبوعية « الحضارة»، والتي استمرت في الصدور ثلاث سنوات الى أن أغلقتها السلطات بعد أن ضاقت ذرعاً بانتقادات الزهراوي للأوضاع السيئة التي نتجت عن تعصب الاتحاديين ، حيث كان الزهراوي يكتب في كل عدد مقالا افتتاحياً يحلل فيه أوضاع الدولة • « وتعتبر مقالاته وثائق هامة جدا لدراسة أوضاع الدولة العثمانية في ذلك الزمان »(٥) ونظراً لمقالاته المناوئة للاتحاديين ، ولنشاطاته التي تستهدف فضح أخطائهم أوصت الحكومة بعدم اعادة انتخابه لمجلس المبعوثان ، وهذا ما كان • وبعد مضايقات كثيرة غادر الآستانة الى مصر حيث اتصل بحزب اللامركزية وانتسب اليه • ولما انعقد مؤتمر باريس العربي في حزيران عام ١٩١٣ كان الزهراوي مندوباً عن الحزب للمؤتمر • وهناك تم انتخابه رئيساً للمؤتمر، وبعد نشر مقررات المؤتمر ، اتصلت به الحكومة العثمانية ، وعرضت عليه العضوية في مجلس الأعيان فقبل مما أثار عليه سخط المؤتمرين ، وسخط رجالات العرب ، لأنه بقبوله هذا المنصب يكون قد خالف واحداً من مقررات المؤتمر يقضي بعدم قبول أي منصب حكومي ما لم تستجب الحكومة لكافة مقررات المؤتمر • الا أن الزهراوي دافع عن نفسه بأنه ما قبل هذا المنصب الا لأنه يتيح له أن يراقب الأمور عن كثب ، ويكون أقدر على خدمة قضية أمته ، وأنه ما قبل المنصب الا بعد الرجوع الى حزبه (اللامركزية) • وقد تأكد صدق نيته من مراسلاته وتأييد بعض أصدقائه(٦) • ومما يرجح صدقه كذلك أن قائمة الاتهامات التي أدين بها على يد مجلس عاليه العرفي تضمنت أنه ما قبل المنصب الا بعد التشاور مع حزب اللامركزية والذي كان قد أصبح رئيسه ، وأنه ظل على اتصال مستمر معه •

وفي ليلة السادس من أيار عام ١٩١٦ قدر لعبدالحميد الزهراوي أن يكون أحد الشهداء الأبرار الذين زفتهم الأمة العربية طلائع نور، ومصابيح هداية، وقرابين مجد، حيث أعدم في ساحة المرجة بدمشق مع شهداء الدفعة الثانية، ودفن في مقبرة باب الصغير(٧) وبذلك أسدل الستار على حياة واحد من أكثر أبناء الأمة حيوية ونشاطاً وصدقاً.

أهم ملامح فكره:

اذا كان هناك من ميزة تميز فكر هذا الرجل فهي الحيوية، والنشاط الذي لايفتر. فهو قد بدأ كفاحه شاباً، ولم يتوقف عن هذا الكفاح لحظة واحدة، وتحت كل الظروف.

ويبدو أن مهنة الصحافة التي اجتذبته اليها، والتي أحب أن يعرف بها، قد فرضت عليه مثل هذه الحيوية. وقد كانت الصحافة بالنسبة اليه الوسيلة الناجعة لنشر التوعية السياسية عند شريحة عريضة من المجتمع. لذلك فقد لجأ اليها منذ أن كان شاباً يطبع جريدته السرية على الجلاتين. ولم يترك قلمه لا في اقامة ولا في سفر، حيث كان يرسل المقالات الى جريدته «الحضارة» والى بقية الجرائد في الوطن، من على ظهر السفينة أو من أية مدينة يحل فيها (٨).

ومن الصفات البارزة عند الزهراوي، والتي أحب أن يعرف بها، الاعتدال والبعد عن التطرف. وهو يعتبر أن البعد عن الاعتدال خطأ فهو يقول: «الاعتدال مشرب هذه الجريدة «الحضارة»، لأنه الخلق الذي يهواه صاحبها، ويحرص على نيله والتخلق به، ويدعو اليه نفسه وغيره. ونظن أنه هو الذي يغلب عليه وعلى جريدته، وان شذ عنه أحياناً، فذلك لأننا بعيدون عن العصمة المطلقة»(٩).

وهو يدعو للتمسك بالاعتدال حتى في مخاصمة الخصوم «وننصح اخواننا المظاهرين لحزبنا «حزب الحرية والائتلاف» من صحافيين وغيرهم، أن يتخذوا الاعتدال خطة، ويتجنبوا مس كرامة الأفراد الذين انتموا الى جمعية الاتحاد ثم لم يتيسر لهم الاطلاع على حقائق آباء هذه الجمعية، ومدبري أسرارها» (١٠).

ومن الصفات البارزة عند الرجل تمسكه بالأخلاق وتقديمه اياها على العلم «ان محرر هذه السطور لا يعتد في الرجال بكثرة المعارف، وانما يعتد بجودة الاخلاق»(١١) ان أخلاق الزهراوي كانت تدفعه لأن يكون منصفاً وعادلاً وذا عقل منفتح بعيد عن التعصب «أنا امرؤ مخلص، ان خالفت، فعن نية حسنة، وأنصف مخالطي. وان حالفت فعن نية حسنة، ولا أداهن حليفي»(١٢).

ومن صفاته البارزة طلبه المستمر للعزة، وحثه أبناء قومه على طلب المزيد منها، وعدم التأفف من مشقات الحصول عليها «فكما لا يحسن التأفف من تحمل أعباء ما يسد به الجوع مثلا، لا يحسن التأفف من تحمل أعباء ما به كفالة عزة النفوس»(١٣) ويستهجن وقوف الاتحاديين في وجه العرب والحيلولة دون حصولهم على المزيد من العزة «وليس شيء في نظر العاقل بأسمج من صدر رجل أتخمته الأنانية، رجلا آخر يحب أن يتغذى بقليل من حب نفسه وقومه»(١٤) ويضيف «نحن لا يغيظنا أحد في الدنيا يدعو قومه الى التزيد من المجد، ولا نقبل من أحد أن يغيظه منادعوة الى مثل ذلك»(١٥).

ومن الصفات البارزة في فكر الزهراوي الانفتاح على الآخرين، وعدم التقوقع ضمن أوهام التعصب. فقد كان يعتقد أن العاقل

هو الذي يزن للآخرين بالميزان الذي يزن به لنفسه ولقومه • فهو وان كان يريد الخير لنفسه ولقومه ، ولكنه يدرك أن لغيرهم الحق في مثل ذلك « ومن كان بعيد النظر ، سره كل ارتقاء لأية جماعة كانت ، ولا سيما جماعته، وأحزنه كل تسفل لأية جماعة كانت ، ولا سيما جماعته »(١٦) •

الزهراوي ••• المصلح الاجتماعي

اذا كان البعض يتهم الزهراوي بأنه « لم يكن يملك تفكيراً عميقاً ، كما أنه لم يكن يملك ثقافة عصرية »(١٧) فانني أعتقد أن الذي دفع الكاتب لهذا القول هو الأسلوب السهل الذي عرض فيه الزهراوي أفكاره «اذ كان أسلوب الزهراوي واقعياً ، فيه صورة المفكر الاجتماعي الذي وصف الحياة التي عاشها ، ونادى بالاصلاح الذي ينشده ، لذلك جاءت مقالاته مصورة لعصره ولطراز الحكم والتنازع عليه بين الفئات المختلفة بعبارات واقعية تعتمد على التصوير أكثر مما تعتمد على الخيال ، وتعمد الى السهولة أكثر مما تتكلف الزخرف ••••• يضاف الى هذا أن كتابته في الصحيفة كانت تحمله على هذا النوع من الكتابة السهلة »(١٨) فهو اذن لم يكن ضحل التفكير بما توهم البعض ولم يكن بعيداً عن ثقافة عصره فهو وان لم يتلق مثل هذه الثقافة في تحصيله الدراسي الا أنه لم يتوان عن الاطلاع على ماأنتجته قرائح المفكرين • ولقد كان منفتح العقل ، يتجاوز التقليد ويدعو الى العلم والاصلاح • حتى ان من اتهمه بعدم العمق في التفكير قد عاد ليقول بعد أسطر قليلة ان الزهراوي « ألح على العلم والاجتهاد والتربية ونقل العلوم العصرية والحضارة الأوربية ، والتوفيق بينها وبين الاسلام»(١٩) ومن تتبع مقالات الزهراوي في جريدته (الحضارة) نلمح في الزهراوي ناقداً اجتماعياً فذاً ، وسياسيا ذكياً مطبوعاً « وتعتبر مقالاته وثائق هامة جداً ومصدراً هاماً لدراسة عصره من الناحيتين الاجتماعية والسياسية »(٢٠) وسنحاول أن نتلمس الأفكار الاصلاحية للزهراوي من خلال دعوته للتوعية السياسية والنضال السياسي ، ومن خلال دعوته الى الحرية ومقاومة الاستبداد ، ومن خلال دعوته للعدل وللانفتاح ومقاومة التعصب • وكذلك من خلال دعوته للمشاركة الايجابية في العمل الوطني وعدم الركون الى السلبية •

التربية السياسية :

اذا كان الامام محمد عبده يعتقد أن السياسة تضطهد الفكر والدين والعلم، ولذلك فهو يستعيذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ••• ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة(٢١) لأنه كان يعتبر السياسة أس مصائب الشرق• فان الزهراوي على النقيض تماماً ، كان يرى « أن النوع الانساني لم يتيسر له قطع المراحل في التكمل الا على يد السياسة ، وأن المبتلين بعشق الاصلاح لا بد لهم من مددها • فان ما يطلبونه للانسانية ، قل أن يكون ملقى على أبوابهم ، يربحونه لها وهم مستريحون »(٢٢)

فالسياسة عنده طريق التمدن ، والعمل السياسي هو الذي يؤدي الى نيل الحقوق والتقدم على طريق الاصلاح • لذلك فهو يلح على أهمية التوعية السياسية أو (التربية السياسية) كما كان يسميها ، ويحاول على طريقها خلق رأي عام مستنير يؤمن بالحرية والعدالة والمساواة ، ويتخذ من النظام النيابي والدستور منهاجاً وحيداً للاصلاح ، وللتخلص من كل سيئات الماضي وخطيئاته • فالسياسة

« كانت من أعظم ما احتاج اليه هؤلاء البشر في أدوار أطوارهم ، وأطوار أدوارهم • فاننا كما نرى للتآلف أسباباً وآثاراً طبيعية ،نرى للتنافر أسباباً وآثاراً طبيعية أيضاً •فالانسان مضطر بين هذه وتلك ، الى مدافعة أسباب التنافر وآثاره بين المتآلفين ، والأخذ بأسباب التآلف بين المتنافرين ، وهـذا هو أصل السياسة »(٢٣) فالسياسة «تعلم أسباب التعاون ووسائله اذا جهلت ، وهي التي تذكر بهااذا نسيت ، وهي التي تنير طرقها اذا عميت•وهي تنعش الآمال ، وهي التي تطبب الضعف ، وتتعهد مغارس القوة »(٢٤) •

والتوعية السياسية تجعل الأفراد والجماعات أكثر نضجاًوتزودهم بالمنهاج اللائق للتعامل مع الآخرين • « اني أرى للفرد ان خالف الجماعة أن يكون حسن الأدب فيخلافه، وأرى للجماعة ان خالفت جماعة أخرى أن ترىلنفسها الحكمة في مجاري الخلاف ،وتتحلى بالشجاعة في سلمها وخصومتها »(٢٥) وهذا هو بالضبط ما تتوخاه التوعية السياسية •

وبنظرة بعيدة صائبة يرى الزهراويأن الاختلاف الدينيوالاختلاف الجنسي (القومي) قديمان ، ولكنهما « لم يحولا دون تعاون المختلفين فيما لهم فائدة فيه مشتركة ،كعمران المزارع ، واقامة المتاجر والمصانع ، والتوسع في الاختراع ، وتكثيف أنواع البضائع •••• ووجدناهما لم يمنعا أن يتساكن المتخالفان في بلد واحد ، وبيت واحد »(٢٦) والاختلاف الأخطر ، والذي يمكن أن يمزق جسم المجتمع، اذا لم يقم على أسس من الوعي والعقلانية ، وتربية الاستعدادات التي عند الفردوالجماعة، هو الاختلاف السياسي « فاذا رأينا أحياناًأثراً فظيعاً للاختلاف الديني أو الجنسي ، فاناغب التتبع والامعان نجده في الحقيقة أثراً للاختلاف السياسي ، لذلك أود ، وأرى أن نلقي بالا ونظراً قبل كل شيء الى هذاالاختلاف فاذا تعلمنا الطب المطلوب لمعالجة قروحهأولا وبالذات كانت لنا الفائدة المطلوبة لمداواة قروح الاختلاف الجنسي والديني من غير ما نقص »(٢٧) • ومن هنا كان من الواجب تربية المواطنين تربية سياسية تجعلهم أكثر وعياً ، وأبعد بصراً ، وأقدر على ممارسة الدور الذي يجب أن يضطلع به كل واحد منهم ، بوصفه مواطناً له حقوق ، وعليه واجبات • ممايؤدي الى قيام جماعة متحابة ، قوية ، معافاة • اذ ان السياسة التي يجب أن تناضل الجماعة في سبيلها هي التي تقوم « على دفع الأشخاص الضارين بها عن مواقع الاقتدار ، واعانة النافعين لها على بلوغ تلك المواقع »(٢٨)فاذا وصلت الجماعة (الأمة) الى درجة من الوعي السياسي ، فانها تجد في نشوء الأحزاب المتعددة نعمة لا نقمة • وكذلك فان امة تشعر بأهميتها لأنه « لا يكون زعيمها قائماً فيها بالغلبة بل بعون وتأييد منها »(٢٩) •

وبعبارة أخرى ان الزهراوي يقصد بالتوعية السياسية (التربية السياسية) تنمية استعداد المواطنين للمشاركة الفعالة فيشؤون بلادهم وأن يعرف كل فرد منهم أن لـه دوراً عليه أن يؤديه • فالتوعية السياسية عنده تهدف قبل كل شيء الى انشاء المواطن الصالح، المزود بعلوم عصره ، البعيد عن التعصب والأنانية والحقد • اذ يجب أن تبنى التربية السياسية على (محبة الناس بعضهم بعضاً بقدر الامكان ، وان كان بعضهم أجنبياً عن بعض »(٣٠) • وهو يرى أن التربية ممكنة ، ذلك أن الاستعداد الذي لدى الأمم ليس فطرياً « بل هو باذن الله وتدبيره يقبل الامتزاج ، وتجري عليه أحكام التربية لذلك فان رسالات المرسلين ، ودعوات المصلحين والمرشدين انما جاءت لتنمية هذا الاستعداد ، وتوجيهه•»(٣١)

ويبذل الزهراوي جهداً كبيراً لاقناع المواطنين بقيمة الدستور والنظام النيابي ، حيث يعتبرهما المنهاج اللائق ، والمناسب ، لحصول الانسان على حقوقه من حيث هو انسان (٣٢) • وهو مؤمن بفائدة هذا النظام، سواء أزالت الشكوى من المصاعب التي يواجهها الجمهور أو لم تزل • والدليل على قيمة هذا المنهاج ،أنه قد أوصل الآخرين الى درجات من الرقي لم يصلوا اليها بغيره(٣٣) ويلقي الزهراوي تبعة التوعية السياسية على عاتق الكتاب والعقلاء « المثقفين » وذلك من خلال الاهتمام بثلاثة أمور: الأول عدمالتستر على الأخطاء ، وعدم كتمها ، ومن كتم داءه قتله • والثاني أن يقاوموا مصدر هذه الأخطاء ، ومنبعها جهد طاقاتهم • والثالثأن يفندوا مزاعم من يريدون القاء تبعة هذه الأخطاء على طبيعة الدستور ، والحكم النيابي »(٣٤) •

النتائج التي كانيتوخاهامن التربيةالسياسية:

ـ انهماك أكبر قدر من المواطنين في العمل السياسي ، ذلك أن الزهراوي ،بصفته سياسياً مطبوعاً ، قد أدرك أن النظام النيابي يفضي الى مثل هذا الانهماك ، وذلك لأنمجال الكلام يتسع ويكثر الكلام على حقوقالأفراد والجماعات ، والبلاد والأقاليم ، تنفتحأبواب للجرائد ، التي تعبر عن الجماعة التي تصدر فيها •

ـ ومن نتائج الوعي السياسي ،التعايش بين الجماعات والطوائف المختلفة فهو يقول « والذي يسترعي النظر في هذه الجامعات أمران : الأول أن كل واحدة لا تنافي الأخرى اذا نظفت العقول ، وصلحت التربية • أمااذا لم تصفالعقول، وتصلح التربية ، فان المنافاة تحدث وتقلق ـ حينئذ ـ نتائجها »(٣٥) •

ـ ومن نتائج الوعي الانساني الذي ينتج عن التربية السياسية ، أن الأمة تشارك في تقرير مصيرها ، بعد أن كانت مجرد رعية• وبالوعي السياسي تستطيع الأمة تجاوز الخلافات الطارئة بين بعض جماعاتها •

ـ ومن نتائج هذا الوعي كذلك فسح المجال أمام العقول للانطلاق من القيود التي تكبلها « ومتى انطلقت العقول من قيودها ووجدت مضطرباً لحركتها ، ذهبت من الفكر الى أقصى ما استعدت له ، وتسربت منه في مذاهب من الرأي ، لم تكن لتهتدي اليها لولا انطلاقها من وثاقها »(٣٦) نتيجة الوعي والنضج •

وما دمنا بصدد الحديث عن التربية السياسية عند الزهراوي لا بد لنا منالتعرض للكيفية التي عالج بها الزهراوي واحدة من أعقد وأحرج القضايا في ذلك الوقت ونعني بها قضية (الاتحاد) بين أقاليم الدولة العثمانية • ولقد كان الزهراوي يومئذ مع الاتحاد وكان تأييده للاتحاد ينبع ـ كما سنلاحظ ـ من أسباب سياسية وعمرانية واجتماعية أكثر مما يعتمد على أسباب وروابط دينية وهو وان كان يؤيد الاتحاد الا أنه يخضعه لشروط وتحفظات عديدة تدلعلى وعيه ، ونضجه فهو يهاجم الاتحاديين (جمعية الاتحاد والترقي) دون مواربة ، ويتهمهم بالتعصب واتخاذ قضية الاتحاد ذريعة للتسلط ولتقديم العنصر التركي على بقية العناصر• وبعد أن يعطي الزهراوي تعريفاً للاتحاد النافع ، يرى أن للاتحادات الانسانية من حيث هي ثلاثة أسباب : الأول سائق الدين ، والثاني سائق الأسر والقسر والاضطرار ، والثالثداعي الاحتياجات المدنية والعمرانية• وبعد أن يستبعد الحديث عن السببين الأولين،

وبعد أن يرد على من يزعم بأن المقصود بالاتحاد هو اتحاد المسلمين العثمانيين ، أو اتحاد الترك يقول : « كلامنا في مسألة الاتحاد مع الذين يقولون نحن **مدنيون** ، ونوضح كلامنا فنقول نحن مسلمون ولكنا لانريد اتحاداً يكون خارجه أبناء وطننا من غير المسلمين ، ونحن عثمانيون ، ولكن لا نريد اتحاداً يكون خارجه كل أبناء الوطن من غير الترك »(٣٧) ٠

و « تفسير هذا الكلام بغاية الصراحة ، أن الاتحاد النافع هو الذي يبقى فيه العربي، مثلا ، عربياً ، والرومي رومياً ، والالباني ألبانياً ٠ ولا يسيء أحد بأحد الظن حين يريد خدمة لسانه ويسعى في ترقية أفكار قومه ، ويظهر تمنيه بأن يكثر بينهم العلماء والأدباء ٠٠٠ والاتحاد اذا كان من أجل الوطن (كما يدعي الاتحاديون) فالرجل الذي يستطيع أن ينسى قومه وقوميته ، لايأمنه على الوطنية الا أحمق ، فان من لا قوم له لا وطن له ، ومن ينسى أهله ، فهو ناس وطنه قبل ذلك ٠»(٣٨)

ويعلن بغاية الصراحة بأنه لا يستطيع أن يقبل باتحاد يراد به أن يتنازل التركي ـ مثلا ـ عن تركيته ، والعربي ـ مثلا ـ عن عربيته لأجل خاطر الاتحاد ، **فهل فهم دلالو الاتحاد** (٣٩) ٠

ومما سبق ، وغيره كثير ، نستنتج موقف الزهراوي من هذه القضية فهو وان كان مع الرابطة والائتلاف الا أنه لم يكن على استعداد أبداً للتضحية بأمته وقوميته على مذبح الاتحاد كما كان يدعو لذلك العنصريون من الاتحاديين ٠ وهو ان كان مع الاتحاد فلأسباب عمرانية وحضارية ومدنية وليس لأسباب دينية أو سوى ذلك مما قد يشتم منه رائحة التعصب ٠ وهو في دعوته هذه لا يفعل شيئاً أكثر مما تدعو اليه الشعوب والدول الأوربية هذه الأيام وبعد أكثر من نصف قرن في قيامها بتأسيس ما يسمى بالسوق الأوربية المشتركة، والجماعة الأوربية ٠ حيث لكل أمة كيانها ومقوماتها ، ولكنها تتعاون على ما به ضمان المزيد من القوة والرفاهية لشعوبها ٠

وبعد أن تؤتي التربية السياسية أكلها ، وينتشر الوعي السياسي عندها « **لن نختلف** يومئذ الا متحابين ، ولا نتفق الا متواصين بالحق متواصين بالصبر ٠ وعند التواصي بالحق والتواصي بالصبر تنتهي خطوط التربية السياسية »(٤٠) ويكون الوعي قد بلغ أوجه ومداه ٠ ذلك أن الشعب الواعي سياسياً هو الذي يصبر على الشدائد ، دون أن يتراجع عن حقوقه قيد انملة ٠

الدعوة الى نبذ السلبية :

كان من أثر الارهاب والظلم والبطش الذي صاحب الحكم الحميدي بصورة خاصة ، أن ابتعد الناس عن المشاركة في الحياة العامة ٠ وصاروا يحذرون الادلاء برأيهم في أي شأن من شؤون الأمة ٠ وتركوا أمور السياسة لأناس تنطعوا للقيام بذلك تحت حماية جواسيس السلطان ومباركتهم ٠ الا أن الزهراوي ، بعد أن تم القضاء على الحكم المستبد وتم اعلان الدستور أراد من كل مواطن أن يمارس حقه ، ويقوم بدور فعال في الأمور العامة كما نص على ذلك الدستور ٠ لئلا يبقى الدستور حبراً على ورق ، ولئلا يبقى مجرد اعلان نظري لا يظاهره التطبيق العملي ٠ وهو حين كان يدعو المواطنين للمشاركة في الحياة العامة كان مؤمناً بأن من طبيعة النظام النيابي ـ كما مر معنا ـ أن يفسح المجال أمام كل مواطن للانهماك بالعمل السياسي ٠ لذلك كانت مهمة الزهراوي محاولة ازالة الخوف المترسب في النفوس

ومحاولة دفع الناس الى الخروج من عزلتهم وسلبيتهم • وأبدى تضجره من شعار سلبي خطير غلب على الناس يومها ، وهو شعار (لا يعنيني) فهو يقول : « تذكروا ياقوم ما أهملناه من القواعد الأساسية ، والتي لاتقوم حياة الأمم بدونها ، لقد شاعت بيننا كلمة (لا يعنيني) شيوعاً فاحشاً ، ترىمنكراً من المنكرات يتفشى ••• فتذكر ذلك لعالم من علماء الدين فتسمعه يقول (لا يعنيني) وتذهب الى رؤساء الأسر والبيوتات فتجد ثمة (لا يعنيني) »(٤١) وبعد أن يبين خطر مثل هذا الشعار ــ الذي يبدو أنه ينتشر دائماً في أوقات الاستبداد ــ يحاول أن يعيد الطمأنينة الى النفوس ، وأن يستنهض الهمم ، ويذكر أبناء الأمة بأنهم يجب ألا يكونوا مجرد رعية، بل يجب أن يعرفوا أنهم مواطنون ،والمواطن له مصلحة في وطنه ، وله دور في اختيار حكومته « ومتى كان الحاكم خاضعاً لشروط، كان منصوباً بيد الأمة ، وليس بناصب نفسه بنفسه ، ومتى كان كل فرد من الأمة عضواً أساسياً فيها كان بالطبع شريكاًفي نصب الحكومة فان حرست الحكومة الكيان ، وأقامت العدل، في أمة من الأمم كان ثمة ربح لكل فرد من أفراد الأمة ، وان لم تفعل ذلك كان هناك خسر على كل أحد من آحادها ، وبديهي أن الأمة التي لا تتقن الحساب ولا تتوسل لدفع أسباب الخسر ، ليس لها أن تشكو غير نفسها • أما الأمم الميتة ، المستسلمة للمتغلب فانها جديرة اذا لم تر العدل أن تقول كما يقول العبد المظلوم المهان : لم يشبعني سيدي ، لم يكسني، لم يرحمني ، لم يخفف عني التعب • ولكن ماذا تفيد العبد هذه الشكوى ، اذا كان لايملك حيلة سواها • وما أشنعها من مهانة اذا ابتليت بمثلها أمة من الأمم »(٤٢) •

بهذه العبارات الشديدة اللهجة يحاول الزهراوي أن يوقظ ما تبلد من الأحاسيس ، ويستنهض ما نام من المشاعر ، ويحاول أن يزج بكل مواطن في خضم الحياة العامة ، وفي لجة العمل السياسي • ويذكر المواطنين بأن الظلم الذي ربما يكون واقعاً على الأمة ما كان ليقع لو أن كل مواطن انبرى لمقاومته ، وخرج عن صمته ، وخرج من عزلته « ان دفاع الباطل واجب من أول الواجبات ، والتقاعد عنه اثم وخطيئة من أول الآثام والخطيئات ، واعلموا أنه لا يتنزه عن الوقوع في الخطأ فرد ولا أمة من الأمم • ولذلك لا يكون الحساب شديداً على خطأ صدر فبادر الفرد أو الأمة الى التطهر منه • وانما يشتد الحساب في الخطيئات التي يهمل الواقعون فيها أمرها ••• وعدم المبالاة بعاقبة أمرها • ويكون الجزاء في مثل هذا التمادي شديداً » (٤٣) •

ويرجع الزهراوي بذلك ، الظلم والقهر الذي يعاني منه المواطنون ، الى سلبية هؤلاء المواطنين ، وابتعادهم عن ابتدار حقوقهم كمواطنين ، وعدم مقاومتهم لذلك القهر والظلم ، والاكتفاء بالشكوى ، وما كان للشكوى في يوم من الأيام ، أن تعيد حقاً ، أو تردع ظلماً •

« يشكو الناس كما كانوا يشتكون أمس، ولكن ماذا تنفع الشكوى اذا لم تكن معها روح مقاومة ، تالله لو ظلت الأمم طول دهرها حليفة الشكوى مع عدم روح المقاومة لما زال عن رأسها المتغلبون ، الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ويكرهون أن يناقشوا بما يفعلون » (٤٤) •

ويدرك الزهراوي أن المقاومة تعني المعاناة والمكابدة وتحمل الأعباء والتبعات الثقيلة ، لذلك فهو يهيب بالمواطنين لتحمل تبعات المقاومة لأنه « كما لا يحسن التأفف من تحمل أعباء ما يسد به الجوع مثلا ، لا يحسن أيضاً التأفف من تحمل أعباء ما به كفالة عزة النفوس » (٤٥) ويضيف مخاطباً كل فرد من أفراد الأمة « أحب أن أذكرك بأن الانسان لا يليق به أن يقدم على عزة نفسه ونفوس قومه شيئاً ، وبديهي أن لا عزة مع الاستعباد »(٤٦) ٠

الدعوة للحرية ومقاومة الاستبداد :

الزهراوي رجل سياسة ، وهو سياسي ذكي ، يكره الاستبداد لأنه يختق الفكر ،ويسد المنافذ على العمل السياسي الحر ٠ لذلك لاغرو ان بدأ الزهراوي حياته العامة مناضلا ضد استبداد السلطان عبدالحميد حيث لم يرهبه البطش ، ولم ترهبه الجواسيس ، بل بدأيطبع جريدته السرية على الجلاتين ويوزعها فاضحاً فيها سيئات الحكم المستبد الغاشم في وقت كان فيه الناس يخافون من الجدران أن تنم عليهم ، فراحوا يتسابقون في الرياء ، والسعيد عند نفسه من رأى أنه أجهر الناس وأفصحهم وأبلغهم في مدح ذلك الحاكم المطلق »(٤٧) أما هو فقد انبرى لمقاومة الاستعباد والاستبداد لأنه رأى فيه مذلة أية مذلة لقومه وأمته ٠

وبعد أن تم القضاء على ذلك الحكم المطلق الرهيب ظلت النفوس متهيبة من الولوج في ميدان العمل العام ٠ فكانت مهمة الزهراوي كما سبق وذكرنا استنهاض الهمم فبعد أن يذكر بفظائع العهد البائد « أن السيئة العظمى التي هي غلبة الاستعباد ولا أقول الاستبداد قد زالت بحول الله ٠ وأعظم ما يجب علينا اليوم هو سد كل المنافذ التي يخشى أن تعود تلك السيئة من جهتها ٠ نعم ان الروح الذي كان سائداً في ذلك العهد هو روح الاستعباد ٠٠٠ حتى لقد أصبح من أبده الأشياء أن يقول الناس أجمعون نحن عبيد السلطان ، وعبيد الحكومة ، وصار أحب الألقاب الى المقربين لقب العبد الخاص »(٤٨) ويستمر بتذكير المواطنين تلك الفظائع التي شملت كافة شرائح المجتمع « فالأفراد من العسكر كانوا يخدمون في تلك العسكرية ثماني سنين وتسع سنين في الغالب ٠٠ وأكثرهم لايفرحون بلباس جديد يناسب الانسان طول هذه المدة وبعضهم تأتي عليهم ظروف لا يكفون فيها ألم الجوع »(٤٩) ٠ و « المغرمون بالمعارف مثلا قد حيل بينهم وبين المباحث والكتب الاجتماعية والسياسية ،وحرم عليهم اقتناء شيء من تلك الكتب تحريماً يؤيده العقاب الشديد اذاوقعت المخالفة (٥٠) و « لا تسل عن حالة الفلاح المسكين ، فان الاستعباد قد أناخ عليه بكلكله حتى تركه لا يستفيد من كل متاعبه المتمادية الا أخشن العيش مشوباً بالذلة والمهانة »(٥١) والصناع « قد أنهكتهم تلك العسكرية التي وصفناها آنفاً حتى أصبح الفلاح الموصوف آنفاً أحسن حالا منهم »(٥٢) ٠ والتجار بحكم صلاتهم التجارية مع الأمم الأخرى « كانوا يعرفون الفرق بين البلاد التي تتجلى فيها حقوق الانسان من حيث انه انسان ، وبين البلاد التي يقول أهلها نحن عبيد الحكومة »(٥٣) ٠ والأموال كانت تجبى من المواطنين تحت أسماء شتى « كثير منها غير مرتبط بقانون مستمر، ومن تلك الأسماء : الاعانات ، والقروض الجبرية ٠٠٠ »(٥٤) ٠

بعد أن يذكر الزهراوي المواطنين بمآسي وفظائع العهد البائد والتي كانت نكهتها ما تزال تحت أضراسهم ، يهيب بهم للانخراط في

العمل السياسي « للحصول على العزة التي يجب أن يتمتع بها كل انسان • أحب أن أذكر بأن الانسان لا يليق به أن يقدم على عزة نفسه ونفوس قومه شيئاً ، وبديهي ألا عزة مع الاستعباد »(٥٤) ويعود ليوضح لهم العزة الحقيقية ويبين لهم كيف أن الأبهة التي كان يبدو فيها بعض رجالات العهد الماضي ليست الا وهماً « فأولئك الذين كانوا يظهرون أمام الناس بمظهر الأعزاء ، كانوا في الحقيقة يتحسرون على العزة أحياناً كثيرة ، وان علت لهم القصور والشرفات ، لأنهم كانوا لا يأمنون على النعيم الذي فتنوا به ، حتى ينتموا الى عظيم من آلات الاستعباد » (٥٥)

ويعود ليذكر بالظلم فيقول اذا كانت تلك حال الذين أتيح لهم الوصول الى ذلك العظيم من آلات الاستعباد فكيف كانت حال المواطنين العاديين الذين لا حامي لهم « لقد أصبحوا مع الاستعباد يكرهون الحياة كلما أخذتهم هزة من حب الشرف وعزة النفس »(٥٦) •

ولكن هل كان بامكان الدستور أن يكون تلك العصا السحرية التي ما ان تحس شيئاً حتى تشفيه من عطبه • وهل استطاع النظام النيابي الذي رافق الدستور أن يغير الواقع المأساوي الذي كانت تعيشه البلاد • الحقيقة تقول ان شيئاً لم يتغير ، ولم يتحسن • وقد ظن الزهراوي في البداية أن ذلك يعود الى ثقل التركة التي خلفها النظام الحميدي ، وأنه لا بد من مرور زمن كاف لتعود الأمور الى نصابها «فمن كان حسب أن الدستور يعمر الدنيا، ويصحح أخلاق الموظفين وغير الموظفين ، ويعطي قوة عظيمة أمام الأجانب ، ويشفي الاخاء الوطني من مرضه ، كل ذلك في يوم ، أو أسبوع ، أو عام ، أو عامين فانه قد ظن خطأ ، وسها في الحساب »(٥٧) •

ولكن الانتظار طال وطال بالزهراوي وبالمواطنين دون أن يتغير شيء • بل ان الاتحاديين قد انحرفوا بالانقلاب الى دروب مظلمة من التعصب الأرعن • وبقي الظلم والاستعباد ، بل زادا • عندها رفع الزهراوي صوته من جديد منددا بالظلم: «الذين كانوا يعلمون عبدالحميد دروس الاستبداد ، والذين كانوا يعملون بأمره كل شيء ، مما جاز ومما لم يجز ، والذين كانوا من عبيده الصغار ومن عبيد عبيده ، والذين كانوا من السعاة والوشاة له بحق الأبرياء ، والذين كانوا يتمنون أن يكونوا من مقبلي أعتابه ، وخدام أبوابه ، كل هؤلاء رأيناهم يتسنمون مقامات عالية متنوعة في هذا العهد أيضاً • رأينا الذين كانوا معروفين بالرشوة لا يزالون في مراكزهم ، والموصوفين بالجهل ما فتئوا في مواقعهم • أما العدد القليل الذين طردوا اذ ذاك فقد تبين فيما بعد أنهم لم يطردوا لأنهم جهلاء أو مرتشون ، بل كان ذلك انتقاماً منهم لبعض الأشخاص • ثم تبين أن من دخلوا حديثاً في الوظائف هم من قبيل أولئك الذين تقدموهم • كان الناس قد سئموا من موظفين مغرورين ، منفوخين بمن ينتمون اليه من بعض كبار الرجال في العاصمة • وقد رأينا عدد هؤلاء المنتمين زاد أضعافاً مضاعفة ، اذ قد فتح لهم باب جديد ، أوسع من الأبواب السابقة • وهو باب الجمعية « جمعية الاتحاد والترقي »(٥٨) • وزاد في الطين بلة انحراف بعض الذين كانوا بالامس من أشد الدعاة الى الدستور فبعض الذين كانوا يكافحون الظلم والاستعباد أيام السلطان عبدالحميد بعد أن أتيح لهم القفز الى مراكز السلطة اذا بهم « أميل الى ما كانوا يقاومونه ، وأحرص على ما كانوا يزهدون فيه وأكثر استعداداً له»(٥٩) « وان نفراً من الذين كانوا يطلبون الدستور أيام كانوا فقراء صعاليك لا يؤبه لهم ، أصبحوا

يدوسون الدستور ، ويهتكون حرماته ، لما اعتلوا بفضله وصاروا أغنياء. وهم لايزالون يقولون نحن أنصار الدستور »(٦٠) وما أشبه الليلة بالبارحة . وقد راع الزهراوي سعي هؤلاء لاشعال الفتن ، واثارة القلاقل . لأنها تخلق لهم الجو المناسب للاستغلال والارهاب. فهم « لا يحبون أن تخلو البلاد من القلاقل ، ليستعينوا بها على خدع المغفلين ... فهم كلما كثرت القلاقل ازدادوا تمكناً من الايهام، واتهام من يخشون من الرقباء والمناظرين ، وازدادوا تضليلا للأفكار بأنه لا يجوز والحالة هذه التهجم عليهم »(٦١) . ويندد الزهراوي بهذا الانحراف ويهدد من مغبة الاستمرار والتمادي فيه « هكذا يفعل هؤلاء ، وهكذا سيفعلون وسيظلون فاعلين ما داموا ، وكذلك سيفعل من يرث مراكزهم ، وبسبب هذا لا يرجى أن تنتهي الحروب الداخلية في هذه البلاد »(٦٢) .

فالزهراوي ضد الاستبداد أياً كان مصدره وهو قد استل قلمه ليفضح أساليب الاستبداد الرهيبة وليبين كيف أن زبانية الاستبداد لايتورعون عناثارة القلاقل ليتسنى لهم كم الأفواه ، وتسليط سيف الارهاب لأن التهمة التي تنتظر كل معارض هي العمل ضد الأمن وضد المصلحة العامة ، والتعاون مع العدو ودائماً هذه حجة المستبدين في كل زمان ومكان حيث يربطون بين مصالحهم الشخصية، ومصلحة الوطن بديماغوجية كريهة .

واذا كان الزهراوي قد لاقى ما لا قاه على يد زبانية النظام الحميدي فان ما لا قاه من طغمة الاتحاديين كان أدهى وأمر فهم لم يرقهم عناد الزهراوي ودفاعه الدؤوب عن الحرية ، وعن حق كل جماعة في الاعتزاز بنفسها ولسانها وتراثها . فالاتحاديون الغائصون في مستنقع التعصب العنصري حتى آذانهم لا يسعهم أن يقبلوا من قائل أن يقول : « نحن لا يغيظنا أحد في الدنيا يدعو قومه الى التزيد من المجد، ولا نقبل من أحد أن يغيظه منا دعوة الى مثل ذلك . انا لنعلم أنه يوجد فيالدنيا منيغفرون لكل الشعوب التداعي الى طلاب المجد وترديد صداه الا للعرب . فعلينا أن لا نظن بسبب هؤلاء المهاويس (الاتحاديين) أن الدنيا كلها أصبحت تكره العرب »(٦٣) .

واذا كان الاتحاديون يتبرمون من معارضة الأحزاب الأخرى ويتهمونها بأنها ضد الدولة، وضد وحدة أراضيها فان الزهراوي على النقيض من ذلك يدعو الى انشاء الأحزاب وتعددها . وهو نفسه قدشارك في تأسيس العديد من الأحزاب وانتمى الى معظم الأحزاب والمنتديات والجمعيات التي كانت معروفة(٦٤)ويبرر دعوته لتعدد الأحزاب « بأن التخالف لا يزول ، ولكن له آداب . والتنازع لا يبطل ، ولكن له سنن . والحق تختلف فيه الأفكار ، ولكن التفاهم ممكن ، لأن الأفكار قابلة للتحول، وقبول النصح»(٦٥) وبرأيه أن تعدد الأحزاب وسيلة ناجعةللوقوف أمام الاستبداد . « لا بد من الوقوف أمامنافذ الاستبداد ، ومظان الاعوجاج ، وانه اذا لم يقم بذلك بعض الأحزاب السياسية ، لسبب من الأسباب ، في زمن منالأزمان ، مست الحاجة الى غيره . فانه اذا ثبت أنه يوجد في الأمة من يريدون التغلب على كل أحد من غير أن يعترض عليهم أحد ، وكان لا يوجدالا حزب واحد موافق ، كان هناك اما الاتفاق التام على عصمة أولئك المتغلبين عن الخطأ ، والرضاء التام باستبدادهم . واما موتأوجب سكوت الأكثرين أمام تغلب الأقلين ... ولا ينفي علائم الموت الا شهادة عيانية بقيام حزب معترض مجادل فيها ، يقف أمام الكثرة والقلة ، ولا تثنيه الألقاب التي يخلعها عليه الحزب الآخر وأنصاره »(٦٦) .

وإذا كان الاتحاديون قد أشرعوا سيف التسلط والارهاب بحجة حماية وحدة البلاد فان الزهراوي وان كان مع الاتحاد العثماني الا أنه يرفض كما سبق وذكرنا أن يستأثر الآخرون بالسلطة والسيادة والقيادة من دون قومه العرب • بل انه لا يرضى أن تستأثر أية جماعة أيا كانت بشيء من دون بقية الجماعات وهو يرى أن المنهاج اللائق الذي يحقق ذلك هو النظام البرلماني فقد كان شديد الايمان بنجاعة هذا النظام لأنه يكفل لكل انسان من حيث هو كذلك ، وبغض النظر عن أية اختلافات ، حقوقه وكرامته وعزته وحريته ، ولا سيما حرية القول • مما يجعل الطريق ممهداً لمشاركة كل فردفي شؤون أمته ووطنه•

الدعوة الى العدل :

كان من الطبيعي والمنطقي أن تقود مقاومة الزهراوي للاستبداد ، ودعوته الى الحرية • الى أن يكون داعية من دعاةالعدل•

وتمشياً مع فكرة المنفتح على الانسانية، فانهلم يكن يطلب العدل لنفسهأو لقومهفقط• بل كان يسعى لأن يشمل العدل كل الأقوام والجماعات • وكان يعتقد أن المجتمع الذي لا عدل فيه يسير الى الخراب « اي والله الى المذلة والبوار ينقلب المجتمع الذي لا عدلفيه• وهذا هو الذي يجعلنا ندخل هنا العدل مع بحث حب النفس والتعصب • فان من أحب نفسه وقومه ودينه وكل ما هو من توابع حب نفسه ، كان من البديهي أن يرجو لكل هذه الأشياء العزة وطول البقاء ومتى علم أن العزة والبقاء يرافقان العدل ، والذلة والبوار يصحبان الظلم ، كان أحب شيء اليه العدل ، وأبغض شيء اليه الظلم ، وحينئذ يكونتعصبه للعدل ، وبالعدل ، ومنتجاً للعدل »(٦٧) •

وهو يدعو الفئات القليلة الى عدم الجزع اذا كانت تعيش في وسط يعمه الظلم ،وينعدم فيه العدل ذلك أنه يرى ببصيرته النافذة « أن المحيط الذي لا عدل فيه، لا ينبغي أن يجزع القليلون فيه على أنفسهم، فان أولئك الكثيرين الذين فيه لاحقون بهم الى الذلة ثم البوار ، وبئس القرار • »(٦٨) •

الدعوة الى العلم ، والاستفادة من تجارب الآخرين :

قلنا ان الزهراوي يمقت التقوقع ضمن أوهام التعصب ، وكان عنده من الثقة بنفسه وقومه ما يجعله غير هياب من الانفتاح على الآخرين « ان ما عندنا من النور يكفيناويكفي العالم للسير على المسالك الصالحة لاجتماع الشعوب »(٦٩) ولكنه مع ذلك ليس مترمتاً في الاغترار بهذاالنور كما يفعل بعضالجامدين• بل انه يدعو الى أن يحتكم المرء الى عقله في كل الأمور، دون أن تلهيه عن ذلك ضجةالشعارات المحيطة به ، ودون أن تخدعه العواطف المتأججة ، لأنها وقتية سرعان ما يزول أثرها « أما الذي يترك الباقيات الصالحات من الآثار فهو تجاوب العقول والعزائم »(٧٠) ولذلك فالزهراوي لا يعول كثيراً على شنشنة الخطب الحماسية والمقالات النارية التي تدبجها الجرائد • انما يعقد الأمل على « غلبة المستمسكين بالعلم الصحيح على المستمسكين بعقول غيرهم »(٧١) لذلك فهو يعيب على الكثيرين « أخذهم على العمياء » أقوالسواهم دون تمحيص أو روية ••

وبالرغم من زيه الديني ومن ثقافته الدينية لا يتورع عن الدعوة الى الأخذ بعلوم الغرب والاستفادة من تجاربه • ويدعو أبناء قومه لئلا تشغلهم عداواتهم مع الأوربيين عن الاستفادة منهم •

« لا نقول ان أوربا لا يأتينا منها شر ، وانما نقول قد أتانا ويأتينا مع شرها خير · فعلينا أن نعد أنفسنا بالعلم الصحيح ،والذوق السليم ، لتمييز خيرها من شرها · وعلينا اذا ذكرنا أبواب شرها ألا ننسى أبواب خيرها ، فان هذا أقرب الى ما يسمى بالانصاف » (٧٢) وهو يذكر بما استفاده الشرق من أوربا « ومن مظاهر رقي الأمة ، انتشار المعارف والفنون الحربية · ومن ذلك انتشار الأفكار بواسطة المدارس ، والصحافة ، وتقدم الصحافة والطباعة ، وكل ذلك مقتبس من أوربا »(٧٣) ·

التنديد بالتعصب (٧٤)

كنا قد قلنا ان الزهراوي ضد كل أنواع التعصب الديني والجنسي (القومي) ، وبينا فيما يتعلق بالاختلاف الجنسي كيف أنه كان منصفاً عادلا لا يطلب لقومه ما لا يطلبه لسواهم · وكيف انه قرر أن من حق كل جماعة (شعب) أن تطلب المجد والرفعة والسؤدد · وأن تسعى ليكثر فيها العلماء والأدباء والمفكرون ··· والذي يهمنا الآن أن نسلط الضوء على موقف الزهراوي من التعصب الديني · والزهراوي وان كان يحمل على رأسه عمامة علماء الدين الاسلامي الا أن عقله كان أوسع بكثير من أن يحده التعصب المقيت « ما أسبق الناس ، كلما حدثت حادثة ··· الى تحريك سلاسل الدين، وما أكثر نسيان الناس للتجارب · ينسى الناس سيئات أنفسهم ، وخطيئات حكوماتهم ، ويعمدون الى ادعاء أن عدوهم لم يتهجم عليهم الا لأنهم مخالفوه في الدين ··· وينسى الناس أن وطننا مؤلف من أقوام دياناتهم متخالفة،وأنه ليس من الحكمة، ولا من اللباقة الفزع الى النعرة الدينية»(٧٥)

لذلك فهو يرفض أن تكون الحروب التي تشنها أوربا في لك الحين على الشرق ،حروباً دينية محضة· فهو يعيدها الى أسبابها الحقيقية « اللهم هل هذا كاف في تذكير الناس أن هجوم الغرب على الشرق ليس هو هجوم دين على دين ، وانما هو هجوم قوة على ضعف ،وعلم على جهل ، وغنى على فقر · فانظروا وتساءلوا لماذا أنتم ضعفاء »(٧٦) ·

مع العلم أن الزهراوي قد فطن الى استغلال أوربا للدين وكيف تموه حقيقة مطامعها بثروات الشرق وأسواقه وتغلف كل ذلك ببراقع مقيتة وتدعي حماية المسيحيين · وهو يجادل الأوربيين بأن الخلافات التي تحدث بين الجماعات لا يمكن أن تعود الى اختلاف الدين « كيف ننسب تعدي بعض المسلمين على بعض المسيحيين الى الدين ؟ وننسى الذي يقع مثله ألف ألف مرة من تعدي المسلمين على المسلمين · لعمرك نحن أكثر انصافاً ، اذ لا ننسب ما نعرفه من أحوال هؤلاء الأوربيين الى دينهم ، كما ينسبون أحوال بعض أفراد أو طوائف منا الى ديننا »(٧٧) ·

وتأخذ الزهراوي العزة بعروبته ، وبتراثه الاسلامي السمح فيخاطب أبناء قومه مسيحيين ومسلمين : « فياليت شعري ، ألا يقوم في شرقنا المبارك، من أبناء وطننا من المسيحيين، من يردون دعوى هذه « الحماية » في وجوه الأوربيين ، ويقولون لهم : ان بقاءنا في هذا الوطن منذ ثلاثة عشر قرناً دليل على أن أسلافنا لم يكونوا محتاجين الى من يحميهم · ثم يا ليت شعري ألا يقوم في هذا الشرق المبارك من المسلمين من يزيحون ما نسجته عناكب الاهمال على هذه القاعدة التي يحق لنا أن نفاخر بها كل القواعد الأساسية التي عند الأمم · ونعني بها القاعدة التي تجعل لغير المسلمين ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين « لهم ما لنا وعليهم ما علينا »(٧٨) ·

وقد كانت حياة الزهراوي ،وعلاقاته، وصلاته الشخصية مؤكدة صدق دعوته لنبذ التعصب • ونحن نراه في كل حالاته معاضداً لكل دعوة حق كائناً من كان قائلها • بل ان ليلة استشهاده لتشهد بصدق لهجته ، أو لم تتعانق روحه الطاهرة مع روح صديقه وابن مدينته (رفيق رزق سلوم) فكان استشهادهما معاً دليلا لا يأتيه الباطل على تجاوز الزهراوي لنعرة التعصب •

وبعد فقد قدمنا بعض آراء الشهيد عبدالحميد الزهراوي والتي بدا من خلالها داعية حرية وعدالة يتميز أكثر مايتميز بصدق اللهجة ، وحرارة الأسلوب والدأب على النضال والكفاح تحت كل الظروف • واذا كان (منير مشابك موسى) قد وصف الزهراوي بأنه لم يكن عميق التفكير ولم يكن يملك ثقافة عصرية فربما كان السبب الذي دفع (منير مشابك موسى) الى اطلاق مثل هذا الحكم ، كما سبق وذكرنا ، عدم مراعاة الظروف التي كتب فيها الزهراوي مقالاته فالمقالات التي اعتمد عليها (منير موسى) والتي كانت مرجعنا الأساسي في هذا الموضوع هي مقالات صحفية وليست بحوثاً علمية بمعنى بأن ما قد نحسبه سطحية في التفكير انما نجم عن اضطرار الزهراوي للتبسط لأن مقالاته موجهة الى القارىء العادي • بل انني أرى في بساطة وسهولة أسلوب الزهراوي أثناء معالجة موضوعات سياسية واجتماعية دليلا على تمكن الزهراوي من تلك الأفكار والموضوعات • أما القول بأن دفاع الزهراوي عن الرابطة الاسلامية و (العثمانية) كان أقوى من دفاعه عن العروبة فهو قول أخذ على عواهنه • دون تمحيص • ذلك أن الفكرة القومية عند الزهراوي ليست خافتة الصوت ، ولم تكن ضائعة في خضم دفاع الزهراوي عن(العثمانية) بل اننا لنجد لديه من الوعي القومي ما لا يقل عن أي داعية قومي آخر ولا أعرف كيف يتهم أحد عبدالحميد الزهراوي بالتخلف في ميدان القومية وهو الذي قدم روحه ذكية على مذبحها • كل ما في الأمر أن الرجل صاحب فكرة تقول بتقديم (سائق العمران والاجتماع) على سائق الدين وسائق الجنس • ولعمري ان هذه الفكرة أقرب الى الفكر القومي منها الى الفكر الديني • هذا الى جانب موقف الزهراوي المشهود من أعمال الاتحاديين وعنصريتهم فكان يدعو لازالة فكرة العنصر المتحكم من الأفكار وليس من قاموس السياسة فحسب • ويتهم الاتحاديين بالعنصرية وبأنهم مجرد دلالين وسماسرة في سوق (الاتحاد) •

وكما سبق وذكرنا فان الرابطة التي كان يدافع عنها الزهراوي ليست شيئاً أكثر مما تفعله الدول الأوربية في التجمعات الاقليمية مع بقاء كل أمة محتفظة بكيانها ومقوماتها • وهذا ما لم يكن ليرضي الاتحاديين الذين حاولوا احتواء الزهراوي بشتى الوسائل، الترهيب منها والترغيب • ولكن كل تلك الوسائل لم تفلح في ثنيه عن عقيدته السياسية والفكرية الأمر الذي كلفه بعد ذلك روحه حيث دفعها فداء لصدق لهجته ، وصدق دعوته ، وصدق مواقفه • ورحم الله شهيدنا الذي يكون بتقديمه روحه ودمه قد مهر أقواله وأفكاره بجلال الشهادة ، وعظمتها ، ووقارها •

محمد راتب الحلاق

الهوامـش :

١ ـ تنتسب اسرة الزهراوي الى الحسن بن علي ، ويطلق على كل فرد ينتمي الى الأسر التي تنتمي للنسب الشريف لقب (السيد) ٠

٢ ـ د٠ جودة الركابي و د٠ جميل سلطان ٠ الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهـراوي ٠ ص ٦ ٠ « وسنكتفي بعد الآن بذكر رقم الصفحة » ٠

٣ ـ المصدر السابق ، المقدمة ٠

٤ ـ أشار الامام محمد عبده الى هـذه الحادثة في مقـال لـه نشرته دار الهلال مع مقالات اخرى في كتاب حمل اسـم (الاسلام بين العلم والمدنية) وفي الصفحة ١٥٩ ٠ حيث أن الزهراوي اعتبر أن الصوفية ليس مما انتفع به الاسلام بل ربما تكون مما رزيء به ٠ وقد قال ذلك في وقت يتسنم فيه ابو الهدى الصياوي (وهو من هو في الاغراق والتطرف بالتصوف) منصب شيخ الاسلام ٠

٥ ـ منـير مشـابـك موسى ، الفكـر العربي في العصر الحديث ، ص ٢٣٨ ٠

٦ ـ د٠ عبدالكريم رافق ـ العرب والعثمانيون ، ص ٥٤٣ ٠

٧ ـ د٠ الركابي وزميله ، المقدمة ٠

٨ ـ الى جانب مقالاته الصحفية ترك الزهراوي مجموعة آثار منها : رسالة الامامة وشروطها ، رسالة في الطلاق ، رسالة في الفقه والتصوف رسالة في الحب والبغض ، كتاب خديجة أم المؤمنين ـ كتاب في الفقه ، رسائل في النحـو والبلاغة والمنطق ٠

٩ ـ د٠ الركابي وزميله ، ص ٣٧٢ ٠

١٠ـ د٠ الركابي وزميله ، ص ٣٧٣ ٠

١١ـ المصدر السابق ، ص ٣٨٩ ٠

١٢ـ المصدر السابق ، ص ١١٣ ٠

١٣ـ المصدر السابق ، ص ١٢ ٠

١٤ـ المصدر السابق ، ص ٢٩ ٠

١٥ـ المصدر السابق ، ص ٢٩

١٦ـ المصدر السابق ، ص ٠

١٧ـ منير مشابك موسى ، ص ٢٣٠ ٠

١٨ـ د٠ الركابي وزميله ، المقدمة ٠

١٩ـ د٠ منير موسى ، ص ٢٣٠ ٠

٢٠ـ د٠ منير مشابـك موسى ٠ الفكـر العربي في العصـر الحديث ، ص ٢٣٠ ٠

٢١ـ الامام محمد عبده ٠ الاسلام بين العلم والمدنية٠ ص ١٦٥ ٠

٢٢ـ الركابي ، المقالات ، ص ٥١ ٠

٢٣ـ المقالات ٠ ص ٥٢ « الركابي » ٠

٢٤ـ المقالات ، ص ٥٣ « الركابي » ٠

٢٥ـ المصدر السابق ، ص ٥٤ ٠

٢٦ـ المصدر السابق ، ص ٥٦ ٠

٢٧ـ٢٨ـ د٠ الركابي وزميله ، ص ٥٦ ٠

٢٩ـ د٠ الركابي وزميله ، ص ٥٧ ٠

٣٠ـ الركابي وزميله ، مقدمة الكتاب ٠

٣١ـ الركابي وزميله ، ص ١٠ ٠

٣٢ـ الركابي وزميله ، ص ١١ ٠

٣٣ـ المصدر السابق ، ص ١١ ٠

٣٤ـ المصدر السابق ، ص ١١ ٠

٣٥ـ د٠ الركابي وزميله ، ص ١٣ ٠

٣٦ـ د٠ الركابي وزميله ، ص ٤٧١ ٠

٣٧ـ المصدر السابق ، ص ١٦ ٠

٣٨ـ المصدر السابق ، ص ١٧ ٠

٣٩ـ المصدر السابق ، ص ١٨ ٠

٤٠ـ المصدر السابق ، ص ٥٨ ٠

٤١ـ المصدر السابق ، ص ٣٤٩ ٠

٤٢ـ المصدر السابق ، ص ٣٤٨ ٠

٤٣ـ المصدر السابق ، ص ٣٦١ ٠

٤٤ـ المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

٤٥ـ المصدر السابق ، ص ١٢ .

٤٦ـ المصدر السابق ، ص ٦ .

٤٧ـ المصدر السابق ، ص ٥ .

٤٨ـ المصدر السابق ، ص ٤ .

٤٩ـ المصدر السابق ، ص ٤ .

٥٠ـ المصدر السابق ، ص ٥ .

٥١ـ المصدر السابق ، ص ٥ .

٥٢ـ المصدر السابق ، ص ٦ .

٥٣ـ المصدر السابق ، ص ٦ .

٥٤ـ٥٥ـ المصدر السابق ، ص ٦ .

٥٦ـ المصدر السابق ، ص ٧ .

٥٧ـ المصدر السابق ، ص ١١ .

٥٨ـ المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

٥٩ـ المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

٦٠ـ المصدر السابق ، ص ٣٠٨ .

٦١ـ المصدر السابق ، ص ٣١٦ .

٦٢ـ المصدر السابق ، ص ٣١٧ .

٦٣ـ المصدر السابق ، ص ٢٩ .

٦٤ـ شارك في تأسيس حزب (الحرية والاعتدال) ثم حزب (الحرية والائتلاف) كما انه كان عضوا في كثير من المنتديات والجمعيات والأحزاب « انظر كتاب دمشق في مطلع القرن العشرين » .

٦٥ـ د. الركابي وزميله ، ص ٢١٤ .

٦٦ـ المصدر السابق ، ص ١١٤ .

٦٧ـ المصدر السابق ، ص ٢٨ .

٦٨ـ المصدر السابق ، ص ٢٨ .

٦٩ـ المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

٧٠ـ المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .

٧١ـ المصدر السابق ، ص ٣٣٩ .

٧٢ـ المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .

٧٣ـ المصدر السابق ، ص ٢١٠ .

٧٤ـ نقصد التعصب المتطرف المقوت الذي يؤدي الى ضيق الأفق .

٧٥ـ المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

٧٦ـ المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

٧٧ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

٧٨ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

□ ● □

مراجع البحث :

١ ـ مقالات الشهيد عبد الحميد الزهراوي في جريدة الحضارة في سنتها الثانية والثالثة . وقد جمع هذه المقالات في كتاب يحمل اسم الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميدالزهراوي » كل من الدكتور جودة الركابي والدكتور جميل سلطان .

٢ ـ الدكتور عبد الكريم رافق ـ العرب والعثمانيون (١٥١٦ ـ ١٥١٧) .

٣ ـ الدكتور منير مشابك موسى الفكر ـ الغربي في العصرالحديث .

٤ ـ الدكتور توفيق برو ـ القومية العربية في القرن التاسع عشر .

٥ ـ احمد امين ـ زعماء الاصلاح في العصر الحديث .

٦ ـ محمد عبده ـ الاسلام بين العلم والمدنية .

٧ ـ مجلة المستقبل العربي اللبنانية ، نيسان ١٩٨١ .

٨ ـ مجلة العربي الكويتية ، تشرين الأول ١٩٨٠ .

شمعة عمر بن عبد العزيز [1]

■ شمعة في التاريخ اضاءت بالكفاف وانطفات بالعفاف ■

نذير الحسامي

يا ابـن عبـد العـزيز يا حامل الشمــس تلالا ، على مـدى الليل ، شـمعه
كسفت بـارق الشـموع وكـانـت   مـن نجـوم السـماء أجمـل طلعـه
ومشت في العصور ، تطـوي الدياجي   شـهب الليـل ، وهي تزداد رفعـه
صدعت بالهــدى الضـلال وعاشت   لا تبالي في المدلهمــات صدعــه
نورهـا الحـق ضـاء فيـه فلـم يكـذب حمـى أهلــه ولا خــان ربعــه
يسـتظل المكـدود فيهـا فتحميــه فيسـعى في زحمـة الأرض وسعه
ويراهـا الغـريـق في حلـك البغي   فينجيــه مـن سناهـا أشـعه
لم يَخَفها طـاو الى الضوء يعشـو   انمـا خافهـا الـذي سـلّ شِبعـه !
شـمعة المـؤمنين مـلء الليـالي   يا أمـيري لم تـذر في الافـك دمعـه
دَر أجفـانهـا حـلال لمضنــى   جاءهـا يشتفي بأكـرم رضعـه
تحضن الأعـزل المحطـم جنحـاه   فتحيـي بضمـة الـرفق ضلعـه
يتـراخـى جنـح الظـلام وتأبى   ذوبانا والصبـح يمسـك نبعـه
يقظـات المعذبين الحـزانــى   أخـذتهــا فطلقت كــل هجعــه

١ ـ المعروف عن الخليفة الراشد صاحب الشمعة انه كان اذا انقطع عن النظر ليلا في الأمور العامة لينظر في خاصة من امره اطفا الشمعة التي يستضيء بها وهي من بيت المال وأشعل شمعة من ماله ..

أرّقتهـــا الأشـواق في طاعـة العـدل فـردّت لجائع الليـــل ضـرعــه
سـفحـت ذوب قلبهـــا في رضـــاه فســقت أصلـــه وروّت فـرعـه
في هـــوى التائهـــين ساهـرة الأحـداق تـرمـي الـدجـى وتشـهد نزعــه
خشـع الحـب والوفـــاء بعينيهـاولـم تــدر في سـرى الليـل خشعه
ان أتـاهـا المكلـوم بالجـرح راحت بسـنا دمعهـــا تكفكـف دمعـه
يا لهـــدب مــن مهجـــة الله اشـعاع ومـــن سـلسـل النبـــوّة شِرعــه

★ ★ ★

يا أمـير الـزهـاد يا سـيد الشمعـة هـل عــودة اليهـــا ورجعـــه ؟
أنــت أغمضـت عينهـا عفـــة منـك لتحسـو مـن نـاقـع المـاء جرعــه
في رضـى الحـق ما أضـأت وأطفـأت وفي الطهـــر والهـــدى كــل بيعــه
خطـــة تنحنـي الجبـــاه عليهـــا لم تكــن كذبـــة ولــم تــك خدعه

★ ★ ★

يا نـــزيهـاً منـزّهـا سيـد(٢) الطهر عـن الطعـن وهـو في الافـك بدعــه
لم تصـل كـاذبـاً وكـــل لســان كـاذب في هـــواه آثــرت قطعــه
مـــا جعلـت الحـرام قــوت لياليـك ولــم تمتلـىء بــــه لــك قصعـه
يا أميري أيــن الحـريـر الذي عفـتَ ولم ترضـه علـى الحكـم خلعــه ؟
أفالقــــاك شاكيـاً ووشـــاحـــي فيــه مــن ميسم الخنا ألف بقعـه ؟!
طيلسـاني فـدى عبـاءتـك السـمراءتـزهـو فيهـــا بفتـــق ورقعــه
تتمنـى النجــوم لــو كــن فيهـــا شـرفـاً في العـلا ومجـداً ومنعــه
أزهـرت بالهـوى الحــلال فكـانت بشـذاهـا أنقى مـن الورد سُمعــه

★ ★ ★

يا أمـير الايمـان لـم تشـر قصـراً من نـــدى كـده ولـم تبـن ضيعــه
لــم تطأطـىء هـــوى وفي كـــل آن ســـجدة للســـماء منـــك وركعــه

٢ – الامام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وقد نزهه صاحب الشمعة عن الطعن باسمه في المنابر .

كـل فضـل رددتــه مـن كفـافالمـال للـزارع الـذي صنت زرعـه
مـن كهـذا الأمـير ينفض دنيـاه ليستاف من ثـرى الحكم نقعـه ؟!
مسـتجيب لكـل حـامـل دلـو ومجيـب لكـل طـالـب نُجعـه
تحـت نعليـه صولجـان الطـواغيت رمـاه بركلـة وبصفعـه
ان نعـاه النـاعـي مع الصبـح فـالتـاريـخ في درب ليله لـم ينعـه
يكحـل الجفـنَ من غبـار أمانيـه ويشـتـاق لـو يقبِّـل شسـعه

* * *

يا أمير الكفـاف غُضَّ جفـونـاً عن شـج في الكؤوس يرهن درعـه !
نـم غـريب الـرؤى بطهـرك عني وابـق نجمـاً لا يطمس الليـل لمعه
في نجـاسـات حمـاتـي أنـا وغـد سكرتي في مناهل الطـين متعـه !!
أتـرانـي شـردت في التيـه طـيراً ضـاع عـن أيكـه وضيَّع سجعه ؟

* * *

ايـهِ يا شمعـة العفـاف أيُلقي لنـداك الأصمُّ رحمـاك سمعه ؟
ويـل نفسـي ممـا جنيتُ عليهـا بعتهـا في المنـى الـذليلـة سلعـه !
أيـن منـي أنـا المـريـض بنتني أرج مـن هـواك لـم أرج نفعـه ؟
أتضيئـين ان زرعتـك في حـانـي أم تمسـكين حـزنـاً ولـوعـه ؟
أيـن مسـراك هـل أحسـك في قلبي حنيناً الـى الضيـاء ونزعـه ؟
أم ترودينـه شـهيق بكـاء هـو في شـدوه يـردد رجعـه ؟!
أم تـدّبـين في غـواشيه أفعـى تتمطى بلسعـة اثـر لسعه ؟
أتـراك انتحيـت منـه مكـانـاً لـم يطـف فيـه ناعب أو يَرعـه ؟

* * *

في نجـاسـات حمـاتـي أنـا وغـد سـكرتي في مناهـل الطـين متعـه !!
أتـرانـي شـردت في التيـه طـيراً ضـاع عـن أيكـه وضيَّع سجعه ؟!

ـ نذير الحسامي ـ

* * *

مقولة السوط المضفور للجاهل المغرور

لمؤلف مجهول

عُني بها وعلّق عليها وقدم لها

عبد الإله نبهان

مقدمة التحقيق

□ عرض ونقد :

تعد مقولة السوط المضفور للجاهل المغرور ، من النصوص المضيئة التي نبتت في أواخر القرن التاسع عشر ، عندما كانت الدعوة الى العلم والصناعة والتقدم والتحرر في أوجها ، وليست المقولة في أبعادها القصوى ، سوى صرخة وطني غيور ، يبغي نفخ الروح وايقاظ الموتى من سُباتهم ، وتنبيه المقول من غفلتها وتغافلها . وقد ترك المؤلف لعواطفه وخواطره العنان ، فهو ساخط غاضب يوبخ ويؤنب ويقرّع ، ويدل قومه على الطريق التي ينبغي أن تسلك ، ويهاجم العلوم التي يراها سبب التأخر والتخلف .

ان هذه المرحلة التاريخية يمكن النظر اليها على أنها من المفاصل الرئيسية في تاريخ العرب المعاصر ، وفيها برزت وتجسدت معظم المشكلات والقضايا التي كان لها شأن كبير . أولى هذه القضايا : موقف العربي من الحضارة الغربية ، ماذا يأخذ وماذا يدع وكيف ؟ أيقتصر على المنجزات المادية أم يغترف من الماديات والفلسفيات معاً ؟ وكيف يمكن له أن يحافظ على أصالته في هذا الخضم الزاخر ؟ والقضية الأخرى الهامة ، قضية التعارض المصطنع بين العلم والدين ، وهي مسألة أثارت كثيراً من الجدل ، وألفت حولها الفصول والرسائل والكتب وألقيت المحاضرات ، وامتد سلطانها الى صفحات التفاسير القرآنية التي ظهرت في هذه المرحلة التاريخية وما تلاها . والقضية كلها ــ اذا تركنا جزئياتها ــ لاتعدو أن تكون انعكاساً لموقفين : موقف بعض المتدينين الذين لم يفهموا جوهر الدين وأصوله ، فأخذوا يحاربون الحضارة والعلم باسم الدين . والموقف الثاني : موقف بعض المغرضين أو المضللين ــ بفتح اللام وكسرها مع التشديد ــ الذين أرادوا استغلال التقدم العلمي في أوربا ، ليحاربوا من خلاله الأديان ، فجعلوا يتصيدون بعض الآيات الكريمة ، أو

الأحكام ، ليعرضوها على أنها تنافي العلم والتقدم والحضارة، موهمين بذلك أنه لامناص لشعب يريد التقدم من أن يترك دينه وعلومه التقليدية المعروفة .

كلا الموقفين أثار ردود فعل مختلفة ، وسبّب ملابسات كثيرة ، وخلق مناهج جديدة في التفسير والتأويل .

ونص المقولة التي بين أيدينا مرآة صادقة تنعكس فيها هاتان القضيتان بكل أبعادهما، فالمؤلف يدعو مواطنيه ويحضهم على الاقبال على العلوم العصرية ، والتمتع بالمخترعات الحديثة ، ويلهب حماستهم بما يثيره فيهم من كوامن النخوة ، بتذكيرهم بأجدادهم وعلومهم وفنونهم ، ويثير مسألة الحضارة بالرد على بعض المتعنتين الذين لا يعترفون بفضل الحضارة الغربية ومخترعاتها الحديثة، وينسبون كل فضل لليونان ، فيرد عليهم بما معناه : اذا كنتم تزعمون ان هذه المخترعات موجودة في كتب اليونان — وكتب اليونان عندكم منذ القديم — فلماذا لم تسبقوا الغرب اليها ؟ ثم يقرّعهم بقوله : « والحال أن اللوم لا زال منصبّاً عليهم ونسبة الجهل ما برحت منحازة اليهم » . ويبين المؤلف أن هذه الفئة قد تنسب الى الكفر من يصدّق بوجود بعض المخترعات العصرية ، وقد رد على هذه الفئة أقوالها بكلام نفيس نقله من كتاب « تهافت الفلاسفة » لحجة الاسلام أبي حامد الغزالي .

ثم ضرب أمثالا من الحقائق الجغرافية التي لا تؤمن بها جماعة المتعنتين وتحاربها ، وأظهر استياءه من جهل هؤلاء القوم ، وعدم مبالاتهم بحقائق الأمور فيما يتعلق بمختلف العلوم ، ورد تعنتهم وجمودهم وحرصهم على الجهل الى أسباب نفسية شخصية ، لأنهم يحرصون على مكانتهم ويخشون أن يظهر جهلهم أمام علم الجيل الجديد ، فهم يحاربونه بالمكابرة والسخرية والانكار .

ثم شن الكاتب حرباً على الخرافات البالية التي يؤمن بها عوام الناس ومن يضللونهم، فهم لا يصدقون العلوم ببراهينها القوية وأدلتها اليقينية ، ولكنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً بخرافات ما أنزل الله بها من سلطان ، كايمانهم وتصديقهم لقصة الثور الذي يحمل الأرض ، والحوت الذي يحمل الثور ، ينسبون هذه الترهات الى مصادر عالية ليوهموا أنفسهم وغيرهم بصحة اعتقادهم وصدق ادعائهم . وقد بينت في تعليقاتي على النص مصادر هذه الأخبار ، مما يساعد على تمييز صحيحها من زائفها .

ثم حاول المؤلف أن يبين التطابق والتوافق بين الآيات الكونية وبين العلوم العصرية ، فسرد بعض تعليقات الشيخ أحمد محمد الألفي على بعض الآيات الكريمة مبرهناً أنه لا تعارض بين العلم والدين . فما موقف أنصار الجهل من هذه البراهين ؟ انهم يقولون: ان هذا البحث حرام وانه يفسد العقيدة فلا ينبغي سماعه ؟ ! .

وهنا ينبري كاتبنا ويأتي بالآيات الكريمة التي تحث الانسان على التفكير ، وتدفعه الى طلب العلم ، ويبين أن هؤلاء الجاهلين غارقون في جمع الأموال ، يبددون أوقاتهم في تكرار أحاديثهم التي تعودوها ، فهم يرددونها لا يملون ، ويعيدونها فلا يسأمون ، فهم كما وصفهم الله تعالى بقوله : (سماعون للكذب أكّالون للسحت) .

ويورد الكاتب عددا من الشواهد الشعرية التي تحث على طلب العلوم العصرية ، وتحارب العلوم التقليدية كالبديع والنحو والصرف ، ويهاجم الشعر بالشعر ٠

ثم ينتقل الى ناحية هامة وهي الاقرار بالعجز ، واظهار الدهشة العارمة أمام انجازات الحضارة الأوربية ، فعقولنا الضعيفة ـ كما يصور ـ لا تتصور عمل الكبريت الملون ، فما بالنا بالمخترعات العظيمة « كالتلفون والوابور والمكروسكوب وحافظة الصوت » فهذه هي الأمور الكبرى التي لا نستطيع أمامها حراكاً ٠ وتذكّرني هذه الدهشة والاقرار بالعجز ، بموقف الجبرتي عندما شاهد بعض تجارب كيميائية أجراها بعض ضباط الفرنسيين أيام حملتهم على مصر فقال بعد أن وصف تلك التجارب : ٠٠٠ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج **لا يسعها عقول أمثالنا** (تاريخ الجبرتي ٣٧/٣) ٠ وهذه الدهشة أمام منجزات الحضارة أمر طبيعي ومشروع ، على أن يتلوه شعور بتماسك الشخصية ، وثقة بالنفس ،حتى لا تذوب شخصية الفرد والمجتمع وتضمحل في غمرة دهشتها واعجابها ٠

ويهاجم المؤلف علوم العربية من نحو وصرف وبديع ، وكأنها هي العائق الذي يحول دون الاقبال على العلوم العصرية ، كما أنه يهاجم ألعاب التسلية وقتل الوقت المعروفة والمنتشرة في المقاهي ٠

ولما كان المؤلف ينعي على مواطنيه اهتمامهم بالشعر وما يتعلق به من بديع وبلاغة ، فانه رأى أن يرسم خطة تربوية تعليمية مفادها أن لكل مرحلة من مراحل عمر الانسان علماً يناسبها ، فالشعر من العشرين الى الثلاثين ،وبعده التاريخ ثم الهيئة ثم الجغرافية ٠٠٠ الخ ٠٠ على أنه يعود بعد ذلك ، فيقر بفضل الشعر اذا كان حسناً ، ويورد أرجوزة للشيخ حسين الجسر تتضمن الحض على طلب العلوم، ثم ينظم هو نفسه قصيدة وعظية تدعو الى مكارم الأخلاق ٠ ويضرب بعد ذلك أمثلة من الشعر الرديء الذي لا ينبغي الاعتناء به حسب رأيه٠

ولنا الآن أن نتساءل : أكان هجوم المؤلف على العلوم التقليدية منصفاً ؟ وهذه العلوم التي هاجمها ، هل هي حقاً سبب التأخر والتخلف والجهل ؟ !

اذا نظرنا بعين الانصاف ، وجدنا أن هذه العلوم كانت علوم قوم لم يكن لهم غيرها في وقتهم ، وما كان لهذه العلوم أن تعيق التقدم ، أو تقف في سبيله ، لو وجدت أسبابه وتحققت دواعيه ، وتوفر له من ينهض بأعبائه، ولو أن المؤلف كان منصفاً ومتجردا عن غضبه وانفعالاته ، لذكر أن الأوربيين كانوا ـ وما زالوا ـ يعتنون بلغاتهم ونحوها وصرفها وشعرها وبديعها وبلاغتها ، ويعقدون لها المؤتمرات ، ولا يبخلون على بحوثهم فيها بجهد ولا مال ، ومع ذلك فانهم لا يرفعون عقيرتهم قائلين ان الاهتمام بالأدب واللغة يعيق التقدم ويسبب التأخر ، فمن أين نبعت أفكار مؤلفنا؟

للاجابة عن هذا السؤال رحت أقلب صفحات المجلد الثامن من مجلة المقتطف الصادر سنة ١٨٨٣ ، لأنني أثناء تحقيقي للمقولة ، تبينت أن المؤلف قد قرأ هذا المجلد واقتبس منه ، ولم يخب ظني ، وأصابت الرمية المقتل ، فلنستمع الى « فارس نمر »ص

581 : (أيقنع علماؤنا « بخرفشة النحاة »وعلماء الافرنج قد جابوا الأقطار ، وركبوا متن السحاب ، وطاردوا قوات الكون حتى أمسكوا بنواصي البرق،وذللوا أعناق الصواعق، فانقادت اليهم صاغرة ، وأصبح عاجزهم اذانادى البروق مثلت بين يديه ، واذا أمر الصواعق أسرعت تدك الأطوار ، وتنسف الصخور ، وتفتح الأسراب طوعاً لما يريد٠٠)

انها شنشنة أعرفها من أخزم ، وانها ــ وأيم الحق ــ انتقلت الى مؤلفنا فردده امعجباً بها ، دون أن يدرك انكسار القياس وانحسار مقوما ت البرهان في أمثال هذا الكلام الفج ، فكل علم له مقوماته وفوائده ، وليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، ولا نستطيع أن نحمّل علماً من العلوم وزر التخلف والتأخر ، لأن التخلف يرتبط بطبيعة المجتمع وتكوينه الداخلي ووضعه الدولي ٠

وأسائل : لو أن أولئك الناس الذين كانوا يعنون بالبديع والصرف والبلاغة والنحو، تركوا هذه العلوم ، ولم يتح لهم من يرسلهم في بعثات الى أوربا ، فهل سيتحقق التقدم بذلك ؟ !

يبدو لي أن غضب المؤلف على التخلف والجهل ، واستياءه من سماجة العاملين في حقل العلوم القديمة ، جعله يصب جام غضبه على علومهم ، وكأن هذه العلوم تتحمل أوزار انحطاط عقول ممارسيها ، فما وزر علم البديع اذا كان صاحبه مثلا لايقر بكروية الأرض، أو كان يعادي العلوم الجديدة ؟ !

ان هذه المواقف الانفعالية ، التي ليست في جوهرها سوى ردود فعل تلقائية عفوية ، تمنح هذه المقولة قيمة أدبية وتاريخية وفكرية ،انها مرآة صادقة تصور لنا طبيعة تفكير أحد المتعلمين في أواخر القرن التاسع عشر ، وانها دعوة حارة للحاق بركب العلم والحضارة ٠ ولكن كيف يتم ذلك ؟ أيتم التقدم بالصراخ والعويل والشتم وتعداد مخترعات الأوربيين؟! ان مقالات « فارس نمر » في المجلد الثامن من المقتطف ــ وقد قرأها مؤلفنا بلا ريب ــ تدور حول الاصلاح الزراعي والصناعي والعلمي والأدبي ، فكيف كان الرجل يتصور الاصلاح؟ انه لم يكن عنده أي تصور لتنفيذ أي اصلاح، وكل ما في مقالاته تعداد واحصاء لما أنجزه الأوربيون في ميادين الحياة ، ثم شتم للنحاة والصرفيين والبلاغيين وعلومهم لأنهم هم سبب التخلف ؟ ! ولتهنأ الآن روح «فارس نمر» لقد ذوت علوم النحاة وانحسرت ، وجف عود الصرف وذبل ، وتأود عمود البلاغة وانكسر، وانسحقت حلي البديع وعادت هشيماً تذروه الرياح ، ومع كل هذا ما زلنا نلهث في المؤخرة، هذا اذا أحسنا الظن بأنفسنا ٠

على أن مؤلفنا يعود بعد تقريعه وانتقاده ليذكّر العرب بحضارة أجدادهم ، وينقل صفحات كاملة من كتاب أقوم المسالك للمصلح الكبير « خيرالدين باشا التونسي » ، كما ينقل من مجلة المقتطف أقوالا تمثل اهتمام الأجانب بعلوم العرب وصناعاتهم وتقديرهم لحضارتهم العظيمة ٠

ويأتي المؤلف بشواهد شعرية تدعم رأيه، وهي ركيكة الأسلوب ، وتعد شواهد نموذجية لاستمرار ركاكة عصر الانحدار والعصر العثماني في القرن التاسع عشر ٠

ومن الغريب أن المؤلف الذي كان يدعومواطنيه في أول مقولته الى الاعتراف بفضل الغربيين ، والى الاستفادة من علومهمومخترعاتهم ، هذا المؤلف نفسه يورد قصيدة في آخر المقولة ، هي غاية في السخف والركاكةوالرقاعة ، فقد حشيت بالفخر الأجوف ، والشتائم العامية المبتذلة الموجهة الى الغربيين ، ثميعتذرالمؤلف عما أورده من الشعر ، بأن الشاعر كان متحمساً • فلمَ أوردها اذن ؟ ! انـه فيأعماقه يكره الغرب ، وينقم على قومه نقمة مبعثها الحب والحرص على مصلحتهم ، وهومشتت النفس ، حائر الوجدان ، بين ماض عريق وحاضر باهت ، وهذا ما جعله يحجـل ويضطرب ، انه كالغريق يريد أن يتشبث بما تصل اليه يده ، ولو كان طحلباً أو نسيج عنكبوت • ان الفارق شديد بين أول المقولة بمافيه من اتزان وتفهم وحرص على العلم والانصاف، وبين تلك القصيدة التي اختتمت بها ومـا فيها من ركاكة ورقاعة •

على كل حال يبقى نص هذه المقولة منالنصوص التي تهم دارسي هـذا العصر مـن نواحيه جميعاً ، اللغوية والحضارية والعلميةوالتاريخيـة والاجتماعيـة ، وسواء أصحت افتراضاتي التالية فيما يتعلق بالمؤلفومكان التأليف أم لم تصح فان النص يبقى محتفظاً بقيمته ودلالاته المتنوعة • فمن هو مؤلـف المقولة ؟

المخطوط ومؤلفـه :

منذ عامين على وجه التقريب لا التحديدوضع صديقي الفاضل المفضال الأستاذ رفيق حمدان بين يدي مخطوطين صغيرين (قياس٢١ × ١٤) يقـع أولهما في ثلاث وخمسـين صفحة ، وعنوانه : « مقولة كشف اللثام عـن أحوال دمشق الشام » والثاني له مواصفـات الأول نفسها ، وعدد صفحاتهسبع وأربعونصفحة كتبت بخط نسخي مقروء ، وفيالصفحة ثلاثة عشر سطراً ، وعنوانه « مقولة السوط المضفور للجاهل المغرور » وقد أثبت تاريـخ النسخ في نهاية كل من المخطوطين سنة ١٣١١هـ ، ولكن لم يُذكر اسم للمؤلف ، وكل مـا وجدته من ذلك عبـارة كتبت في آخر مقولةكشف اللثام : (تمت على يد كاتبـه الحاج خرشد المسائل) ورسمت الخاء مشابهة للميم،وحبر العبارة وخطها مغاير للاصـل ورحت أحاول البحث عن المؤلف محاولا الاستفادة منكل القرائن الموجودة ، فمؤلف « مقولة كشف اللثام عن أحوال دمشق الشام » حلبي » لاشك في ذلك ، لأن مقولته ليست أكثر مـن هجوم صاعق ــ ولكنـه طريف ــ على أهـل دمشقوعاداتهم تعصباً منه لحلب ، خطر لي أن يكون لهذه المقولة ذكـر في اعلام النبـلاء للطبّاخففتشته فلم أعثر على شيء ، وقد خطر لـي أيضاً أن يكون مالك النسخة هو مؤلفها ، فقدخُطّ على الورقة الأولى مـن كشف اللثـام ما يلي : « ملكـه الفقـير اليه تعالى محمد ناجي الكردي خادم أموي حلب عفي عنه ٢٧ ح سنة ١٣١١ » ولكني لم أرض عن هذا الافتراض بعد أن عرفت من أحد أقرباء السيد محمد ناجي الكردي أن الرجل لم يكن يكتبويؤلف، وانما كان تاجر كتب وكان له ولـع بجمـع الصحف والمجلات •

أما مقولة السوط المضفور فليس فيها أية اشارة الى المؤلف ، ولكنني رجحت أن يكون مؤلف المقولتين واحداً بسبب تشابه الخاتمة في كل منهما ، فمقولة كشف اللثام ختمت بما يلي: « وأرجو ممن نظر في هــذه المقولة أن يغض الطرف عما وقع فيها من الخطأ ، ويسمح لي عن اللحن والركاكة اذ لا قدرة لي أن أنمق الكلام معرباً ومحسّناً بأنواع البديع والبلاغة، والمنصف من يقبل العذر ، ويغفــر الزلات ،وصلى الله على من لا ينطق عن الهوى وآلــه وصحبه وأهل بيته وسلم تسليماً كثيراً آمين تمت ح ١٥ر ١٣١١ » ٠

واختتمت مقولة السوط المضفور بما يلي : « وأرجو ممن اطّلع على هذه المقولة المشوشة المبنى ، أن ينظر اليها بعين الانصاف مــن حيث المعنى ، ولا يطلب مني ، تنميــق العبارة ، ولا الجمل المزينات بالتوريــة والاستعارة ، فاني قليل البضاعة في هذه الصناعة، فالمفلس معذور ، والكريم غفور ، وصلى الله على سيد خلقــه ، ومن فاق الجميــع بخلُقــه وخلقه ، ورضي عن آله وصحبه وأهله وحزبه آمين ٠ حرره في ح سنة ١٣١١ » فالمقولتــان حررتا في ح (أي : حلب على ما يبــدو) في سنة واحدة وكتبتا بخط واحد ، وجلدتا بلون واحد وتنتهي كل منهما بخاتمة تشبه الأخرى، كل هذا أوحى الي ّ أن تكونا لمؤلف واحد ٠

وانطوت الأيام ، والمقولتان عندي طي ّ النسيان والاهمال ، ثم قدّر لي العثور بــين أوراق قديمة على مخطوط صغير يقع في أربع وسبعين صفحة (قياس ١٦ × ١٢) عنوانه : « سانحة أدب من ساحة حلب » لمحررها خورشيد أفندي الكردي ، وقد أرخ نسخهــا في حمص ١٣٢١ هـ ، ولم يذكر اسم الناسخ وأظنــه الشيخ أحمد نبهان ، وكانت خاتمة السانحة كما يلي : « فالمأمــول مــن الأفاضل ، غض الطرف عــن الخلل ، وحبذا ان صح لي مــن فضلهم هذا الأمل ، خصوصاً عن بعض ألفاظ جاءت عامية ، وبعض ألفاظ مخالفة للأساليب العربية ، هكذا اقتضى الحال ، فان لكل مقام مقال [كذا] ، ولعل دقيق وضعها يشفــع في ركيك لفظها وفساد سجعها ، فانه لما كان جل قصدي ابداء النصيحة ، لم أر حاجة لتقصي الألفاظ الفصيحة ٠٠٠ الخ » ٠

فهذا الأسلوب في الخــواتم ، يوحي الي ّ أن مؤلف هذه المقولات كاتب واحد ، وخاصة أن بعض الأبيات التي وردت في السوط المضفور ، وردت أيضاً في سانحة أدب ، زد على ذلك أن الأفكار في المقولتين واحدة ، فتعظيم الصناعة والازراء بالشعر والأدب والبديع واحد في المقولتين في كلتيهما ، فهو يقول مثلا في سانحة أدب : « واني ـــ والله ـــ لأرى مخترع الابرة بالثناء أجدر من ابن المعتز الذي فاق أقرانه ببديعه وتصدّر ، لأن تلك ضرورية الوجود في جميع الأقطار ، وهذه عديمة النفع عنــد أولي الأبصار ، فما قولك في مخترع آلة الطبع هل يقاس به مستنبط النظم والسجع ٠٠ الخ»

فاذا صح لنا استناداً الى ما ورد من أدلة وقرائن أن نفترض أن مؤلف هذه المقولات هو شخص واحد وأنه هو خورشيد أفندي الكردي، فمن هو خورشيد أفندي الكردي ؟

لقد حاولت التنقيب في بطون الكتب بقدر استطاعتي فلم أحظ بطائل ، سألت بعض الشيوخ من أهل العلم فلم تسعفهم الذاكرة بشيء ذي بال ٠ وشاءت المصادفة أن أقرأ ترجمة موجزة للسيد عبدالرحمن الكواكبي في معجم المؤلفين للأستاذ عمررضا كحالة ،فوجدته يذكر أن السيد الكواكبي درس العلوم العصرية على خورشيد أفندي من أدباء الترك ، وذكر الأستاذ سامي الكيالي مثل هذا في كتابه « الأدب المعاصر في سورية » وأشار الطباخ الى أن السيد الكواكبي تلقى الفارسية والتركية على يد أديب في اللغتين ولم يذكر اسمه ،فهل يكون خورشيد أفندي الكردي هو نفسه خورشيد أفندي أستاذ الكواكبي ؟ ! وهل نستطيع أن نربط بين كون خورشيد أفندي مدرّساً للعلوم العصرية وبين هذه المقولات ؟! ربما(*). الا أن الأمر أولا وأخيراً يبقى في نطاق الاحتمال والظن والتخمين ٠ وحسبنا أن نضع هذا النص بين أيدي السادة الباحثين ليأخذ مكانه بين نصوص عصر النهضة ، ولعل أحداً من أهل العلم يهتدي بما تتيحه له علاقاته ومصادره الى كثير مما غاب عنا علمه وجانبنا فيه الصواب ، وفوق كل ذي علم عليم ٠

* * *

مقولة السوط المضفور للجاهل المغرور
عفى الله عن مؤلفها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الموصوف بالقدم ، بارىء المبروءات(١) من العدم ، مكوّن الأكوان ومدبّرها ، ومقدر الأمور ومدبرها ، خلق الانسان وفضّله على سائر الحيوان ، وأمره بالتبصر في بدائع مخلوقاته ، والتدبر في روائع مصنوعاته ، فاطّلع بمشيئته على بعض حكمته العظيمة الاحكام ، المنسكبة في قالب الاتقان والانتظام ٠ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي الى الصواب ، الناطق بالحكمة وفصل الخطاب ، الذي أنزل عليه في محكم الكتاب : (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)(٢) وعلى آله وأصحابه أهل الحميّة والدين ، القاطعين بسيوفهم رقاب العصابة الضالين المضلين ما سطعت شمس اليقين ، فازالت بأنوارها غياهب غرور المغترين ٠ وبعده فيقول الفقير اليه تعالى مؤلف هذه المقولة ــ غفر الله له وللمسلمين آمين : [ص ٢] ٠

★ توفي الكواكبي سنة ١٣٢٠ هـ والمخطوطة كتبت سنة ١٣١١ ٠ ويبعد ان يكون مؤلفها استاذاً للكواكبي ٠ (المجلة)

ان من أعظم ما يوجب الأسف ، ويقضي بالحزن ، على من لم تزل تحركه الحمية الانسانية ، هو النظر فيما آل اليه حال وطننا من تواري شمس العلوم والمعارف عن أهله، بعد أن كانوا في درجة من الفضل والتقدم معلومة مشهورة. ولا زال الأمر معهم بالتقهقر الى أن وقعوا في وهدة عميقة من الجهل المحض، فساءت بذلك أخلاقهم، وفسدت آدابهم ،وضاق معاشهم ، وأغلقت دونهم أبواب النجاح .

وكثيراً ما كانت تحركني المحبة الوطنية، وتحثني على ذكر كليمات تعرب عن بعض تلك الأحوال التي اعترتهم وطمست معالم مجدهم ، وعادت عليهم بالوبال وسوء المنقلب. وتذكرهم بما كان لسلفهم من العلوم وغرائب الفنون ، عسى تشبّ في أجسامهم نيران الجد والاجتهاد تلافياً لما فات وهيهات .فشرعت بما كنت أنويه والله عالم بما أبديه وأخفيه فقلت : ان كثيراً من خواص أهل بلادنا ـ فضلاعن عوامها ـ ، اذا سمعوا ما للافرنج من البراعة في الصناعة ، والسعة في العلوم والاكتشافات [٣] الجديدة ـ العلمية والعملية ـ أنكروا ذلك عليهم واستعظموا سماعه ، وماذلك الا لأنه يكون سبباً لاظهار جهلهم . وقصورهم في الهمة فدفعاً لهذا المحظور، وتخلصاً من نسبتهم الى الجهل ، ترى اذا قيل لأحدهم : « ان الافرنج قد اخترعوا ـ مثلا ـ قُبَّة من القماش تحمل اناساً وتطير بهم في طبقات الجو (٣) ، فيسيرون بها لأي جهة شاؤوها(٤) » يبادر حالا بقوله : انها مأخوذة من كتب اليونان، فانها كانت مستعملة عندهم،

كما أخذوا عنهم التلغراف(٥) والوابور(٦) والتلفون(٧) ، مع أنهم يعلمون بأنهم يكذبون في دعواهم . والسبب الذي يحملهم على أن ينفوا أصل الاختراع عن الافرنج المسيحيين ، ويثبتوه لليونان مع أنهم كانوا وثنيين ، هو ايهامهم (٨) بأن اليونان أمة خصها الله بالمعارف وأنزل الحكمة عليها دون غيرها، وبذلك يكون غيرها من الأمم غير ملوم اذا لم يكن عنده علوم مثلها ، وبهذا الايهام يزعمون أنهم دفعوا الملام عن أنفسهم ، والتمسوا عذراً لجهلهم وعدم قدرتهم على الاختراع واكتشاف شيء، والحال أن اللوم لازال منصباً عليهم [٤] ونسبة الجهل ما برحت منحازة اليهم ، اذ لو سلمنا بدعواهم الكاذبة أن الافرنج استنبطوها من كتب اليونان فلمَ لا يقدرون أن يجاروهم في الأخذ منها ـ كما زعموا ـ؟ مع أن كتب المذكورين ترجمت الى العربية ولم يكن الافرنج حينئذ يعرفون القراءة ولا الكتابة ولكن

(من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة)(٩)

فهذا حال أهل بلادنا فيما ينسب للافرنج من الاختراعات المحسوسة ، حتى انهم لربما أجروا هذه المكابرة في المخترعات التي ينتفعون باستعمالها كل يوم، ويتزينون بغالب أنواعها. فما بالك في انكارهم ومكابرتهم في الاكتشافات العلمية التي تنسب للافرنج مما ليس يمكنهم أن يشاهدوها عياناً ، فانهم لا يعتقدون ولايصدقون بها أصلا ، ولربما ألقوا من قال بها أو ذكرها في الكفر . نعوذ بالله من جهلهم مع أن الدين ربما كان مشيراً اليها ، أو لم يتعرض لها بشيء من الانكار كما قال الامام الغزالي(١٠) قُدس سره العزيز في كتابه المسمى « تهافت الفلاسفة » ما نصه : « ليعلم أن الخلاف بينهم ـ أي الفلاسفة [٥] وبين غيرهم من الفرق ثلاثة أقسام :

الأول (١١) : يرجع النزاع فيه الى لفظ مجرد ، كتسميتهم صانع العالم(١٢) جوهر أ، مع تفسير(١٣) الجوهر بأنه الموجود في لاموضوع ، أي : القائم بنفسه الذي لا يحتاج الى مقوم(١٤) ٠

والثاني : (١٥) ما لا يصدم مذهبهم فيه أصلا من أصول الدين ، وليس من ضرورة تصديق الأنبياء (١٦) منازعتهم فيه كقولهم : ان خسوف القمر عبارة عن انمحاء ضوء القمر بتوسط الأرض بينه وبين الشمس من حيث انه يقتبس نوره من الشمس ٠ والأرض كرة والسماء محيطة(١٧) بها من الجوانب فاذا وقع القمر في ظل الأرض انقطع عنه نور الشمس٠ وكقولهم : ان كسوف الشمس معناه وقوف جرم القمر بين الناظر وبين الشمس وذلك عند اجتماعهما في العقدتين على دقيقة واحدة٠ وهذا المعنى (١٨) أيضاً لسنا نخوض في ابطاله ، اذ لا يتعلق به غرض ، ومن ظن أن المناظرة في ابطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره ، فان هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية حسابية لا تبقى معها ريبة ٠ فمن يطلع عليها ويحقق(١٩) أدلتها ويخبر [٦] بسببها عن وقت الكونين(٢٠) وقدرهما ، ومدة بقائهما الى الانجلاء ، اذا قيل له : هذا (٢١) على خلاف الشرع لم يسترب فيه وانما يستريب في الشرع ٠ وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه ٠ وهو كما قيل : « عدو عاقل خير من صديق جاهل » انتهى كلام الغزالي(٢٢) ٠ فعلى ذلك اذا قلت لهم حسبما قرره العلماء الأرباويون وأثبتته الأدلة القويمة القاطعة : ان الهواء المحيط بالكرة الارضية يعادل ثقله ثقل بحر من الزئبق مكتنف للكرة على عمق ثلاثين قيراطاً(٢٣) ، فتراهم حالا يبادرون بالانكار ، ويقولون على سبيل الاستهزاء : بأي ميزان وزنوه ؟ وبأي مكيال كالوه ؟ فهذا لا يسلم به عقولنا فلا نصدقه أبدا ٠ ويعددون من الألفاظ التي يستعملونها في أحوال الانكار والسخرية ليجعلوها(٢٤) كالدليل لانكارهم كقولهم : هذه سفسطة أوخرافة أو بدعة ، ويضحكون ويتغامزون ، واذا أردت أن تثبت لهم ذلك ، ففضلا عن أنهم لا يسمعون ليس لهم أذهان تقبل الدليل ، لعدم تمرينهم على [٧] سماع الحقائق من الناصح ، بل هم متمرنون على الاستهزاء والانكار والسخرية ٠ والحال أنهم لو سمعوا ووعوا لأظهر الدليل صدق ما جعلوه مستحيلا بعقولهم الغليظة ، ولتذكروا أن الافرنج لو لم يكونوا يعلمون مثل ذلك لما قدروا على مد السكك الحديدية ، لأن مد قضبان الحديد متوقف على معرفة الارتفاع والانخفاض في سطح الأرض(٢٥) ، وهو متوقف على معرفة وزن الهواء(٢٦) ، فلو كان ذلك مجهولا عندهم لفاتهم عمل السكة المذكورة ٠ وكذلك عمل طلومبة(٢٧) الماء ، التي ترفع الماء من الجب الى سطح الأرض ، ما لم يكن عمقه أكثر من خمسة عشر ذراعاً ، والا فلا يكون ضغط الهواء كافياً لرفع الماء (٢٨) ، لأن قيراطاً مكعباً من الزئبق يعادل في الثقل قدما مكعباً من الماء فتنبه ٠ فقل لي ــ أصلحك الله ــ ما فائدة قولهم : ان عقولنا لا تقبل هذا ؟ ! فكأنهم يظنون أن عظام الأمور متوقف وجودها على قبول عقولهم السخيفة لها ! ! أو كأن الافرنج مفتقرون لرواج مخترعاتهم الى شهادتهم لها!! كلا ، ألم يعلم أهل تلك العقول [٨] الناقصة أن القوم غير مبالين بانكارهم، وليسوا مكترثين باقرارهم ، وهم كل يوم في اختراع جديد واكتشاف غريب وترقٍّ عجيب ، وبذلك تحسنت أحوالهم ، وقويت نفوسهم ، وتجملت

بلادهم، وطابت معايشهم ، وقهروا معانديهم،واستحوذوا على أموالهم • فسبحان من يختار من شاء من خلقه لكشف أسرار حكمته • فماكان أجدر بهؤلاء المغفلين بدلا عن الانكار أن يطلبوا دليلا على ما قيل لهم وحقيقة ما ذكر لديهم ، ويسعوا بجدهم — ان كان لهم جد — الى معرفة ذلك أو تقليده على الأقل ، بل على الأقل أن يعرفوا وجهه من الامكان لئلا يبخسوا أحداً حقه كما هو شأن أولي العقل والحزم ،فان جميع هذه البضائع والاكتشافات لها قواعد علمية وأدلة يقينية يمكن لكل انسان بالتأمل والاشتغال أن يتعلمهـا ويتصور نتائجهـا بوضوح تام •

والذي يدلنـا على شرف تلك العلـوم وحلها دلالة يقبلها الفكر السليم ، هو أنـه يوجد الآن عدد كثير من الآلات [٩] والاختراعات التي صنعتها الافرنج وجعلتها وسائـل ومقاصـد لعلـوم وفنون عديـدة في المكاتب السلطانية ، كالآلات المتعلقة بالهندسة وفـن الكيمياء والكهربائية والفلك وغير ذلك ممايساوي قيمته ألوفاً مـن الليرات ، وقد أنشأ جلالة مولانا المعظم المكاتب الابتدائية في جميع ممالكه المحروسة اهتماماً بشأنهـا ، وربط الرواتب للمعلمين وللأولاد الفقراء الذين هم غير قادرين على صرف أوقاتهم بدون معاش يكتسبونه بكدهم ، وقد أنفق على ذلك المبالغ الباهظـة ولا يزال منفقاً ، وزد على ذلـك مصاريف الشبان من رؤساء عساكره المنصورة الذين يرسلهم الى عواصم أوربا ليتلقوا مـن مدارسها تلك العلوم ، فيرجعوا يبثوها(٢٩) في ممالكه المحروسة • فهل جميع ما يفعله سيدنا ومولانا أمير المؤمنين من هـذه الأمور هو عبث على حسب زعمهم الفاسد ؟ أو يقصد أن يغش رعيته بذلك ؟ معـاذ الله أن يكون ذلك منـه وهو أحرص الناس على ترقي رعاياه وانقاذهم من ظلمات [١٠] الجهل مع مراعاة(٣٠) الشرع الشريف • فلو لم يتحقق نفع هذه العلوم مادياً وأدبياً لما فعله أصلا وأمر بتعليمه ، لأن جلالته لا يقدم على أمر ما لم يوافق الشرع بموجب فتوى من المشيخة الاسلامية • ولكن أبت معاشر الجهلاء الا المكابرة ، ولو بالمحسوس ، مخافة من أن يكونوا يوماً في أحد المجالس ويسالهـم أحد الأولاد الناشئين في المكاتب الشاهانيـة بعض الأسئلة العلمية التي لا يقدرون علـى الاجابة عنها • كما لو سألهم عن سبب الكسوف أو الزلزال أو وميض البرق أو قعقعة الرعد ونحو ذلك ، فانهم ان لم يجيبوا أصلا ظهـر جهلهم لدى من يوهمونه بأنهم على شيء من العلم • وان أجابوا بما عندهم من التعاليـل الباردة كنسبة الكسوف لوقوع الشمس مـن العجلة ، والزلزال لتحرك الثور الذي يحمل الأرض (٣١) ووميض البرق للمعان السوط الذي بيد الملك يسوق به السحاب ، والرعد لصوت زجره للسحاب ، صاروا سخرية بيـن القوم بعد وضوح [١١] تعاليل ذلك ومعرفتها أتم المعرفة لدى أغلب الأولاد المكتبلية (٣٢) فضلا عن مشاهير الناس مـن علماء العصر الجديد ، ورفض تلك الخرافات • وما أحسن ما قالـه العالـم الفاضـل حسـن أفنـدي الطويراني(٣٣) : « ولو أردنا أن نصدق كل حديث يروى لنا لروينا الأعاجيب فقد ورد أن الله خلـق آدم علـى صورة الرحمـن (٣٤) • وورد : رأيت ربي في صورة شاب أمرد(٣٥) ، وورد أن الله ينزل في ثلث الأخير كل ليلة الى سماء الدنيا فينـادي كذا وكذا(٣٦) ، وأن النيل والفرات وسيحون وجيحون تنزل مـن الجنة(٣٧) ، وأن الأرض طولها خمسمائة عام وعرضها وسمكها وما بين كل أرض الى أخرى كذلك والسموات أيضاً (٣٨) • وأن أول طعام

المؤمنين يوم القيامة كبد الحوت الذي يحمل الدنيا(٣٩) ، وأن السموات بعضها من حديد وبعضها من ذهب وفضة وياقوت وزبرجدوأن لها أبواباً ومفاتيح وغير هذا مما لا ينتهي من جريان الشمس على العجلة وجر الملائكة لها في بحر الفلك • وهكذا من الأمور التي برّأ الله [١٢] منها رسوله ولكن ادّعاها المدّعون وكتبوها ونسبوها الى مصادر عالية بالطبع حتى يمكن أن يجبروا الناس على تصديقها لعلو السند وشرف المقام ، ولكن كل ذلك ليس ببرهان مقبول »(٤٠) انتهى كلام حسن أفندي الطويراني • وقد ثبت كثير من أقوال الحكماء المتأخرين ما وافق آي القرآن ، وقد صرح بذلك العالم الفاضل الشيخ أحمد محمد الألفي(٤١) في جريدة الاسلام فقال : « قد ورد في القرآن المجيد ما يثبت تكور الأرض ودورانها طبقاً لما اكتشفه المكتشفون قال تعالى : (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة) (٤٢) أي يخلف بعضهما بعضاً بسبب تكوّر الأرض ودورانها • وقال تعالى : (وآيةٌ لهم الأرض الميتة أحييناها)(٤٣) الى قوله تعالى : (ولا الليل سابق النهار وكلٌ في فلك يسبحون)(٤٤) ، فانه لا يتعين عدم السبق الا بالتوالي والامكان لذلك الا بالتكور والدوران • وقوله : (وكلٌ في فلك يسبَحون) بالجمع في الموضعين ، يفيد أن الأرض والشمس [١٣] والقمر يسبحون في فلك ، اذ لو كان المراد الشمس والقمر فقط لقال : وكلاهما في فلك يسبحان بالتثنية في الموضعين • وقال تعالى : (والشمس وضحاها، والقمر اذا تلاها، والنهار اذا جلاّها ، والليل اذا يغشاها)(٤٥) فانه جعل النهار الذي هو مقابله وجه ارض للشمس مجلياً لها ، والليل الذي هو الظلمة الأصلية للارض مغشياً لها • وأسند فاعلية ذلك لفاعل آخر غير الشمس والقمر وهو الليل والنهار اللذان هما من آثار الأرض وغير ذلك من الآيات •

واذا كان هذا معلوماً ، فما يدل من الآيات الأخر على انبساط الأرض وطلوع الشمس وغروبها يمكن تأويله باعتبار الأبصار والعرف الجاري ، وليس في قوله تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها)(٤٦) ما يفيد أنها تدور حول ارض بل يمكن — والله أعلم — أن يقال: انها تجري لمستودعها ، أي : تدور حول نفسها، فقد علمت أنه ليس في أصول الشرع ما يخالف الاكتشاف القطعي بل ولا الظني ، لكن لما كان البحث عن أصل التكوين ليس مقصوداً [١٤] للشرع ، وهو من وظائف العلماء الباحثين — كما تقدم — فلا تؤول (٤٧) النصوص الشرعية التي أساسها اليقين بما لا يطابق ما اكتشفوه بالدليل العقلي القطعي ، وأما الظني فلا » انتهى كلام الفاضل الشيخ أحمد محمد الألفي •

وأقول : ان أوضح وأصرح من هذا كله قوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء)(٤٨) فانه من تأمل هذه الآية الكريمة حق التأمل ونظر فيها بعين بصيرته وجدها ناطقة نطقاً جلياً عن حركة الأرض ودورانها• والقول بأن هذا يكون عند قيام الساعة مدفوع من وجوه :

الأول : أن « ترى » فعل مضارع وهو حقيقة في الحال مجاز في الاستقبال واذا تعارض المجاز والحقيقة قدمت الحقيقة كما هو مقرر في الأصول(٤٩) •

الثاني : قوله : (صنع الله الذي أتقن كل شيء)(٥٠) فان ذلك لا يناسب أحوال الساعة التي تدك الأرض دكاً وتنسف الجبال نسفاً حتى تتركها كالعهن المنفوش ، فان تلك الحالة حالة اخراب واعدام لا حال صنع[١٥]واتقان •

الثالث : أن الأليق بالعجيب من صنع الله أن يكون بالأمر الحالي المشاهد لا بالأمر الغائب المستقبل • وكيف التوفيق بين قوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب)(٥١) وبين قوله تعالى :(يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى)(٥٢) فان الآية الأولى تخبر عن حركة لا يشعر بها ، والثانية عن حركة تذهل الأمهات عن أولادهن فتنبه •

وقد تمسك قوم بسطاء بقوله تعالى : (والأرض بعد ذلك دحاها)(٥٣) فجعلوها دليلا على بساطة الأرض تأويلا منهم للدحو بالبسط وهو لعمري دليل واه لأن الدحو معناه الالقاء والوضع(٥٤) • ويؤيد ذلك قوله تعالى : (والأرض وضعها للأنام)(٥٥) وقال الشنفري(٥٦) من اللامية (٥٧) •

وأعدل منحوضاً ، كأنّ فصوصه كعابٌ دحاها لاعبٌ فهي مُثّلُ(٥٨)

أي : ألقاها وطرحها • وحسبنا دليلا على ما ذكرناه في المقابلة [١٦] الواقعة في الآية الكريمة أعني قوله تعالى : (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ، رفع سمكها فسوّاها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها)(٥٩) فانه قابل الرفع بالدحو وهو في معرض الامتنان على العباد بأنه خلق لهم مقرّاً يقرون عليه لا في بيان أنها بسيطة ، على أن بساطتها ليست أعظم من كريتها حتى يذكر في معرض الشدة والعظم •

رجعاً الى ذكر أولئك البلهاء فانه لايسعهم حينئذ الا أن يقولوا : هذا البحث حرام وانه يفسد العقيدة فلا ينبغي سماعه •

فليت شعري ما الذي تفعله هذه الأبحاث من الخلل في الديانة ؟ ! ومن حرم البحث فيها؟ مع أنه تعالى أمرنا بالتفكر في ملكوت السموات والأرض والتدبر في بديع صنعه قال تعالى : (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً [١٧] وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)(٦٠) ،روي أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة قال عليه الصلاة والسلام : (ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتفكر فيها)(٦١) وقال تعالى : (فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى)(٦٢) وقال تعالى في معرض التوبيخ للجهلاء : (وكأين من آية في السموات وارض يمرون عليها وهم عنها معرضون)(٦٣) فكيف يلام من تفكر في ملكوت السموات والأرض ، وعلم الوسائط والأسباب التي أقامها الحق سبحانه وتعالى وجعلها مترتبة على بعضها بحكمة وانتظام في خليقته وبذلك يزداد يقيناً وايماناً ، ويدرك ما لا يدركه الجاهل أصلا ، بل الجاهل بذلك لا يعلم قدرة الله وسعة ملكه ودقائق حكمته الا تقليداً ، والمقلد اليوم مصدّق وغداً مكذّب • ولكن ليعلم هؤلاء البلهاء [١٨] السخيفو العقول أن هذه المحاولة والتجلد لا يدفعان عنهم الجهل ، ولا يرفعان منهم القدر ، فلا بد من أن يأتي الزمن الذي لم يُبق لهم حيثية أصلا ، حيث يقتضي الأمر بأن يكون نحوهم في مثل الأولاد المكتبلية المهذبين كشجرة العلّيق فلا يقر للبستاني قرار

ما لم يقطعها ويخلص أشجار بستانه النافعةمن شرها · نعم انهم بارعون في جمع الأموال من أي باب كان من غير مبالاة في حلال أوحرام، وحديثهم العلمي هو الشعر الكذب ، كما يقال بينهم : أعذبه أكذبه (٦٤) فلو سمعوامثلا أحداً ينشد قول الشاعر : **(من الكامل)**

أو في السماء تكون قوة بأسه ... من الروع يوم البعث لم تتفطر

لرأيتهم يهيمون طرباً ويصيحون : الله الله ،ويهزون أدمغتهم تعجباً واستعذاباً لهذا الكذب المزوج بما يشبه الكفر ، وربما طلبوا اعادته مراراً ليلذذوا به أسماعهم ، فهم بذلك كما وصفهم [١٩] ربنا تعالى بقوله : (سمّاعون للكذب أكّالون للسحت) (٦٥) ولله در القائل فيهم : (من الكامل) ·

من رُمتَ منهم أن تبثّ بعقله ... نور الحقيقة قال : هذا أحمق
وتراه ان حدثته بخرافة ... يهتز من طرب لها ويصفق

وسبب هذا الطيش والخفة والوقاحة فيهم هو أنهم لم يحصّلوا مدة حياتهم سوى هذه الأمور السافلة ، وأما العلوم العالية فبعيدة عن أفكارهم القاصرة ، فاذا لم يسلوا أنفسهم بتلك الخرافات ويروجوها بوقاحتهم وتمويههم ملُّوا حياتهم وساء عيشهم · على أن علومهم وان زعموا نفعها لم تنفعهم في الوقت الحالي فما بالك في المستقبل حيث تنبغ أبناء المدارس في العلوم الرياضية الجديدة بالنفع · وقد أشار الى ذلك الأديب : اسحاق أديب(٦٦) بقوله : (من الطويل) ·

هو العلم حتى يدرك المرء غامضاً ... ولا يختشي فيما يقول معارضاً[٢٠]
وما الشعر الا شاغل عن نواله ... فهذا قريض بات للعلم قارضا
وقد صرفت أفكارنا نحو صرفنا ... وفي النحو بات الوقت والذهن غائضا
فذا ناصب منا يخالف رافعاً ... وذا جازم منا يغاير خافضا
سفاسف أقوال تقادم عهدها ... فلم تبد مستوراً ولم تجل غامضا
ملأنا بها الأوراق وهي فوارغ ... من النفع الا بارق مرّ وامضا

وقال آخر : (من الكامل)

لا تحسبنّ الشعر علماً نافعاً ... ما الشعر الا محنة وخبال
فالهجو قذف والرثاء نياحة ... والعتب ذل والمديح سؤال(٦٧)

وأما من تعلم منهم الفقه فأجارنا الله منه ، فانه انما يتقنه ليجعل الحق باطلا والباطل حقاً حسب الاقتضاء ، ومن النادر وجود واحد منهم على نهج الاستقامة بل الغالب منهم كما قال الشاعر :(من المتدارك)

أمـــا القاضـي في بلدتنـــا — سلاب المـــال بلا حـــرج [٢١]
ان رمت الحق يكـــن بطـــلا — قم نحــــو حمـــاه وابتهج

وقال آخر : (من الكامل)

قـد كان وصف الأقدمـين جميعهم — طلـب العلـوم ليرتقـوا بتنافـس
والآن زال العلـم منهـم انمـا — نيـل المراتب عندهـم بقلانـس
وبطول ذقـن المـرء ادراك المنـى — وفخـاره أن يرتـدي بطيالـس
أترانا نرجـو خـير دهر قـد غـدا — شرف الفتـى فيـه بحسن ملابس
ذهبت علوم قـد أنارت ليلهـا — وغدونا في ظلم النهـار الشامس
علماؤنا جهلوا حقيقـة دينهـم — وتقاسموا لجـج الضلال الدامس
ذهـب اليقـين فـلا يقـين وانمـا — غايـات علم النـاس حدس الحادس

والحاصل أن هؤلاء القوم المغفلين على ما هم عليه من الجهل تراهم لا يقرون بفضل من أوصل المنافع اليهم مما يحتاجـون اليه في مآكلهم ومشربهم وملبسهم وزينتهم وآدابهـم ومداواة أمراضهم وهم مبشرون منافعهـا ، والذي ينبغي للانسان ، أن لا يبخس [٢٢] أحداً حقه كما قال تعالى : (ولا تبخسوا الناس أشياءهم (٦٨) ولا ينبغي أن يعتمد على مجرد عقله ، بل ينبغي أن يستوضح ما خفي عليه ادراكه • ألا ترى أن عقولنا جميعاً لا يمكنها أن تتصور عمل الكبريت ، خصوصاً الملون الشعاع ، بل لو فرّغت علبة منه وطلبت من أحدنا أن يملأها كما كانت لعجز عن ذلك • أفيصح لنـا أن ننكره بمجرد كون عقولنـا لا تتصور عمله ، ونحن كل يوم نوقد منـه مصابيحنا ؟ ! وهل يليق بنا أن ننكر مصابيح الغاز(٦٩) الذي ننير به منازلنا بثمن بخس بما لا يمكن أن نعادل به من زيت الزيتون أو من شمع العسل ولو صرفنا أضعاف ما نصرفه على ذلك ؟ ! وكثيراً ما نرى آلة من عمل الافرنـج ولا نعرف لأي غاية صنعت حتى يفهمنا أحدهم سرّها ، فهذا قصورنا في فهم صنائعهم الجزئية فما بالك في صنائعهـم الكلية مثـل الـوابـور(٧٠) والتلغـون(٧١) وحـافظـة الصـوت (٧٢) والمكـرسكـوب(٧٣) وما أشبه ذلك • وأعظم وأهم الجميع الآلات الحربية التي عليها [٢٣] الاعتماد في حماية الدين والوطن • فهل تعهد من يحسن عمـل كبسولة(٧٤) في جميع بلادنا(٧٥) ؟ ! كلا • فهل معرفتنا الشعر والنحو والبديع والأحاجي التي هي كالريح تسمع لها دويا ولا ترى لها جرماً تسد هذا الخلل ، وتقيم لنا عذراً عن هـذا القصور ؟ كلا ، لا يقول هذا الا من طمس الله على لبه ورده الى أسفل السافلين في المرتبـة الحيوانية • وكأن حكمة الله اقتضت أن لا يتيسر لأحد من أهـل بلادنا اختراع شيء مفيد لأن عقولنا ضعيفة فلا تحتمل ذلك(٧٦) ألا ترى أن أحدنا اذا كان متقناً علماً ولو خسيساً مثـل الشطرنج(٧٧) أو المنقلة (٧٨) أو الدومنو(٧٩) أو لعب الحكم(٨٠) أو اللعب بالنبوت(٨١) ، أو كان يعرف يقسم أربعين قباوة(٨٢) في سبعة صحون ، يكاد يعلو شبراً عن الأرض في مشيته

تيهاً وعجباً ، مع أن هذه العلوم لا نفع منها بل ضررها مقطوع به ، فكيف لو توفق لعمل شيء مفيد للناس ؟ فلا شك أنه يرى نفسه حريّة بأن يحملها الناس على رؤوسهم ٠

نعم ان الانسان يرغب في مطالعة دواوين الشعر وهو [٢٤] في سن العشرين الى الثلاثين كما يقتضي طوره ، فاذا تجاوز هذا السن ترك الشعر وانتقل الى علم أرقى منه كعلم التاريخ ثم الطبيعة ثم الهيئة ثم الجغرافية وهكذا كلما ترقى عقله يترقى طلبه للعلوم٠ أما كونه يبلغ الأربعين والخمسين من عمره وهو باق في نقطة واحدة من الشعر والبديع والاستعارة وما أشبه ذلك ويقنع نفسه بأنه على شيء من العلوم فذلك ضرب من الجنون وقصور في الهمة ، ألا ترى أن الطفل متى قدر على أن يمسك في يده شيئاً وأعطيته قطعة من الورق مثلا فانه يأخذها فرحا بها فيقلبها وينظر في ظاهرها وباطنها ويتشاغل بها عن البكاء ، وحينما تطول مدة بقائها في يده يتركها ويبكي فاذا رددتها اليه ثانية لم يأخذها ، وأما ان أعطيته غيرها على هيئة جديدة كما اذا كانت مكتوبة قبلها ثم اذا رأى غيرها مذهبة ترك المكتوبة وطلب المذهبة وهكذا ينتقل من شيء الى شيء أسمى ٠ وكلما ترقى عقله ترقى مقصده على الدوام [٢٥]

نعم لا بأس بالشعر الحسن اذا كان متضمناً مواعظ(٨٩) وحكماً من شأنها انهاض الفكر والتنبيه على محاسن الآداب والارشاد والحث على المحبة والاجتهاد كقول الشيخ حسين الجسر الطرابلسي(٩٠) مؤلف الرسالة الحميدية : (من الرجز)

وكن محب الوطن المعظم ... ذا غيرة عليه في التقدم
فحبه عَدُّ من الايمان ... وبغضه من أعظم الخسران
وابذل لهذا الخلق المجهودا ... حتى يكون طبعك المحمودا
فلا ينال المرء من فلاح ... حتى ترى الأوطان في نجاح
فخيرها خير لكل واحد ... من أهلها من واجد وفاقد
فما نجاح الأمم الغربيه ... الا بهذي الخصلة السنيه
وباكتساب العلم والفنون ... وغير ذا من واهن الظنون
فأصبحت ديارهم جنانا ... غنية وعزها مصانا
وقد غدوا أعزة الملوك ... أعاظم الغنيّ والصعلوك
وكل ذا من حبهم للوطن ... وكسبهم لكل فن حسن [٢٦]
هـذا هو التمدن المحمود ... اليه يسعى الطالب السعيد (٩١)

وقلت متشبهاً بالحكماء ومقلدا للشعراء: (من البسيط)

من يطلب التبر من ترب الحديد فذا ... من أحمق الناس أو من جملة البهم

من ينتقد لك أعمالا تشان بهـا فهـو النصوح فخـذه خير ملتزم
وان صحبت فتى من أجل ثروته يجعلك كالعبـد منـه غير محترم
لا تبـد قـولا اذا مـا بـان تجحده فعزة المـرء والنقصـان بالكلـم
أعن أخـاك اذا ما كنت ذا سعـة تجـده عونـاً اذا ما صرت في غمـم
يستعبد الحر في صنع الجميـل كما يستعبـد الـرق بالأمـوال للخـدم
ان البخيل الرفيع الأصل مضطهـد وسافل الأصـل مومو ق على الكرم
صاحب أخا الحلم تأمن مـن بوائقه فان عثرت تجـده غـير منتقـم
ومـن تظاهر بـين النـاس في ورع فهـو الخبيث وان وافـاك فانهزم
واحكم على من يرى جم الرفاق له بكثرة الكـذب والتمليق بالكلـم
وكثـرة المـال بالأنذال تفعـل ما لا يفعل الفقر بالإشراف من عدم [٢٧]

نرجو المعذرة من القراء الكرام عن ركاكة هذه الأبيات ولهم الفضل ٠

وأما الشعر الرديء كقول القائل(٩٢) : (مجزوء الرجز)

يـا سـابحـاً في بُركـك وصائـداً في شبكـك
لا تحقـرن كـككـكي فككـكي كـككـككك

فسماع نهيق الحمار ربما كان أطرب من هذا وأمثاله ، كأنه ظن أن كافاته تقوم مقام كافات الشتاء(٩٣) ، لقد أخطأت استه الحفرة٠ ويحسن هنـا أن نورد ما نقله المرحـوم خـير الدين باشا التونسي (٩٤) في كتابه «أقوم المسالك » عـن مسيو دوري وزير المعارف العمومية بفرنسا (٩٥) ، فلعل الذي يسمعهـا من خواص أهل بلادنا تدب فيه حرارة الغيرة على حاله ووطنه ، فيصرف همته في العلـوم والمعارف لاستحصال المنافع التي يحتاج اليهـا ترقي الوطن وتجمله في الصنائـع والفنون ،قال المسيو المذكور ما ترجمته : « بينما كان أهل أوربا تائهين (٩٦) في دجى الجهالة لايرون الضوء الا من سم الخياط ، اذ سطع نور قوي مـن جانب الأمة الاسلاميـة مـن علوم وأدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك [٢٨] حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقنـد ودمشق والقيروان ومصر وفاس (٩٧) وغرناطة وقرطبة(٩٨) مراكز عظيمة لدائرة المعارف ٠ ومنها انتشرت في الأمم واغتنم منها أهل أوربا في القرون المتوسطـة مكتشفات وصناعـات وفنوناً علمية يأتي بيانها » ٠ الى أن قال(٩٩): « كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم ، مؤداة بلغتين : الحميريـة في اليمن والقرشية في الحجاز وبالأخـيرة (١٠٠) جاء القرآن٠ ثم لما اتسعت لهم دوائر الفتوحات واختلطوا بالأمم الذين سبقوهم في الحضارة اتسع لهم نطاق المعارف ، فأخذوا عن اليونان تآليف أرسطو(١٠١) وشرحوها بامعان نظر ،لكن من سوء(١٠٢) البخت لم يأخذوا الفلسفة

من كتب اليونان الأصلية ، وانما تعلموها من الكتب المترجمة بلغة أهل الشام ، فهم ترجموا المترجم ، فلذلك لما نقلها الفيلسوف العربي حفيد ابن رشد(١٠٣) الى أوربا في القرون المتوسطة[٢٩] وجد بها التحريف أكثر مما وقع فيها أولا . وأما العلوم الرياضية فقد صادف فيها العرب المرمى ، والفضل في ذلك للعلماء الذين جلبهم الخليفة المأمون من القسطنطينية ، وفي أوائل القرن التاسع المسيحي أمر الخليفة المذكور عالمين من فلكية بغداد أن يقيسا مسافة درجة واحدة من خطوط الطول بصحراء سنجار ويزناها ليثبت بذلك تكوير الأرض بالمشاهدة ، وقد تبين ذلك باختلاف ارتفاع القطب الشمالي عن طرفي(١٠٤) الخط المقيس ، وقد شرح العرب كتاب اقليدس (١٠٥) وهذبوا زيج(١٠٦) بطليموس (١٠٧) وحرروا حساب تعريج منطقة البروج ، كما حرروا الفرق بين أوقات الاعتدال والفرق بين السنين الشمسية والزمنية ، فوجدوا بينهما عدة دقائق ، ومنهم حازت مدينة (سمرقند) قبل أوربا بكثير محلَّ رصد عجيب(١٠٨) . ويمكن انهم نقلوا الينا على ذلك [٣٠] الوجه البوصلة أي : بيت الابرة ، والبارود الذي تعلموه من أهالي(١٠٩) الصين كما يعترف لهم أهل أوربا بمزية اختراع الكاغد(١١٠) من القماش ، وبذلك كثرت الكتب وتدنت أسعارها! وقد اشتهر العرب أيضاً بمعرفة الطب الذي كانوا تلقوه من كتب اليونان ، ولابن رشد تعليقات عديدة على كتب جالينوس(١١١) شاهدة بما ذكر . ومن فلاسفتهم عدة أشخاص صاروا في مدة واحدة(١١٢) حكماء وأطباء مشاهير مثل أبي علي بن سينا المتوفى سنة ٤٢٦ هـ ، وابن رشد المذكور . وقد بلغوا من الشهرة الى حيث صار أعداؤهم في ذلك الوقت يرغبون في معالجتهم اياهم ، كما يحكى أن بعض ملوك قسطيلة كان اعتراه مرض الاستسقاء فاشتهى أن تكون معالجته بقرطبة ، وحصل من لطف الخليفة على الاذن في أن يذهب ويداويه المسلمون . ومن مآثر حكماء العرب كيفية تقطير المياه [٣١] واستعمال الراوند(١١٣) وأدوية كثيرة . ومن العلوم التي لهم الفضل فيها الجغرافية . وسبب تقدمهم فيها أن اتساع فتوحاتهم ورغبتهم في الأسفار الخطيرة لافتراض(١١٤) الحج عليهم أنتجت لهم المعرفة بكثير من البلدان الشاسعة التي لم يصل اليها أهل أوربا أو نسوها بعدما كانت معروفة لهم(١١٥) ومن مشاهيرهم في هذا الفن أبو الفداء (١١٦) والمسعودي (١١٧) والادريسي (١١٨) ، وهذا الأخير هو الذي استدعاه روجير(١١٩) ملك صقلية وألف عنده كتابه الغريب الذي سماه: « نزهة (١٢٠) المشتاق »(١٢١) . ومن مآثر العرب اصطناع الجوابي(١٢٢) والفوارات والتزويق بالذهب والأحجار الثمينة كالمرمر التي كانوا يجلبونها من المشرق(١٢٣) ومن مقاطع اسبانيا الجنوبية . ومن أشهر أبنيتهم الجامع العظيم الذي بناه « عبدالرحمن الأول »(١٢٤) بقرطبة وكان به ألف وثلاث وتسعون(١٢٥) أسطوانة وأربعة آلاف وسبعمائة قنديل ثم قصر الزهراء الذي لا يتأخر عن الجامع المذكور في العظم(١٢٦) وقد بناه « عبدالرحمن الثالث »(١٢٧) انتهى [٣٢] كلام المسيو مسيودوري (١٢٨) .

وفي تاريخ العرب (لسدليو) (١٢٩) مدرس علوم التاريخ باحدى مدارس فرنسا وأحد أعضاء جمعية المعارف بها ما معناه « اني منذ مدة طويلة تنيف على العشرين سنة مشتغل ببيان مزايا العرب على غيرهم من الأمم فيما يتعلق بالعلوم والتقدم في التمدن مدة قرون متطاولة ، من أيام اليونان بالاسكندرية الى أيام العصر الجديد ، فلزمني أن أجمع ما تيسر

لي من الأدلة على عظم هذه الأمة التي لم يعرف قدرها الى الآن ، وأعرضه على ما لغيري ممن تكلم عليها فيتأسس تاريخاً لها(١٣٠) لهاعمومياً (١٣١) ، وان كان ذلك مما لا تفي به طاقة انسان واحد ، وقبل الشروع في ذلك على وجه الاختصار يلزمني أن أندب الناس الى التأمل في أحوال هذا الجنس الذي كان كثير الفتوحات عديم الاستيلاء عليه في سائر مغازيه ولم يزل مدة أربعة آلاف سنة على حال واحد في اكتساب الفضائل والمزايا التي تميز بها على غيره ، والتراتيب والعادات [٣٣] الخاصة به • ومن حجج ذلك أن الوقت الذي كانت فيه الممالك القديمة في مبدأ تكوينها ذات حيرة ،كان هذا الجنس اذ ذاك قائماً بنفسه قادراً على الاغارة على غيره ، فقد كانت ملوك مصر وبابل من ذلك الجنس مدة تسعة عشر قرناً قبل التاريخ المسيحي ، ثم بعد أن رجع الى حدوده الأصلية دافع عن نفسه سلطة الفراعنة وملوك الشام وامتنع من تسلط قيرس(١٣٢) واسكندر ودام في استقلاله ضد الرومان الذين كانوا ملكوا الدنيا ، وبعد ظهور النبي (ﷺ) الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصدا واحدا ، ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر طاج(١٣٣) في اسبانيا الى نهر الغانج(١٣٤) في الهند ، ورفعت على منار الاشادة(١٣٥) أعلام التمدن في أقطار الأرض أيام كانت أوربا مظلمة بجهالات أهلها في القرون المتوسطة كأنها نسيت بالمرة ماكان عندها [٣٤] من التمدن الروماني واليوناني ، وبعد انقسام ممالك الاسلام لم تتعطل العلوم والآداب التي نتجت على أيديهم ، فان خلفاء بغداد وقرطبة ومصر وان ضعفت قوتهم الملكية والسياسية فان سلطنتهم الروحانية لم تزل قوية مطاعة في كل جهة لاجتهادهم في توسيع دوائرها بقدر طاقتهم ، وقد نال النصارى الذين استطاعوا اخراج العرب من اسبانيا بالخلطة معهم في الحروب معارفهم وصنائعهم واختراعاتهم ، ثم المغل والترك الذين تسلطوا على آسيا وتداولوها كانوا خدمة في العلوم لمن تغلبوا عليه من فرق العرب ، والى الآن لم نطلع في أوربا على الأصول التي تبين لنا عادات العرب اطلاعاً تاماً ، اذ لم يعرف عندنا من تواريخهم الا تواريخ أبي الفداء وأبي فرج الأصبهاني(١٣٦) والمقريزي(١٣٧) وابن الأثير(١٣٨) ونبذة من تاريخ ابن خلدون(١٣٩) ونجهل بالمرة تواريخ كثيرة نود لو نجد من يترجمها لنا ، وان كان [٣٥] المقدار الذي حصل عندنا كافياً في رد غلط من غلط من أهل أوربا في شأن العرب • ثم اني ذكرت في تاريخنا هذا مايتعلق بفتوحات الخلفاء الأولين وبتاريخ دولة بني أمية بدمشق وقرطبة وبتاريخ دولة بني العباس ببغداد والفاطميين بمصر ، وبانقسام الممالك الاسلامية بالمشرق بعد تسلط الترك والمغل عليهم ، فبينت جميع ذلك بقدر الطاقة وزدت عليه شيئاً لم يوجد في التواريخ السالفة وهو برنامج التمدن الذي قد توشجت(١٤٠) عروقه في الدنيا القديمة واستمرت آثاره ظاهرة الى الآن لكل من يبحث بالجد عن أصل المعارف منا ، وفي أوائل القرن الثامن من تاريخنا تبدل ولوعهم بالفتوحات بالجد في المعارف والعلوم فكانت اذ ذاك قرطبة ومصر وطليطلة وفاس والرقة(١٤١) واصبهان وسمرقند تتسابق في ميدان العلوم مع بغداد تخت بني العباس ، وترجمت في تلك المدة كتب اليونان وقرئت [٣٦] بالمدارس وشرحت وسرت حركات عقولهم في جميع مواد المعارف الانسانية فنتج عنها من الاختراعات الغريبة ما شاع صيته في أوربا • فتبين بلا اشكال أن العرب هم أساتيذنا بلا انكار لكونهم جمعوا الأدوات المؤسسة عليها تواريخنا المتوسطة ،

وبدؤوا (١٤٢) بكتابة الرحلات واخترعوا التأليف في تاريخ وفيات الأعيان ووصلوا في صناعة اليد الى غاية لا تحد ، وبقية آثار أبنيتهم مما يدل (١٤٣) على اتساع معارفهم ، وكذلك اختراعاتهم الغريبة تزيد بيانا لفضائلهم التي لم ينزلوا بها الى الآن منزلتهم التي يستحقونها بسببها ، فان علوم الفيزيك والطب والتاريخ الطبيعي والكيمياء والفلاحة ، لما جاءت(١٤٤) في أيديهم ازداد فيها الغريب مع كونها من المحسوسات التي لاتصرف لها هممهم صرفاً تاماً ، فكيف بالعلوم العقلية التي اجتهدوا فيها اجتهاداً يفوق الحد من مبدأ القرن التاسع الى انتهاء القرن الخامس [٣٧] عشر . ثم نقول : ما نسبة ما عرفناه الآن منهم ببحثنا الى ما بقي مجهولا لنا من ذلك . وبالجملة فالعرب هم منبع معارفنا ، ولم نزل الى الآن نطلع على أشياء من مخترعاتهم التي كانت منسوبة لغيرهم كلما قرأنا كتبهم ، ثم قال في شأن التمدن العربي ، انهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم وانقشعت بسببهم سحائب البربرية التي امتدت على أوربا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين ورجعوا الى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة، ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها ، بل اجتهدوا في توسيع دوائرها ، وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول في عجائبها(١٤٥) ، ثم استشهد بقول اسكندر همبلط(١٤٦) : ان العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة من شواطىء نهر الفرات الى الوادي الكبير باسبانيا وبين العلوم وأسباب التمدن ، فتناولتها الأمم(١٤٧) على أيديهم لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت في الدنيا تأثيراً [٣٨] لايشتبه بغيره . فكانوا في طبيعتهم مخالفين لبني اسرائيل الذين لا يطيقون خلطة أحد من الناس ، فيخالطون غيرهم من غير أن يختلطوا به ، ولا يتبدل طبعهم بكثرة المخالطة ، ولاينسون أصلهم الذي خرجوا منه ، وما أخذت أمم ألمانيا في التمدن الا بعد مدة طويلة من فتوحاتهم ، بخلاف العرب فانهم كانوا يحملون التمدن معهم ، فحيثما حلوا حل معهم ، فيبثون في الناس دينهم وعلومهم ولغتهم الشريفة وتهذيباتهم وأشعارهم الشهيرة التي هي أساس بنى عليه المنسنقر(١٤٨) والتربدور(١٤٩) أشعارهم . ثم قال(١٥٠) وأما التجارة فقد كان للعرب حسن رغبة فيها ، في سائر الأوقات ، ثم لما امتدت سلطنتهم من البيريني وهي جبال بين فرنسا واسبانيا الى جبال هملاي التي بأقصى شمال الهند صاروا أكبر تجار الأرض . وأما الفلاحة فلا يعلم لهم نظير فيها اذ ليس لغيرهم ما لهم من الاقتدار على جلب المياه وتوزيعها بلطف في مزارعهم الواسعة تحت شمسهم [٣٩] المحرقة ، فسيرتهم في ذلك السائر بها الى الآن أهل بلنسية(١٥١) روضة اسبانيا صالحة أن نجعلها أسوة نقتدي بها في فلاحتنا الفرنساوية ، وأما الصناعات فان العرب تعلموا جميعها لما دخلوا بلاد الرومانيين العظيمة حتى صاروا من أحذق أربابها ، وكفاهم شهرة في ذلك سلاح طليطلة التي كانت تحت سلطانهم باسبانيا ، وحريريات غرناطة والجوخ(١٥٢) الأزرق والأخضر بمدينة كونسة، والسروج والخروج بقرطبة ، وكان أهل أوربا يشترون هذه المهمات بأغلى ثمن ويتنافسون فيها مع شدة نفرتهم من أهلها المخالفين لديانتهم . ثم قال بعد ذلك : ونعود الآن فنقول :(١٥٣) انه ثبت عندنا بما صنفه العرب واخترعوه رجحان عقولهم الغريب في ذلك الوقت الذي وصل صيته الى أوربا النصرانية ، وهذا حجة

على أنهم كما قال غيرنا ، ونحن نعترف بهم أساتيذنا ومعلمونا(١٥٤) الذين اهتدينا بنور علومهم وتمدنهم وآدابهم» . انتهى [٤٠] كلام المسيو سدليو .

فالعجب كل العجب من قوم يقول لهم الافرنج : قد أخذ أسلافنا كثيراً من حقائق علم الفلسفة والهيئة والطب والكيمياء عن أسلافكم، ولو لم يقتبسوا من نور علومهم لبقينا في ظلمات الجهل الى الآن ، وهم يتبرؤون منها ومن نسبتها الى أسلافهم حتى انهم يكفّرون من قال بها أو يفسّقونه ، فسبحان من يداول الأيام بين العباد وله المراد فيما أراد واليه المعاد .

ولا بأس من أن نذكر ما جرى في جمعية علماء اللغات الشرقية بمدينة ليدن لما فيها من الفوائد وذلك أنه من مدة عشر سنوات عينت علماء اللغات الشرقية مكان اجتماعهم مدينة ليدن من بلاد دولة هولاندة كما هي عادتهم في كل ثلاث سنين ، وكانت الجمعية المذكورة مؤلفة من سائر طوائف أوربا من كل ملة بلا استثناء ، والذي كان من طرف الدولة العلية حضرة الشيخ أمين أفندي المدني(١٥٥) ففي نهاية اجتماعهم بعث المذكور رسالة الى مجلة [٤١] المقتطف البهية في بيروت بخلاصة ما جرى في الجمعية فنشرتها في وقتها بحروفها فاقتطفنا منها ما يأتي : قال بعد أن ذكر محاورات العلماء وخطبهم وانتقادهم أقوال بعضهم من غير خروج عن حد الأدب(١٥٦) : ان أحد علماء الفرنساويين واسمه المسيو رينان(١٥٧) كان ألف رسالة أنكر فيها على العرب ظهور واحد منهم بمظهر الفلسفة أو الحكمة ، فلما جرى ذكرها وذكر مؤلفها التفت أحد العلماء الانكليزيين واسمه الدكتور «تين» وقال : لا يُنكر فضل العرب وعلومهم (١٥٨) الا من عميت بصيرته ، فان أوربا على تقدمها في العلوم ، وجدّها واجتهادها لو لبثت مائة عام وهي تقرأ لا يمكنها أن تعرف مقدار فلاسفة العرب في الأندلس فقط فضلا عن فلاسفة المشرق ، ونحن لولا هؤلاء الفلاسفة ما وصلنا الى شيء من علوم الأولين ثم لا زلنا ولا نزال كلما وجدنا حجرا مكتوباً أو عظمة أو خزفة(١٥٩) أو جلدة من آثار(١٦٠) العرب نستخرج منها تواريخ ونوادر وفوائد ولكن الأولى عدم الرد على المسيو [٤٢] رينان لأنه جاحد مُصادر يكابر في الحس كمن ينكر ضوء الشمس عناداً على أن جميع الأفكار الحاضرة لا تقصد الا توحيد الكلمة والتأليف بين النوع الانساني على اختلاف العوائد والمعتقدات بخلاف المسيو رينان فانه يحاول أن يشق العصا حتى يردها جذعة . انتهى كلام الدكتور تين . ثم قال الشيخ أمين أفندي المذكور : (١٦١) ومما يستحق البيان أيضاً أننا في المشرق لا نعرف أحوال أهل أوربا ولا العلوم التي يشتغلون بها ولا الكتب التي طبعوها في شيء ديني أو علمي(١٦٢) وقد وجدت فيهم قوماً يشتغلون بمذهب الحنفي(١٦٣) وقد طبعوا فيه كتباً عظيمة منها شرح القدوري(١٦٤) وفتاوى القروي(١٦٥) والتلويح في الأصول ، وبعضهم يشتغل بمذهب الشافعي(١٦٦) ، وقد طبعوا(١٦٧) منه : التنبيه لأبي اسحاق الشيرازي (١٦٨) بغاية الجودة والضبط ، ومنهم من هو شارع في شرح الورقات لامام الحرمين (١٦٩) ، وقد طبعوا صحيح البخاري(١٧٠) وتفسير البيضاوي (١٧١) وغير [٤٣] ذلك من الكتب الشرعية(١٧٢) الاسلامية وبعضهم مجد(١٧٣) في تدريس هذا التفسير مع التحقيق والتدقيق والمحاورة بينه وبين تلامذته . وأخبرني رجل منهم أنه يقرأ كل يوم عن ظهر الغيب جزءا من القرآن المجيد ، ثم اذا صرفنا النظر عن غايات الافرنج في طبع هذه الكتب فأين يبيعونها وهم لا يطبعون أقل من خمسمائة نسخة من كل كتاب ، واني مع

اشتغالي بالكتب مدة سنين ما رأيت أكثرها في بلاد المشرق . ولا سمعت بأنه طبع منها(١٧٤)، ويخشى (١٧٥) ان دام هذا الاعتناء في أوربا أن تشد اليها رحال التحصيل من سائر الأقطار، حتى في طلب العلوم الشرعية الاسلامية ، لأن الافرنج متى اشتغلوا بعلم فانهم لا يتركونه بل(١٧٦) يغوصون في بحاره فيستخرجون درّه من طينته خصوصاً(١٧٧) أن ملوكهم مجدون في تمهيد السبل ، وعلماءهم أسخياء بما لديهم ،وكتبهم سهلة التناول والاعارة وبلادهم رغدة العيش ، والأبدان فيها صحيحة ، والأديان حرة، فكل هذه أسباب داعية [٤٤] الى انجذاب العالم اليهم • انتهى كلام الفاضل الشيخ أمين أفندي المدني ولله درّ الشاعر حيث يقول : (من البسيط)

حتى م تزرون يا افرنج بالعرب ... مهلا فلا خير بابن قد زرى باب
ما فضل قوم من الأوباش لا نسب ... لهم على قوم اسماعيل ذي النسب
ان كان بالعلم جئتم تفخرون فمن ... معالم العرب كل العلم والأدب
أخذتم الطب عنهم والحساب وما ... يتلوه والشعر حتى كل منتخب
تذكروا ما غنمتم يوم ندوتكم ... في أرض أندلس من تلكم الكتب
فهل فضلتم علينا باختطافكم ... أرزاقنا آه واحزني وواعجبي
وأي فضل للص دبَّ في غسق ... على غني فاكتسى طوقاً من الذهب
فسوف يقبض جاسوس الزمان على ... ذا اللص فالدهر حكم غير منغلب
لا تفخروا يابني الافرنج في شطط ... على بني العرب أهل الأصل والحسب
صعدتم الأوج لكن فوق سلّمهم ... فكرّموا سلّماً تمتد للشهب
وطهروا عند ذكر العرب ألسنكم ... فالعرب سادتكم من سالف الحقب[٤٥]
مهما سما العبد واستعلى وزادغنى ... ماجاء سيده الا من الجنب
ذي فطرة العرب عزت أين فطرتكم ... لم يلف بينهما ـ والله ـ من نسب
أنشاهم الله من جود ومن كرم ... ومن ذكاء ومن صفو ومن طرب
ومن ذمام أبى الا الثبات ومن ... مروءة دأبها تبدو لدى الطلب
هم الذين لتاريخ القديم حموا ... فاغتلتموه وشنتم ذمة العرب
حسن الوفا والولا يغري لهم وكذا ... قِرى ضيوف واحسان لمغترب
هذي خلائقهم والكل شاهدها ... فما خلائقكم يا أمة اللجب
دحاكم الله من لؤم ومن عنت ... ومن عتو ومن حقد ومن غضب

كأنما معهـد الطاغوت عندكـم ... فمـا نطقتم بغير المـين والكـذب
فلا صديـق لكم غير النضـار ولا ... خل" سوى الفضة البيضاء والنشب
ولا وفـاء ولا عهـد ولا ذمـم ... ولا حنـو" ولا عـون لمنتكـب
لم تحسنوا غير تعبيس الوجوه فـلا ... أنس" لديكـم ولا بشـر لمرتقـب
ولم تمدوا يـدأ للغوث ان قصـدت ... حتى تعود لكم بالنهب والسلب[٤٦]
هيهات ما العرب تهوى ذي الطباع فلا ... تزروا بهم كازدراء الشوك بالعنب
تادبوا كلمـا للعرب عـن" لكـم ... تذكر" يا بنـي حمـّالة الحطـب
العرب قد ملكـوا الدنيا وقد فتحوا ... كل المناطـق مـن قطب الى قطـب
وقد تعالوا وسادوا وارتقوا وسطوا ... وأرسلوا فخرهم يعلو على السحب
وهـاك آثارهـم بالفوز شاهـدة ... ما بينكـم واذا غابـوا فلـم تغب
فما فضائلكـم بالأرض نحسبهـا ... غير الحروب ودفـع الناس في الحرب
تبـارك الله ان" الشـرق هـم" الى ... رأس المدار وهـم الغـرب للذنب

كأن شاعرنا المجيد أخذته الحدة حتى توسع في هجو القوم زيادة عن ما يقتضي ، وعلى كل حال لافضَّ فوه • فليعمل أهل هذا الزمان موازنة بينهم وبين أسلافهم الكرام ليعلموا في أي درجة كانوا من الترقي وما صاروا هم فيه من الانحطاط ، نسأل الله أن يوفقنا لما فيه رضاه بجاه من شرف السماء قدماه • آمين •

وأرجو ممن اطلع على هذه المقولة المشوشة المبنى (٤٧) أن ينظر اليها بعين الانصاف من حيث المعنى ، ولا يطلب مني تنميق العبارة ، ولا الجمل المزينات بالتورية والاستعارة ، فاني قليل البضاعة في هذه الصناعة • فالمفلس معذور والكريم غفور وصلى الله على سيد خلقه ومن فاق الجميع بخلقه وخلقه ، ورضي عن آله وصحبه وأهله وحزبه آمين •

حرر في سنة ١٣١١

الهوامـش :

١ ـ في الأصل : المبروات •

٢ ـ آل عمران : ١٩٠ •

٣ ـ يبدو انه يريد « المنطاد » وهو قبة هوائية ترتفع في الجو • هكذا عرفه في المنجد ، وهو تعريف غير دقيق والأولى ـ فيما ارى ـ ان يقال : انه قبة مصنوعة من قماش كتيم تملأ بغاز أخف من الهواء فترتفع حاملة معها ما يتعلق بها • وانظر وصف المنطاد في كتاب تاريخ الجبرتي ٣/٣٣ فقد صوره على انه اعجوبة من الاعاجيب وانظر المقتطف المجلد السابع ص : ٦١٦ : اختراع البالون •

٤ ـ في الأصل : شاؤها •

٥ ـ Telegraph : هو ارسال الخبر باللاسلكي وهو ما نسميه : البرق ـ انظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق م ٥٠/٧٤٣ المرجع للعلايلي •

٦ ـ Vapor ومعناها البخار ، وما أدري أيريد المؤلف بها القطار أم موقد النفط المستخدم في المطبخ •

٧ ـ Telephone : هاتف ـ المرجع ـ وانظر مجلة مجمع اللغة العربية م ٥٠ ص : ٧٤٤ •

٨ ـ هل يريد وهمهم ؟ أو أنهم يوهمون غيرهم من أوهم يوهم ايهاماً •

٩ ـ وضع الكاتب هذه العبارة بين قوسين (هو بيت من الشعر من مجزوء الكامل) •

١٠ ـ الامام ابو حامد الغزالي ـ حجة الاسلام ـ محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، ولد بالطابران احدى قصبتي طوس بخراسان سنة ٤٥٠ هـ ـ ١٠٥٨ م وتوفي سنة ٥٠٥ هـ ـ ١١١١ م • فقيه ، متكلم أصولي ، صوفي ، مشارك في أنواع من العلوم ••• عن معجم المؤلفين ١١/٢٦٦ •

١١ ـ في التهافت : قسم يرجع النزاع فيه •• : ٧٧ •

١٢ ـ في التهافت جملة اعتراضية : ـ تعالى عن قولهم ـ •

١٣ ـ في التهافت : تفسيرهم •

١٤ ـ في التهافت : الى مقوم يتوهم • وقد حذف الكاتب بقية كلام الغزالي على سبيل الاختصار •

١٥ ـ في التهافت : القسم الثاني : ٧٨ •

١٦ ـ في التهافت : الأنبياء والرسل ـ صلوات الله عليهم ـ •

١٧ ـ في التهافت : محيط •

١٨ ـ في التهافت : وهذا الفن •

١٩ ـ في التهافت : يتحقق •

٢٠ ـ هكذا في الأصل • والصواب : الكسوفين كما في التهافت : ٧٨ •

٢١ ـ في التهافت : ان هذا •

٢٢ ـ تهافت الفلاسفة : ٧٧ ـ ٧٨ ط : دار المعارف • ص : ٤ ط مصر سنة ١٣١٩ هـ •

٢٣ ـ نقل الكاتب هذه المعلومات من مجلة المقتطف م ٨ ص : ٦٦٨ •

٢٤ ـ في الأصل : ليجعلونها •

٢٥ ـ يعني معرفة فرق المنسوب بين النقاط المختلفة على سطح الأرض ومعرفة أماكن الحفر والردم لكي لا يتجاوز الميل الأعظمي المسموح به في السكك الحديدية •

٢٦ ـ يبدو أنه يريد معرفة مقاومة الهواء الساكن ومقاومة الرياح الهائجة لجسم القطار • انظر السكك الحديدية ص ٢٣٧ ، المهندس عبد النافع شاهين •

٢٧ ـ المضخة •

٢٨ ـ يصح هذا المقياس في الشروط النظامية للضغط الجوي • والا فان العمق يختلف زيادة ونقصانا بارتفاعنا أو بانخفاضنا عن سطح البحر •

٢٩ ـ هكذا في الأصل •

٣٠ ـ في الأصل : مراعات •

٣١ ـ انظر هذه الأخبار وأمثالها في كتيب صغير بعنوان : بدائع الزهور في وقائع الدهور لمحمد بن أحمد بن اياس • طبع في مصر ، المكتبة السعيدية بجوار الأزهر •

٣٢ ـ نسبة تركية الى المكتب •

٣٣ ـ حسن حسني « باشا » بن حسين عارف الطويراني ١٢٣٦ هـ ـ ١٣١٥ هـ ، ١٨٥٠ ـ ١٨٩٧ م : شاعر منشىء ، تركي الأصل مستعرب • ولد ونشأ بالقاهرة ، وجال في بلاد آسية وافريقية والروم • واقام بالقسطنطينية الى أن توفي • كان أبيّ النفس بعيدا عن التزلف للكبراء ، وكان يجيد الشعر والانشاء باللغتين العربية والتركية ، وله في الأولى نحو ستين مصنفاً وفي الثانية نحو عشرة • واكثر كتبه مقالات وسوانح • عن الأعلام ٢٠١/٢ باختصار • وانظر معجم المؤلفين ٢١٦/٣ •

٣٤ ـ في كتاب المعارف : ١١ ثم قال الله عز وجل : نخلق بشرا بصورتنا، قارن بالعهد القديم : سِفر التكوين : ص ٢ : وقال الله : نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا •

٣٥ ـ هذا حديث موضوع • انظر كتاب المطالب في احاديث مختلفة المراتب ص : ١١٠ •

٣٦ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ويقول : من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفرني فأغفر له • صحيح البخاري : ١٣١/١ باب الدعاء والصلاة في آخر الليل • الترمزي : برقم ٤٤٦ • والحديث صحيح ، ولا وجه لانكار ما فيه ولا حجة الا الفهم السطحي ، وقد شرحه الامام ابن يتيمة مبيناً مقاصده ودلالاته وطبع شرحه في المكتب الاسلامي بدمشق •

٣٧ ـ بدائع الزهـور : ١٢ ـ قارن بالعهـد القديم ، سفـر التكوين : ٣ ٠

٣٨ ـ بدائع الزهور : ٦ ٠

٣٩ ـ قال أبو سعيد قال النبي ﷺ : أول طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد حوت عدن ٠ البخاري : ٨٨/٤ كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ٠

٤٠ ـ نلاحظ أن السيد حسن الطويراني خلط في كلامه الصحيح بالزائف ، وكان عليه أن يميز بين الأقوال ويعزو كـل قول الى صاحبـه وينزله مكانه اللائق به في الأفهـام والعقول ٠

٤١ ـ ورد ذكره في تاريخ الأستاذ الامام ٩٥٩/١ ٠

٤٢ ـ الفرقان : ٦٢ ٠

٤٣ ـ يس : ٣٣ ٠

٤٤ ـ يس : ٤٠ ٠

٤٥ ـ الشمس : ٤٥١ ٠

٤٦ ـ يسن : ٣٨ ٠

٤٧ ـ في الأصل : تاويل ٠

٤٨ ـ النمل : ٨٨ ٠

٤٩ ـ من حكم اللفظ أن يحمـل على حقيقتـه اذا تجـرد ، ولا يحمل على مجازه الا لدلالـة ٠ لأن واضع الكـلام للمعنى انما يضعه ليكتفي به في الدلالة عليه ويستعمله فيه ٠ المعتمد في أصول الفقه ٣٥/١ ٠

٥٠ ـ النمل : ٨٨ ٠

٥١ ـ النمل : ٨٨ ٠

٥٢ ـ الحج : ١ ، ٢ ٠

٥٣ ـ النازعات : ٣٠ ٠

٥٤ ـ قال ابن فارس : الدحو : الدال والحاء والواو أصـل واحد يدل على بسط وتمهيد ٠ معجم المقاييس : دحو ٠ قلت : ومعنى البسط والتمهيد لا يناقض معنى كروية الأرض لأن الجسم العظيم المكور يكون ظاهره كالسطح المستوي : وانظر مفاتيح الغيب ٤٨/٣١ ٠

٥٥ ـ الرحمن : ١٠ ٠

٥٦ ـ ثابت بن أوس الأزدي ٠ شاعر جاهلي صعلوك ٠ قتل حوالي عام ٥١٠ م ٠

٥٧ ـ وهي القصيدة المعروفة بلامية العـرب ٠ وقد نشرتهـا مشروحة وزارة الثقافة بدمشق سنة ١٩٦٦ بتحقيق الأستاذ عبد المعين الملوحي ومطلعها :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فاني الى قوم سواكم لأميل

٥٨ ـ هذا البيت الثالث والأربعون من القصيدة ٠ المنحوض : القليل اللحم ٠ الفصوص : جمـع فص وهي فواصـل العظام ٠ دحاها : فرشها ٠ والمعنى : ووسادتي ذراعي التي قل لحمها ، فكأن فواصلها كعاب من العظام منتصبة ٠ الشرح : ٤٣ ٠

٥٩ ـ النازعات : ٢٧ ٠

٦٠ ـ آل عمران : ١٩١ ٠

٦١ ـ انظر روح المعاني ١٥٧/٤ وفيه : ويل لمن قرأها ولـم يتفكر فيها ٠

٦٢ ـ الروم : ٥٠ ٠

٦٣ ـ يوسف ١٠٥ في المخطوط : وكم من آية ٠

٦٤ ـ اشارة الى قول النقاد قديماً أعذب الشعر أكذبه ٠

٦٥ ـ المائدة : ٤٢ ٠

٦٦ ـ هكذا في الأصل ٠ الصواب : أديب اسحق : « ١٢٧٢ ـ ١٣٠٢ ، ١٨٥٦ ـ ١٨٨٥ » أديب اسـحق الدمشقي : أديب ، حسن الانشاء ٠ له نظم ٠ حرر في بعض صحف بيروت ٠ سافر الى الاسكندرية ثم الى القاهرة وأصدر فيها جريدة (مصر) سنة ١٨٧٧ م ثم عاد الى الاسكندرية وعمل في الصحافة ٠ سافر الى باريس ١٨١٠ واصدر جريدة «مصر القاهرة» ٠ ثم عاد الى بيروت فمصر ٠ وغادر مصر بعد الثورة العرابية وتوفي في قرية الحدث (بلبنـان) ٠ عن الأعلام ٢٧٤/١ ٠

٦٧ ـ ورد البيتان غير منسوبين في كتاب فتح الرحيم الرحمن شرح لامية ابن الوردي ص ٩٠ ط : مصر ١٣١ ٠

٦٨ ـ الأعراف : ٨٥ ٠

٦٩ ـ النفط ٠

٧٠و٧١ ـ سبق ذكرهما ٠

٧٢ ـ يبدو أنه يريد الأسطوانة ٠

٧٣ ـ المجهـر ٠

٧٤ ـ الطعم .

٧٥ ـ قال الجبرتي بعد أن شاهد بعض تجارب الكيمياء أيام الحملة الفرنسية على مصر « سنة ١٢١٣ هـ » : وأهم فيه امور واحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا ـ تاريخ الجبرتي : ٣/٣٧ .

٧٦ ـ قارن بموقف الجبرتي السابق ذكره في المقدمة .

٧٧ ـ فارسي معرب وبعضهم يكسر شينه ـ المعرب : ٢٥٧ .

٧٨ ـ من ألعاب التسلية لا يزال الناس يلعبونها في مناطق من الجزيرة السورية . وفيها ينقل الحصى من تجويف الى تجويف ضمن خشبة معدة لذلك .

٧٩ ـ يبدو أنه يريد الداما وهي لعبة تركية لا تزال منتشرة في مقاهي بلادنا .

٨٠ ـ لم أعرف هذه اللعبة .

٨١ ـ معنى النبوت العصا الغليظة والفرع النابت من الشجر ولعله يريد بذلك لعبة أدواتها عصوان غليظتان يتبارز بهما لاعبان .

٨٢ ـ ربما كان يريد بالقباوة ما يطلق عليه « الصرة » وهي جزء من كرش الغنم يحشى بالرز واللحم ولا الكلمة شائعة حتى الآن في حلب وهناك أسرة بهذا الاسم كما أن الكلمة متداولة في حمص .

٨٩ ـ في الأصل مواعظا .

٩٠ ـ حسين الجسر ١٢٦١ ـ ١٣٢٧ هـ ، ١٨٤٥ ـ ١٩٠٩ م حسين بن محمد بن مصطفى الجسر الطرابلسي الحنفي ، عالم ، أديب ، صحافي . ولد بطرابلس الشام ، وانشأ جريدة « طرابلس » وتوفي بها في رجب . من آثاره : الرسالة الحميدية في حقيقة الديانة الاسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية ، الكواكب الدرية في الفنون الأدبية . معجم المؤلفين ٤/٥٨ .

٩١ ـ النص منقول من مجلة المقتطف . السنة الثامنة . ص : ٥٨٩ .

٩٢ ـ الأبيات لزجال مصري يعرف بالمشراني ويلقب باديب القفة . والككك المذكور في الشعر هو مركب من مراكب صعيد مصر ليس فيه مسمار. انظر بدائع البدائة: ١/٣٨ .

٩٣ ـ كافات الشتاء جمعها محمود بن نعمة الشيخ ابو الثناء الشيرازي المتوفى سنة ٥٥٦ هـ بقوله :

جاء الشتاء وعندي من حوائجه
سبع اذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كيس وكن وكانون وكاس طلا
مع الكباب و ... ناعم وكسا

النجوم الزاهرة : ٥/٣٥٨ . وانظر مقامات الحريري : ١٨٧ « المقامة الخامسة والعشرون » وانظر ايضا حلية البشر ١٥١٢/٣ .

٩٤ ـ خيرالدين باشا التونسي ١٢٢٥ـ١٣٠٨هـ/١٨١٠ـ١٨٩٠ م. وزير مؤرخ ، من رجل الاصلاح الاسلامي، شركسي الأصل، قدم صغيرا الى تونس ، فاتصل بصاحبها (الباي احمد) واثرى ، وتعلم بعض اللغات وتقلد مناصب عالية آخرها الوزارة وفي سنة ١٢٩٤ هـ ـ ١٨٧٧ م أبعد عن الوزارة . فخرج الى الآستانة وتقرب من السلطان عبد الحميد فولاه الصدارة العظمى (سنة ١٢٩٥ هـ) فحاول اصلاح الأمور ، فأعياه، فاستقال (سنة ١٢٩٦ هـ) ونصب عضوا في مجلس الأعيان ، فاستمر الى ان توفي بالآستانة . له كتاب اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك . الأعلام : ٣٧٥/٢ .

٩٥ ـ ترجم له في حاشية اقوم المسالك ص ١٢٠ بما يلي : فكتوردروى : Victor Duruy (١٨١١ ـ ١٨٦٤) مؤرخ، ووزير التعليم بفرنسا من ١٨٦٣ الى سنة ١٨٦٩ ثم عضو بالأكاديمية الفرنسية ابتداء من ١٨٨٤ ـ اقتطف خير الدين هذه الصفحات من كتابه : تاريخ القرون الوسطى منذ سقوط الامبراطورية الغربية الى وسط القرن الخامس عشر ـ ط باريس ١٨٦٧ـص ١١٢ـ١٢٨ (فصل حضارة العرب) .

٩٦ ـ في أقوم المسالك : بينما اهل اوربا تائهون .

٩٧ ـ في أصلنا المخطوط : فارس وهو تصحيف . والتصحيح من اقوم المسالك ص ١٢٠ .

٩٨ ـ في أصلنا المخطوط : قرطاجنة والتصحيح من اقوم المسالك .

٩٩ ـ اقوم المسالك : ١٢١ ـ ١٢٢ .

١٠٠ ـ في المخطوط : وبالأخير .

١٠١ ـ ارسطو طاليس ٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق٠م وهو أشهر من ان يعرف ٠

١٠٢ ـ في المخطوط : اسوء ٠

١٠٣ ـ ترجم له في حاشية اقوم المسالك : ١٢٢ ، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٠ م يلقب بالحفيد لأن جده كان قاضيا مفتيا مالكيا بقرطبة وكذلك أبوه من بعده ٠ كان يلقب ايضا بشارح ارسطو ٠ ولد بقرطبة ومات بمراكش ٠ من أشهر تآليفه : تهافت التهافت يرد فيه على الغزالي ٠

١٠٤ ـ في المخطوط : طرف ٠

١٠٥ ـ اقليدس : رياضي يوناني في القرن الثالث ق٠م مشهور بكتابه في الهندسة (الأصول) ٠

١٠٦ ـ الزيج : كتاب في الجداول الفلكية ٠

١٠٧ ـ بطليموس : فلكي يوناني عاش في القرن الثاني الميلادي وهو صاحب كتاب « المجسطي » ٠

١٠٨ ـ النص في أقوم المسالك كما يلي : فوجدوا بين السنة الشمسية والسنة الزمنية عدة دقائق ٠ واخترعوا للتحريرات آلات جديدة ٠ الى غير ذلك مما يدل على ما للعرب من قابلية العلوم الرياضية ٠ ومنهم حازت مدينة سمرقند قبل أوربا بكثير محل رصد عجيب ٠

١٠٩ ـ في أقوم المسالك : أهل : ١٢٤ ٠

١١٠ ـ الورق ٠ والكاغد : فارسي معرب ٠

١١١ ـ جالينوس : ١٣١ ـ ٢٠١ م اهتم العرب بطبه ٠

١١٢ ـ في أقوم المسالك : ١٢٤ : وقت واحد ٠

١١٣ ـ جاء في حاشية أقوم المسالك : الراوند نبات عريض الورق يؤكل ، خاصيته الطبية اطلاق البطن وتقوية المعدة ٠

١١٤ ـ في المخطوط : بافتراض ٠

١١٥ ـ في المخطوط : عندهم ٠

١١٦ ـ جاء في حاشية أقوم المسالك : ١٢٥ : أبو الفداء الملك المؤيد اسماعيل بن علي من سلالة صلاح الدين الأيوبي (٦٧٢ ـ ٧٣٢ هـ/١٢٧٣ ـ ١٣٣١ م) شارك في الحروب ضد الصليبيين وأصبح ملك حماة ٠ صاحب كتاب في الجغرافية : تقويم البلدان وكتاب في التاريخ مختصر تاريخ البشر ٠

١١٧ ـ عرف به في الحاشية : (ت ٣٥٤ هـ/٩٥٦ م) ولد ببغداد ٠ صاحب مروج الذهب ، وكتاب التنبيه ٠

١١٨ ـ الادريسي : (ت ٥٦٠ هـ/١١٦٦ م) من مواليد سبتة ٠ تعلم بالأندلس وخدم الملك النرماني روجار الثاني بصقلية ، صاحب كتاب في الجغرافية « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » المشهور بكتاب روجار ٠ وفي تاريخ وفاته خلاف ٠

١١٩ ـ ملك من الفرنج ، صاحب صقلية ، هلك بالخوانيق سنة ٥٤٨ هـ/١١٤٨م٠ تاريخ الأدب الجغرافي ٢٨٢/١ ٠

١٢٠ ـ في المخطوط : نزهت ٠

١٢١ ـ قفز المصنف الى الصفحة ١٢٦ من أقوم المسالك ٠

١٢٢ ـ لم اهتد الى معناها ، وفي المنجد : الجوب القميص وجمعه أجواب ٠

١٢٣ ـ في المخطوط : الشرق ٠

١٢٤ ـ عبد الرحمن الأول : «١١٣ ـ ١٧٢ هـ/ ٧٣١ ـ ٧٨٨ م» أو الداخل ، فر من العباسيين واسس بقرطبة الدولة الأموية « ١٣٨ هـ ـ ٧٥٦ م » سمي صقر قريش لباسه ٠ عن حاشية أقوم المسالك ص : ١٢٧ ٠

١٢٥ ـ في المخطوط : وتسعين ٠

١٢٦ ـ عبارة (في العظم) سقطت من المخطوط ٠

١٢٧ ـ عبد الرحمن الثالث « ٣٠٠ ـ ٩١٢/٣٥٠ ـ ٩٦١ م » أو الناصر ، ثامن أمراء بني أمية بالأندلس وحد صفوف البربر والعرب ، وعاشت الأندلس في عهده عصرها الذهبي ٠ عن أقوم المسالك : ١٢٧ ٠

ملاحظة : ولد عام ٢٧٧ هـ/ ٨٩٠ م ٠ وولي الخلافة عام ٣٠٠ هـ ٠

١٢٨ ـ الكلام لم ينته وانما اكتفى مؤلفنا بما نقله ٠ انظر أقوم المسالك : ١٢٧ وما بعدها ٠

١٢٩ ـ Sedillot ـ ١٨٠٨ ـ ١٨٨٧ ٠ مؤرخ وكاتب عام المكوليج دي فرانس ابتداء من ١٨٣٢ ، ثم كاتب عام لمدرسة اللغات الشرقية بباريس ٠ صاحب تأليف « تاريخ العرب » ط : باريس ١٨٥٤ ٠ عن اقوم المسالك ١٣٠ ٠

١٣٠ و ١٣١ ـ هكذا في أقوم المسالك والمخطوط ٠

١٣٢ ـ Cyrus : ملك الفرس ٥٥٨ ق٠م ابن قمبيز ، كان مسيطراً على آسيا الغربية ـ عن أقوم المسالك : ١٣١ ٠

١٣٣ ـ يبدو أنه يريد نهر « تاجة » الذي ينبع من هضبة اسبانيا ويصب في المحيط الأطلسي مارا بمجريط وطليطلة وطلبيرة وهو أطول نهر في اسبانيا والبرتغال ٠ طوله ١٠٠٠ كم ٠

١٣٤ ـ نهر الغانج ينبع من هملايا ويصب في خليج البنغال ٠ طوله : ٣١٠٠ كم ٠

١٣٥ ـ في المخطوط : الاشارة ٠

١٣٦ ـ في أقوم المسالك : أبي الفرج وهو الصحيح ٠

١٣٧ ـ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : (٧٦٩ ـ ٨٤٥ هـ/ ١٣٦٧ ـ ١٤٤١ م) عن معجم المؤلفين ٢/١١ ٠

٣٨١ ـ عز الدين أبو الحسن علي ، (٥٥٢ ـ ٦٣٠ هـ / ١١١٠ـ١٢٣٣ م) من مواليد الموصل ، حارب الصليبيين في جيش يقوده صلاح الدين الأيوبي ٠ صاحب كتاب الكامل في التاريخ ٠ أقوم المسالك : ١٣٢ ٠

١٣٩ ـ عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ/١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) عرف بمقدمته وتاريخه ٠

١٤٠ ـ في المخطوط : توشحت ٠

١٤١ ـ الرقة : قاعدة ديار مضر في الجزيرة على الفرات ٠ أقوم المسالك : ١٣٣ ٠

١٤٢ ـ في المخطوط : وبدؤا ٠ وكتبت الهمزة مفردة في أقوم المسالك : ١٣٣ ٠

١٤٣ ـ بداية ص ١٣٤ في أقوم المسالك ٠

١٤٤ ـ في المخطوط : جآت ٠

١٤٥ ـ بداية ص ١٣٥ في أقوم المسالك ٠

١٤٦ ـ Alexandre Humboldt « ١٧٦٩ ـ ١٨٥٩ » رحالة وجغرافي ألماني ٠ عن أقوم المسالك : ١٣٥ ٠

١٤٧ ـ في المخطوط : تلك الأمم ٠

١٤٨ و ١٤٩ ـ المنسنقر والتربدور : دخيل ألماني وفرنسي ٠ طائفة من الشعراء الغنائيين ظهرت في القرون الوسطى بألمانيا وفرنسا ٠ عن أقوم المسالك ١٣٥ ٠

١٥٠ ـ انظر ص ١٢٧ من أقوم المسالك ٠

١٥١ ـ في المخطوط : بلنسة ٠

١٥٢ ـ في حاشية أقوم المسالك ص ١٢٨ : الجوخ : «فارسية» نسيج من الصوف ٠ وانظر مجلة مجمع اللغة العربية م ٥٠ ج ٤ ص ٧٤٦ ٠

١٥٣ ـ انظر ص ١٣٥ في أقوم المسالك ٠

١٥٤ ـ هنا ينتهي النص في أقوم المسالك ١٣٥ ٠

١٥٥ ـ ذكر صاحب معجم المؤلفين ٣/٩ : أمين بن علي المدني وقال : كان حيا ١٣٠٤ هـ ـ ١٨٨٧ م مؤرخ ، أديب٠ قلت : والرسالة المذكورة نشرت في المجلد الثامن من المقتطف سنة ١٨٨٣ فمن المعقول أن يكون صاحب الرسالة هو نفسه المذكور في معجم المؤلفين ٠

١٥٦ ـ المقتطف ٨/٢١٩ ٠

١٥٧ ـ ارنست رينان : ١٨٢٣ ـ ١٨٩٢ مؤرخ وناقد ومستشرق فرنسي ألف رسالة عن ابن رشد والرشدية ٠

١٥٨ ـ في المقتطف : علم العرب وفضلهم ٠

١٥٩ ـ في المخطوط : خرقة ٠ والتصحيح من المقتطف ٠

١٦٠ ـ في المخطوط : مأثر ٠

١٦١ ـ المقتطف ٨/٢٨٩ ٠

١٦٢ ـ في المخطوط : أو غيره ٠

١٦٣ ـ نسبة الى الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ٨٠ ـ ١٥٠ هـ/٦٩٩ ـ ٧٦٧ م ٠

١٦٤ ـ أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان البغدادي المشهور بالقدوري نسبة الى بيع القدور (٣٦٢ـ٤٨٢هـ/ ٩٧٣ ـ ١٠٣٧ م) فقيه حنفي ، انتهت اليه رياسة أصحاب أبي حنيفة بالعراق ٠ وتوفي ببغداد في رجب٠ معجم المؤلفين ٢/٦٦ ٠

١٦٥ ـ لم أهتد الى مؤلف بهذا اللقب ٠ والأرجح أنه يريد فتاوي الآنقروي من فقهاء الأتراك ٠

١٦٦ ـ نسبة الى الامام محمد بن ادريس الشافعي ١٥٠ـ٢٠٤ هـ ٧٦٧ ـ ٨١٩ م

١٦٧ ـ في المقتطف : فطبعوا من كتبه ٠

١٦٨ ـ ابو اسحاق الشيرازي : ابراهيم بن علي بن يوسف ابن عبدالله : ٣٩٣ ـ ٤٧٦ هـ/١٠٠٣ ـ ١٠٨٣ م : فقيه شافعي ، اصولي ، مؤرخ ، اديب • ملقب بجمال الدين •

له كتاب التنبيه ، والمهذب « في الفقه » • الف في الأصول كتاب « اللمع » وهذه الكتب كلها مطبوعة • الفتح المبين في طبقات الأصوليين ٢٥٥/١ •

١٦٩ ـ امام الحرمين ٤١٩ ـ ٤٧٨/هـ ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥ م عبدالملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني ، ابو المعالي ، ركن الدين الملقب بامام الحرمين : أعلم المتاخرين ، من أصحاب الشافعي • ولد في جوين (من نواحي نيسابور) ورحل الى بغداد ، فمكة حيث جاور اربع سنين ، وذهب الى المدينة فافتى ودرس ، جامعا طرق المذاهب ، ثم عاد الى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك « المدرسة النظامية » فيها • عن الأعلام ٣٠٦/٤ • وكتاب « الورقات » في أصول الفقه • معجم المؤلفين ١٨٤/٦ •

١٧٠ ـ البخاري : محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري ، الجعفي (أبو عبد الله) محدث حافظ ، فقيه، مؤرخ ، مشارك في علوم • (١٩٤ـ٢٥٦ هـ ٨١٠ـ٨٧٠ م) /واهم كتبه : الجامع الصحيح • معجم المؤلفين ٥٢/٩ •

١٧١ ـ البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م) عبد الله ابن عمر بن محمد علي البيضاوي ، الشيرازي ، الشافعي ، (ناصر الدين ، أبو سعيد) قاض، عالم بالفقه والتفسير والعربية والمنطق والحديث • توفي بتبريز • معجم المؤلفين ٩٧/٦ •

وتفسيره المشار اليه اسمه : انوار التنزل واسرار التاويل في التفسير وقد طبع عدة مرات •

١٧٢ ـ في المقتطف : كتب الشريعة •

١٧٣ ـ المقتطف : وترى بعضهم مجدا •

١٧٤ ـ كلمة « منها » ليست في المقتطف •

١٧٥ ـ في المقتطف : وأخشى •

١٧٦ ـ في المقتطف : ثم يغوصون •

١٧٧ ـ في المقتطف : خصوصا وملوكهم •

مراجـــع التحقيـق

١ ـ اسنى المطالب في احاديث مختلفة المراتب للشيخ محمدبن السيد درويش الشهير بالحوت • بيروت سنة ١٣١٩ •

٢ ـ الأعلام : خير الدين الزركلي ـ الطبعة الثالثة •

٣ ـ اقوم المسالك في معرفة احوال المماليك : خير الدين باشا التونسي • بتحقيق المنصف الشنوفي ـ الدار التونسية للطباعة والنشر •

٤ ـ بدائع البدائة : علي بن ظافر الأزدي • بهامش معاهد التنصيص • المطبعة المصرية البهية ١٣٠٤

٥ ـ بدائع الزهور : محمد بن احمد بن اياس • طبع مصر بالتزام سعيد علي الخوصي •

٦ ـ تاريخ الأدب الجغرافي : كراتشكوفسكي • ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم • مصر : جامعة الدول العربية •

٧ ـ تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده : الشيخ محمد رشيدرضا • مصر : مطبعة المنار ـ ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م •

٨ ـ تاريخ الجبرتي المسمى عجائب الآثار في التراجم والأخبار : عبدالرحمن الجبرتي • المطبعة العامرة الشرفية ١٣٢٢ هـ •

٩ ـ تفسير الرازي : فخر الدين الرازي • المطبعة البهية بمصر •

١٠ـ تهافت الفلاسفة : ابو حامد الغزالي • تحقيق د• سليمان دنيا • دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثالثة •

١١ـ حلية البشر : الشيخ عبد الرزاق البيطار ، تحقيق العلامة محمد بهجة البيطار • مجمع اللغة العربية بدمشق •

١٢ ـ روح المعاني : السيد محمد الآلوسي البغدادي • طبعة مصورة عن مطبعته الأصلية الثانية •

١٣ـ السكك الحديدية : المهندس عبد النافع شاهين • الأمالي الجامعية بجامعة دمشق •

١٤ ـ سنن الترمذي : محمد بن عيسى الترمذي • أشرف على طبعه : عزت عبيد الدعاس • حمص ١٣٨٥ هـ-١٩٦٥ م •

١٥ـ صحيح البخاري : محمد بن اسماعيل البخاري أبو عبدالله • المطبعة الميمنية بمصر ١٣٠٦ هـ •

١٦ـ العهد القديم : المطبعة الأميركانية في بيروت سنة ١٩٠٩ •

١٧ـ الفتح المبين في طبقات الأصوليين : عبدالله مصطفى المراغي • بيروت ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م •

١٨ـ اللاميتان : للشنفري والطغرائي • أعدهما وعلق عليهما الأستاذ عبدالمعين الملوحي • وزارة الثقافة بدمشق ١٩٦٦ •

١٩ـ مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق •

٢٠ـ مجلة المقتطف : يعقوب صروب وفارس نمر ـ المجلد الثامن ١٨٨٣ •

٢١ـ المرجع : عبدالله العلايلي • بيروت ١٩٦٣ المجلد الأول •

٢٢ـ المعارف : ابن قتيبة • تحقيق الدكتور ثروت عكاشة • طبع دار الكتب المصرية ١٩٦٠ •

٢٣ـ المعتمد في أصول الفقه : أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي بتحقيق محمد حميد الله بتعاون مع محمد بكر وحسن حنفي • نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٦٤ •

٢٤ـ معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة • مطبعة الترقي بدمشق : ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م •

٢٥ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي • نشره الدكتور ا • ي • ونسنك • ليدن ١٩٣٦ طبعة مصورة عن الأصل •

٢٦ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : محمد فؤاد عبد الباقي • طبع كتاب الشعب بمصر •

٢٧ـ معجم مقاييس اللغة : ابن فارس • بتحقيق عبد السلام هارون • مصر ١٣٦٦ هـ •

٢٧ـ المعرب : الجواليقي • بتحقيق أحمد محمد شاكر • وزارة الثقافة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م

٢٩ـ مقامات الحريري : أبو محمد القاسم بن علي • طبعة بولاق ١٣٠٠ هـ •

٣٠ـ المنجد : المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت • الطبعة (١٧) •

٣١ـ النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي • طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية •

عبدالاله نبهان

★ ★ ★

جزء من حكايات أبي بسطام

شعبة بن الحجاج

تأليف
أبي القاسم البغوي

تحقيق
عبدالله محمّد الدرويش

مقدمة :

تعود صلتي بهذا المخطوط ـ أو صلتي بشعبة ـ الى أكثر من سنة ٠ حيث ذكر لي أحد الأساتذة الأفاضل ، اسم شعبة بن الحجاج ، فكان غريباً بالنسبة لي ، فهو يعتبر من الرجال المغمورين ٠٠ فاحببت أن أعرف عنه ما أستطيع ٠٠

وبدأت الرحلة ٠٠

بدأت بقراءة كل ما يتعلق بأمير المؤمنين في الحديث في أي كتاب ٠٠ في أي فهرس ، كنت أقلب فهارس الكتب الكبيرة ، وأبحث عن اسم شعبة ٠٠

وتابعت الرحلة ٠٠ واختلفت الطرق اليها ٠٠ فبدء الرحلة كان في الكتب المطبوعة ٠٠ قراءة ٠٠ ونقلا ٠٠ وملاحظة ٠٠ رحلة طويلة ٠٠٠

وتذكرت تراثنا الضخم الذي لم ير النور بعد ٠٠ أسرعت لمراجعة فهارس المخطوطات، القديمة والحديثة ٠٠ عشت معها ٠٠ عشت خلالها أياماً وليالي ٠٠ بحثت فيها عن كتب شعبة عن تراث شعبة ٠٠ لمعرفتها ٠٠ للحصول عليها ٠٠ وركبت السفينة ٠٠ دخلت اليم..دخلته مع معرفة صعوباته ٠٠ وعرفت أسماءها ،ولم أحصل عليها ٠٠ ولا على مكانها ٠٠

من خلال تلك القراءات عثرت على كتاب « حكايات أبي بسطام شعبة بن الحجاج » ٠ لمؤلفه : ابن بنت أحمد بن منيع البغوي ٠٠عشت معه ساعات ٠٠ واستفدت منه كثيراً ٠٠

وصف المخطوطة

قال عنها الدكتور يوسف العش في فهرسه (٢١٩) : « جزء فيه حكايات أبي بسطام شعبة ابن الحجاج بن الورد العتكي الواسطي ، تأليف : أبي القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي · فيه أخبار عن شعبة [٢١٦ ـ ٢٢١] · في مجموع من [ق ١٦ ـ ق ٢٤] ·

١٨ × ١٣ سم ، نحو ٢٠ سطراً ، ٢ سم حاشية ، خطان مختلفان جميلان · نحو سنة ٦٦٤ هـ · سماعات عديدة · مجموع [٢٢ (١٦)] » ··

وهذه النسخة كانت وقفاً على المدرسة الضيائية بسفح جبل قاسيون ، وقفها الشيخ علي الموصلي المحدث، كما جاء على المخطوط ·

وقد اطلعت على ترجمة شعبة في كتاب : « سير أعلام النبلاء » للحافظ الذهبي ، مخطوطة في المجمع العلمي العربي ـ فوجدت أن الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ قد روى قسماً منها في ترجمته لشعبة ، بسنده الى المؤلف ، قال : « قرأت على أحمد بن محمد الحافظ بمصر ، وأحمد بن عبد الرحمن العلوي بدمشق ، قال أنبا عبدالله بن عمر ، أنبا عبد الأول بن عيسى ، أنبا عبد الرحمن ابن محمد بن عفيف البوشنجي في سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، أنبا عبد الرحمن بن أبي شريح الأنصاري بهراة ، أنبا أبو القاسم البغوي سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، فكانت معينة لي ·· » ·

كما أن الذهبي أخذ الخبر من الطريق ذاته وهو سند نسختنا ، وهو : « تأليف أبي القاسم عبدالله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ، رواية أبي محمد عبد الرحمن ابن أحمد بن محمد بن أبي شريح عنه ، رواية أبي منصور عبد الرحمن بن محمد بن عفيف البوشنجي عنه ، رواية أبي الوقت عبد الأول ابن عيسى بن شعيب عنه ، رواية أبي المنجا عبدالله بن عمر بن علي بن عمر بن الليثي عنه » · والنسخة قليلة الأخطاء ·· ومراجعة من قبل العلماء ، وعليها سماع وبعض التصحيحات ، والله أعلم ·

ترجمة المؤلف*

اسمه وولادته :

عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان بن سابور بن شاهنشاه · أبو القاسم البغوي · المعروف بابن بنت أحمد بن منيع البغدادي ·

أصله من بغشور « منطقة بين هراة ، ومرو الروذ ، والنسبة اليها : بغوي » ·

★ استخلصت هذه الترجمة من : « البداية والنهاية لابن كثير » (١١ : ١٦٣ ـ ١٦٤) · و « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي » (٦ : ٢٢٧ ـ ٢٣٠) · و« تذكرة الحفاظ للذهبي » (٢ : ٧٣٧ ـ ٧٤٠) · و « الكامل في التاريخ لابن الاثير » (٨ : ١٦١) · و « معجم المؤلفين لكحالة » (٦ : ١٢٦) و « الأعلام للزركلي » (٤ : ٢٦٣) و « شذرات الذهب لابن العماد (٢ : ٢٧٥ ـ ٢٧٦) ، و « طبقات الشافعية للسبكي » (٤ : ١٠٣) و « الفهرست لابن النديم »(٣٢٥) و « فهرس الحديث للألباني » (٢٣٦ ـ ٢٣٧) و « فهرس التاريخ للعش » (٢١٩ ، ٢٢٥) · و « العبر في خبر من غبر للذهبي » (٢ : ١٧٠) : و « كشف الظنون لحاجي خليفة » (١ : ٦٧٤) و « وهدية العارفين للبغدادي » (١ : ٤٤٤) ·

ولد في أول رمضان في بغداد سنة ثلاث أو أربع عشرة ومائتين • وقام برعايته جده أحمد بن منيع •

شيوخــه :

اعتنى به جده اعتناء جيداً ، كما أشرف عليه أيضاً عمه علي بن عبد العزيز • فحضر مجلس عاصم بن علي ، وعلي بن الجعــد ، وعلي بن المديني ، وأحمد بن حنبل •

وكانت أول كتابته للحديث سنة خمس وعشرين ومائتين • وساعده على ذلك أنــه كان ناسخاً للكتب ، فحصل له من ذلك خــير كثير • وقد جمعت أسماء شيوخه في كتاب ، فكأن عددهم ثلاثمائة شيخ •

تلامذتــه :

عندما اشتد ساعده أقبل عليه طلاب العلم ، ولا سيما أنه قريب عالمين جليلين ، وسربي في حضنيهما • فحدث عنه ، الدارقطني ، وابن صاعد ، والجعابي ، والقطيعي •

ثناء العلماء عليه :

مدحه خلق كثير من العلماء ، من هؤلاء ــ مثلا ــ ؛ موسى بن هارون الحافظ ، قــال « كان ابن بنت منيع ثقة صدوقاً » • فقيل له: « ان ههنا ناساً يتكلمون فيــه » • فقــال : « يحسدونه •• ابن بنت منيع لا يقــول الا الحق » • وقال أيــن أبي حاتــم ، وغــيره : « أحاديثه تدخــل في الصحيــح » • وقــال الدارقطني : « كان البغوي قلّ ما يتكلم على الحديث ، فاذا تكلم كان كلامه كالمسمار في الساج » • وقــال الدار قطني أيضاً ، وقــد سأله السلمي عنه ، فقــال : « ثقة ، جبــل ، امام ، أقل المشايخ خطأ » • وقال أبو بكــر الخطيب : « كان ثقة ، ثبتاً ، فهماً ، عارفاً » • وقال الذهبي : « الحافظ ، الثقة ، الكبير ، مسند العالم » • وقال ابن كثير : « •• وقد تفرد عن سبع وثمانين شيخاً ، وكان ثقــة ، حافظاً ، ضابطاً ؛ روى عن الحفــاظ ، ولــه مصنفــات » •

وذكره ابن عدي في الكامل فقال : « كان البغوي صاحب حديث ، وكان وراقاً ، كــان يورق على جده وعمه ، وغيرهمــا •• وكــان يبيع أمل نفسه كل وقت ••• ثم قال : طال عمره واحتاجوا اليه وقبله النــاس ، ولولا أني شرطت أن من تكلم فيه فتكلم ذكرته ، والا كنت لا أذكره » •

مصنفاتــه :

ذكر للبغوي عدد من المصنفات ، هي :

- معجم الصحابة •
- الجعديات « في الحديث » •
- المعجم الكبير •
- المعجــم الصغير •
- المسنــد •
- حكايات أبي بسطام شعبة بن الحجاج •
- أخبار عمرو بن مرة •
- مختصر المعجم •
- مسائل عن أبي عبدالله أحمد بن حنبل •
- مسند الحب ابن الحب أسامة بن زيد •
- تاريخ وفاة الشيوخ الذين أدركهم البغوي •
- السنن في الفقه على مذاهب الفقهاء •

وقد أخطأ من نسب اليه تفسير « معالم التنزيل » وكان مصدر هذا الخطأ ظنهم أن أبــا مســعود الفــراء البغــوي هــو نفســه أبو القاسم البغوي •

وفــاتــه :

وافت المنية البغوي في ليلة عيد الفطــر سنة سبع عشرة وثلاثمائة • وله من العمــر

مائة سنة وثلاث سنين وشهور ، وخالف ذلك ابن الأثير ، فقال : « وكان عمره مائة سنة وسنتين » • ودفن في نفس الليلة التي توفي فيها ببغداد وقبر في مقبرة باب التبن • وقال ابن الجوزي : مات « وهو صحيح السمع والبصر والأسنان ؛ يطأ الاماء » •

رحمه الله رحمة واسعة وأدخله فسيح جنانه •

★ ★ ★

جزء فيه من حكايات أبي بسطام شعبة ابن الحجاج

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبرنا الشيخ الصالح أبو المنجا عبدالله ابن عمر بن علي الليثي ، قراءة عليه وأنا أستمع ، قال : أنبأ أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب • قراءة عليه ، ونحن نستمع ، قال : أنبأ أبو منصور عبدالرحمن ابن محمد بن عفيف البوشنجي المعروف بكلاري ، قراءة عليه ، وأنا أسمع في المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، قيل له : أخبركم أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد ابن أحمد بن محمد بن يحيى بن مخلد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن ثابت الأنصاري الهروي المعروف بابن أبي شريح الزاهد ، قراءة عليه وأنت تسمع بهراة فأقر به(١) ، أنبا أبو القاسم عبد الله ابن محمد بن عبد العزيز ابن بنت أحمد بن منيع البغوي ببغداد سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، قال :

حدثني عبدالله بن أحمد بن حنبل ، حدثني أبي ، قال سمعت يزيد بن هارون ، يقول : « شعبة مولى للأزد عتاقة » • حدثني أحمد بن زهير النسائي ، ثنا سليمان بن أبي شيخ ، حدثني صالح بن سليمان ، قال :

« كان شعبة مولى للأزد ، ومولده ومنشؤه واسط ، وعلمه كوفي ، وكان له ابن يقال له : سعد بن شعبة(١) • وكان له أخوان بشار [١٧ ــ أ] وحماد ، وكانا يعالجان الصرف ، وكان شعبة يقول لأصحاب الحديث : ويلكم الزموا السوق ، فانما أنا عيال على أخويّ • قال : وما أكل شعبة من كسبه درهما قط »(٢)•

حدثنا(٣) جدي أحمد بن منيع ، قال : سمعت أبا قطن ، قال : « ما رأيت شعبة ركع قط الا ظننت أنه نسي ، ولا قعد بين السجدتين الا ظننت أنه قد نسي »(٤) •

حدثني أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن شبويه ، قال : سمعت أبا الوليد ، يقول(٥) : سمعت شعبة ، يقول : « اذا كان عندي دقيق وقصب فما أبالي ما فاتني من الدنيا »(٦) •

حدثني عياش بن محمد مولى بني هاشم ، حدثني قراد أبو نوح ، قال « رأى عليّ شعبة قميصاً » ، فقال : « بكم اشتريت هذا ؟ » • فقلت : «بثمانية دراهم» فقال لي : «ويحك!! أما تتقي الله تلبس قميصاً بثمانية دراهم ؟ ألا اشتريت قميصاً بأربعة ، وتصدقت بأربعة ؟ كان خيراً لك » قلت : « يا أبا بسطام انا مع قوم نتجمل لهم !! » فقال شعبة : « أيش تتجمل لهم ؟! »(٧) •

حدثني علي بن سهل النسائي ، ثنا عفان ، ثنا حماد بن زيد ، قال : قال لنا أيوب : « الآن يقدم عليكم رجل من أهل واسط ، يقال له : شعبة •• هو فارس في الحديث • فاذا قدم ، فخذوا عنه » قال حماد : « فلما قدم شعبة أخذنا [١٧ ــ ب] عنه » •

حدثني عبد الله بن سعيد الكندي ، ثنا وليد بن حماد ، قال : سمعت عبد الله بن ادريس ، يقول : « ما جعلت بينك وبين الرجال مثل سفيان وشعبة »(٦) •

حدثني أبو بكر بن زنجويه ، ثنا عبد الرزاق ، عن أبي أسامة ، قال : « وافقنا من شعبة طيب نفس ، فقلنا له : حدثنا ، ولا تحدثنا الا عن ثقة» • فقال : «قوموا» •(١٠)•

حدثنا اسحاق(١١) بن ابراهيم المروزي ، ثنا أبو عبيدة الحداد ، قال : سمعت شعبة ، يقول : « وقفوهم يصدقوا أو يكذبوا(١٢) »•

حدثنا علي بن سهل، ثنا عفان، ثنا حماد ابن سلمة ، قال : (جاء شعبة الى حُميد ، فسأله عن حديث لأنس ، فحدثه به » • فقال له شعبة : « سمعته من أنس ؟ » • قال : « فيما أحسب » • قال شعبة : بيده هكذا •• وأشار باصبعه ، لا أريده » ، ثم ولى • فلما ذهب ، قال حميد : « سمعته من أنس كذا وكذا مرة •• ولكن أحببت أن أفسده عليه »(١٣) •

حدثني عبدالله بن أحمد ، عن أبيه ، عن عفان ، نحوه ، قال فيه : « قد سمعته من أنس ، ولكن شدد [١٨ ـ أ] عليّ فأحببت أن أشدد عليه »(١٤) •

حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري ، قال : سمعت يحيى بن سعيد ، يقول : قال لي شعبة : « كل من كتبت عنه حديثاً فأنا له عبد » (١٥) •

حدثنا الفضل بن سهل ، قال يعقوب الحضرمي ـ يعني ابن اسحاق ـ قال : حدثني من سمع سفيان الثوري ، وذكر عنده شعبة ، فقال : « ذاك أمير المؤمنين الصغير »(١٦) •

حدثنا ابن زنجويه ، قال يعقوب الحضرمي ، قال : قال شعبة : « سفيان أمير المؤمنين في الحديث » •

حدثني عياش ، نا أبو بكر بن أبي الأسود، قال : قال عبد الرحمن : «كان سفيان، يقول : شعبة أمير المؤمنين في الحديث »(١٧) •

حدثني ابن شبويه ، نا عبدان بن عثمان ، عن أبيه قال : « قوّمنا حمار شعبة وسرجه ، ولجامه ؛ بضعة عشر درهماً »(١٨) •

حدثنا أحمد بن زهير ، قال : سمعت يحيى بن معين ، يقول : « كان يحيى بن سعيد القطان اذا سمع الحديث من شعبة ،(١٩) لا يبالي أن لا يسمعه من غيره »(٢٠) •

قال : وقيل ليحيى بن معين : « ما تقول في شعبةوسفيان اذا اختلفا في حديث الكوفيين» فقال : « كان سفيان أحفظ للرجال » •

رأيت في كتاب علي بن المديني بخطه الى أبي عبدالله أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ وحدثني به صالح بن أحمد ، عن علي ، قال : سمعت يحيى بن سعيد ، يقول : سمعت يحيى بن سعيد ، يقول : « كان [١٨ ـ ب] شعبة أعلم بالرجال فلان عن فلان •• وكان سفيان صاحب أبواب »(٢١) •

قال يحيى : « كان شعبة لا يحدث عن الضحاك بن مزاحم »(٢٢) •

حدثنا سريج بن يونس ، نا : مسلم ابن قتيبة ، عن شعبة ، قال : « قلت لمشاش : سمع الضحاك ، من ابن عباس ، رضي الله عنهما ؟ قال : ما رآه قط »(٢٣) •

حدثنا أحمد بن ابراهيم العبدي ، نا : أبو داود الطيالسي ، عن شعبة ، قال : « كان أيوب يمشي الى مسجد بني ضبيعة ، يسألني عن الحديث » قال شعبة : « وحدثت أيوب يوماً بحديث قيس بن مسلم ، عن طارق بن شهاب : أن امرأة أرادت الحج ، فقال أيوب : هاتوا اسناداً مثل هذا »(٢٤) •

حدثني أحمد بن زهير ، قال : سمعت يحيى بن معين ، يقول : قال يحيى بن سعيد : « كان شعبة من أرق الناس ، كان ربما مر به

السائل ، فيدخل الى بيته ، فيعطيه ما أمكنه »(٢٥) ·

حدثني أحمد بن زهير ، نا : أحمد بن حنبل ، نا : يحيى بن سعيد قال : قال شعبة : « أتى اليّ سليمان التيمي وابن عون يعزياني بأمي، فقال التيمي : ثنا أبو نضرة ، فقال ابن عون : قد رأيت أبا نضرة ، فقال التيمي : فما رأيت ؟ » ·(٢٦) ·

حدثنا أبو عبدالرحمن بن شبويه ، قال : سمعت أبا الوليد ، يقول : [١٩ـأ] «اختلفت الى حماد بن سلمة، قبل أن أختلف الى شعبة ، فقال لي حماد : اذا أردت الحديث فالزم شعبة »(٢٧) · قال : وسمعت أبا الوليد ، يقول : سمعت حماد بن زيد ، يقول : « اذا خالفني شعبة تركت ما في يدي لأنه لم يرض أن يسمع الشيء مرة حتى يعود فيه مرتين ، وكنا نحن نجتزىء »(٢٨) ·

قال ابن شبويه ، وحدثني أبي ، حدثني النضر بن شميل ، قال : « ما رأيت أرحم بمسكين من شعبة ، وكان اذا رأى المسكين لا يزال ينظر اليه حتى يغيب عنه »(٢٩) ·

قال ابن شبويه ، وثنا مسلم بن ابراهيم، قال : « كان شعبة اذا قام في مجلسه سائل لا يحدث حتى يعطى(٣٠) ، فقام يوماً سائل ثم جلس ، فقال : ما شأنه ؟!(٣١) قالوا : ضمن عبد الرحمن بن مهدي أن يعطيه درهماً »(٣١) ·

حدثني ابن زنجويه ، ثنا محمد بن أبي غالب ، حدثني هشيم ، أنبا شعبة ، قال : « خذوا عن أهل الشرف فانهم لا يكذبون »(٣٢)·

حدثني عبدالله بن أحمد ، حدثني أبي ، ثنا أبو داود ، عن شعبة قال : قال لي سفيان : « تعلينا بواسط »(٣٣) ·

أخبرنا [١٩ ـ ب] عبد الله ، ثنا محمد ابن طريف أبو بكر الأعين ، ثنا قراد أنه سمع شعبة ، يقول : « كل شيء ليس في الحديث سمعت ، فهو خل وبقل »(٣٤) ·

وحدثنا أبو بكر الأعين ، ثنا محمد بن جعفر المدائني ، عن ورقاء، قال : قلت لشعبة: « لم تركت حديث أبي الزبير » · قال : « رأيته يزن فاسترجح في الميزان فتركته »(٣٥) ·

حدثنا عمرو بن محمد الناقد، ثنا وكيع، قال : قال شعبة : « فلان عن فلان ؛ مثله لا يجزىء »(٣٦) · قال وكيع : وقال سفيان الثوري : « يُجزىء » ·

حدثني عبدالله، حدثني أبي، ثنا حجاج، عن شعبة ، قال : قال لي أيوب : « أنت تحب الاسناء ، وهذا اسناء » قال : قلت : « أبو المهلب لم يسمعه من أبيّ »(٣٧) ·

حُدثت عن عبدان أنه ، قال : سمعت أبي ، يقول : قال شعبة : « وأي شيء ألذ من أن تلقى شيخاً في فيء ريح قد لقي الناس ، وأنت تستثير ، وتستخرج منه العلم، قد خلوت به »(٣٨) ·

حدثنا عمرو بن محمد الناقد ،(٣٩) وسريج بن يونس [٢٠ ـ أ] وابن عباد ، وابن المقرىء ، قالوا : ثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، قال : أخبرني عمرو بن أوس الثقفي ، قال : أخبرني عبد الرحمن ابن أبي بكر ، قال : « أمرني رسول الله ﷺ ، أن أردف عائشة ، فأعمرها من التنعيم »(٤٠) ، قال عمرو الناقد : قال ابن عيينة : « كان شعبة يعجبه مثل هذا الاسناد ـ يعني : أخبرني ـ قال ، أخبرني » ·

حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، ثنا عبد الله بن ادريس ، قال : قلت لشعبة :

« كان مهدي بن ميمون عندك ثقة ؟ قال : نعم • قلت : فانه أخبرني عن سلم العلوي أنه رأى أبان بن أبي عياش عند أنس » قال شعبة : « سلم الذي كان يرى الهلال قبل الناس بليلة » ؟! (٤١) •

حدثنا محمد بن اسحاق، حدثني ابن أبي رزمة ، ثنا عبدان ، حدثني أبي ، عن شعبة ، قال : « لولا الحياء من الناس ، ما صليت على أبان بن أبي عياش »(٤٢) •

حدثنا سويد بن سعيد ، ثنا علي بن مسهر ، قال : « سمعت أنا ، وحمزة الزيات ، من أبان بن أبي عياش خمسمائة حديث ، أو ذكر أكثر ؛ فأخبرني حمزة الزيات أنه ، قال : رأيت النبي ﷺ في المنام ، فعرضتها عليه ، فما عرف منها الا اليسير ، خمسة أو ستة أحاديث، فتركت الحديث عنه » •

حدثنا محمد بن عبدالله المخرمي ، ثنا أبو داود الطيالسي ، ثنا شعبة عن [٢٠ ـ ب] سعيد بن مسروق ، قال : قال رجل : « يا أبا بسطام !! من سعيد بن مسروق ؟ » قال : « أبو سفيان الفقيه » •

حدثنا علي بن سهل ، ثنا عفان ، قال : سمعت شعبة ، يقول • « لولا حوائج لنا اليكم ما جلست اليكم » • قال عفان : « وكانت حوائجه ، يسأل لجيرانه الفقراء »(٤٣) •

قال : وسمعت شعبة ، يقول : «مَن ذهبنا الى أبيه فأكرمنا فجاءنا ابنه أكرمناه ، ومن أتيناه فأهاننا ، فأتانا ابنه أهنّاه »(٤٤) •

حدثني عمر بن شبَّة ، ثنا عفان ، قال : قال يحيى بن سعيد : « ما رأينا أحداً قط أحسن حديثاً من شعبة »(٤٥) •

حدثنا أحمد بن ابراهيم ، ثنا(٤٦) أبو داود ، ثنا شعبة ، قال : قلت لمعاوية بن قرة ، وذكر حديثاً ، فقلت له : « من حدثك به ؟ » قال : « حدثنيه فلان ، استرحت من رهقك ، يا شعبة »(٤٧) •

حدثني علي بن سهل ، ثنا عفان ، قال : « كان شعبة يخضب بالحمرة »(٤٧) •

حدثني عبدالله بن أحمد ، قال : سمعت أبي ، يقول : ثنا يحيى بن سعيد ، قال : مات شعبة سنة ستين ، وهو ابن خمس وسبعين »(٤٨)* •

الهوامش :

١ ـ تهذيب التهذيب (٤ : ٣٣٨) ـ تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٣) ـ التاريخ الكبير للبخاري (٤ : ٢٤٤) ـ صفة الصفوة لابن الجوزي (٣ : ٣٥) ـ ذيل تاريخ الطبري(٦٥٦) •

١ ـ ورد ذكر ابن شعبة في « كتاب المراسيل » لابن أبي حاتم • وفي كتاب « معرفة علوم الحديث » للحاكم •

٢ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٩ : ٢٥٥ ـ ٢٥٧) ـ تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٦) • وسير النبلاء للذهبي(٦ : ٦٧)•

٣ ـ ورد في حاشية الأصل تصحيح لكلمة « حدثنا » ب « حدثني » وقد وافق الذهبي التصحيح •

٤ ـ حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٧ : ١٤٥) وسيراعلام النبلاء للذهبي (٦ : ٦٧) •

٥ ـ جاء في حاشية الأصل تصحيح كلمة « يقول » ب « قال »••

٦ ـ حلية الأولياء (٧ : ١٤٥) • وسير النبلاء (٦ : ٦٧)•

٧ ـ المرجع السابق •

٨ ـ حلية الأولياء (٧ : ١٤٥) ، وسير النبلاء (٦ : ٦٧)، والمجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين لابن حبان (١ : ٤٧) •

٩ ـ سير النبلاء (٦ : ٦٧) • وقد مدح شعبة سفيان باقوال كثيرة منها ما ورد في سنن أبي داود (٢ : ٢٢٠) : « قال رجل لشعبة خالفك سفيان ، قال : دفعتني • وقال في موضع آخر : سفيان احفظ مني • وكل من خالف سفيان ، فالقول قول سفيان » •

١٠- سير النبلاء (٦ : ٦٨) .

١١- جاء في حاشية الأصل تصحيح كلمة كلمة « اسحق » ب « عبد الله » .

١٢- سير النبلاء (٦ : ٧٠) .

١٣- حلية الأولياء (٧ : ١٥٠) . والأسئلة العشرة الكاملة للكنوي (١٦٢) .

١٤- المرجع السابق . وسير النبلاء (٦ : ٧٠) .

١٥- يشدد شعبة كثيرا على « حدثنا » ولذلك ورد عنه في ذلك : « كل حديث ليس فيه حدثنا واخبرنا فهو خل وبقل » « اذا كان في الحديث حدثني وسمعت فهو دست بدست ،واذا لم يكن فيه سمعت واخبرني ، فهو خل وبقل » « كل حديث ليس فيه حدثنا فهو مثل الرجل في فلاة معه بعير بلا خطام » انظر حلية (٧ : ١٥٤) ، وتذكرة السامع والمتكلم (٩٠) ، وسير النبلاء (٦ : ٦٨) .

١٦- حلية الأولياء (٧ : ١٤٧) . والمجروحين لابن حبان(١ : ٤٦) . وشرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي (١١٥) وسير النبلاء (٦ : ٦٨) ولكنها جاءت بسند الرواية التي قبلها .

١٧- المرجع السابق .

١٨- حيلة الأولياء (٧ : ١٤٧) والمجروحين (١ : ٤٧) ،وتاريخ بغداد (٩ : ٢٦٣) وسير النبلاء (٦ : ٦٨) .

١٩- جاء في حاشية الأصل بدل «لا» . «لم» .

٢٠- وقد ورد من هذا القبيل اقوال كثيرة منها قول حماد بن زيد : حلية الأولياء (٧ : ١٥٣) : « ما أبالي من خالفني في حديث ، الا أن يكون شعبة ، فان شعبة كان معنيا بالحديث ، كان يأتي الشيخ يكرر عليه » . وقول سفيان : تقدمة المعرفة (١ : ١٦٢) « كانوا اذا خالفوني بالكوفة لا التفت اليهم ، أقول ما قال مسعر ؟ وما قال شعبة ؟ » ، وقول يحيى ابن سعيد : تقدمة المعرفة لابن أبي حاتم (١ : ١٦٠) : ليس احد احب الي من شعبة ولا يعدله احد عندي » .

٢١- جاء في تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٦) بشكل يشبه هذا «شعبة احفظ للمشايخ ، وسفيان احفظ للأبواب » وسير النبلاء (٦ : ٦٩) .

٢٢-٢٣- تقدمة المعرفة لابن أبي حاتم (١ : ١٣١) - سير النبلاء (٦ : ٧٠) .

٢٤- سير النبلاء (٦ : ٧٠) .

٢٥- حلية الأولياء (٧ : ١٤٥) - تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٣) - سير النبلاء (٦ : ٦٨) .

٢٦- سير النبلاء (٦ : ٧٠) .

٢٧- تقدمة المعرفة (١ : ١٢٧ - ١٢٨) .

٢٨- راجع التعليق على قول : « كان يحيى بن سعيد القطان اذا سمع الحديث من شعبة ، لا يبالي أن لا يسمعه من غيره » . ويعبر شعبة عن هذه الفكرة ، فيقول : « ما رويت عن رجل حديثا الا أتيته اكثر من مرة ، والذي رويت عنه عشرة أتيته اكثر من عشر مرار » . تهذيب التهذيب (٤ : ٣٤٦) . وقال ايضا : « اختلفت الى عمرو بن دينار خمسمائة مرة ، وما سمعت عنه الا مائة حديث » . حلية الأولياء (٧ : ١٤٧) . ويقول أبو الوليد : « سألت شعبة عن حديث، فقال : والله لاحدثتك به ، لم أسمعه الا مرة » . حلية الأولياء (٧ : ١٤٨) وسير النبلاء للذهبي (٦ : ٧١) . والمجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين لابن حبان(١ : ٣٠) .

٢٩- حلية الأولياء (٧ : ١٤٦ - ١٤٧) .

٣٠- كانت مكتوبة في الأصل بالف ممدودة .

٣١- حلية الأولياء (٧ : ١٤٧) .

٣٢- حلية الأولياء (٧ : ١٥٥ - ١٥٦) ، والمجروحين (١ : ٢٤) ، وسير النبلاء (٦ : ٧٠) .

٣٣- يريد سفيان ان يقول : « تعال الينا بواسط » .

٣٤- حلية الأولياء (٧ : ١٤٩) ورواية الحلية اذا لم يكن فيه سمعت وأخبرني فهو خل وبقل • وسير النبلاء (٦ : ٦٨)• وانظر التعليقات السابقة •

٣٥- حلية الأولياء (٧ : ١٥٢) وفي المجروحين عبارة قريبة منها (١ : ٣٠) وسير النبلاء (٦ : ٦٨) •

٣٦- سير النبلاء (٦ : ٧٠) • وهو يريد تبيين أن الحديث لا يكون جيدا ومقبولا اذا ذكر فيه « فلان عن فلان » بل يجب أن يقال : « حدثنا فلان ، حدثنا فلان •• » حتى يجزي • بخلاف سفيان فانه اقل تشددا •

٣٧- تقدمة المعرفة (١ : ١٢٩) ، وأبيّ هو : ابن كعب •

٣٨- سير النبلاء (٦ : ٧٠) ، وجاءت في تقدمة المعرفة كما يلي : « وأي شيء ألذ من أن تخلو بشيخ قد لقي الناس ، فانت تستثيره ، وتستخرج منه علما » •

٣٩- الضبط من الاكمال ٤ ، ٢٧٢ •

٤٠- سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي في الحديث رقم (٢٩٩٩) والحديث رقم (٣٠٠٠) •

٤١- يعني كأنه يضعفه ويكذبه •

٤٢- تقدمة المعرفة (١ : ١٣٤) • وكان شعبة ذا غيرة فائقة على الحديث ، حتى انه كان يأتي الى الوضاعين ، ويقول لهم - على حسب قول الشافعي - : « كان يجيء الى الرجل فيقول : لا تحدث والا أستعديت عليك السلطان » الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٤ : ٢٧٠) • سير النبلاء (٦ : ٧٠) وآداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم تحقيق عبد الغني عبد الخالق (٢٠٩) • ولم يكن يحب السكوت عن الحق أبدا فنراه في شأن أبان تروى عنه اقصص منها ما ذكره حماد بن زيد : « لقيني شعبة بن الحجاج ومعه مدره ، فقلت : يا أبا بسطام ، اين تريد ؟! قال : الى أبان بن أبي عياش أدعوه الى القاضي ، فانه يكذب • فقلت : اني أخاف عليك عبد القيس ، قال : فكلمته ، فانصرف ، قال حماد : ثم لقيني شعبة بعد ذلك ، فقال لي يا أبا اسماعيل !! اني نظرت في ذلك فلم يسعني السكوت » حلية الأولياء (٧ : ١٥٠) •

٤٣- حلية الأولياء (٧ : ١٤٥) ومن ذلك قوله : « لولا المساكين ما حدثت ، فاني أحدث ليعطوا» حلية الأولياء (٧ : ١٥٧)• وسير النبلاء (٦ : ٦٨) •

٤٤- سير النبلاء (٦ : ٦٨) •

٤٥- سير النبلاء (٦ : ٦٨) • وفي تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٥) جاءت على النحو التالي : « قال أبو الوليد الطيالسي : قلت ليحيى بن سعيد : رأيت أحدا أحسن حديث من شعبة ؟ قال : لا ، قلت : فكم صحبته ؟ قال : عشرين سنة » ••

٤٦- جاء في حاشية الأصل تصحيح كلمة « ثنا » ب « ابنا » •

٤٧- سير النبلاء (٦ : ٧٠) •

٤٨- الطبقات الكبرى لابن سعد (٧ : ٢٨٠ - ٢٨١) • اتفق جميع المؤرخين على وقت وفاة شعبة • ولكنهم اختلفوا في عمره وولادته • فقال ابن زنجويه : « ولد سنة (٨٢) هـ • وله (٧٧) عاما » • تهذيب التهذيب (٤ : ٣٤٥) • وقال أبو زيد الهروي : « ولد •• •• سنة ثنتين وثمانين » • تذكرة الحفاظ (١ : ١٩٤) ، وسير النبلاء (٦ : ٦٦) • وقال ابن حبان وشرف الدين العاملي : « مولده سنة (٨٣) » • مشاهير علماء الأمصار لابن حبان الترجمة (١٣٩٩) وفي كتاب المراجعات (١١٠) • وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير (٦ : ٥٠) « عمره (٧٧) عاما » • وفي تاريخ خليفة ابن خياط (١ : ٣٩٨) : « ولد سنة سبع وثمانين » • وفي ذيول تاريخ الطبري (٦٥٦) : « ولد سنة (٨٥) » • وفي سير النبلاء (٦ : ٢٦٦) قال : « قيل ولد سنة ثمانين في دولة عبد الملك بن مروان » وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٩ : ٦٦) ، قال : « مولده سنة (٨٣) » • وفي أعيان الشيعة (٣٦ : ١١٣) قال : « ولد •• سنة (٨٥) او (٨٣) أو (٨١) » • وقال البخاري في التاريخ الصغير (١٨٣) : « شعبة أكبر من الثوري بعشر سنين » • وعلى ذلك فعمر شعبة اما (٨٠) أو (٧٩) أو (٧٨) • ويصعب تحديد مولده تماما ، ولكنني أرجح سنة (٨٥) هـ •

★ الى هنا انتهت حكايات أبي بسطام شعبة بن الحجاج • ويليها في المجموع • اخبار عمرو بن مرة المبغوي ••
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين • وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ••

تاريخ ما أهمله تاريخ البادية العربية

روائع من الأدب الشعبي في بوادي الأقطار العربية

محمد صالح بربندي

للأدب الشعبي ـ منذ القديم ـ صلة وثيقة ببوادينا وربوعنا العربية، لأنه يعبّر عن عاداتها وتقاليدها البدوية الأصيلة ، وهو منبثق من صحرائها ورمالها وفيافيها وقفارها ، كما أن له طابعاً خاصاً من الروعة ، وجمال الأسلوب ، وقوة العاطفة ، وما ذلك الا لأنه يعبّر عن الشعور الصادق للبيئة التي يعيش فيها .

وسأعرض قصة من ذلك الأدب ، رواها الرواة عن أحد أعلام البوادي والقفار العربية من رواد ذلك الأدب الشعبي ،وهو الأمير عبدالله الفاضل أحد رؤساء عشيرة الحسنة ، وهي قبيلة عربية نزحت في الأزمنة الغابرة عن موطنها الأصلي في الجزيرة العربية ، الى بوادي الأقطار العربية الأخرى ، وسكنت بادية تدمر في سورية ، وبعد ذلك هاجرت الى بادية حمص وحماة من المدن السورية .

يرجع تاريخ هذا الأمير الى نهاية القرن الثامن عشر ، أيام الحكم العثماني في البلاد العربية ، وكان سلاح البدو السيف والرمح ، وكانوا يقاتلون على ظهور الابل والخيول العربية الأصيلة .

ان الأخبار المتواترة عن هذا الأمير، تدل على أنه كان مثالاً في الكرم والشجاعة العربية ، والاعتزاز بالنفس ،وشدة البأس ، وقوة الشكيمة ، فهو يفخر بقبيلة « الحسنة » ويقول في ذلك :

هلي رايات بالدنيا بيض لهم كرام ويمن الخايف بظلهم
يتيه الفيهب المسما بظولهم هلي باشات على الشد وطناب

أي : إن أعلام قومه وراياتهم بيض بأفعالهم الحميدة ، لأنهم كرام ، والمستجير الخائف على نفسه يجد الأمن والطمأنينة في ربوعهم ، كما أن الشخص القوي الشديد لا يستهدي طريقه في خيام العشيرة المنتشرة في كل مكان بالبادية ، وهؤلاء القوم هم السادة وغيرهم من البدو القاطنين في خيام الصحراء تبع لهم ٠

فكأنه يريد أن يعبّر عما افتخر به الشاعر العربي القديم بقوله :

بيض صنائعنا خضر مرابعنا سود وقائعنا حمر مواضينا

ويقول هذا الأمير مفتخراً بقومه أيضاً :

هلي عز النزيل وعز من كال فكال الروزما ما هم حجر منكال
ان جاك الناس مي هظل من كول هلي نيسان طمّ العاليات

أي : ان قومي عز للضيف والجار ،وقوة وفخر لكل من قال قولا ، وهم عظام ثقال بوقارهم ورزانتهم كالحجر اذا رزته، فليسوا خفاف الوزن (ويقصد بذلك الهيبة والشخصية) كحجر المنقلة وهي لعبة بدوية مشهورة، واذا كان غيرنا يشبه الماء الذي جرى من النبع ، فأهلي هم الفيض والقوة كالماء في شهر نيسان الذي يطفو على الجبال والنواتىء ويعمها ويغمرها بسيله وتدفقه لأن في هذا الشهر تداهم الشمس ثلوج الشتاء فتذيبها وتصبح مياهاً متدفقة غزيرة ٠

ويفخر هذا الأمير بعادات قومه الأخرى أيضاً، عادات العرب القدامى، وهي الزواج من بنات الأسرة ، ليبقى النسل محافظاً على صفاته العربية المتوارثة وبخاصة الصفات التي تكون شخصية فتى الصحراء العربي فيقول :

كبار الناس أهلنا من جدينا ولا نزعل على الماهم جدينا
الناس النجم واحنا الجدينا جثير من النجم علا وغاب

أي : إن أهلنا من عظماء الناس ، وخؤولتنا من العمومة ولا نحقد أو نحمل ضغناً على الذين ليسوا مثلنا على هذه الشاكلة ، ولكن اذا كان الناس نجوماً فنحن نجم الجدي الثابت الذي لا يزول بينما النجوم الأخرى تهوي وتسقط

وتغيب ، ويريد بذلك اظهار شأن قبيلته ومكانتها ومنزلتها الاجتماعية بين قبائل البدو الأخرى القاطنة في البادية ·

وشاء القدر أن يصاب هذا الأمير بمصائب جسام عجمت عوده ، وخبرت مضاءه وتركت أكبر الأثر في نفسه ، حيث أصيب بمرض الجدري الوبيل ·

* * *

في ربيع احدى السنين كان الأمير عبدالله الفاضل يتجول في تلك البادية الحبيبة الى نفسه التي يرى صعيدها أحب اليه من أي شيء آخر من أجواء المدن والقرى المجاورة ·

كانت خيام العشيرة منتشرة في كل مكان وقد تناثرت في بطون الأودية والقفار وبدا الجو جميلا طليقاً في الكثبان المترامية الأطراف وقد زركشت أودية الربيع المتلألئة تلك البطاح وخلعت عليها ثوباً قشيباً من البهاء والرواء ، وكان الهدوء والأمن قد استتبا في أرجاء تلك الربوع الصحراوية ، بفضل سهر الأمير ورجاله واهتمامه بتلك الناحية فقد كان للهيبة والقوة اللتين يتمتع بهما أكبر الأثر في انتشار السلام بين أنحاء القبيلة ، فلا غارات جاهلية ، ولا اعتداء من أحد على آخر ولا حوادث سطو أو نهب في عشيرة « الحسنة » ، وهذا ما جعل الأمير يفخر بهذا الوضع حتى يرى أنظار رجال العشيرة تشرئب اليه وتأخذ برأيه وترجع اليه في كل المشكلات والأمور فكان هو المرجع المدني والقبلي لكل شؤونهم ومنازعاتهم ، وعلى هذا فقد كان يركب ناقته السريعة القوية الملقبة بـ « البويضة » وقد وضع عليها الهودج المزركش والحلل الفاخرة والجميع يعرفونها من منظرها وهيئتها انها ناقة الأمير ، وفي الحالة التي لا يمتطيها صاحبها فانها كانت ترعى في أي مربع تذهب اليه دون أن يستطيع أحد أن يكفها أو يردها ، كما أنها ترد أي منهل تشرب منه ابل العشيرة دون أن تلقى أية صعوبة أو عناء وما ذلك الا لأنها « البويضة ناقة الأمير » وهذا ما عبَّر عنه بقوله :

عليج الرأي من فاضل يا ديرة وخشم الضد بالمرهف نديره
كفز ترعى البويضة بكل ديرة غرم عالشوارب واللحى

أي : تمتعي أيتها الديار العزيزة بالأمن والهدوء والسلام من عبدالله

الفاضل ، لأننا سنقوّم أنوف الأعداء بالسيوف وهذه ناقتي البويضة ترعى في كل مكان ولا يستطيع أحد أن يجابهها بالصد أو المنع رغم شوارب الخصوم ولحاهم (وهو يرى في وضع البادية بزمنه هدوءاً وأمناً يعود الفضل فيه الى هيبته وخشية الأعداء من صولته وقوته ويستدل على ذلك بأمر ناقته التي أطلق لها الغدو والرواح والمرتع في أي مكان ينبت فيه الكلأ .

ففي وجود ناقته وتجولها نذير للأعداء والخصوم أو الذين يحاولون الاخلال بالسكينة في ربوع العشيرة بأن الأمير القوي المرهوب الجانب وراءها يرى ويسمع ويدرأ عن العشيرة كل ما يعكر صفوها .

ولكن الوجوم قد بدا على وجوه أفراد القبيلة وخيم الحزن والكآبة على جنباتها في تلك السنة لأن مرض الجدري الوبيل قد ظهر وانتشر بين الخيام القريبة والبعيدة ، وكانت الأخبار المتواترة تدل على وجود اصابات وضحايا كثيرة من فتك ذلك المرض ، ولم تكن الوسائل الطبية الحديثة من اللقاح والوقاية معروفة في ذلك الحين ، وكانت السلطات التركية التي تهيمن على البلاد العربية غير مهتمة بشؤون هؤلاء البدو الذين تراهم متنقلين في الصحراء ، لا يخضعون لسلطانها في معظم الأحيان ، فهي لهذا لم توجه عناية كبرى لمكافحة ذلك الداء والقضاء عليه سواء أكان في المدن أم في الصحراء ، فاستفحل الداء الخطر الذي قضى على الكثيرين ، وأعمى العديدين وشوه وجوه معظم الذين أصيبوا به وقدر لهم أن ينجوا من الموت ، وكان ينتشر بسرعة خاطفة بين أفراد العشيرة فلا توجد خيمة الا وقد أصيب بعض أشخاصها بعدواه ، منذراً بالخطورة الكبيرة والضحايا الجمة والخسارة الفادحة .

هب رجال العشيرة وقادتها مذعورين من استفحال هذا الداء في ربوعهم وباتوا يتنادون الى عقد الاجتماعات العديدة للتشاور وتبادل الرأي في مكافحته وخاصة حين رأوا أن الاصابات قد ازدادت بين الرجال والنساء والأطفال وليس بنافعهم الانتقال من بقعة الى أخرى في هذه الصحراء المترامية كما هي عادتهم في التنقل سعياً وراء الكلأ والماء فالداء المخيف يلاحقهم وكان ذلك العام الذي داهمهم به مرض الجدري نادرَ الأمطار وقد تراءى العشب قليلا من جراء ذلك في مرامي

الأبصار وبدأت المياه تنضب من الآبار ،فكان لا بد لهم من البحث عن وضع ينقذهم من هذه الخطوب الكبيرة النازلة بساحتهم وقد ترامى الى مسامعهم أن سلطات الحكومة بدأت تهتم بمكافحة هذا الداء بالوسائل المعروفة التي كانت بين يديها في المدن ولكن تلك المكافحة لم تصل الى كثبان الصحراء وخيام البدو ، وهذا ما دعا رجال العشيرة وقادتها للتفكير بالنزوح الى مشارف المدن القريبة من بواديهم وهي مدينتا حمص وحماة حيث المسافة قريبة بينهما ، ليكونوا على مقربة من السلطات واهتمامها وامتداد أيديها اليهم ، لاسعافهم بالدواء أو وسائل المكافحة الأخرى وليتسنى لهم أيضاً الحصول على الماء .

وفي تلك الأيام العصيبة التي مرت بهم أصيب الأمير عبدالله بداء الجدري وسرت عدواه الى خيمته فأصيبت معه زوجته ليلى أيضاً ومات ابنه به ، وهذا ما دعاه الى التخلف عن اجتماعات رجال العشيرة المتكررة التي يعقدونها للنظر في وضعهم ازاء هذا الداء الخبيث .

وقد عرف البدو منذ القديم أن المرض الفتاك ينتقل بعدوى الملامسة الى الباقين لذلك درجوا على عادة مبدئية لمكافحة سريانه الى الآخرين وهي عزل المريض في خيمته وابقاؤه بعيداً عن خيام العشيرة الأخرى ، وكان لا بد لهم من اتخاذ قرار حاسم ، وقد عزَّ عليهم أن يقعِدَ المرضُ زعيمَهم ورئيسَهم ويدعوه للتخلف عن قيادة اجتماعاتهم وعهدهم به أنه كان السباقَ لكل أمر جلل أو شأن كبير يحل بالعشيرة أو مصاب يداهمها حيث كان رأيه هو النافذ ، وكلمته هي المسموعة .

والواقع أن خطورة الوضع التي ازدادت سوءاً بمرض الأمير وزوجته دعتهم الى عقد اجتماع نهائي أخير حضره الأمير فاضل والد عبد الله وهو شيخ طاعن بالسن قد تجاوز العقد السابع من العمر وأوهنت الأيام قواه ، وأحنت الشيخوخة ظهره ، فدلفت الى القوم وهو يدب دبيباً يتوكأ على عصاه بيد عارية الأشاجع ، وقد ارتسمت امارات الاهتمام ودلائل الأسى على وجهه وقسماته المكدودة .

وأخيراً أقر المجتمعون الرأي الذي أزمع عليه معظم الرجال وفكروا فيه منذ

حين وهو الرحيل عن هذه الديار من البادية الى جهات أخرى ، وترك المصابين بالجدري في أمكنتهم بالصحراء ليقضي الله بهم أمراً كان مفعولا ودون استثناء أحد بما في ذلك الأمير عبد الله نفسه وقد صعب عليهم أن يتركوا قائدهم وفارسهم المغوار ولكن لا بد من ذلك الوضع الذي ألجأتهم اليه الظروف القوية القاهرة الخطيرة وقد وافق والد الأمير على رأيهم ولم يستطع أن يعترض أو يبدي حلاً ما فالأمر جلل والمصيبة عظيمة ومصلحة الجميع خير من المصلحة الخاصة ، الا أن هناك أصوات بعض الرجال الذين يقدرون الأمير وشجاعته وفضله على العشيرة قد استنكروا تركه في البادية فريسة للمرض وضحية للداء ، ولكن لم يكن بوسعهم اجراء شيء تجاه عادات البدو الموروثة ٠

في عشية احدى الليالي كانت الرياح الخفيفة الندية تهب من حين الى آخر فتنتعش النفوس وتفرح القلوب ، وقد سطع القمر متلألئاً بهياً في سماء الصحراء الشاسعة ، وتلألأت النجوم والكواكب منيرة ذلك الأفق الواسع بنورها الفضي، وقد انعكس نشاط الطبيعة على وجوه الرجال وسرت عدواه الى أجسامهم وعزائمهم فكانوا يشاهدون في حركة دائمة لا تفتر، وقد أخذوا أهبتهم للرحيل وبدأوا في تلك الليلة المقمرة يحزمون أمتعتهم للتأهب والرحيل ، فكان رب الأسرة منهم يقوم بعمل ما يجب عليه يساعده في ذلك أولاده وزوجته وذووه ، وقام الرجال الأشداء في العشيرة بنقل المصابين بداء الجدري ووضعهم في خيام خاصة نصبوها بعيداً عن مضارب القبيلة ووضعوا الى جانبهم أواني فيها الطعام والماء ، أما الأمير عبدالله الفاضل فقد وضعوه هو وزوجته ليلى في خيمة كبيرة، ونحروا له بكراً من الابل طعاماً لهما ،ووضعوا الماء وما يلزم من الأغطية والحشايا وتركوا له خادماً قوي الجسم مفتول الساعدين، نشيطاً ليقوم بخدمتهما، كما تركوا أحد كلاب الأمير القوية ويدعى(شير) ليقوم بحراستهما ٠

كان الأمير رهين المرض في الخيمة التي وضع بها ، وقد استولت عليه حمى ذلك الداء فهدت قواه ، وانحلت جسمه ،وجعلته طريحاً تنتابه الغيبوبة التي لا يصحو منها الا في بعض الأحيان فيستعيد بعض وعيه ومداركه ثم لا تلبث وطأة الداء الخبيث أن تشتد عليه فتجعله يعود الى غيبوبته الأولى ، وهكذا كان ٠٠٠

وربما كان الأمير قد علم لماماً بقرارالقوم بالرحيل العاجل ولكن ماذا كان بوسعه أن يفعل ؟ فالمرض الجاثم على صدره أشد وطأة عليه وأعظم بلاء لأن الحمى تشتد عليه بين آونة وأخرى والموت أقرب اليه من حبل الوريد .

وما أعظم هذه اللحظة ، وما أشدهاوقعاً في نفس ذلك الشهم الشجاع ، الذي لم يخشَ المصائب الكبيرة الجسام التي لقيها في حياته ولكن الحوادث أقوى من الرجال .

مضى رجال القوم في تأهبهم واستعدادهم للرحيل ولم يستطيعوا أن يركنوا الى النوم طويلا في تلك الليلة فقد نعموا باغفاءة قصيرة ، ما لبثوا أن استفاقوا بعدها في وهن الليل وقد علت ضوضاء الرجال وأصوات الحيوانات وعواء الكلاب فأيقظت النائم وحفزت المتراخي والساجي للوثوب والعمل والتهيؤ فقد أزف موعد الرحيل .

بدأت قوافل العشيرة برجالها ونسائها وظعائنها ومواشيها قبل حلول الفجر بالارتحال وسارت تقطع الفيافي والرمال، وتسير بما في ذلك والد الأمير وأولاده وزوجته الثانية (ثريا) وقد ودع القوم فارسهم ورئيسهم المغوار بالقاء النظرة الأخيرة عليه بمرارة ولوعة ، وارتحلوا وقلوبهم تنفطر حزناً وأسىً على ما حل به وساروا وهم يلتفتون الى خيمته قبل فراقهم له وقطعت ظعائنهم وهوادجهم وركابهم مسافة يسيرة ، عند ذلك نبح الكلب (شير) حارس الأمير نباحاً محزناً باكياً من وقع الفراق وكان عواؤه قوياً متواصلاً مما جعل الأمير يستيقظ من غيبوبة المرض فسأل خادمه عن الأمر فأنبأه هذا أن القوم قد ارتحلوا لا يلوون على شيء لأنهم قد نفذوا ما عزموا القيام به ، وان الكلب يبكي الألفة والفرقة ، فلم يهدأ عواؤه طوال ذلك اليوم ، فيرى الأمير الوضع وهو طريح الفراش فيقول لكلبه :

هلك شالوا على مكحول يا شير   وخلوا لك عظام الحيل يا شير
يا لو تبكي بكل الدمع يا شير   هلك شالوا على حمص وحماة

أي : أن قومك أيها الكلب (شير) قدحملوا أمتعتهم على الابل القوية ورحلوا وتركوا لك لحوم النوق وعظامها ولو سكبت على فراقهم دموعاً غزيرة ، وبكيتهم

ما شاء لك البكاء فلن تستعيدهم لأنهم قصدوا الى مدينتي حمص وحماة ، وتركوك وحيداً في هذه البادية فخفف من عوائك وأقلل من بكائك ·

رجع الأمير الى نفسه بعد ذلك وتأمل الأرزاء المحدقة به والمصائب النازلة عليه من كل جانب فوجد أنه يقبع في عزلة كئيبة ووحشة شديدة بعد أن ارتحل عنه أهله وذووه ، وتركه القوم وهجرته العشيرة ، وكان المرض قد أضنى جسمه ، وأخمد قواه ، وغير ملامح وجهه ، وزعزع كيانه ، في هذه الأرض القفر التي لا يسمع بها إلا عواء بعض الحيوانات الشاردة، هنا وهناك، يشاركها كلبه شير ·

كانت الرياح السافية تهب حارة كثيفة مشبعة بهوائها الساخن من حين لآخر في آفاق الصحراء الواسعة فتلطم أعمدة الخيمة وتحركها ، تنهد الأمير بحسرة وحرقة ومرارة وأسى وسرح طرفه في الأفق البعيد فرأى أنه قد أصبح كعود في عباب هذه الصحراء المتلاطم ، برماله ورياحه الهوج العاتية تلعب به كما تشاء ، وقد غمر الحزن العميق قلبه وأفعم فؤاده ، وحال بينه وبين أهله الذين تركوه في فجوج الصحراء وبين نجادها ووديانها حيث قطعتها قوافل العشيرة بالنوق والجمال القوية السريعة وهذا ما عبر عنه بقوله :

هلي بالدار خلوني وشالوا وخلوني كجعود ببطن شالوا
على حدب الظهور اليوم شالوا وحايل دونهم كور وسراب

يقول : ان أهلي قد ارتحلوا وحملوا أمتعتهم وتركوني وحيداً كالعود في الشلال يتقاذفه موجه ويحمله من مكان الى آخر ، وقد سافر هؤلاء القوم على متون النوق القوية، وحال بيني وبينهم أنجاد الأرض وأغوارها وفيافيها ·

بزغ الفجر صبيحة أحد الأيام طلقاً رخياً، فنشر أشعته الفضية البهيجة في أفق تلك الصحراء الشاسعة ، وألقى ظلاله البهية على فيافيها وحصبائها ورمالها الكبيرة ، وما لبثت الغزالة في أفق السماء أن تبدت من خدرها ،فتجلى رواؤها وسناؤها المشرق ، كان جمال الصحراء يبدو في أبهى حلله ، وأمتع مباهجه، فقد خلعت أشعة الشمس على كثبان الرمال وأنجادها ، ووهادها حلة قشيبة من الجمال المنعش الممتع ·

ساد السكون والهدوء تلك الفيافي والبقاع السحيقة فلا تسمع الا عواء الكلاب وبعض الأصوات العابرة هنا وهناك من الناس الذين استيقظوا على ضوء الفجر وانطلقت تمد

العنان لنشاطها بظـلال أشعة الشمس التـي امتدت اليها رويداً رويداً فأكسبتها انطلاقـاً من خمولها ، وأمدتهـا بفيض من الحيويـة وانشراح الصدور • بعيداً عن الأمـير الذي كان غارقاً في عزلته ، قابعاً في خيمته ، سادراً في غيبوبتـه •

مضى يومان على ارتحال القوم وكانت خيمة الأمير المريض جاثمة في أحضان الرمال وقد خيم عليها الصمت والحزن العميق ، فالأمير سادر في مرضه سابح في خضم من الأسى والحزن ، والى جانبه زوجته ليلى وقد خف عواء الكلب شير بعد أن بكى على فراق القوم، جلس الخادم القوي تُجاه باب الخيمة يراقب بنظره الثاقب الأفق البعيد الممتد الى ما لا نهاية ، وقد ظهر في الجو بعض الطيور الجارحة وهي ترفرف وتصفق بأجنحتها غادية رائحة من مكان الى آخـر ، في هذه الأثنـاء استفاق الأمير من غيبوبة المرض فسارع الخادم اليـه وأعلمه بمضي يومين على ارتحال القوم عنه،فتنهد حسـرة وأسفاً وأرسل الدموع غزيـرة حارة وتنهد بحرقة وأسى قائلا :

هلي ما راعهم صايـح ولوماي ولا ينفع بهم عـذلي ولومـاي
عسنهم عكب هالفـوزة ولوامي تـرووا وارووا الـزود العفـا

أي : ان قومي قد نفذوا ما يريدون وأصروا على ما قرروه ، ولم يستجيبوا لصوت الرادع أو اللائم ، كما لم ينفعهم عذلي ولومي، ثم يرجع الأمير الى الأمل بعد ذلك ويرجو أن يكون قومه وأهله بعد هذه المسافة التي قطعوها مدة يومين في الصحراء قد وجـدوا المياه الغزيرة التي كانوا يقصدونها ولعلهم قد ارتووا منها وسـقوا مواشيهم بما فيهـا النوق الاحتياطية التي توضع مع المواشي الأخرى للملمات والأعمال الحادثة •

وكأن الأمير بشعره الآنف الذكر يعتب على قومه لأنهم جحدوا فضله وأنكروا أثره البارز في العشيرة بتركهم اياه وحيداً في الصحراء فريسة للمرض والهموم ، وربما كان يرجو منهم كما يتضـح من قوله ، حمله معهـم أو البقاء بجانبه ـ ولكن نفسه الأبية لم تجعله يذكر ذلك بلغة التوسل والاستعطاف بل نوه بلهجة النصح واللوم والعذل • على أن الأمير قد وجد العذر بصورة ضمنية لقومه ورجا لهم أن يجدوا الماء الذي كان ضالتهم المنشودة •

وهكذا فانه لم يحقد عليهم لأنه عميد العشيرة وفارسها الشهير فلا غرابة اذا تمنى الخير لهم فمصلحة العشيرة فوق كل مصلحة ولهذا آقـر رأي الأغلبية من القـوم ولسان حاله يـردد ما قاله الشاعر العربي القديم :

ومـا أنـا الا مـن غـزيـة ان غويت وان ترشد غزيـة أرشد

وهكذا كان ••• ما برح الأمير رهين المرض ، حبيس الخيمة في تلك الفيافي المنقطعة ، وزاد في آلمه ارتحال قومه وأهله وأولاده عنه ،فلا أنيس يؤانسه في محنته سوى هذا الخادم الذي يقوم على خدمته ورعاية شؤونه ، وزاد في آلمه وجود زوجتـه ليلى بجـواره مريضـة ساجية ، وهكذا فقد استسلم للصبر وارتقب قضاء الله وقدره •

وفي احدى الليالي اشتد المرض بزوجته وأحاط بها الردى ، وأناخ بجسمها الموت فسكنت نأمتها ، واستراحت من آلام الداء الوبيل ، الذي لم يرحم صباها الغض ، وشهد الخادم احتضارها وموتها فأيقظ سيده من غيبوبته وأعلمه واقع القدر •

تحامل الأمير على نفسه ونهض وأطل برأسه على جثمان الزوجة التي ودعت الحياة ، فرأى وجهها الهامد قد غُطي بالنقاب وذهبت المنون بنضارته ولم تبق الا عيناها الساجيتان وكان منظراً مؤلماً أحزن الأمير ، وأدمى فؤاده ، فبكى ما شاء له البكاء ، ونزلت عبراته الغزيرة ساخنة على خديه الكامدين من فؤاد كليم ، وجسم سقيم مفعم بالأسى والأحزان والأوجاع ، وما لبث أن أنشد :

يا ليلى مخفية الوجنة بس العين وما لك شبه من الجازي بس العين

يا فاضل بطل الونة بس عين عليهم طول ما أنت بالحياة

يقول : يا ليلى الراحلة التي أخفى النقاب وجنتيها وأذبل الموت نضارة وجهها فلم يظهر من الوجه الا العينان اللتان تشبهان عيني الغزال ، ثم يرجع الى نفسه ويناجيها قائلا يا فاضل اترك الأنين والتوجع ، والتوله فانه لن يفيد والزم الألم والصبر الصامت على من تحب ما دمت على قيد الحياة •

فكأنه يريد أن يعبر عما جاش في صدر العربي القديم عندما رثى حبيبه بقوله :

ولما دعوت الصبر بعدك والأسى أجاب الأسى طوعاً ولم يجب الصبر

لقد قام الخادم بدفن الزوجة في قبر حفره لها بعيداً عن الخيمة ، ولاحظ أن سيده قد أمعن في البكاء في ذلك اليوم وما لبثت دموعه أن انسكبت بلوعة وحرقة ، في كل منظر رآه به في مصيبته التي رزىء بها ، وما أعظم وقع المصائب على قلب هذا الرجل الشهم ، بل ما أكثر تتابعها فقد بدأت بالمرض وترك الأهل له وارتحالهم عنه ، وها هي الآن سهام المنايا قد أفقدته زوجه ، والشيء البارز الذي لم يبرح يفكر فيه الخادم ويعجب منه هو بكاء الأمير وقد عهده منذ أن نشأ بخدمته من الصغر جلداً ، صبوراً لا يعرف الخوف والوجل الى نفسه سبيلا ولم يره باكياً حتى في أشد المواقف هولا خلال حياته الطويلة الملأى بالمعارك والحروب ولكم شهد مواقع أصيب أو جرح بها ، أو فجعه الزمان بأصدقائه وأقاربه وأولاده ••• فما باله اليوم يبكي بكاء الأطفال ؟ ويعول عويل النساء ؟ لقد اعتقد الخادم بعد أن تأمل طويلا في وضع الأمير أنه يبكي نفسه بتلك الدموع ، بل يرثي حياته التي أوشكت على المغيب بعد أن رأى جسمه الهزيل قد أصبح كالهيكل العظمي ، ورأى عينيه قد ذبلتا وخمدت حدتهما وخبا رواؤهما المتوقد ، وقد اضمحلت تلك الحيوية التي ملؤها الشجاعة والاباء والاعتداد بالنفس ، فأسفاً للخطوب والحوادث المؤلمة التي تردي النفوس وتدمي القلوب الكبيرة •

وأخيراً حصلت لدى الخادم القناعة أن الأمير يقترب من الموت وأنه على شفا جرف هار منه ، وألا أمل يرجى لشفائه وبرئه •

كان وجهاء العشيرة وخاصة والد الأمير وذووه قد زودوا الخادم قبل رحيلهم بتعليماتهم وأوامرهم التي تقضي بخدمة الأمير وزوجته والسهر عليهما حتى ينتهي صراعهما مع المرض ، فان شفي أحدهما أو كلاهما فليأتِ به الى مضارب العشيرة التي حددوا مكانها له، وان ماتا فليدفنهما وليحضر بنفسه ويلحق بقومه ، فبعدما شهد الخادم وفاة زوج الأمير ورأى حالته قد ساءت ورأى أنه وارد قبره اليوم أو غداً ولا حق بزوجه ، لم يشأ الانتظار وعزّ عليه أن يرى سيده يموت ويقوم بدفنه، وربما خشي أن يدهمه المرض وتنتقل اليه العدوي بعد أن ضعفت عزائمه ووهنت قواه من رهبة الموت وهول الموقف فاستبد به ضعف العزيمة وخور الهمة والتاث عليه الأمر ولم يدر ماذا يفعل فهام على وجهه وهو يهذي كأنما به مس من الجنون ، وكان يردد شعر الأمير في رثاء زوجه وقد حفظه لأنه تأثر به ونزل بقلبه ولا سيما وقد رآه باكياً حين انشاده ٠

وأخيراً ساقته قدماه الى مشارف خيام العشيرة وعندما رأى نفسه على مقربة منها انتبه قليلا من غفلته ومن هواجسه التي كان سابحاً بها وفكر فيما يقول للقوم الذين يرتقبون أنباء الأمير بلفهة واشتياق ، وعندما وصل اليهم أعلمهم ما نوى اخبارهم به وهو موت الاثنين وقيامه بدفنهما اعتقاداً منه أن ذلك ما يتوقعه القوم ، ولعلمه أن النجاة قليلة ونادرة من براثن ذلك الداء الذي افترس الكثيرين ، وهيهات أن ينجو منه أحد الا من مد الله له عمره وهم قلة ٠

لهذا لم يساور القوم شك في ادعاء الخادم فحزنوا على موت الأمير ، وعلموا أنهم قد فقدوا فارساً شهماً ستذكره العشيرة دوماً ،وأنى لغيره أن يملأ فراغه ؟ وأقاموا المآتم والتعازي في كل منزل وخيمة لأنهم يحبونه ويقدرون صفاته الفريدة واخلاصه لهم وفضله عليهم ٠

بقي الأمير في خيمته الكئيبة الحزينة التي خيم عليها المرض والوحدة والألم المرير، كان بين حدي مقص الفناء يدنو منه الموت رويداً رويداً ويقترب منه شبح المنون بوجهه الكالح المر ، ويدهمه المرض العضال بوطأته الشديدة فعندما يستسلم الى اغفاءة أو غيبوبة من النوم يظنها النومة الأخيرة التي لا صحو بعدها ، وهكذا حالته بين يأس ورجاء، وشدة، وأمل ، لا يعرف ماذا يخبيء له الغد المجهول في ثنايا طياته ، وغياهب مجاهله ، لقد انثالت على قلبه المحن والأرزاء وأحاطت به وتعاورت جسمه سهام الردى ونصال المرض فلم تبق منه الا هيكلا عظمياً يلفه أديم هزيل وجسم نحيل يتردد به نفس متقطع ، وأنين متحشرج، على أن الرجال ذوي النفوس الكبيرة والعزائم العظيمة عندما تنزل بساحتهم المصائب وتبلوهم النوائب يتذرعون بالصبر ويلجئون الى احتمال المكاره والآلام مهما كانت جليلة، فهناك يبدو معدنهم الأصيل الذي تأتيه النار فتصهره من شوائبه وأدرانه وتظهره بطبيعته وتجلو رونقه ولمعانه ، وهذا ما جرى لهذا المسكين فقد استسلم لقضاء الله وصبر وتألم بمرارة وحزن وكان يعبر عن مآسي قلبه بأشعاره الشعبية التي تخرج من قلبه الكليم وفؤاده الجريح ونفسه الملتاعة فحسبه من هذه المصائب ما نزل بساحته وكفاه من البلاء ما حل به وكأن لسان حاله يقول :

رأيت الدهـر يجرح ثم يأسـو يؤسـي أو يعـوض أو ينسـي
أبت نفسي الهلاع لـرزء شيء كفى رزءاً بنفسـي رزء نفسي

شاءت الأقدار في صبيحة يوم من الأيام أن تمر قافلة من العرب الرحل وقيـل انهـا من (الصليب) فشاهـدت تلك الخيمة التي تذروها الرياح وعندما خيم أفرادها بجوارها ودنوا منها وشاهدوا الأمير طريح الفـراش يصارع الموت ويقاوم الألم وكأنه رنا اليهـم ببصره من خلال الصحوات القليلة التي كـان يستفيق منها بعـد غيبوبة المرض المستمـرة التي كانت تدهمه من آن لآخر ، ولعله أراد أن يعبر عن وضعه ويعرف زواره بمحنتـه وبمصيبتـه بقولـه :

هلي شالـوا وخلوني طريحـاي الفرش يا جرح دلالي طري حي
نحل جسمي وبكى طـاري حي تلح الروح بـين ضلعي والحشا

يقول : ان أهله قد ارتحلوا وتركوه طريح الفراش وجراحه لما تندمل حيث نحل جسمه وأصبحت حالته كما هي فروحه مترددة بـين ضلوعـه وأحشائـه ٠

ولكن أفراد القافلة الذين لا يجهلون وضع ذلك المرض الخبيـث أردكوا فوراً أنـه مصاب به فعكفت عجوز منهم لها المام بالطب العربي وعالجته بمـا تعرفه من خصـائص العقاقير والحشائش التي تنبت في البادية ، وقد قيض الله الشفاء للأمير فتحسن وضعـه الصحي تدريجياً وزال عنه خطر الموت ٠

ترك الأمير الخيمة وبقي مدة يستجم فيها بعد أن ابتسم له الزمان قليلا وقد غير المرض وجهه ، وبدت ندوب الداء الوبيل تعلوه من كل جانب وكان للمدة الطويلة التي قضاهـا أكبر الأثر في جسمه ونفسه ، فقد دب الهزال في عوده الناحل ، وتسرب الضعف الى كيانـه وجسده فأصبح عليلا سقيماً ، وتشربت نفسه شعار التألم والقطيعة من أهله وذويه وأفراد عشيرته الذين أنكروا فضله وتركوه فريسـة للداء ونبذوه في هذه الصحـراء وهو الـذي افتخر بهم كثيراً ورفعهم بشعره الى ذرا الفخر والحماسة وأضفى عليهم من شخصيته ثـوب العز والمفخرة ، فقد أكثر في أبياته وشعره من التباهي بهـم وبدئت معظم أبياتـه بكلمـة (هلي) أو أهلي الذين اعتمد عليهم كثـيراً وجعلهم جزءاً من شخصيته وكيانه ، وهـذا الفخر ولو أنه طبيعة أصيلة في نفس العربي الأصيل الا أنه لم ينسه أن ينكر عليهم الموقف الذي وقفوه تجاهه وأن يعمـل على تركهـم وينـوي أن يولي وجهـه قوماً آخـريـن وألا يعـود اليهـم ٠

ولهذا نجده في أبياته ينحي عليهم باللائمة والتشهير ويصب جام غضبه عليهم فهو يرى أن قومه ولو أنهم تابعوا عاداتهم القبلية القاضية بعزل الرجل المصاب الخطير الـذي يخشى أن يسري داؤه الى الآخرين في الصحراء وهم عرب متنقلون من واد الى آخـر ومـن بادية الى أخرى الا أنه ما كان أجدرهم ألا يطبقوا هذه القاعدة عليه وهو فذ في رجولته وشاعريته وقيادته للعشيرة ، فهو يقول :

هلي شالـوا بليل ومـا سقوني   وخلونـي شبيه المـاسكوني
طلبـت المي منهـم ما سـقوني   يويلي مـن هلـي بـان الجفـا

أي : ان أهلي ارتحلوا في الليل ولـم يأخذوني معهم وتركوني في هذه الصحـراء ، شبيهاً بالأسير حتى انهم لم يعرجوا عليّ حين الرحيل ويسقوني الماء . ويقـول ان هـذه الجفوة والقطيعة كلها قد بدت منهم .

ويتمنى لو أن عشيرته قد قررت آخذه وعدم تركه في هذه الصحراء ليشاركهم أتراحهم وأفراحهم ويبقى معهم حتى ولو أرداه المرض أو أودى بحياته فخير له وهو الفارس الكريم أن يموت بين اخوانه وخلانه وألا يبقى وحيداً في هذه الصحراء فيقول :

هلي شالوا بليل ومـا اعلموني   وخلـوني شـبيه المعلمـوني
تمنيتـك بروحـي معلمـونـي   معاهـم لا صميـل ولا زهـاب

يقول : ان أهله ارتحلوا في الليل دون علمه وتركوه كالجماد المـرمي في الأرض أو المعالم الدالة عليه ويتمنى لو أن نفسه باقية مع أهله وخلانه دون أي شيء آخر يأسف عليه أو يتمناه من الزاد أو المال .

وهكذا ظلت نفس الأمير جريحة متألـمة تلوم ذويها وتؤسي نفسـها بالأماني وتعلـل مصابها بالآمال حتى طالت مدة النقاهة التي بقي فيها ذلك المرض فاشتد عوده ورأيـت الآمال ذلك الصدع في نفسه وبانت أمام عينيه آمال الحياة وضاحة مشرقة الا أنه آلـى الا يعود لقومه فاتجه شمالا لا يكاد يستقر بمكان حتى يلقي عصا ترحاله في آخر الى أن ساقته الأقدار الى جهات الجزيرة عبر نهر الفـرات ورافده نهر البليخ لدى الشيخ (تيمور باش) أحد رؤساء عشائر الأكراد وجد الشيخ ابراهيم رئيس عشائر (الملية) الذي كان يقطن مع عشيرته في تلك البوادي وهذه العشـيرة قد أجلاها الأتراك الحاكمون في تلك الأوقات عن موطنها الأصلي الى هذه الربوع .

كتم امير عبدالله الفاضل شخصيته وأخفى وجهه بغطاء رأسه حتى لا يعرفه أحد وعمل لدى الشيخ المذكور (يقدم القهوة للقوم) في مرابع الضيافة وهو يحاول أن يبتعد عن أي انسان آخر وألا يتصل بأحد ، وبقي مدة من الزمن على هذه الحالة وحيداً فريداً معتـزلا عن الناس ، محاولا أن ينسى شخصيته وقومه وهيهات له ذلك .. !

كان بحكم عمله في نادي القوم يسمع أخبار العشائر ويصل الى سمعه أنباؤها مـن الوفود القادمة من الشمال والجنوب ، ومـن بوادي الفرات والشام حتى وصله قادم مـن بادية حمص وحماه فحدثه عن أخبار قومه ،وما سمعه دون أن يحاول الأمير أن يعـرّف محدثه بشخصيته ، الى أن سأله عن عشيرتـه فأجابه ان عشيرة « الحسنة » بعد غياب الأمير الفاضل أو بعد موته وهو المعتقد السائد بعد مرضه قد ضعفت منزلتها بين القوم ، ولم يعد يسمع برجل آخر يماثل الأمير في شجاعته وكرم منزلته ، وكان محدثه لا يعلم أنه يحدث الأمير

نفسه ، وقد حرك هذا الحديث أشجان الأمير الدفينة في نفسه فانطوى عليها وتألم وزفر زفرة حرى من صميم قلبه وأنشد :

هلي لب الجواهر لو لعنا ويحق لنا عليهم لو لعنا
مريت بحي أهلنا ما عينه الزعيم وبيه لقوة للجناب

فيقول ان أهله كفرند السيف اذا تلألأ بريقه ولمعانه ولهذا حري بنا أن نذكرهم ونبكي عليهم ، وعندما مررت بحي الأهل والأحبة لم أجد الزعيم القائد الذي يلاقي الأعداء ويردهم • وكان الأمير يعني نفسه بذلك ويتكلم بلسان محدثه بل قرن بين فخره بقومه وبين فقدانه وخلو عشيرته منه •

وفي ليلة من الليالي تبارى فيها الشعراء بمربع الشيخ تيمور باش بأبيات العتابا وأنغامها المنبثقة من وصف الأفراد بالشجاعة أو الكرم أو التي تحث على نهج المروءات والبطولات واتخاذ المواقف المثلى المعبرة عن النخوة والحمية والشهامة ، والتفاخر بالأهل والعشيرة والتباهي بمآثر القوم ومناقبهم ،ويظهر أن الأمير قد أزعجه مضيفه ببعض الكلمات النابية مما حرك أشجان نفسه ، وأثار المروءة والنخوة في كيانه ، فرنا ببصره البعيد الى ماضي قومه وعزته ، وعجب من الظروف وأحداث الزمان التي جعلته أشبه بالخادم بين ظهراني هؤلاء القوم الذين لا يشبهون قومه في عاداتهم وكرمهم وشجاعتهم واضطجع الأمير مترنحاً من الهم ، والألم والأسى يعصران نفسه ، ولكنه لم يستطيع أن يتذوق طعم النوم بعد انصراف الناس من ندوة الشيخ ، فما كان منه الا أن صار يتغنى ألما وحزناً كالطائر الذبيح قائلا هذه الأبيات :

١ ــ هلي ما لبسوا خادم سمالهم وبقلوب العدا بايت سمالهم
الناس النجم واحنا سمالهم كواكب واسهرن ليل الدجى

٢ ــ هلي للشاذري طاحون يسحون دواهيك لعظم الضد يسحون
هلي ما قدموا مايدات بصحون خنادقهم تحفرت من عشا

٣ ــ هلي لو شح قوت الناس عدنا كرام واليتيم يعيش عدنا
بعد ما كنا ذر وللناس عدنا نتذرى بالذي ما له ذرا

يقول في البيت الأول : ان قومه لم يُلبسوا الخدم ثيابهم وأسمالهم البالية وهم سماء تعلو غيرها من الأقوام الأخرى التي هي كالنجوم المتجولة بالنسبة للسماء الثابتة •

ويقول في البيت الثاني : ان أهله يختزنون القهوة كأنها القمح الذي تطحنه الطواحين وهم أبطال يسحقون خصومهم ولا يقدمون الطعام للضيوف بالصحون والأواني •

ويقول في البيت الثالث : ان الناس اذا أصيبوا بالقحط والجدب فقومه يعيدون لهم ما شحت عليهم الطبيعة به وانه أصبح لاجئاً لدى أناس ليس لهم دالة على غيرهم •

ثلاثة أشياء رمى الأمير بها مضيفه الشيخ تيمور باش وقومه وقد استهجنها وكأنه يعيرهم بها وهي :

١ ــ ان هؤلاء الناس يلبسون الخدم ثيابهم البالية وقومه لا يفعلون ذلك وربما كان قد عرض عليه باعتباره يصب القهوة لديهم أن يلبس بعض أسمال أولئك القوم ، بل ربما كانت هي سبب نقمته واثارة نفسه وهم لا يعرفونه •

٢ ــ وثانيها أنهم يقدمون الطعام للضيوف في صحون وقومه لا يفعلون ذلك بل يقدمونه في مناسف وصواني كبيرة وهي عادة لايجهلها من يعرف طباع العرب وعاداتهم •

٣ ــ وثالثها وهو عجبه من هذا الزمن الذي رماه بين هؤلاء القوم الذين يراهم أشبه بالنازحين الذين أجلوا عن ديارهم •

انتبه المضيف الشيخ تمورباش بدقة الى ما ترمي اليه هذه الأبيات رغم عدم اجادته للغة العربية الشعبية وفهمه بدقة معانيها ،وقد دله ذكاؤه على مدلولها ومغزاها ، فثار في وجه الأمير يسائله : من أنت ؟ ومن هم قومك الذين افتخرت بهم هكذا ؟ ومازال يحاوره ويجادله حتى قال له دون أن يفصح له عن شخصيته انه من عشيرة « الحسنة » العربية القاطنة في بادية تدمر وحمص وحماة وانما قاله عن عاداتهم وكرمهم وشجاعتهم صحيح •

فما كان من الشيخ المضيف الا أن أجابه سنتحقق من صحة ما قلته عن قومك !

ويقول الرواة انه أرسل أربعين رجلا تحملهم النوق السريعة وأوصاهم بزيارة عشيرة الحسنة صباح مساء للوقوف على عاداتهم فكان أن تأكد لهؤلاء الرسل صحة ما ذكره الأمير عن قومه من الشجاعة والكرم وأنهم يقدمون الطعام بمناسف ضخمة للضيوف ويتركون زاداً وفيراً للطارقين اذا ارتحلوا وجاؤوهم ليلا يريدون القرى • فكان كرم هؤلاء القوم قد عناهم الشاعر العربي بقوله :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وعندما عاد الرسل وأخبروا الشيخ بماشاهدوه عن قوم الأمير ، انفرجت أسارير وجهه واغتبط من صحة ما ذكره هذا الشخص الذي يصب القهوة في ناديه وأنه لم يرسل قوله جزافاً ، وآن للشيخ أن يعرف هويته ما دام قد تغنى بالمكارم وافتخر بالمآثر وأخيراً عرفه وأنه عميد عشيرة « الحسنة » دون منازع ، فاسف الشيخ لأن مثل هذا الأمير الذي جار عليه الزمان صار عنده على هذه الشاكلة ، فقام وعانقه واعتذر له وأسف لحاله وأغدق عليه الهدايا والنعم من الابل والضأن والغيم والكسوة الفاخرة والمال ويقال انه عرض عليه أن يزوجه احدى بناته فاعتذر الأمير بلطف متعللا بسوء صحته ونحول جسمه •

ارتحل الأمير مع قافلته راجعاً الى باديته بعد غياب طويل عنها وعن عشيرته يربو على أربع سنوات وقد تعددت الروايات في كيفية صلحه مع قومه وعودته اليهم بعد أن ظنوا أنه في عداد الأموات ولكن الرواية الشائعة التي رواها الكثيرون أنه خيم بجوار قومه

بصفة شاعر أو زائر متجول وأخذ يتسقطعن كثب أخبار القوم وأخبار أسرته فعلم أن والده قد كف بصره وأن زوجته « ثريـا »ما زالت في المنزل وأن عمـادة العشيرة قـد اغتصبها بعض أقاربه منه وأهان أهله وألحقبهم الذل فما كان منه الا أن جاء متخفياً الى الخيمة التي يقيم بها والده فرأى فيها زوجهووالده كما رأى فيها سيفه وربابته معلقـين وفي المساء جاءت غنمه من المرعى فأخذ بعضالنعاج وذبحها ودفعها لغيره ليسلخ جلدهـا ويقدمها قرى ـ كعادته حينذاك ـ قبل النكبة،وخامر الشك زوجته بشخصيته ولا سيما وقد أخذ يصنـع القهوة ويجعل للمهبـاج المعدنيدقـات خاصـة مشجيـة لا يجيدهـا غـيره ، فاستمالت الدقات الناس الذين اجتمعوا حولالخيمة من كل مكـان ، ويقـال ان الزوجـة استعانت بشاعر حرك شجونه حينما أنشـدبعض الأبيات له ولا سيما البيت المذكـور في زوجته « ليلى » التي رثاها على فراش الموتوبكى حينذاك وهي قصة الخادم التي رواهـا للأسرة وكانت هذه أكبر بينة أكدت شخصيتهوأبانتهـا بوضوح ٠

سر الأب والزوجة من ذلك اللقاء ـ غيرالمنتظر ـ ويقال انه تقلد سيفه واستدل على شخصية من اغتصب الزعامة منه وأهان أسرته فقتله وعندما شاع بين القوم عودة الأمير أعيدت ناقته « البويضة » التي اختفت باختفائه كما أعيدت اليه بعض النعم التي اغتصبت من أسرته وتوافد الناس عليه من كل حـدبوصوب مهنئين معلنين ولاءهم لزعامتهوعودتهم الـى عمادته ٠

عاد الأمير بعد ذلك الى صحرائه بنفسمتألمة تتأمل أحداث الزمان وأرزاءه الأليمـة وبقي في بيدائه يشم رائحة الغبار المنبعث منوقع أخفاف الابل وحوافر الخيل في الصحراء ويرى بجانبه زوجه « ثريـا » الوفية التـي حافظت على وده وعهده ، فتثور في نفسـه نوازع العربي الشجاع بين البادية وغبارهاوبجواره المرأة التي لا غنى له عنها ، فيرى في هذا المنظر أريجاً وعنبراً أفضل من غبار المدنفي حمص وحمـاة اللتـين يدعوهما بالقـرى الموخمة أي (الفاسدة الهواء) حيث يقول :

هـلا بشـيري والدنيـا مسـكبة   عسل ياريق (أبو كذلة) مسك به

عجاج الظعن عنبر والمسـك به   أخـير مـن القرايا المـوخمـة

فيرجب بزوجه « ثريـا » والسماء ممطرة ويرى أن ريقها كالعسل (وأبو كذله) كناية عن المرأة في البادية وكأنه الشاعر الفارسيالجاهلي عمرو بن معد يكرب الزبيدي حـين نظر الى زوجه مقبلة بين الظعائن فيقول :

وبـــدت لميس كـأنهـــا   بـــدر السمـاء اذا تبـدى

وبقي الأمير بصحرائه يفاخربقومه ويعدد صفاتهم التي من أبرزها الشجاعة والكرم فيقــول :

هلي عوج المنـاسف مندل لهـم   ودرب الكـرم سابق من دليلهـم

كروم الناس تشرب من دلالهـم   هلي بالكـون عيـن الطـلاب

أي أن مناسف الكرم الفخمة تدل علىقومه وعـادة الكـرم ثابتة لهـم من أصلهـم ومعدنهم كما أن فرسان القوم تزور نواديهموتشرب قهوتهـم وهـم الشجعان في معـارك الحـروب ٠

ويقول أيضـاً :

هلي يا هــل المحمس والبريــق وقهــوة غـيرهـم حنظل بريقي

هلي يا هل الزواعــق والبريق سباع الغاب لو صاحــوا ضحى

أي : ان أهله أهل القهوة والابريــق ولوازمها وهو لا يتذوق طعماً لها عند غيرهم وهم يشبهون الصواعق والبرق وهم أسود اذا حملوا على العدو في الضحى ٠

وهكذا عاد الأمير الى عزه وابتسم لـهالدهر بعد أن عبس وأذاقه المصائب والنكبات الكبيرة فبقي كالطود في صحرائه يتحدى مصائب الزمان بعد أن صبر على بلوائــه ومحنته ورأى في نفسه أن المصائب قد صهرته وصفتمعدنه العربي الأصيل فيقول :

يفاضل ما تشيلك كل عنــداي وليث ينطـح الطابور عنــداي

يلــولا المعــدنين تصير عنداي هنا هن وآمـر بحمـر الــذرى

أي يخاطب نفسه ويقول انه قوي شـديد لا تستطيع أية ناقة أن تحمله وهو أسـد يلاقي كتيبة من الجيش وحده ولو أن الفضةوالذهب امتلكهما لكرم بهما وأنفقهما وألحق بهما حمر النعم وكرام النوق وعتاق الخيل ٠

وهكذا تبدو شخصية الأمير مثالا للرجولة العربية في الصحراء والكرم والصبر على أرزاء الزمن وقد تغنى بمآثر قومه ولم يحقدعليهم رغم عتبه الشديد على ما صنعوه بـه فشعوره شعور الصابر الشجاع الكريم المتالمالذي كان يغـالب الزمان والزمـان يغلبـه ويصارع الأحداث والأحداث تصرعه ٠ وهكذاكان شأن العـربي الأصيل في صحرائه الـذي لا تلين قناته لمصائب الزمن وأحداثه ٠

أما شعره الشعبي كما هو واضح من آبيات العتابا المذكورة له فيتصف بطابع القـوة والجزالة وشدة العاطفـة والصدق ، وقـدتغنى بقومه كثيراً وهو أول من استعمل كلمة / هلي / في الفخر وقد أخذ عليه البعض اكثاره من التحدث بمآثرهم ومناقبهم وصفاتهـم الا أنهم لم ينكروا عليه الصدق فيما ادعاه ،والواقع أن صفات قومه التي تغنى بها هـي صفاته ، فكأنه كان يرى نفسه في قومه ويحاول أن يظهر رجولته وشجاعته في طابع عشيري قبلـي أصيـل ٠

وبما أن شعره جـزل قوي فقد حـاولغيره تقليده ولكنهم لم يفلحوا ويميز نقـاد هذا الأدب الشعبي بين الشعر الأصيل الجزلوبين التقليد المبتـذل بكل سهولة وبساطـة ولم يخل شعره من التكرار واعادة الألفاظ ٠

وله أبيات أخرى عديدة من العتابا غيرمذكورة في هـذه القصة ولكنهـا في جوهرهـا ومدلولها لا تخرج عن معاني الأبيات المتقدمةوشعره له أثر بارز في العتابا والأدب الشعبي ويعد الأمير من روادها المشهورين بل هو ربالسيف والربابة أو الشعر أو القلم اذا صح التعبير ، وما أشبهه بشعر أبي فراس الحمداني حين يقول :

انـــا اذا اشـد الـــزمـــان ونـــاب خطـــب وادلهـــم
ألفيتَ حـــول بيـــوتنـــا عـــددَ الشجاعـــة والكـرم
للقـــا العـــدا بيضَ السيـــوف وللنـــدى حمـــر النَّعـــم
هـــذا وهـــذا دأبنـــا يُـــودى دم ويـــــراق دم

وتاريخه تاريخ البادية والقفار وشعرهشعر البداوة والصحراء والرجولة العربيـة والصبر على أرزاء الزمان ومصائبه وربمـاكانت سيرته احياء لما أهمله تاريخ البادية من رجالها وفرسانها المشهورين الذين أعجب بهمالكثيرون وتناقل أخبارهم الرواة ومـا زالوا يذكرونهم في كل مناسبة ويشيدون بذكرهـموآثارهـم .

محمد صالح بربندي

□ ● □

طرفة بن العبد البكري
الشاعر القتيل

درية الخطيب ولطفي الصقال

« وأما أهجاهم للرجال ، وأبذهم في المقال ، وأضربهم للأمثال فطرفة »
« البيهقي »

نسبه ولقبه :

طرفة بن العبد البكري، شاعر فحل(١) من فحول شعراء الجاهلية ، ومن أصحاب المعلقات ينتهي نسبه الى عدنان (٢) ، الجد الأكبر للعرب .

اسمه عمرو ، وطرَفة لقب له ، يقول الفيروز آبادي : « والطرفاء شجر وهي أربعة أصناف منها الأثل ، الواحدة طرفاءة ، وطرَفة محركة ، وبها لقب طرفة بن العبد .. أو لقب بقوله :

لا تعجلا بالبكاءِ اليوم مطّرِفاً ولا أميريكما بالدارِ اذ وقفا (٣)

وأورد أبو تمام لقبه : « طرْفة » ـ بتسكين الراء ـ في بيته الذي يقول فيه :

أذكرتِنا الملكَ المضلّلَ في الهوى والأعشيينِ وطرْفة ولَبيدا

وتبعه البحتري فقال :

وكذاك طرْفةُ حين أوجس ضربةً في الرأسِ هان عليه قطعُ الأكحلِ (٤)

ويكنى بأبي عمرو (٥) ، وأبي اسحاق(٦)،وأبي نضلة(٧) ، وأبي سعد(٨)٠وامه وردة بنت قتادة بن مشنوء ، وأخواه معبد وخالد(٩) ، وأختاه الخرنق بنت هفّان ، أخته لأمه أو لأبيه ، وهي شاعرة ، وكبيشة(١٠)، وخاله المتلمس ، وعمه المرَقش الأصغر وعم أبيه المرقش الأكبر ، وابن عمه عمرو بن قميئة ،وهؤلاء الأربعة شعراء ، وخالته فكيهة بنت قتادة(١١) .

كان طرفة آدم ، أزرق ، أوقص ، أفرع، أكشف ، أزور الصدر ، متأثل الخلق ،ويقال انه أخرج لسانه ، فاذا هو أسود ، كأنه لسان ظبي(١٢) ٠

نشأ بين قومه في البحرين ، معتزا بهم ،وبشرفهم ، أبياً ، معتدا بنفسه ، في حسب من عشيرته ، ولذلك كان جريئاً على الهجاء والنقد، هجا صهره زوج أخته الخرنق ــ عبد عمرو بن بشر(١٣) ، وهجا عمرو بن هند وأخاه قابوس(١٤) ٠

مات أبوه ، وتركه طفلا ، فما لبث أن شعر بألم اليتم ، ولا سيما حين جار أعمامه على أمه وردة ، وحرموها حقاً لها ، فثار على الظلم ، وأوعدهم بشر كثير(١٥) ٠

وما كاد يشب عن الطوق حتى انصرف إلى البطالة والدعة ، وأسرف في اللهو والمجون، وقد سئل : ما أطيب العيش : فقال : مطعم شهيّ ، وملبس زهيّ ، ومركب وطي(١٦) ٠

من أجل هذه المبادىء ، وسلوكه اللاهي غير المبالي ، ضاق قومه به ، وعذلوه كثيراً ، فضاق بعتابهم (١٧) ورحل يطلب الحرية ٠ظل مدة يتنقل ، فذهب الى قتادة بن سلمة الحنفي ومدحه(١٨)، وأطرد الى النجاشي(١٩)

ولما اشتدت به سورة الحنين ، عاد الى موطنه ، فرعى ابل أخيه معبد ، ولكن نفسه الطموح ، دفعته ثانية ــ وقد رافق خاله المتلمس ــ الى بلاط عمرو بن هند ، ملك الحيرة ،.وكان هذا الاتصال سبباً في مقتل الشاعر ، وهو في الخامسة أو السادسة والعشرين ٠

مقتله :

أربعة أسباب ترويها الكتب لمقتل طرفة:

١ ــ هجاؤه لعمرو بن هند بسبب ما كان يلقى من العناء في منادمته ، أو منادمة أخيه قابوس، ووشاية عبد عمرو بن بشر للملك(٢٠)٠

٢ ــ اعتداد طرفة بنفسه في مجلس عمرو بن هند ، فقد جاء مرة الى مجلسه ، وهو يتخلج في مشيته ، فنظر اليه عمرو بن هند ، وكان شديد الهيبة ، لا يبتسم ولا يضحك ، نظرة كادت تقتلعه من مكانه ، فقال له خاله المتلمس ، بعدئذ : يا طرفة اني أخاف عليك من نظرته اليك مع ما قلت لأخيه(٢١) ٠

٣ ــ كان طرفة ينادم عمرو بن هند ، فأشرفت ذات يوم أخته ، فرأى طرفة ظلها في الجام الذي في يده ، فتغزل بها ، فحقد عليه(٢٢) ٠

٤ ــ كان طرفة صديقاً لعمرو بن أمامة ، أخي الملك عمرو بن هند لأبيه ، وكان قد وقع الخلاف بينهما لاستئثاره وأخوته بالملك بعد أبيهم (٢٣) ، فعاقب الملك طرفة بأن أخذ ابله ، فهجاه ٠

اجتمعت هذه الحوادث ، وانضم بعضها الى بعض لتؤلف قصة مقتله ونجاة خاله

المتلمس(٢٤) اذ قدم طرفة على والي البحرين، ومعه الكتاب الذي أمره فيه الملك بقتل طرفة، فنصحه الوالي ، وكان قريباً لـه ، بالهرب ، فأبت على طرفة عزة نفسه أن يهرب ، واضطر الوالي الى التنازل عن ولايته ، فأرسل طرفة وهو في الحبس في اليوم الأول شعرا الى أخويه خالد ومعبد(٢٥) ، وفي اليوم الثاني الى خاله المتلمس(٢٦) ، ولكن لات حين مناص ، اذ نفذ القتل فيه والٍ آخر ، ولاه الملك(٢٧) بفصد أكحله · وقبره بهجر بأرض منها لبني قيس ابن ثعلبة(٢٨) ، فرثته أخته الخرنق(٢٩) ، كما رثاه خاله المتلمس(٣٠)، وحرض قوم طرفة على الملك عمرو بن هند ، فتنصل عمرو من قتله ، وزعم أنه لم يأمر بذلك ، فأخذت ديته من الوالي ، ودفعت الى معبد أخيه(٣١) ، أو الى أبيه وقومه(٣٢) ·

واختلف في تحديد عام وفاته ، فهو عند زيدان ٥٥٠م ، وعند كودوبرسيفال ٥٦٣ م أو ٥٦٤م ، وفي الروائع ٥٦٩ م ، وعند الخفاجي ٥٦٥م والرافعي ٥٥٢ ـ ٥٦٤م وحمدالله ٥٥٥ ـ ٥٥٨ فموته اذاً كان حوالي منتصف القرن السادس ·

بدء شعره

يقول الرواة : ان طرفة خرج مع عمه في سفر ، وهو ابن سبع سنين الى مكان اسمه « معمر » ، فنصب فخاً للقنابر ، وظل عامة يومه لم يصد شيئاً فلما أراد الرحيل ، رأى القنابر تلتقط الحب الذي نثره فقال ، وهو أول شعره :

يا لـك مـن قبـرة بمعمـر (٣٣)

وهذه الأبيات تنسب الى كليب بن ربيعة(٣٤) · كما أن من أوائل شعره قوله :

ما تنظرونَ بحـقِّ وردة فيكـم صغُرَ البنون ، ورهطُ وردةَ غُيَّبُ(٣٥)

ويروى أنه سمع خاله المتلمس يقول ـ وطرفة طفل بعد ـ :

وقد أتناسـى الهمَّ بعد احتضاره بناجٍ عليه الصيعرية مكدم

والصيعرية سمة للنوق لا للفحـول ، فجعلها للفحل· فقال طرفة : « استنوق الجمل » فضحك الناس وسارت مثلا (للرجل الواهن الرأي ، المخلط في كلامه) ، وأتاه المتلمس ، فقال له : أخرج لسانك ، فأخرجه ، فقال : ويل لهذا من هذا ، يريد: ويل لرأسه من لسانه (٣٦) وكان كما تنبأ ، ويقال: ان ذلك كان مع عمرو بن كلثوم (٣٧) ، مع المسيب بن علس (٣٨) ·

وجاء في الشعر والشعراء(٣٩) ان البيتين التاليين من أوائل شعره :

كـلُّ خليـلٍ كنـتُ خاللتـهُ لا تـركَ اللهُ لـه واضحـهْ
كلهـم أروغُ مـن ثعلـبٍ ما أشبهَ الليلةَ بالبارحـه(٤٠)

والأولى أن يكونا من أواخر ما قاله من الشعر (٤١) ·

ولا غرابة في ذلك، فقد نشأ في بيئة نبغ فيها عدد من الشعراء ـ كما أسلفنا ـ ، وكان أبوه فيما يروون ، شاعراً(٤٢) أيضاً ·

منزلته وأقوال النقاد :

قال ابن قتيبة : طرفة أجودهم طويلة ،وهو القائل :

لخولةَ أطلالٌ ببُرقةِ ثمهدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد(٤٣)

وله بعدها شعر حسن ، وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد الا القليل(٤٤) .
وهو من الشعراء المقلين ، ومع ذلك فانشعره معوّل أصحاب اللغة في الاستشهاد به .
وقال صاحب جمهرة الأشعار : « قال الذين قدموا طرفة بن العبد : هو أشعرهم ، اذ بلغ بحداثة سنه ما بلغ القوم في طول أعمارهم ... فخب معهم وركض »(٤٥) . وقال عند الكلام عن أصحاب السموط : « قال أبوعبيدةوهم : امرؤ القيس وزهير والنابغة ... وطرفة(٤٦) .

وقال الجمحي عند الكلام على الطبقة الرابعة : « وهم أربعة رهط فحول الشعراء، موضعهم مع الأوائل ، وانما أخل بهم قلةشعرهم بأيدي الرواة : طرفة بن العبد ... فأما طرفة فاشعر الناس واحدة ، وهي قوله :

لخولةَ أطلالٌ ببرقة ثمهدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد(٤٧)

ويليها أخرى مثلها :

أصحوتَ اليومَ أم شاقتك هِرْ ومن الحب جنونٌ مستعر(٤٨)

ومن بعد ، له قصائد حسان جياد(٤٩) .ذلك أن ابن سلام ، كان يعتمد في تصنيفه وأحكامه على عنصرين هما : الكثرة والجودة(٥٠) .

وقال الأصمعي عن طرفة : « وانما يعدمن أصحاب الواحدة» (٥١) .
وقال أبو عبيدة : « طرفة أجودهمواحدة، ولا يلحق بالبحور » (٥٢) .

وقال أيضاً : « مر لبيد بمجلس لنهد(٥٣) بالكوفة ، فسألوه : من أشعر العرب ؟ فقال : الملك الضليل .. فقالو ا: ثم من ! فقال:ابن العشرين يعني طرفة .. فقالوا : ثم من ؟فقال صاحب المحجن ، يعني نفسه(٥٤) »

وسئل حسان : « من أشعر الناس فقال:قبيلة أم قصيدة ؟ قيل : كلاهما فقال : أما أشعرهم قبيلة فهذيل ، وأما أشعرهم قصيدةفطرفة »(٥٥) .

وسئل جرير : « من أشعر الناس ؟ قال:ابن العشرين »(٥٦) .

« وكتب الحجاج بن يوسف الى قتيبة بن مسلم يسأله عن أشعر الشعراء في الجاهلية ، وأشعر شعراء وقته ، فقال : أشعر الجاهلية امرؤ القيس ، وأضربهم مثلا طرفة »(٥٧)

وقال الجاحظ : « وما قرأت في الشعر كشعرعبد يغوث بنصلاءة الحارثي ،وطرفةبن العبد ، وهدبة (٥٨) فان شعرهم في الخوفلا يقصر عن شعرهم في الأمن ، وهذا قليل جداً »(٥٩) .

وقال أيضاً : « والذين هجوا ، فوضعوامن قدر من هجوه ، ومدحوا فرفعوا من قدر من مدحوا ، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأفحموهم ، وسكت عنهم بعض من هجاهم، مخافة التعرض لهم، وسكتوا عن بعض من هجاهم رغبة بأنفسهم عن الرد عليهم ، وهم : اسلاميون ••• وفي الجاهلية : زهير وطرفة والأعشى ، والنابغـة، هذا قول أبي عبيدة »(٦٠)

وقال كذلك : « ومن الشعراء من يحكم القريض ، ولا يحسن من الرجز شيئاً ••• وأما من يجمعهما فامرؤ القيس ، وله شيء من الرجز ، وطرفة كمثل ذلك •• » (٦١)

وقال تميم بن مقبل : « طرفة أشعر الناس »(٦٢)

وقال أبو العلاء المعري مخاطباً طرفة : ولو لم يكن لك أثر في العاجلة الا قصيدتك التي على الدال لكنت أبقيت أثرا حسنا »(٦٣)

وقال ابن شرف القيرواني : « وأما طرفة فلو طال عمره لطال شعره ، وعظم في الشعر ذكره ، ولقد خص بأوفر نصيب من الشعر على أنزر نصيب من العمر ، فملأ أرجاء ذلك النصيب بصنوف من الحكمة وأوصاف من علو الهمة ، والطبع معلم حاذق ، والذكاء جواد سابق (٦٤) •

وقال صاحب العمدة : « فمن المقلين في الشعر : طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص • وطرفة أفضل الناس واحدة عند العلماء ، وهي المعلقة ••• وله سواها يسير لأنه قتل صغيرا » (٦٥)

وقال أيضاً : « ويروى عن أبي عبيدة أنه قال : اتفقوا على أن أشعر المقلين في الجاهلية ثلاثة ••• وأما أصحاب الواحدة فطرفة أولهم عند الجمحي ، وهو الحكم الصواب »(٦٦) •

وقال الهمذاني : « طرفة •• أقصر فحول الجاهلية عمرا، وأجودهم طويلة ،وأوصفهم للناقة • وصف الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً وصفاً لم يسبقه اليه أحد ، وتعد معلقته من أجود المعلقات »(٦٧) •

وقال البيهقي : « وأما أهجاهم للرجال، وأبذهم في المقال، وأضربهم للامثال فطرفة»(٦٨)
وفي مفتاح السعادة قال : « وأما الشعراء القدماء ، فأشهرهم عشرة ، نذكر أسماءهم ها هنا : منهم ••• ومنهم طرفة بن العبد •• فضله بعض الشعراء على غيره »(٦٩) •

شعره :

يقول صاحب الروائع :(٧٠) ان للشعر الجاهلي اجمالا ، فوق ما فيه من روعة القدم وطبيعة الوصف ، وجمال السبك ، قيمة تاريخية لا يستهان بها ، فهو صور دقيقة لذلك العصر تتجلى فيها مظاهر عمرانه ، وهو وثائق ثمينة يستند اليها المؤرخون • وان لمعلقة طرفة ، خاصة ، السهم الأوفر من ذلك •

ويقول الخفاجي(٧١) : « أسلوب طرفة قوي ، جزل متين ، يمتاز بالمتانة وأسر اللفظة وفخامة الأسلوب ، وقوة القافية مع سهولتها ،ومعانيه تتصل بنفسه وحياته وقبيلته ،

وبالصحراء والبادية التي عاش فيها ،وبتاريخ قومه وأحسابهم ، وبالحياة العربية عامة اتصالا وثيقاً . وخياله خيال يقظ مشبوب حاد يحلق قريبا من الحياة والواقع » .

ويقول طه حسين(٧٢) « معلقة طرفة تبدو فيها شخصية قوية ، ومذهب في الحياة واضح ... ، وهذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا نحل » .

وقال ابن قتيبة : (٧٣) ومما سبق اليه طرفة ، فأخذ منه ، قوله يذكر السفينة :

يشقُّ حَبابَ الماءِ حيزومُها بهـا ، كما قسَمَ التربَ المفايلُ باليدِ(٧٤)

أخذه لبيد فقال :

تشقُّ خمائـلَ الدّهنـا يـداه كمـا لعب المقامـرُ بالفيـالِ(٧٥)

وأخذه الطِّرمّاح فقال :

وغـدا تشَقُّ يداه أوساطَ الربا قسمَ الفَيالِ تشُقُّ أوسطهُ اليد(٧٦)

ومن ذلك قوله :

ومكـانِ زَعِـلٍ ظلمانُـه كالمخاض الجُربِ في اليومِ الخدِرْ
قـد تبطَّنتُ وتحتـي سُرُحٌ تتقـي الأرضَ بملثـومٍ معِرْ(٧٧)

أخذه عدي بن زيد ولبيد . فقال عدي:

ومكـانِ زَعِـلٍ ظلمانُـه كرجـالِ الحُبشِ تمشي بالعمدْ
قـد تبطَّنتُ وتحتي جسـرةٌ عُبرَ أسفارٍ كمخراقٍ وحدْ(٧٨)

وقال لبيـد :

ومكـانِ زَعِـلٍ ظلمانُـه كحزيـقِ الحبشيّـينَ الزُجَلْ(٧٩)
قـد تبطَّنتُ وتحتـي جسـرةٌ حـرَجٌ في مرفقيهـا كالفتـلْ

ومن ذلك قوله :(٨٠)

فلولا ثـلاثٌ هنَّ مـن عيشة الفتى وجـدّكَ لم أحفِل متى قام عُوّدي
فمنهـنَّ سبقـي العاذلات بشربـةٍ كميتٍ متى ماتُعلَ بالماء تُزبـدِ
وكرّي اذا نادى المُضافُ محنّبـاً كسيـدِ الغضى ، نبهتُـه ، المتوردِ
وتقصيرِيومِ الدجنِ والدجنُ معجِبٌ ببهكنـةٍ تحتَ الخبـاءِ المعمَّـدِ

أخذه عبدالله بن نهيك بن اساف الأنصاري ، فقال :

فلولا ثلاثٌ هـنَّ مـن عيشة الفتى وجـدّكَ لم أحفلْ متى قام رامسُ
فمنهـنَّ سبقي العـاذلات بشَربـةٍ كأن أخاهـا مطلعُ الشمسِ ناعسُ
ومنهـنَّ تجريدُ الكواعبَ كالدّمى اذا ابتزعـن أكفالهـنَّ الملابـسُ
ومنهـنَّ تقريطُ الجـوادِ عِنانَـهُ اذااستبقَ الشخصَ الخفيَّ الفوارسُ

ومن ذلك قوله :

فطوراً بــه خلفَ الزميــلِ وتارةً　　على حشفٍ كالشَّنِّ ذاوٍ مجددِ(٨١)

أخذه الشَّماخ فقال :

تلـط بــه الحاذيــنِ طوراً وتــارةً　　له خلف أثواب الرديف بروق(٨٢)

ويعقد محقــق ديوان الراعي النميري مقارنة بينه وبين الراعي فيقول : كذلك نرى بين الراعي وطرفة شبهاً قوياً ٠

١ ــ فكلاهما نشأ بالبادية ٠
٢ ــ وكلاهما شاعر الابل ، واشتهر بذلك في عصره ٠
٣ ــ وكانت في كليهما أنفــة وعزة أغضبت عمرو بن هند كما أغضبت عبدالملك من الراعي فلما غضب طرفة منعمرو بن هند قال :

فليــت لنــا مكان الملــك عمــرو　　رغوثــاً حــول قبتنــا تخــور(٨٣)

ولما غضب الراعي من عبد الملك قال :

فلئــن ســلمتُ لأدعــونَّ بطعنــةٍ　　تــدع الفرائــص بالشريف فليــلا

٤ ــ وكلاهما يفرج همــه بناقته ، استمع الى طرفة يقول :

واني لأمضي الهم عنــد احتضــاره　　بعوجاءَ مرقالٍ تروحُ وتغتدي(٨٤)

والى الراعي يقول :

أخُليدُ ان أبــاك ضــاف وســادَهُ　　همــان بــاتــا جنبــةً ودخيــلا
طرقــا فتلك همَاهــمٌ أقريهمــا　　قُلُصاً لَوَاقحَ ، كالقسيِّ وحولا(٨٥)

ثم أخذ يصف كل منهما ناقته وصفاًدقيقاًمحكماً ينبيء عن كرمها ونجابتها وسرعتها ٠
لا عجب اذاً أن يكون طرفة أستاذا للراعي ، وبخاصة في وصف الناقة حتى عرف كل منهما بذلك (٨٦) ٠

وفضل النقاد العرب طرفة على سائر الشعراء باجادته وصف الناقة في معلقته على نحولم يسبق اليه(٨٧)،فقدوصفها وصفاًشعرياً(٨٨)يوهمك لأول وهلة أنه يصف حبيبته، ويمضي في وصفه الدقيق لكل عضو من أعضائها حتىذيلها وقلبهــا(٨٩) ، لكنــه قصَّــر في صفــة الخيل (٩٠) ٠

وهو أول من ذم سرقة الأشعار فقال :

ولا أغــيرُ على الأشعــار أسرقهــا ،　　عنها غنيتُ ، وشرُّ الناسِ من سرقا(٩١)

وأول من طرد الخيال فقال :

فقــل لخيــال الحنظليــةِ ينقلــبْ　　اليها ، فاني واصلٌ حبل من وصل(٩٢)

وقال [بعده] جرير :

طرقتكَ صائـدة القلوب وليس ذا وقتَ الزيارة فارجعـي بسلامِ(٩٣)

ومما سبق اليه قوله :

ستبدي لـك الأيام ما كنتَ جاهـلا ويأتيك بالأخبار مـن لم تزود(٩٤)

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أنشد هذا البيت : « هو من كلام النبوة»(٩٥) وكان « اذا استراث الخبر يتمثل بعجز هـذا البيت »(٩٦) ، وكان ابن عباس يقول :« انه كلام نبي يجمع الحكمة والمثل » ·

ويقال ان أمير شعره(٩٧) قوله :

قـد يبعـث الأمـر الكبـير صغيـرهُ حتى تظـل لـه الدمـاء تصبب(٩٨)

ومن أبياته المستجادة :

أرى قبـر نحّـام بَخيـلٍ بمالـه كقبـرِ غـوي في البطالـة مفسـد
أرى الموت يعتامُ الكرامَ ويصطفي عقيلةَ مـال الفـاحش المتشـددَ
أرى الدهـر كنزاً ناقصاً كل ليلـةً وما تنقص الأيام والدهـرُ ينفد
لعمركَ ان الموت ما أخطـأ الفتـى لكالطّول المرخى وثنياه باليـد (٩٩)

ويتمثل من شعره بقوله :

وتردُ عنـك مخيلة الرجل العـريض موضحـة عـن العظـم
بحسام سيفكَ أو لسانكَ والـكلم الأصيل كأرغبِ الكلم (١٠٠)

وبقولـه :

لنـا يـومٌ وللكـروان يـوم تطـير البائسـات ولا يطـير(١٠١)

وقولـه :

ولا غـرو الا جارتـي وسؤالهـا ألا هل لنا أهل ؟ سئلتِ كذلك(١٠٢)

وقولـه :

واعلـم علمـاً ليس بالظن انـه اذا ذلَّ مولى المرء فهـو ذليلُ(١٠٣)

وقولـه :

أبا منـذرٍ أفنيـت فاستبق بعضنـا حنانيك، بعض الشرِّ أهون من بعض(١٠٤)

ومن قوله يفخر :

نحـن في المشتاة ندعـو الجفلـى لا ترى الآدب فينـا ينتقـر(١٠٥)

هذا ولو أردنا سرد ما اختير له لطال بنا المقام وللأنا الصفحات ·

وهكذا كانت حياة طرفة ، على قصرها، غنية تنبىء عن شخصيته ونفسيته بوضوح ، وصدق ، واخلاص ·

الحواشـــــي :

١ ـ ذكر الجاحظ في البيان والتبيين الألقاب العامة عندالعرب، فقال : « والشعراء عندهم اربع طبقات ، فاولهم الفحل الخنذيذ ، والخنذيذ هو التام • قال الأصمعي : قال رؤبة : الفحولة هم الرواة • ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع اشعرور » (٦/٢) •

٢ ـ راجع نسب الشاعر الكامل في الصحيفة السابقة للمعلقة من ديوانه بتحقيقنا (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق) وكل احالة الى الديوان والقصائد والأبيات في هذا المقال نعني بها ذلك الديوان •

٣ ـ المحيط (طرف) • ويقول أيضاً : « وفي الشعراء : طرفة الخزيمي من بني خزيمة بن رواحة ، وطرفة العامري وطرفة بن الآءة •• وطرفة بن عرفجة الصحابي ، أصيب أنفه يوم الكلاب فاتخذها من ورق فانتن ، فرخص له في « الذهب » ، ونحو هذا في المؤتلف والمختلف ص ٢١٦ ، وهذا البيت هو البيت رقم ١ في القصيدة رقم ٦٨ من الديوان •

٤ ـ شرح ديوان أبي تمام للتبريزي ٤١٢/١ ـ ٤١٣ •

٥ ـ المزهر ٤٢٤/٢ ، معجم الشعراء ص ٥ •

٦ ـ معجم الشعراء ص ٥ ، كنى الأشعار ص ٢٨٨ •

٧ ـ المختار من شعر بشار ص ٧٣ •

٨ ـ معجم الشعراء ص ٥٥

٩ ـ جمهرة اشعار العرب ٩٨/١ •

١٠ـ ابن الانباري في شرح القصائد السبع الطوال ص ١٧٨

١١ـ بلوغ الأدب ١٣٩/١

١٢ـ معجم الشعراء ص ٥ • وآدم : من اشتدت سمرته ،والمؤنث أدماء • او قص : قصير العنق وهي وقصاء • افرع ، الذي غزر شعره ، وهي فرعاء • اكشف : الذي انحسر مقدم رأسه • ازور الصدر : من اعوج صدره (او) أشرف أحد جانبي صدره على الآخر ، وهي زوراء • متائل الخلق: عظيم الخلق •

١٣ ـ القصيدة ٨ •

١٤ـ القصيدة ٩ •

١٥ ـ القصيدة ١١ •

١٦ـ المحاسن والمساوىء ٤١٨/١ ، وبهجة المجالس ص ١٢٠ ، ونحوه في زهر الآداب ص ٥١٥ والبيان والتبيين ١٧٨/٢ وعيون الأخبار ٢٥٩/١ •

١٧ـ المعلقة ١ •

١٨ ـ القصيدة ٧ •

١٩ـ القصيدة ٦ •

٢٠ـ القصيدة ٩ •

٢١ـ ابن الانباري في شرح القصائد السبع الطوال ص ١١٥ ـ ١١٦ •

٢٢ـ الشعر والشعراء • ١٨٨/١ •• وجمهرة اشعار العرب ١٠٣/١ ، والقصيدة ٩٩ •

٢٣ـ ابن الانباري في شرح القصائد السبع الطوال ١١٧ •

٢٤ـ لصحيفة المتلمس مثال في تاريخ قدماء اليونان راجع بلوغ الأرب ٣٧٥/٣ •

٢٥ـ القصيدة ١٠٠ •

٢٦ـ القصيدة ٥٧ •

٢٧ـ راجع قصة مقتله في ذيل القصيدة ٩ من الديوان ،وابن الانباري في شرح القصائد السبع الطوال ص ١١٥ •••• الشعر والشعراء ١٧٩/١ •• الفاخر ٧٤ •• جمهرةاشعار العرب ٩٥/١ •• الميداني في مجمع الأمثال (صحيفة المتلمس) الأغاني ٥٤٠/٣ ••• أسماء المغتالين منسلسلة نوادر المخطوطات ٢١٢ •• خزانة الأدب ٤١٤/١ ••• معاهد التنصيص ٣١٢/٢ ••• حياة الحيوان ٢٤٠/٢ •• امالي المرتضى ١٨٣/١ •• نهاية الأرب ١٣/٣ •••• عقلاء المجانين ٣٣ ••• سرح العيون ٣٩٧ ••• الفتح الوهبي ٢٢٨/١ •• سمط اللالي ٣٠١/١ ••• روضة الأدب ١٨٦ ••• زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ١٢٦/١ ••• شرح شواهد المغني ٢٩٤/١ •• جواد علي في تاريخ العرب قبل الاسلام ٢٤٢/٣ ••• وغيرها كثير •

٢٨ـ ابن الانباري في شرح القصائد السبع الطوال ١٢٨ •

٢٩ـ راجع ذيل القصيدة ٩ من الديوان •

٣٠ـ جمهرة أشعار العرب ١٠٤/١ •

٣١ـ المصدر نفسه •

٣٢ـ ابن الانباري في شرح القصائد السبع الطوال ص ١٢٨ • وجمهرة أشعار العرب ١٩٩/١ •

٣٣ـ المقطوعة ٤٦ •

٣٤ـ الفاخر ص ١٨٠ وخزانة الأدب ٤١٧/١ وانظر تخريجها في الديوان •

٣٥ـ المقطوعة ١١ •

٣٦ـ الشعر والشعراء ١٨٣/١ •

٣٧ـ جمهرة أشعار العرب ٩١/١ـ٩٢ •

٣٨ـ اللسان (نوق) • ووردت هذه القصة أيضا في الموشح ص ١١٠ وسر الفصاحة ص ٢٤٩ ، وفي مصادر مختلفة اخرى ، انظر التخريج في الديوان •

٣٩ـ ١/١٩٤ •

٤٠ـ البيتان ٢ ، ٣ من المقطوعة / ١٤ •

٤١ـ الخفاجي أشعار الشعراء الستة الجاهليين ٢/١٨ هـ •

٤٢ـ حمدالله في تحقيق المعلقات السبع للزوزني وشرحهاص١٣٠

٤٣ـ المعلقة ١/١ الرقم الأول يدل على رقم البيت ،والثاني على رقم القصيدة ، وكذلك الأمر في كل ما سيرد من أبيات •

٤٤ـ الشعر والشعراء ١/١٨٥ •

٤٥ـ ١/٩٤ •

٤٦ـ ١/١٠٥ •

٤٧ـ المعلقة ١/١ •

٤٨ـ ١/٢ •

٤٩ـ طبقات الشعراء ص ١١٥ •

٥٠ـ الراعي النميري ص ٢٠٦ •

٥١ـ فحولة الشعراء ص ٥٩ •

٥٢ـ الشعر والشعراء ١/١٩٠ •

٥٣ـ من قضاعة •

٥٤ـ الشعر والشعراء ١/١٨٩ ـ ١٩٠ وجمهرة أشعار العرب ١/٤٢ وشروح سقط الزند ١/٤٦٠

٥٥ـ شرح شواهد المغني ٢/٨٠٥ •

٥٦ـ الأمالي للقالي ٢/١٧٩ •

٥٧ـ المزهر ٢/٤٨١ •

٥٨ـ أي هدبة العذري •

٥٩ـ الحيوان ٧/١٥٧ • ونحوه في البيان والتبيين ٢/٢٦٨ •

٦٠ـ البيان والتبيين ٤/٨٣ •

٦١ـ المصدر نفسه ٤/٨٤ •

٦٢ـ جمهرة أشعار العرب ١/١٠٥ •

٦٣ـ رسالة الغفران ص ٢٥٤ •

٦٤ـ اعلام الكلام ص ١٦ • ومثله في الذخيرة ١/١٥٦ورسائل البلغاء ص ٣١٥ •

٦٥ـ ١/٨٤ •

٦٦ـ ١/٨٦ •

٦٧ـ المقامات ص ٢٥١ ـ ٢٥٤ •

٦٨ـ المحاسن والمساوىء ٢/١٦٦ •

٦٩ـ ١/٢٥٠ •

٧٠ـ الروائع ٢١٣ •

٧١ـ أشعار الشعراء الستة الجاهليين ٢/٢٧ •

٧٢ـ الأدب الجاهلي ص ٢٨٧ •

٧٣ـ الشعر والشعراء ١/١٩٠ •

٧٤ ـ ١/٥ •

٧٥ـ ديوانه ص ٨٠ وفيه » بالفيال » بكسر الفاء •

٧٦ـ ديوانه ص ١٥٠ وفيه « الربى » ••• القتال تقد •• ،

٧٧ـ ٢٩ ، ٢/٣٠ •

٧٨ـ ديوانه ص ٤٣ وفيه : ومجود زءل •• الحبش تردى•» ٤٤ « ••• تخلط المشي تمادي كالفرد » •

٧٩ـ ديوانه ص ١٧٤ وفيه « ورفاق عصَب •• » و ١٧٥ « •• تجاوزت •• » •

٨٠ـ ٥٦ ـ ١/٥٩ •

٨١ـ ١/١٧ •

٨٢ـ ديوان الشماخ للشنقيطي ٦٤ • تلط به : تلصقه بين فخذيها • والحاذان : تنية حاذ ، وهو ما وقع عليه الذنب من ادبار الفخذين • والرديف : الراكب خلفالراكب • وبروق : لمعان •

٨٣ـ ١/٩ •

٨٤ـ ١/١١

٨٥ـ ضاف : نزل • أي بات أحد الهمين جنبه وبات الآخرداخل جوفه • والهماهم : الهموم • والحول : غير الحوامل • (راجع جمهرة اشعار العرب ٢/٩١٣) •

٨٦ـ الراعي النميري ص ٦١ •

٨٧ـ بروكلمان ١/٩٢ •

٨٨ـ الرافعي في تاريخ ادب العرب ٢/٢٤٢ •

٨٩ـ مصادر الدراسة الأدبية ص ٢٥ •

٩٠ـ الرافعي ٣/٢٤٢ •

٩١ـ معاهد التنصيص ٤/٧ وهو البيت ١/٦٣ •

٩٢ـ ١٠/٦ •

٩٣ـ الشعر والشعراء ١/١٩٦ •

٩٤ـ ١/١٠٢ •

٩٥ـ رجال المعلقات ص ١١٦

٩٦ـ معجم الشعراء ص ٦ تخريج الحديث « البخاري ٦/٣١، ١٤٦ » انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ٢/٣٢٣ •

٩٧ـ خاص الخاص ص ٩٧ •

٩٨ـ ٢/١١ •

٩٩ـ ٦٣ ، ٦٥ ـ ١/٦٧ •

١٠٠ـ ٥ ، ٦/٧ •

١٠١ـ ٦/٩ •

١٠٢ـ ٤/٥ •

١٠٣ـ ١٣/٤ •

١٠٤ـ ٤٦/٦٢ •

١٠٥ـ ٤٦/٢

مجمع اللغة العربية في رحلته مع التراث

نزار أباظة

الحديث عن التراث وأخباره حديث شائق ذو شجون ، خصوصاً ان كان من خلال مؤسسة عريقة كمجمع اللغة العربية الذي دأب منذ تأسيسه عام ١٩١٩ على رعاية اللغة العربية والحفاظ عليها فكانت له وظائف جلى أهمها ربط حاضر الأمة بغابرها من خلال وضع المصطلحات العربية لألفاظ الحضارة الحديثة وتصحيح الأخطاء الشائعة على الألسن • وأسبقية مجمع دمشق من بين المجامع العربية معروفة في هذا المجال غنية عن التعريف ، سارع منذ قيام الدولة العربية في دمشق بعد انسحاب الأتراك الى تعريب ما تحتاج الأمة الى تعريبه في المجالات كلها فاضطلع بالمهمة على أحسن وجه •

ورأى من أولى مهامه رعاية كتب السلف واخراجها من الظلمات الى النور اخراجاً يعتز به كل باحث ويحرص عليه كل دارس ويتلهف اليه ذوو العلم والفضل الذين لا يزالون يتصلون بالمجمع من الشرق والغرب يتتبعون أعماله ويقتنون كتبه وانتاجاته التي تربو يوماً بعد يوم •

وتراثنا العظيم الذي حفظت الأيام أقساماً منه قد تكون ضئيلة بالنسبة لحقيقته وحجمه ونوعه وبالنسبة لعظمة حضارتنا وأصالتها يحتاج الى عناية فائقة وأياد خبيرة ذات دربة، فانه لا يقتدر على التعامل معه كل من أحب ولا كل من رغب •• ومن كالمجمع في هذا المضمار ؟ انه جمع فأوعى ، حفظ الأمانة وقام بالواجب المنوط به خير قيام وحقق الآمال المتعلقة به أحسن تحقيق •

وليس الكتاب الذي يطرحه المجمع بين الأيدي الا ثمرة جهود طويلة متصلة لا تهدأ ونتيجة تعب مستمر لا يتوقف وخبرة أتى عليها حين من الدهر قد استحكم نابها واشتد عودها وقوي ساعدها •• فالمجمع لا يرضى عن الكتاب الذي ينشره الا بعد تمحيص وتحقيق ولا يعجبه أن يمهره بخاتمه وشعاره الا بعد لأي ومناقشة ، مناقشة علمية مجمعية ، فكان من الطبيعي أن تخصص من بين اللجان العديدة

لجنة للتراث عرفت باسم (لجنة المخطوطات واحياء التراث وهي ذات صلة وشيجة بلجنة أخرى قد تكون متممة لها هي (لجنة المطبوعات) ·

تتلقف لجنة المخطوطات واحياء التراث ما يحال اليها من كتب محققة محلية يسعى بها أصحابها أو وافدة مع البريد من المشرق والمغرب · ومن خلال اجتماعات اللجنة يناقش الكتاب مناقشة متأنية ذات خط ومنهج فيقبل أو يرفض ·· وقد يطلب من المحقق صورة عن أصل الكتاب المخطوط وقد يفرض عليه أن يعدل قسماً أو يستكمل شيئاً أو يطيل في مقدمته أو يختصرمنها بحسب المقال ولكل مقام مقال·

والفكرة التي تستحوذ على القائمين بأمر المجمع عموماً ، وعلى لجنة المخطوطات واحياء التراث خصوصاً نقاوة العمل وجزالته وموافقته للروح المجمعية وللطريق الذي يسلكه المجمع كما أشرت آنفاً ، وليس يضر بهذا أنه كان وراء بعض ما قبلته اللجنة رغبة في فتح الطريق أمام جيل جديد من المحققين ربما يكون له روح مختلفة ونسغ جديد ·

نعرض فيما يأتي بعض ما أنتجه المجمع اذ لايسعنا في مقال واحد أن نستوعب أعمالا جليلة تمت خلال سنين طويلة وانما هي صورة حديثة قد تعطي فكرة مجملة ·

أول ما يمكن أن نتناوله بالحديث عن الانتاجات التراثية المجمعية هو تاريخ مدينة دمشق(١) للحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر ، ذلك التاريخ الذي دأب المجمع على تحقيقه واخراجه منذ سنوات فأصدر أجزاء منه هي المجلدة الأولى وتتحدث عن فضائل دمشق وأصل اشتقاق تسمية الشام وتاريخ بناء هذه المدينة التاريخية ومعرفة من بناها والأحاديث الواردة فيها وأخبار ملوكها قبل الاسلام والسرايا التي أرسلها النبي ﷺ الى هاتيك النواحي ثم صدر القسم الأول من المجلدة الثانية ويضم خطط دمشق فيصف مسجدها الجامع ومساجدها الأخرى وأبوابها وقلعتها ومدارسها وميادينها وأسواقها وحماماتها وأنهارها وقنيها وطواحينها وبساتينها وكنائسها وأديرتها والقرى من حولها ·

وقفز الكتاب مرة واحدة فخرج للناس منه المجلدة العاشرة التي تضم التراجم المبدوءة بحرف الباء والتاء والثاء ، ثم قفز قفزة أخرى فطلع علينا جزء يضم تراجم حرف العين المتلوة بالألف (عاصم – عايذ) وجزء مصور من النسخة المخطوطة يضم التراجم التي بين عبدالله بن عمران وعبدالله بن قيس الأشعري· وها هو ذا المجمع قد دفع للمطبعة جزأين يضمان تراجم العبادلة ·

كما أنه لا يزال بصدد السعي الدؤوب والعمل الجاد في سبيل استكمال هذه الموسوعة التاريخية العظيمة التي تمتد في المكان امتداد بلاد الشام من أقصى شمالها الى أقصى جنوبها، ثم تجاوز ذلك لتكون على امتداد الوطن الاسلامي والثقافة الاسلامية · وهي تنفسح اتساعاً في الزمان لتلمس أطرافاً من تاريخ الجاهلية ، وتمضي لتكون تاريخاً للسيرة النبوية ، والعصر الراشدي والأموي والعباسي والدويلات التي استقلت فيما بعد حتى وفاة ابن عساكر في أواخر القرن السادس الهجري سنة ٥٧١ هـ ·

وهي موسوعة تفهم التاريخ فهماً عميقاً فلا تقف عند الأحداث والوقائع وحدها بل تتناول

١ – انظر مقدمات الأجزاء التي اخرجها المجمع · وانظر ايضاً الكتابين اللذين اصدرتهما وزارة التعليم العالي بمناسبة مهرجان ابن عساكر سنة ١٩٧٩ ·

روح التاريخ حينما تقدم المادة الأولية الغنية لرصد الحركة الحضارية ديناً وشريعةوثقافة وفكراً .

هـذا مـا دفع المجمع فتبنى نشـر ذلـك التاريخ العظيم الذي يعد بحق كنزاً منكنوز التراث نظر المجمعيون من خلاله الى تجديـد كتابة التاريـخ العربي والاسلامي . ونحـن نتلهف أن يمضي أولو الأمر قدماً بسعيحثيث لاستكمال هذه الموسوعة ، وأن يستردفواللعمل لفيفاً من الباحثين الخلّص ليذللوا الصعوبات التي تعترض في الطريق ، طريـق كل غايـة عظيمة وكيف لا يكون كذلك وأصل الكتـاب المخطـوط يقع في ٨٠٠ جـزء وكل عشـرة أجزاء تؤلف مجلدة واحدة فهو اذن في ثمانين مجلدة ضخمة ، أفليسهو عملا تنوء بهالعصبة أولو القوة من أصحاب الهمم الكبيرة فضلاعن أن الكتاب لايقاس بالصفحات بمقدارمايحسب بالمضمون وبالمادة الغنية الصادرة عن رجـل ملىء علماً وعبقرية مثلالحافظ ابن عساكر.

ولقد اعتمد المشرفون على تحقيق تاريخ مدينة دمشق أصولا مخطوطة فيها ما فيها من صعوبة ومشقة ، اذ لم يكن بين الأصول أصل واحد كامل ، وانمـا تحصل لهـم نسخ ناقصة وأجزاء شتى .

أقدمهذ هالنسخ مخطوطة الأزهرالشريف التي أنزلت من بين الأصول منزلة الأم ذلـك أنها بخط ابن المؤلف القاسم بن علي العالم الحافظ الذي أخرج للناس كتاب أبيهمضبوطاً مجودا . ثم نسخة بخط الحافظ البرزاليوهي مضطربة الأوراق .

وبحث المجمع عن أجزاء الكتاب فيمكتبات العالم فكان أن تحصّل لديه نسخة من المغرب ونسخة من مكتبـة أحمد الثالث في استانبول وأجزاء متفرقة مـن تونس والهنـد ولنـدن وكامبردج وغيرها . هذا بالاضافة الى نسختين دار الكتب الوطنية الظاهرية الأولى مـن وقف سليمان باشا العظم وهي أوسع من الثانيةوأقل نقصاً ، والثانية من وقف أسعد باشا علـى مدرسة والده اسماعيل باشا بالخياطين بدمشق وهي مأخوذة فيما يبدو من الأولى وفرع عنها.

طرح بعض أولي الرأي أن يطبع الأصـل المخطوط طباعة تصويرية مشفوعة بمقدمات مناسبة متلوة بملاحظات ملائمة تفيدالدارسين وتنفعهم نفعاً مختلفاً على قدر رسوخ أقدامهم في البحث والعلم والدراية ، وربمـا كان هذا السببفي أن أصدر المجمع الجزء المصور الذي سأتحدث عنه بعد وعن مصورات المجمع . أما طريقة التحقيـق وأسلوبه فندعهـا قائلين انه قد أعطيت القوس باريها ..

★ ★ ★

ولئنكان أمرابنعساكرقد ملأالمجمعوشغل المجمعيين فانه زهرة وانتكن فريدة فيالبستان الرحيب ففيـه الكثير سواهـا والعديد غيرها متشابهاً وغيرمتشابه يفوحشذاه عابقاًويتضوع عرفه فواحاً . انه لا بد من وقفة قصيرة تلقي نظرة متأملة على ذلك البستان النضير .

ولنبدأ بكتاب (المعاصرون) الذيصدر في السنة الفائتة للاستاذ الرئيس محمد كرد علي ، ذلك الرجـل الـذي لا يزال فضلـه متجسـداً حيـاً مـن خـلال حيـاة المجمـع وأعمالـه .. خلـف الأستاذ الكبير كتابـه « المعـاصـرون » جـزازات متنـاثـرة(٢) بقيت عند أسرته ولما يفرغ بعد مـن تنقيحها وتحريرها حينما ألم به داعي المنون فلحقبربه مغفورا له ، ولكنها وان كانت تحتاج الىتنظيم وترتيب انها كحبات اللؤلؤ الثمينة لا ينقصها سوى ناظم .

٢ ـ انظر مقدمة الكتاب .

ترجم الأستاذ كرد علي في كتابه المعاصرون لطائفة ممن اتصلت أسبابه بأسبابهم من علماء البلاد العربية وأدبائها ومن المستشرقين، كان منهم من ربطته بهم صداقة راسخة وآخرون لقيهم خلال المؤتمرات والندوات العلمية وطائفة واصلهم عن طريق المراسلات والمكاتبات •

والكتاب غنم عظيم للمهتمين بتاريخ النهضة العربية وأعلامها خصوصاً أن التراجم فيه تنساب من تحت قلم سيال يمج مع المداد مددا من العذوبة والبلاغة والصدق والأمانة، يعطي الرجال حقوقهم وينزلهم منازلهم ويقول فيهم ما يقول بصراحة غير ممجوجة ويمدح من يستحق المدح ببيان لا يشوبه التكلف ولا التعمل حتى ليغنيك في سطور معدودة عن كلام طويل •• يعطي فكرة عن أهم النقاط في حياة صاحب الترجمة ويتحدث عن صفاته الخلقية وعن انتاجه العلمي واهتماماته ثم يعرّج ــ ان كان شاعراً ــ على شاعريته فيرى فيها رأيه وينتقي من شعره ، وهو بهذا موفق الاختيار يورد كل طريف •• فاذا به يشد القارىء اليه فيترنم معه ويطرب حتى جاء الكتاب نزهة أدبية يتسلى به الى جانب الفائدة العلمية من أراد حين يسأم من متاعب يومه فيقضي مع الأستاذ الرئيس أوقاتاً ممتعة لطيفة •

وكتاب المعاصرون يذكرنا بكتاب شبيه له كان قد أخرجه المؤلف سنة ١٩٥٠ وهو كنوز الأجداد سار فيه على الخطة نفسها من حيث الترجمة والمنهج ، الا أن كنوز الأجداد تناول أعلاماً غابرين وعلماء سابقين كابن قتيبة والجاحظ والحريري والاصبهاني في حين يصور الكتاب الأول مؤلفه وسط ثلة من أصحابه وأصدقائه ونظرائه •

على أن لـ «المعاصرون» ميزة هي الطراوة في التركيب والطلاوة في الأسلوب كأن صاحبه يتحدث اليك وقد وضع التكلف فجاء نفسه بسيطاً ولكن بساطته بساطة الأديب الذي استحكم أدبه فكان ملء نفسه • وليس معنى هذا أننا ننفي لكنوز الأجداد تلك الحلاوة وهاتيك الطلاوة ، كلا بل انه يمتح فيه عن أسلوب آخر وعبارات أخرى وتراكيب تفرضها عليه تلك الشخصيات الخالدة •

★ ★ ★

ومن الكتب التراثية اللطيفة التي أصدرها المجمع حديثاً كتاب القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لمحمد بن طولون الصالحي حققه العلامة الشيخ أحمد محمد دهمان ، وهو كما يشير اسمه يختص بصالحية دمشق فيتحدث عن بدء انشائها بعد سنة ٥٥٠ هجرية على أيدي المهاجرين الصالحين(٣) الذين فروا من ظلم الافرنج في فلسطين واستوطنوا سفوح قاسيون فعمروه وأسسوه على التقوى والعلم من أول يوم نزلوا • واستفاض حديث ابن طولون فوصف الصالحية وصفاً دقيقاً ذاكرا أنهارها وطبيعتها ، مساجدها ومدارسها ، أوقافها وجراياتها ، زواياها وتربها بساتينها ومنتوجاتها ولم يدع شيئاً يتصل بالصالحية من قريب أو بعيد الا وذكره على أحسن وجه• ثم عرّج على علمائها فترجم لهم واحداً واحداً حتى أولئك الذين زاروا الصالحية في أيام معدودات وعبروا بها • وختم عمله ذاك بذكر أربعين حديثاً مسلسلة برواية علماء الصالحية الذين اشتهروا كثيراً بعلم الحديث وبرعوا فيه وأتقنوه مشايخ وشيخات •

تصدرت الكتاب مقدمة مطولة عن قاسيون ومكانته المقدسة وشرفه في الأمكنة وعن أولئك

---

٣ ــ انظر مقدمة الكتاب •

المهاجرين الصالحين ومعاناتهم في سبيل الحق والخير والعلم، وختم بفهارس مفصلة وافية.

★ ★ ★

وقبل القلائد طبع المجمع (تاريخ أبي زرعة) وهو سفر عظيم في التاريخ الاسلامي يقع في ١٠٩٦ صفحة وتأتي أهميته في أنه أحد المصادر المهمة في التاريخ(٤) والرجال فضلا عن أنه من أهم مصادر الحافظ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق. صاحب المصنف عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله النصري أبو زرعة الدمشقي المتوفى سنة ٢٨١ هجرية، وهو من كبار العلماء المدققين. بدأ كتابه بذكر ما يتعلق بسيرة النبي ﷺ وتطرق الى نسبه العريق وصفاته الكريمة ثم بذكر أزواجه وعددهن والخلاف في ذلك مع بعض أخبارهن وانتقل الى سير الخلفاء الراشدين من بعده حتى اذا أتي الى عصر بني أمية قدم لنا قائمة كاملة بأسماء الخلفاء وتواريخ خلافة كل منهم ومقدارها دون تفصيل الا أنه توقف قليلا عند عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه. ثم قدم قائمة أخرى كاملة بأسماء الخلفاء العباسيين تنتهي بهارون الرشيد المتوفى سنة ١٩٣ هـ وهي مقتضبة وأكثر ايجازا من التي قبلها، لا تتعدى ذكر اسم الخليفة وتاريخ خلافته ومدتها. ويبدو أن أبا زرعة يحب القوائم فهو يسلسل قائمة جديدة بقضاة مدينة دمشق منذ الفتح حتى نهاية القرن الثاني الهجري ويلحق بها قائمتين لقضاة فلسطين ولقضاة مرو وهما ناقصتان.

وهناك قوائم أخرى بأسماء الصحابة النقباء الأنصار وبأسماء الأعلام المعروفين بالكنى وبالعكس. وينتقل أبو زرعة الى أخبار الصحابي عبدالله بن بسر المازني ثم يتحدث عن الوقائع التي جرت في الشام زمن خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويبين من توفي بالشام من الصحابة في ذلك الوقت ومن التابعين وتابعي التابعين مع ذكر وفيات بعض شيوخه.

في الكتاب معلومات حضارية قيمة ونصوص فريدة في مختلف الشؤون، ألا انها متناثرة في صفحات الكتاب لا يجمعها رابط، كذكره بعض الوظائف في القرن الهجري الأول ولباس كثير من العلماء وأصول الرواية وعلاقة العلماء ببعضهم وغير ذلك. فهو كتاب قيم كما نرى يعتد به وتأتي أهميته من أنه يحوي معلومات فريدة في القرنين الأول والثاني الهجريين توضح بعض النواحي عن الحياة الثقافية والاجتماعية والادارية آنذاك بالاضافة الى ما ذكرنا ومع أن ما اورد في تاريخ أبي زرعة قد ورد في كتب أخرى الا أن هذا التاريخ مصدر موثوق فضلا عن أن تكرار هذه المعلومات يرفع من قيمتها لأنها تصبح بمنزلة الأخبار المتواترة التي يمكن القطع بصحتها.

ويمثل هذا التاريخ الأثر المهم الوحيد الباقي من آثار أبي زرعة الدمشقي، يحمل معلومات كثيرة تتعلق بمؤلفه وبعلماء الشام الذين أسهموا أيما اسهام في الحركة العلمية وخاصة في مجالات الحديث وعلم الرجال فليس بدعاً بعد هذا أن ينقل عنه علماء كثيرون ويقتبسوا من نوره. ويضم تاريخ أبي زرعة مجموعة كبيرة من الأسانيد تتجاوز خمسين ومائتين وألفي سند ولأول مرة يجتمع عندنا مثل هذا العدد من أسانيد الشاميين، ودراسة هذه الأسانيد تبين مكثري الروايات من مقليها وتدلنا على كبار العلماء والمحدثين والرواة من صغارهم.

★ ★ ★

٤ ـ انظر مقدمة الكتاب.

مـــن الكتـــب المهمـــة التي تـؤثــر للمجمـــع كتــــاب (شـــرح مـــا يقـــع فيه التصحيف والتحريف) لأبي أحمد الحسن ابن عبدالله العســكري ، يدرك المتأمل فيـــه والمتصفح له أنه عمل امتلأ علماً وظرف حشي ظرفاً ، يجمـــع الى ضخامـــة الموضوع وفـــرة الشواهد ٠

صدر القسم الأول من هذا الكتاب ويضم في الأبواب الثلاثة الأولى(٥) منه كلاماً في قبـــح التصحيف وبشاعتـــه ونكده ومـــن ابتلي بـــه ونوادر من التصحيف أضحكت من قائليها ثـــم يقسم العلماء المشهورين الى طائفتين ، بصرية وكوفية ويذكر أوهام كل عالم باسمه وما وقع فيه من أغلاط ٠ ثم يتعرض لطائفة ثالثة تضم أقواماً شتى ٠ وبعد ذلك يستعرض ما يمكن أن يصحـــف لشعراء معينـــين كامرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى وغيرهم مما جـــاء في كتاب الحماسة ٠ حتى اذا استوفى هذا تناول ما يمكن أن يشكل مـــن أيام العرب وأسمـــاء الفرسان والأنساب والأماكن وغير ذلك ٠

حفلت مقدمة المحقق بأشياء كثيرة أولهـــا ترجمة للمؤلف أبي أحمد العسكري مع ذكر لمؤلفاته التي بلغت اثني عشر مؤلفاً ،وبعدها جرى الحديث عن تقسيم الناس الى طبقـــات ثلاث : الجهلة والعوام والخواص ، ولما بسط الكلام رأى أن الجهلة لا تستحق أية عناية أو محاولة للاصلاح فان العلم كفيل بالقضاء عليها اذا تيسر لهـــم الحصول عليه ، وأورد قـــول الجاحظ : « وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا » ثم حدد معنى اصطلاح التصحيف عندما تعرض لذكر الخواص فقال : « الا أن

هناك نوعاً آخر من الغلط والوهم يتعرض له العلمـــاء والخواص مـــن القراء والمحدثـــين وأصحاب الأخبـــار واللغـــة في محاضراتهـــم وحلقاتهم للتدريس والاملاء وقد اصطلح على تسميته التصحيف ، ومنشؤه التباس الحروف واهمال الضبط في الكتابة العربية بحيث لا يمكن لأحد مهما تقدم في العلم أن يعتمد على قراءته في الصحف المكتوبة ويستغني عن السماع من أفواه الثقات » ٠

ونقل المحقق عن حمزة الأصفهاني أن سبب وقوع التصحيف في كتابـــة العرب هو وجـــود حروف متشابهة في صورة واحدة هي البـــاء والتاء والثاء والياء والنون ٠

وبعد أن عرف التصحيف ناقلا عن الخليل والمعري والجاحظ قال« ان الكلام في التصحيف لا يخلو منه أي كتاب في الأدب واللغة وتراجم البلغاء والنحـــاة » وخص بالذكر ثلاثة كتب ألفت في هـــذا ، ثانيهـــا هـــذا الكتاب وقبله (التنبيـــه علـــى حدوث التصحيف) لحمـــزة الأصفهاني المتوفى قبل سنة ٣٦٠ هـ وبعـــده (التصحيف في مـــا تلحن فيه الخاصة) لأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ٠

فالكتاب كما نرى يتطرق لموضوع عظيـــم اهتم له المتقدمون من أصحاب اللغـــة والأدب خدمة للغة العربية المقدسة وهو موضوع لا يقتدر عليه الا خواص الخواص ممن أنفقوا عمرهم في العلم والتعلم والضبط ٠ ولئن تلقينا القسم الأول منه متلهفين انا على انتظار قسمه الثاني على مثل ذلك التلهف ٠

★ ★ ★

وعني المجمع خلال اخراجه لكتب التراث بالشعر فأصدر دواوين ومجموعات شعريـــة مختلفة ويبدو من خلال قائمة ما نشر أنه كان

٥ ـ انظر مقدمة الكتاب ٠

يريد اخراج النادر العزيز الذي غفلت عنه المؤسسات الثقافية أو المحققون فطبع مجموعات شعرية ــ وان تكن قليلة ــ الا انها من الأهمية بمكان كشعر ابن هرمة القرشي آخر من يحتج بشعره من الشعراء وشعر دعبل بن علي الخزاعي وشعر الراعي النميري وشعر ابن أحمر الباهلي وغالب هذه الأشعار مبثوثة في كتب الأدب جمعها الجامعون وأخرجوها عملا محققاً متقناً بعد عمل طويل ٠

الى جانب الشعر المجموع دواوين توخى المجمع أنها تغني المكتبة العربية كديوان ذي الرمة وديوان ابن الخياط وديوان الخالديين وديوان ابن حيوس وديوان ابن عنين وديوان طرفة وديوان الصاحب الشرف الأنصاري وديوان ابن أبي حصينة وديوان الأبيوردي ٠ واعترافاً من المجمع بفضل رئيسه الأسبق الأستاذ الشاعر المرحوم خليل مردم عمد الى نشر ديوانه مع مقدمة تنوه به ، وها هو ذا اليوم يكرم أحد أعضائه البازين فيدفع الى المطبعة ديوان المرحوم شفيق جبري شاعر الشام مضيفاً الى المكتبة الشعرية مجموعة لطيفة ممتعة ٠

والى جانب الأشعار والدواوين نوع ثالث من الشعر هو المجموعات الشعرية كمثل خريدة القصر والاختيارين ، وكمثل شرح مفضليات الضبي التي يمكن أن تكون عملا مشتركاً بين الاختيار الشعري واللغة ٠

أما خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب فهي جمهرة أشعار حافلة (٦) تضم شعراء العالم الاسلامي ولا تقتصر على العرب وتمتد في الزمان فيما بعد المائة الخامسة الى سنة ٥٧٢ هـ ٠ أنفق صاحبها في جمعها حقبة من الزمن طويلة واستعان عليها بأسفاره وصلاته ومكانته من السلطان فلقي العديد من العلماء والمحدثين والرواة ووقف على جملة جيدة من الدواوين واتصل بكثير من شعراء عصره وأدبائه فسمع منهم واستكتبهم ٠

تنقسم الخريدة الى أربعة أقسام : قسم العراق ، وقسم العجم وفارس وخراسان ، وقسم الشام ، وقسم مصر وصقلية والمغرب وبلاد الأندلس ٠ وهي لا تضم شعر الشعراء فحسب بل وشعر الكتاب والفقهاء والمحدثين وأبناء الأجناد ، بل وتورد مختارات من النثر الذي يعبر عن أسلوب العصر ٠

وتأتي أهمية كتاب الاختيارين للأخفش الأصغر المتوفى سنة ٣١٥ هـ من أنه كتاب مصطفى مختار من كتابين عظيمين أولهما (المفضليات) للضبي ذاك العالم الذي كلفه الخليفة أبو جعفر المنصور أن يختار أجود قصائد المقلين ليدرب بها ابنه ولي العهد المهدي ويعلمه رائع الشعر وخالصه ، وثانيهما (الأصمعيات) للأصمعي قصائد انتقاها باشارة الخليفة هارون الرشيد لتأديب ابنه الأمين فاختار له من عيون الشعر القديم ٠٠٠ فهما كتابان عظيمان من صنعة عالمين كبيرين لتعليم طالبين يتهيئان ليكونا خليفتين يحكمان الدنيا وأي دنيا تلك التي كانت زمن المنصور والرشيد ! واذا جاء اختيار الأخفش الأصغر بعدئذ من هذين الكتابين المجودين فهو اختيار لباب اللباب وصفوة الصفوة ٠

ولم تكن اختيارات الأخفش الأصغر تورد القصيد المقطعات دون عناية فلقد كان هم صاحبها أن يشرح الغوامض من العبارات ويوضح العويص من الكلمات ويعلق على المبهمات فجاء كتاباً شعرياً لغوياً أدبياً وهذا ما يهتم به المجمع من خلال عنايته باللغة خاصة ٠

---

٦ ــ انظر مقدمة الكتاب ٠

نوع أخير من كتب الشعر التي يهتم بها المجمع هو ذاك الشعر الذي يغلب عليه الغريب ككتاب تفسير أرجوزة أبي نواس في تقريظ الفضل بن الربيع للغوي العبقري ابن جني • كان هذا الكتاب قد طبع سنة ١٩٦٦ ثم أعاد المجمع طباعته مؤخرا سنة ١٩٨٠ بعد أن أعاد فيه محققه النظر على ضوء مخطوطة أخرى عثر عليها في المتحف البريطاني واعتمادا على مخطوطتي المدينة المنورة التي تشير اليهما مقدمة الكتاب •

والأرجوزة النواسية هذه ضرب لطيف مما حفل به تراثنا العظيم ، وأبو نواس قد آثر فيها الغريب مجارياً رجز الأوائل القدماء • ومع أنها ليست بخير شعره الا أنها من أجزل شعره الجاد وأشده اعرابية وأحفله بالغريب، وهذا ما حدا امام اللغة ابن جني الى الاهتمام بها وشرحها خصوصاً أنها كانت في عصر ابن جني بعض ما يتمرس به شداة اللغة من الشبان المثقفين لتستحكم به ملكاتهم وينمو حسهم اللغوي ويقوي لسانهم ، اضافة الى أن تفسير هذه القصيدة قد اشتمل على اللغة والاعراب والشعر والمعنى والنظير والعروض والتصريف والاشتقاق ، وعلى شيء من علم القوافي • ومن هنا اعتني بها عناية خاصة •

★ ★ ★

ولئن كانت الكتب المجمعية التراثية تتشعب ذاهبة في أكثر من طريق لتغطية علوم مختلفة وفنون متعددة من تاريخ ولغة وأدب وأصول ورحلات وجغرافية فان مجلة المجمع بدورها تتحمل نصيبها في احياء التراث والمساهمة بنشره وتحقيقه ونقده • ففي تلك المجلة الغراء التي تصدر مع فصول السنة الأربعة ترى كل حين تحقيقاً لرسالة مخطوطة أو اشارة لمخطوط أو دراسة تراثية •• وربما ترى بين أعدادها قوائم لأسماء مخطوطات منشورة في بلدان العالم طالتها يد جوال عربي فبعث بها يبتغي افادة الدارسين وعونهم •

فمما نشرته عن رسائل تراثية : أسماء مؤلفات ابن تيمية لابن قيم الجوزية ، وتاريخ الخلفاء لمحمد بن يزيد وهو تاريخ مختصر جدا للسيرة النبوية والخلفاء الراشدين والأمويين وبعض العباسيين ويحفل على صغر حجمه بمعلومات غزيرة ملخصة ، ورسالة بعنوان سؤال في يزيد بن معاوية لابن تيمية ، وصحيفة همام بن منبه أقدم تدوين في الحديث النبوي وقرة العيون في أخبار باب جيرون لابن طولون الصالحي وغير ذلك كثير ولا تزال المجلة الأصيلة توالي نشر الكنوز ما تتابع صدورها، وتهتم بالتراث وتضعه في الصدر الأول من الأهمية •

★ ★ ★

ومن عناية مجمع اللغة العربية بالتراث الكريم أنه اهتم بالمخطوطات النفيسة التي تحتوي عليها دار الكتب الوطنية الظاهرية ، فصنع لها فهارس مخطوطات بحسب أنواعها المختلفة • ومن هنا كثرت كتب الفهارس المختصة التي نيف عددها على خمسة عشر فهرساً لمخطوطات القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ والجغرافيا وعلم الهيئة والفقه والشافعي والحنفي والتصوف والشعر والرياضيات والفلسفة وعلم العربية بفنونه المختلفة • بل ونشر أسماء بعض المخطوطات في غير مدينة دمشق كالمنتخب من مخطوطات المدينة المنورة، وقسماً مما في بعض مكتبات انكلترة وغيرها مما طالته أيدي الباحثين • ولئن بقي بعض من المخطوطات في الظاهرية لم يفهرس في كتب ان النية عازمة على استكمال ذلك •

سارت هذه الفهارس على خطة سديدة

تغني الباحث وتنفعه ولو كان بعيدا قصياً فهي تتناول كل مخطوط فتصف شكله وحجمه وقياسه وتذكر عدد أوراقه وعدد السطور في كل ورقة وتورد بعض جمل من مبتدئه ومنتهاه وتشير الى أسماء الناسخين والتملكات التي عليه ثم تذكر رقمه وغير ذلك مما يراه المفهرس مفيدا ومما ينسجم مع الخطة العامة التي تسير عليها لجنة المخطوطات واحياء التراث لتكون أعمال الفهرسة كلها على نسق واحد ، منطبعة بطابع واحد . لا يعني هذا انك لن ترى خلافاً في العمل ، ان الفروق الفردية سمة الله في خلقه ولا بد أن تكون .

انها لفتة كريمة تحمد للمجمع وتؤكد حرصه على تعميم الفائدة من المخطوطات وايصالها الى كل يد ذات نفع وعطاء نفعاً للعلم وخدمة له وقياماً بالأمانة الملقاة عليه والتي حملها فأحسن حملها وأداها فأتقن أداءها ، والا لكانت موءودة على الرفوف ليست في عالم الأحياء .

★ ★ ★

ومن اهتمام المجمع بالتراث أنه عمد الى تصوير بعض المخطوطات كما هي واخراجها مصدرة بمقدمة دون تحقيق . كان ذلك تجربة لها ما يبررها ، وقد أشرت عند الكلام على ابن عساكر الى مصورة جزء من تاريخ مدينة دمشق (من عبدالله بن عمران الى عبدالله بن قيس الأشعري) وقد ذكر في المقدمة الأسباب التي دفعت القائمين على شؤون المجمع الى نشر المصورات : « ويرجو المجمع وهو يلبي الحاجة الماسة الى تداول كتب التراث أن يكون هذا الأسلوب في النشر سبباً من أسباب الاقبال على التحقيق وتيسير وسائله بين أيدي المهتمين بالثقافة العربية دراسة وتحقيقاً ، وهو بعد ذلك وسيلة من أفضل الوسائل للتعرف الى طريقة الكتابة العربية وما التزمه المؤلفون والنساخ العرب في مؤلفاتهم وكتبهم من ضروب النقط والشكل لضبط النصوص وسلامتها من التحريف والتصحيف مما يمهد أمام الناشئة العربية صلة بكتب التراث أوثق وأشمل »(٧)

وكان المجمع قد أصدر من قبل مصورة عن مخطوطة الجزء الأول من ديوان الفرزدق تمهد لها مقدمة رصينة تصفها وتنبىء بجليل شأنها(٨) . كان ذاك أول عمل تصويري للمجمع أتقن اخراجه وأولاه اهتماماً خاصاً . ثم سكت عن التصوير حتى كان الاحتفال بذكرى مرور مائة عام على ولادة محمد كرد علي فطرحت بين الأيدي بهذه المناسبة مصورات عن المجلد الأول والثاني والعشرين من مجلة المجمع التي بلغ عدد مجلداتها الى اليوم ستة وخمسين مجلدا ، وما هذا الا دعماً لفكرة التصوير وميلا في تحقيق رغبة الكثيرين الذين يبتغون اقتناء المجلة التي نفد الكثير من أعدادها .

وآخر ما نشر المجمع على طريقة التصوير مخطوطة قاموس الأطبا وناموس الألبا في جزأين لمدين بن عبدالرحمن القوصوني المصري سار فيه على حروف المعجم وتعرض لذكر كثير من الأمراض والنباتات والمواد التي تفيد في العلاجات وغير ذلك ، والخط الذي كتب فيه الجزء الأول يختلف عنه في الجزء الثاني ولكنها على كل حال نسخة في جزأيها معتنى بها واضحة موشاة بالحمرة .

★ ★ ★

بعد كل هذا العرض السريع لا بد لنا أن نتساءل متوقفين وفي أنفسنا شيء من كبير من

٧ – انظر مقدمة الكتاب .
٨ – انظر مقدمة الكتاب .

مسؤولية : أين هو موضع التراث العظيم من المعاصرة ؟ وهل نحن اليوم ننتفع الانتفاع الحق بهذا الذخر الذي اجتهد أسلافنا العظماء أن يخلفوه لنا ؟ كيف يمكن لنا أن نفتخر بلغتنا وعروبتنا وأصالتنا ونحن نضع هذا الارث على الرفوف ونقطع صلتنا به أو نجعلها صلة واهية واهنة ... الجهد الذي يقوم به بعض الدارسين جهد مشكور معترف به ، أفيكفي هذا ويغني ، أيجزىء ويفي تجاه ما عندنا من كنوز ؟ ان على الأمة الأصيلة التي تبتغي مكانة متميزة بين شعوب الأرض أن تحافظ على أصلها ، وليس الحفاظ على الأصل كلام أجوف نردده في كلامنا وفي كتبنا بعبارات جوفاء لا تعني شيئاً . كثيراً ما نقول و نعيد: اننا صانعو حضارة مشرقة أسدت الى الانسانية خدمات جلى ونستشهد بكلام فلان وفلان من الغربيين ثم تنتهي المشكلة ولا نسأل أنفسنا وماذا صنعنا نحن . يجب أن نسأل أنفسنا سؤالا جاداً : كيف يمكن أن نستفيد الفائدة الكاملة مما تركه علماء الأمة وأحبارها ونوليه أهميته ونميز الغثاء منه من الثمين .. كيف تنعكس عظمة أمتنا فينا فنبدع مثلهم ونسير على خطاهم ونكون أمة عظيمة صانعة أمجاد .

أهم شيء في تراثنا لغتنا الأصيلة المعجزة التي انتشرت مع الفتح في الشرق والغرب ، يجب أن يتقن الناشئة هذه اللغة ويتمكنوا منها أي تمكن ويحسنوا التعبير بها بيسر وسهولة .. لا يكفي أن تكون مناهجنا المدرسية عربية بل يجب أن تكون عريقة أصيلة كان التعليم عندنا ذات يوم أعجمياً فلما قامت الثورة العربية تولى مجمع دمشق أمر التعريب وما كلية الطب عندنا الا شاهد صدق على ذلك ونجح في مهمته نجاحاً باهراً وما ذلك الا لحماسته من جهة ولأصالة اللغة العبقرية من جهة أخرى . والى جانب هذه الخطوة المجمعية الحميدة كان المجمع يتولى تقويم الاعوجاج اللغوي من خلال مهاجمة بعض الكتبة الذين ينشرون في الصحف والمجلات فيتتبع أخطاءهم بروح من الغيرة الواضحة .. وآتت هذه الطريقة أكلها ونفعت حتى جعل الناشرون يفكرون قبل أن يقدموا على الكتابة . ونحن نأمل اليوم أن يتابع مجمع اللغة العربية أعماله كما عودنا في الطليعة حافظاً للغة راعياً لها يحمل الشعلة النيرة التي يمشي في ركابها أولو العلم والمعرفة ، وكأن لبيداً رضي الله عنه يقول فيه :

انا اذا التقت المجامع لم يزل
منا لزاز عظيمة جشامها
من معشر سنت لهم آباؤهم
ولكل قوم سنة وامامها

دمشق شعبان ١٤٠١
حزيران ١٩٨١

نزار أباظة

□ ● □

تفسير أرجوزة أبي نواس

في تقريظ الفضل بن الربيع

(الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٧٩ م)

لطفية الشهابي

كثيرا ما يحلو للمرء أن يرجع بذاكرته الى الوراء وأن يستعيد الماضي ، ولا سيما حين يكون هذا الماضي مشرقا مضيئا ، ومن هنا فاننا نحن العرب ، نشعر بنشوة أيما نشوة حين تمر أمام مخيلتنا شرط الماضي الجميل وان من أجمل ما يحمله ما ضينا ذلك التراث الثقافي الواسع ، وتلك اللغة التي وسعت جوانب ذلك التراث ، بعد أن وسعت كتاب الله ، والتي ما زلنا نتمتع بقراءتها وسماعها ، وما زالت من أبرز الروابط التي تربط مواطنينا العرب من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، ومن أقصى الشمال الى أقصى الجنوب • فكأننا ونحن نعيش مع هذه اللغة الآن ، نعيش معها بُعد العمق في ماضينا • وهذا العمق نسبي دائما ، شأنه شأن الماضي ذاته • فنحن نعيش الآن مع أبي نواس على أنه ماض قديم بينما عاش معه معاصروه ، وهو حديث مبدع مجدد متحضر يحاول في بعض قصائده أن يقلد القدماء أو الأعراب المغرقين في بداوتهم وفصاحتهم •

فقد أراد أولئك الشعراء المحدثون المتمدنون في العصر العباسي ، الذين أثرت فيهم الحضارة ورققتهم حياة المدن أن يثبتوا للعلماء واللغويين أنهم ليسوا أقل قدرة على استيعاب الغريب وتضمينه أشعارهم من أولئك البداة الجفاة من الرجاز أمثال رؤبة والعجاج • وهكذا نظم أبو نواس أرجوزته في مدح الفضل بن الربيع ، سالكا سبيل أولئك الرجاز المعروفين مثلما فعل بشار من قبله حين تحداه عقبة بن رؤبة ، وكان هذا الأخير ينشد عقبة بن سلم رجزا ، فقال لبشار : (هذا طراز لا تحسنه أنت يا أبا معاذ ، فقال بشار : ألي يقال هذا ؟! أنا والله أرجز منك ومن أبيك وجدك ، فقال له عقبة : أنا والله وأبي فتحنا للناس باب الغريب ، وباب الرجز ، والله اني لخليق أن أسده عليهم ، فقال بشار : ارحمهم رحمك الله ، فقال عقبة : أتستخف بي يا أبا معاذ وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر ؟••• ثم خرج من عند عقبة مغضباً ، فلما كان من غد غدا على عقبة وعنده عقبة ابن رؤبة ، فأنشده أرجوزته التي يمدحه فيها ومطلعها :

يا طلل الحي بذات الصمد　　بالله خبر كيف كنت بعدي

وهكذا كانت أرجوزة بشار المطولة المتنوعة الأغراض والأفكار المحشوة بالغريب الفائضة بالجزالة والقوة تحديا صريحا ، كما يؤكد هذا الخبر ، لأولئك الرجاز وأمثالهم من الشغوفين بالغريب والجزل من القول •

وربما أمكن أن يقال مثل هذا في أرجوزة أبي نواس التي مدح بها الفضل ابن الربيع •

واذا كانت الكتب القديمة لم تسرد لهاخبرا صريحا يفيد التحدي،فان مجرد مقارنتها بأشعار أبي نواس الأخرى ، وما تتسم بـه تلك الأشعار من وضوح وبعد عن الغريب ، ربما دفعنا الى تصور هذا التحدي المقصود لاسيما أننا نلاحظ ظاهرة الجزالة والقوة بارزتين في أشعار المديح التي قدمها أبو نواس بين يدي الرشيد وغيره من وجوه الدولة العباسية ٠ فكأنما غرض الشاعر أن يثبت مقدرته الكاملة أمام أولئك العرب ؛ أو كأنه يدرك أن أذواقهم لا تستريح الا لهذا النوع من الشعر ، وان كانت تلك القصائد لا تصل الى ما وصلت اليه الأرجوزة من الغريب ٠

وقد طلب أحد أصحاب ابن جني منه أن يفسر له هذه الأرجوزة ، فاستجاب عالمنا الجليل لرغبته وعمد الى تفسيرها وتوضيحها ٠

وجاء الأستاذ محمد بهجة الأثري فأبرز هذا التفسير الى عالم الكلمة المطبوعة مضيفا اليه كل ما يحتاجه من مقدمات وتعريفات وتحقيقات وتذييلات رآها لازمة ٠

وبين يدي من هذا الكتاب نسخة من طبعته الثانية التي طبعها مجمع اللغة العربية في دمشق عام ١٤٠٠ هـ ــ ١٩٧٩ م ٠

قدم الأستاذ الأثري لهذه الطبعة بمقدمة مطولة تجاوز عدد صفحاتها تسعين صفحة ، جعلها ذات أقسام :

القسم الأول عرف فيه بالكتاب وهو تفسير أرجوزة أبي نواس لأبي الفتح عثمان ابن جني ، وذكر فيه أن ابن جني نفسه كان واحدا من حفاظ هذا الرجز والمعنيين به ٠ ومن هنا سأله بعض أصحابه من هؤلاء الشبان البغداديين أن يفسره له، فاستجاب أبو الفتح « قضاء لحق مودته » ، وان ابن جني على ما عرف عنه من علم وسعة ، كان قد ذكر أنه قرأ الأرجوزة على أستاذه أبي علي الفارسي (ليضم علمه الى علمه ، ويزداد به فهما لما هو مقبل على شرحه) ٠

ويعدد لنا الأستاذ الأثري في هذه المقدمة بعض فوائد هذا الشرح ؛ وأولها (أنه يصحح لنا بعض شعر هذا الشاعر العظيم الذي انتشر التحريف والفساد في شعره قديما ، وزادته الأيام سوءا) ٠ وثانيها (أن ابن جني قد سجل به مرحلة جديدة في كتابة شروح الأشعار القديمة والمحدثة ، وتطويرها بالانتقال من طور الوقوف عند تفسير الغريب وتدوين اختلاف الروايات الى طور التوسع في هذا الشرح وتشقيق الكلام في فنون شتى من المعارف اللغوية والأدبية وغيرها) ٠

ويورد لنا المحقق الأدلة الصحيحة المؤكدة نسبة هذا الكتاب الى ابن جني ، ثم يذكر لنا النسخة التي اعتمدها في تحقيقه ، وكانت نسخة واحدة صادفها في المدينة المنورة لم يستطع العثور على سواها قبل الطبعة الأولى، ولكنه اعتمد معها على كتب ابن جني الأخرى في تحرير هذه النسخة وتصحيحها ، كما اعتمد على المعجمات اللغوية ، وأخيرا على شروح الشواهد ودواين الشعراء ٠ ثم عمد الى زيادة ما تجب زيادته في الهوامش ففسر

ما أهمل ابن جني تفسيره ، ورقم الآيات القرآنية ، وخرج الأحاديث الشريفة ، وتقصى الشواهد الشعرية ، وترجم للأعلام ترجمات وافية .

وقد سرد لنا الأرجوزة متوالية بعد التعريف بالكتاب ، مفصولة عن الشرح ، وانتقل بعدها في القسم التالي من المقدمة الى التعريف بالفضل بن الربيع ، فترجم لحياته وعرفنا بالفترة التاريخية التي كان يعيش فيها ، وبين مركزه في الدولة العباسية وطبيعة صلاته مع الخلفاء العباسيين .

ثم وضع أمامنا ترجمة لأبي نواس المادح بعد أن عرفنا بالممدوح ، فأعطانا صورة معتدلة الألوان والخطوط لهذا الشاعر الذي أكثرت الكتب القديمة من الحديث عنه ومنحته ملامح مضطربة من بعض جوانبها ، فحاول المحقق أن يزيل بعض الخطوط التي اعتقدها وهمية أو بعيدة عن الصحة .

وأخيرا في القسم الرابع من المقدمة التفت الكاتب المحقق الى مؤلف هذا الشرح (أبي الفتح عثمان بن جني) فترجم لحياته ترجمة مناسبة ذاكرا أصله ونسبه وثقافته ، وأساتذته ، ومذهبه الديني ، وضابطا اسمه أو نسبته ومتحدثا عن مؤلفاته وعن المراجع التي أشارت الى هذه المؤلفات .

وقد ذكر أن مؤلفات ابن جني تبلغ الخمسين كتابا ، ولكن ما وصل منها الى دور المطابع لا يكاد يزيد على اثني عشر كتابا .

وأخيرا عمد الى مقدمة أخرى موجزة خصصها للطبعة الثانية ، وهي التي بين أيدينا ، وأشار فيها الى أنه اعتمد لهذه الطبعة مخطوطة أخرى لندنية اضافة الى مخطوطة الطبعة الأولى التي كان عثر عليها في المدينة المنورة . وبين أوجه الالتقاء والاختلاف بين المخطوطتين ، ثم ختم مقدمته بمجموعة صور عرضها لبعض صفحات المخطوطتين ، مخطوطة المدينة ومخطوطة المتحف البريطاني .

وقد بلغت هذه الأقسام المتنوعة للمقدمة ما يزيد على التسعين صفحة رقمها المؤلف بالأرقام غير العربية تمييزا لها ، على ما يبدو ، عن صفحات الكتاب ، التي بدأها بالأرقام العربية ، فكانت مئتين وسبع عشرة صفحة . ثم تلت الكتاب صفحات خمس صحح فيها المحقق ما وقع من أخطاء في الطبع . وأتبع ذلك بفهرس للألفاظ اللغوية والى جانبها معانيها الموجزة بما يقارب السبع عشرة صفحة ثم فهرس المسائل :

آ ـ مسائل علم العربية : النحو ، الصرف ، الاشتقاق .

ب ـ مسائل العروض والقافية .

ج ـ مسائل البيان .

د ـ مسألة فقهية .

هـ ـ فوائد أدبية .

وأتبع ذلك بفهرس الآيات القرآنية ثم الأحاديث الشريفة وبعدها الأمثال يليها فهرس أسماء القصائد ثم الأيام والحروب ويلي ذلك فهرس الأشعار ثم الأعلام ثم فهرس الأمم والقبائل والأسر والمذاهب ، وقد أشار في حاشيته الى أنه لم يضمنه أسماء القبائل والأسر والمذاهب التي وردت في مقدمة التحقيق . وبعده فهرس البلدان والأمكنة والبقاع .

وأخيرا أشار الى مراجع المقدمة والتحقيق والتعليق ، فكان تحقيقا متميزا وجهدا مشكورا أعادنا فيه الأستاذ محمد بهجة الأثري الى صفحات من تراثنا الخالد في الشعر واللغة والغريب ، والشرح والتفسير ، وأسبق لنا هذه الصفحات بمقدمات مفصلة تناول فيها الشاعر المادح ، والشخصية الممدوحة ، والمؤلف الشارح لذلك المدح ، والجهد الذي بذل لابراز ذلك كله ، ثم عقب بعد تحقيق ذلك الشرح بالفهارس والذيول المتنوعة الكافية لتسهيل العودة الى كل ما يحتاجه القارىء من هذا الكتاب ٠

جزى الله شاعرنا أبا نواس وعالمنا ابن جني ومحققنا محمد بهجة الأثري خير الجزاء على ما بذلوه لخدمة تراثنا وحفظ لغتنا التي هي الركن الخالد من أركان حضارتنا في ماضينا وحاضرنا ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ٠

ومن حق القارىء علينا في الختام أن نذكر له مطلع هذه الأرجوزة الموسومة بمنهوكة أبي نواس لأنها من منهوك الرجز :

وبلدة فيها زور   صعراء تخطى في صقر

وكأني بالقارىء حين يعلم أن أبيات هذه الأرجوزة تنوف على الخمسين بيتا لن يستغرب أن يأتي شرحها كتابا برمته ٠ فأي غريب ذاك الذي جشم أبو نواس نفسه مشقة ايراده في هذه الأرجوزة التي بدأها بوصف البقاع العسرة الاجتياز ، ثم وصف الجمل القوي الذي كان مطية الانتقال عبر هذه البقاع والتي كانت طريقه الى الممدوح ٠ ثم آخذ بعد ذلك بالمديح ؛ متنقلا بين شتى الخصال التي يعتز بها العربي بعبارات موغلة في الصعوبة والغرابة لا يكاد يخيل لقارئها أن قائلها نفسه هو الذي قال :

عاج الشقي على رسم يسائله   وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد   لا در درك قل لي من بنو أسد
لا جف دمع الذي يبكي على جمر   ولا صفا قلب من يصبو الى وتد
دع ذا عدمتك واشربها معتقة   صفراء تفرق بين الروح والجسد
فاشرب وجد بالذي تحوي يداك لها   لا تدخر اليوم شيئا خوف فقر غد

وقال أيضا في مدح الفضل :

يا فضل جاوزت المدى   فجللت عن شبه النظير
أنت المعظم والمكبر   في العيون وفي الصدور
ما زلت في عقل الكبير   وأنت في سن الصغير
حتى تعصرت الشبيبة   واكتسبت من القتير
عف المداخل والمخارج   والغريزة والضمير

فأي سهولة ووضوح هنا ، وأي صعوبة ووعورة هناك ؟! ولكنه التحدي والرغبة في اثبات القدرة على مجاراة الأوائل وهواة أساليبهم ومدارسم ٠

دار المعلمات ـ حلب   **لطفية الشهابي**

محمد بن موسى الخوارزمي

تاليف الأستاذ زهير الكتبي ـ نشر وزارة الثقافة بدمشق

الدكتور نسيب نشاوي

« في قصص العلماء من الروعة والرواء ما يفوق الأساطير ٠٠ كانوا رواداً يحدوهم حب الحقيقة الى اقتحام اللجج في بحر الحقيقة الزاخر ليشعلوا النار المقدسة نار المعرفة للأجيال القادمة ، وان عالمنا العربي محمد بن موسى الخوارزمي أحد هؤلاء الرواد الذين حملوا مشعل المعرفة العلمية عالياً وحافظوا عليه وزادوا في رونقه وجماله وتوهجه » ٠

بهذه العبارة الغنية استهل الأستاذ زهير الكتبي الكتاب الذي ألّفه تحت عنوان « محمد بن موسى الخوارزمي »ونشرته وزارة الثقافة والارشاد القومي بدمشق ضمن سلسلة علماء العرب عام١٩٦٩ م ٠ ففي هذا العام بدأت وزارة الثقافة الحلقة الأولى من سلسلة تراجم العلماء العرب الذين أسهموا في بناء الحضارة الانسانية ، وكانت الغاية تربوية محضة لوضع التراث العلمي العربي في متناول الجميع ليأخذ طريقه الى الافادة الجماعية ضمن مفهوم ابراز الشأن الحاسم الذي أنجزه أجدادنا في انشاء العلم الحديث ٠

والمؤلف من الأساتذة المتخصصين بتاريخ الرياضيات العربية ، وله عدة مصنفات فيها منها كتابه « تاريخ الرياضيات » الذي نشر بدمشق ١٩٥٩ م ، وأما كتابه «محمد بن موسى الخوارزمي»فهو في جملته دعوة صريحة مباشرة الى الاقتداء بالسلوك العلمي الرفيع وعنوان التجديد والابتكار الذي كان عليه

علماء العرب في فجر النهضة العلمية الواسعة التي تألقت على أجمل ما يكون في عهد الخليفة المأمون ، وقد بث فكرته هذهفي أثناء الترجمة المفصلةلحياة الخوارزمي وكشوفه العلمية في ميادين الرياضيات والفلك والجغرافية والهندسة والجداول الخاصة بحساب المثلثات ..

حياة الخوارزمي :

مهد المؤلف بكلمة قالها « لاجرانج »عندما سقط رأس العلامة لافوازيه عن المقصلة وهي : « لقد استغرق حز عنقهدقيقة من الزمان أو بعض دقيقة ، ولكننا نحتاج الى قرن كامل قبل أن ننجب عالمآخر مثله » .

ثم عرض حياة الخوارزمي فذكر أناسمه أبو عبدالله محمد بن موسى من خوارزم، أقام ببغداد حيث اشتهر وذاعصيته..وكان منقطعاًالى «خزانةالحكمة» للمأمون الذي شجعه وأدناه وبسط كنفهله ولسائر علماء عصره وأعانهم على البحث والتأليف ثم أبان أن وفاة الخوارزمي بعد سنة ٢٣٢ هـ ، وكذلك أورد المؤلفقصة نادرةعن عصرالخوارزمي وهيأن هارونالرشيد كانيكرس احترامهللعلم بنفسه بغسله يدي أحد كبار العلماءالعرب على مشهد من الجمهور وهو تقليد ماجد عظيم .. وأن المأمون سار على نهج والده الرشيد وكان عالماً محققاً أرسل البعثات في طلب المخطوطات شراء ونسخاًوفرضعلى أعدائه المهزومينفي المعاهدات تنازلهم عن بعض المؤلفات اليونانيةالنادرة الثمينة ، وكان على رأس احدى بعثاته الكبيرة عالمنا الخوارزمي الذيذهب الى أفغانستان والهند التي اطلع فيها على شكل الأرقام الهندية .. ولماكثرت المخطوطات أنشأ المأمون « خزانة الحكمة » عام ٢١٥ هـ/٨٣٠ م وأوكلاليه ادارتها وهي مدرسة عاش فيها المترجمون والمحققون والعلماء متفرغينلأعمالهم وتحقيقاتهم العلمية على حساب الدولة ترفدهم جوائز سنية لكل انجاز» ويظن سوتر بناء على تحقيقاتجغرافية أن الخوارزمي كان أحد الذين كلفهمالمأمون بقياس درجة من درجات محيط الأرض « الكرة الأرضية » وذلك في سبيلتحديد محيط الدائرة العظمى للأرض :

محيط الدائرة العظمى للأرض كما أجراه الخوارزمي ورفاقه	٤٠٢٤٨ كم
محيط الدائرة العظمى للأرض كما هومعروف اليوم	٤٠٠٧٠ كم
الفرق	١٧٨ كم

ان هذه الموازنة لتظهر لنا مهارةعالمنا الخوارزمي ورفاقه ودقتهم في الرصد واستخدام آلاته وتحري الحقيقة العلمية الخالصة وسبقهم أمم العالم أجمع في ميدان علم الفلك ٠

مؤلفات الخوارزمي :

ثم بسط الأستاذ زهير الكتبي الحديث عن مؤلفات الخوارزمي وقال : انه من أكبر علماء العرب ومن العلماء العالميين الذين تدين لهم المدنية الحديثة بما تركوه وأضافوه من كنوز جديدة الى كنوز المعرفة الثمينة ٠٠ ثم أورد مؤلفاته شارحاً أغراضها العامة وتأثيراتها في تقدم العلوم الحديثة في ميدان الجبر والهندسة والرياضيات عامة والفلك والجغرافية ٠٠ والجهد الكبير الذي بذله والنضال الدائب من أجل تقدم العلوم والمعرفة الانسانية ٠٠ وعدد منها :

١ ـ « الجبر والمقابلة » وعنه أخذ الغربيون كلمة « جبر ALGEBRE »

٢ ـ شرح نظام استخدام الأعداد الهندية والعمليات الأربع وحساب الكسور ٠٠ وهو أول كتاب دخل أوربة وبقي زمناً طويلا مرجع العلماء والتجار ، وبقي علم الحساب قروناً معروفاً فيها باسم « الغوريتيمي Algoritmi » نسبة الى الخوارزمي ٠

٣ ـ كتاب « صورة الأرض » شارك فيه برسم خريطة العالم متوسعاً بجغرافية بطليموس ٠

٤ ـ « تقويم البلدان » شرح فيه آراء بطليموس شرحاً مستفيضاً وجددها بلا تقليد للآراء الاغريقية بل بالبحث المستقل في علم الجغرافية فصحح حساب محيط الدائرة العظمى للأرض الذي صنعه بطليموس ٠

٥ ـ كتاب « الزيج » الأول والثاني وهو من فروع علم الهيئة ، وهو صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق ٠٠ يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها ٠٠ وان « جدول الجيوب » وجد أول مرة في « زيج » الخوارزمي ٠

٦ ـ « العمل بالاسطرلاب » وكتاب « الرخامة » وهما في علم الفلك والحسابات الفلكية ٠

ووضع الخوارزمي الجداول بحساب المثلثات ٠

وله أيضاً كتاب « الهندسة » ، وكتاب« التاريخ » ، وكتاب جمع بين الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ٠

هذا بعض ما ذكره المؤلف من مصنفات العالم العربي ، وقد أفرد لكتاب « الجبر والمقابلة » بحثاً خاصاً ص ٥٩ ــ ٨٣ تناول فيه طبعات الكتاب وأصوله المخطوطة وشروحه وتفسيراته والدراسات التي أقيمت عليه قديماً وحديثاً ٠

ولكن الأجمل أن الأستاذ الكتبي حلّ نموذجات من المعادلات الرياضية التي عرضها الخوارزمي وفاق الاصطلاح الحديث المستعمل في لغة الجبر ورموزه وبذلك يسر التفهم الرياضي للرموز القديمة وقال : « ان الخوارزمي اكتشف الحالة التي يتساوى فيها جذرا المعادلة ويكون كل منهما مساوياً لنصف أمثال س بالاصطلاح الحديث كما نبه على ضرورة جعل أمثال س٢ يساوي الواحد دوماً » وعرض في هذا الباب الأنواع الستة لمعادلات الدرجة الثانية التي أوردها الخوارزمي بلغته وبالاصطلاحات الحديثة معاً ٠

قصة الخوارزمي مع الأرقام العربية وأثره في تقدم العلوم :

هنا استخدم المؤلف الأسلوب القصصي في عرض اسهام الخوارزمي في تقدم الرياضيات واستشهد بمقولة المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه التي تشي باتباع الألمان لنظام قراءة الأعداد عند العرب ، وساق عباراته بفن بياني رفيع شوّق الى المعرفة وحفز على المطالعة وخفف جفاف المادة العلمية ويسر تفهمها الأمر الذي نأمل من جميع المدرسين أن يكونوا عليه في قاعات التدريس ، فقد روى قصة قدوم عالم فلكي هندي اسمه كانكا Kankah على الخليفة المنصور عام ١٥٦ هـ ووقوفه بحضرته وكان عالماً بالحسابات الهندية المعروفة باسم سد هانت Siddhanta لحركات الكواكب ، وأمر المنصور بترجمة هذا الكتاب الى العربية وتأليف كتاب على نهجه يشرح للعرب سير الكواكب ، وعهد بهذا العمل الى ابراهيم الفزاري الذي ألف على نهجه كتاباً يعرفه الفلكيون باسم « السند هند الكبير » وقد أخذ العلماء به منذ عصر المأمون اذ أعاد الخوارزمي كتابته وأضاف اليه وسمي كتابه « السند هند الصغير » ، وألّف عدة كتب بيَّن فيها ذلك النظام الهندي وطريقة استخدامه عملياً ٠٠

وقد شرح البيروني كتاب الحساب الذي وضعه الخوارزمي ، ثم ترجم ابن ماجد هذه الشروح الى العبرية ، ونقل كتاب الخوارزمي في الحساب الى اسبانية حيث ترجم الى اللاتينية في القرن ١٢ م وحمل الى جميع أنحاء أوربة وبقي يستعمل في المدارس والجامعات الأوربية قروناً متعاقبة .

وعرض المؤلف شكل الأرقام الهندية التي اطلع عليها الخوارزمي في بعثته التي أرسله فيها المأمون الى الهند وأفغانستان، الأولى سميت الحروف الهندية واستقرت على الصورة التالية بعد تطورها : ١-٢-٣-٤-٥-٦-٧ .. والثانية الحروف الغبارية « لأن أهل الهند كانوا يأخذون غباراً لطيفاً ويبسطونه على لوح من خشب ويرسمون عليه الأرقام .. ودخلت أوربة وعرفت باسم الأرقام العربية Arabic Numérals وهي : .. 1-2-3-4 ، وتوسع المؤلف في الكلام على هذه الأرقام وقال : لم يقتصر الخوارزمي على تعليم الغرب كتابة الأعداد والحساب فقد تخطى تلك المرحلة الى المعقد من مشاكل الرياضيات، وما زالت القاعدة والطريقة الوضعية في حل المسائل التي تسمى :الجورزمس Algorithmus تحمل اسمه حتى اليوم كعلم من أعلامها .. وقد عُرِف أنصارُ الخوارزمي في اسبانية وألمانية وانكلترة الذين كافحوا كفاحاً مريراً من أجل نشر طريقته الرياضية باسم الخوارزميين Algorithmiker وكان ظفرهم عظيماً فانتشرت الأرقام العربية التسعة يتقدمها الصفر في كل أنحاء أوربة ..

ثم انتقل الى الكلام على الصفر العربي وجعل له بحثاً خاصاً ، وتلاه باب « الجبر والمقابلة » .

أسلوب الكتاب وأهدافه :

الكتاب في أغراضه البعيدة يهدف الى تربية الجيل الجديد من خلال عرض الاشعاعات الفكرية والعلمية والاضاءة العامة الحضارية التي تألقت منذ فجر النهضة العربية فأنارت عصر القرون الوسطى ليشب الجيل العربي الجديد واثقاً من ماضيه المجيد مندفعاً من داخله الى صناعة الحاضر صناعة علمية لا تواكل فيها على حضارة الآخرين ، بل اقتداء بالسلوك العلمي الرفيع الذي كان عليه أجدادنا العرب ..

ولقد كان المؤلف الأستاذ زهير الكتبي معلماً حقاً في تمكنه من المادة العلمية التي عرضها ، وتتبعه الدقيق لمراحل تطور الرياضيات على يد الخوارزمي وتبسيط مفهوم الجبر والمقابلة والهندسة القديم وترجمته الى لغة الرياضيات الحديثة ، حتى ليكاد يفهمه كل انسان ولو لم يكن مختصاً ، وهذا يدل على سعة آفاق المؤلف التربوية والثقافية ، يضاف الى ذلك أمانته العلمية في عرض البحوث اذ كان يشير الى مصدر الفكرة الذي أخذ عنه ، وقد أثبت في نهاية الكتاب المراجع والمصادر العربية والفرنسية التي أخذ عنها .

والكتاب فوق هذا وذاك نوع من الأدب الانشائي الزاهي ، في كل فقرة منه لوحة أدبية فيها البيان العربي الأصيل بعباراته المشرقة وألفاظه المنتقاة من معادن الفصاحة ونأيه عن التكلف وأسر الصناعة اللفظية والمعاظلة الكلامية . لقد جمع المؤلف الى جمال المعنى نبل المقصد وبعد النظر وجمال الأداء ورونق اللفظ وبهاء التعبير .

د. نسيب نشاوي

□ ● □

□ كتاب جديد تحت الأضواء

أقدم الوثائق الوقفية باللغة العربية في يوغوسلافيا

تأليف المستشرق : د. حسن كاليشي
عرض ونقد المستشرق: فتحي مهديو
جامعة بريشتينا
أستاذ قسم الاستشراق

وضع الدكتور (حسن كاليشي) كتابه القيم الموسوم (أقدم الوثائق الوقفية باللغة العربية في يوغسلافيا) والمؤلف هو رئيس قسم اللغات الشرقية بجامعة (بريشتينا) في كوسوفا . وقد تم افتتاح هذا القسم في العام الدراسي ١٩٧٣ - ١٩٧٤ م . وعلى حداثة عهده جذب اليه الكثير من محبي الثقافة والحضارة العربية التي انتشرت بين شعوب البلقان طوال خمسة قرون .

وكان لصدور الكتاب أثر عظيم في المنظمات والمؤسسات العلمية في البلاد اليوغسلافية وفي خارجها . وعلى الرغم من قصر الزمن على صدوره ، فقد كانت له أصداء واسعة في المؤسسات العلمية الثقافية . فما يجدر ذكره أن الأستاذ (الكسندر بوبوفيج Aleksander Popoviç علق عليه في أقدم مجلة علمية للبحوث الشرقية في العالم وهي (الجريدة الآسيوية Journal Asiatique في باريس ، وعرض فيها فهرسة للبحوث العلمية ذكر فيها مؤلف الأستاذ الدكتور (حسن كاليشي) كذلك نشرت عنه (المجلة الدولية الاسلامية في هامبورغ (Der Islam Hamburg وكتب الأستاذ الدكتور هانز جورجن (Hans Jürgen) في المجلة البلغارية Edudes Balcanques في صوفيا . وتحدثت عنه عدة دراسات في المجلات المحلية في يوغسلافيا .

ان الكتاب المذكور له أهمية كبيرة جدا من حيث أنه يعرف بالتاريخ الثقافي للعرب في بلاد البلقان ، وينقل للعالم العربي صورة عن البحث العلمي في يوغسلافيا ، وهو مبوب في ثمانية أبواب مع مقدمة وقائمة أبجدية ومدخل للكتاب .

أما الباب الأول (من ص ٢١ الى ص ٤٩) فيتحدث المؤلف عن دخول اللغة العربية في يوغسلافيا وانتشارها في أصقاعها ، ويبحث أيضاً في أثر الثقافة والمدنية الاسلامية في البلاد .

وفي الباب نفسه يصف المؤلف تقبل الشعب اليوغسلافي للثقافة والكتابة والمدنية العربية التي كان لها أثر بارز في حياة الشعب اليوغسلافي بل في حياة شعوب كثيرة في الشرق والغرب على حد سواء ٠

لأول مرة يبحث المؤلف بأسلوبه المميز عن الوثائق المتعلقة بالزواج والطلاق والمرافعات والطلاق الصراح على الرقيق والمسجلات المختلفة والشهادات التي كتبت باللغة العربية ٠ وليس باللغة التركية العثمانية ٠ وهو يقدم النصوص الأصلية باللغة العربية ، ولكن مما يؤسف له أن نسخها على الآلة الكاتبة أفقد على القارىء فرصة الاطلاع عليها كما وردت في نصوصها الأصلية ٠

قد تكون قراءة هذه النصوص في أصولها صعبة على الباحث العلمي ، لكن كان بمقدوره أن يقدم لنا هذه النصوص بصورتها الأصلية بعد عرضها بخط الآلة الكاتبة ،لكان ذلك من الأفضل ٠ ويجدر أن نذكر من هذه الوثائق (اجازتنامه) وهي تنقل لنا كشفاً بأسماء الأساتذة والعلماء في مختلف ميادين العلم والثقافة ٠

ويورد لنا في هذا الباب أيضاً أن المسيحيين كانوا يتقدمون الى قضاة المحاكم الشرعية بدعاوى الزواج والطلاق ، ولهذا الخبر أهمية بالغة من الناحية الاجتماعية والدينية ٠ أما في الباب الثاني من ص ٤٩ الى ص ٦٣ فالمؤلف يبحث عن الوقفيات وطبيعتها فيقسمها الى ثلاثة أبواب :

آ ــ **المخطوطات الوقفية**

ب ــ **النسخ الوقفية التي تقدم لنا صوراً عن النسخ الأصلية للوقفية المفقودة ٠**

ج ــ **الوقفية نفسها التي تقدم لنا المصادر الأولى أو النسخة الأصلية التي تمكننا من الوقفيات من الناحية التاريخية والقانونية واللغوية وغير ذلك من الجوانب ٠**

وفي الباب نفسه يتحدث المؤلف عن الجوانب الدبلوماسية للوقفيات وعناصرها المختلفة، فقد تكون بياناً تفسيرياً أو تحويلا للملكية بالهبة أو البيع أو بالوصية أو بالشرطة ، وأوضاع الوقفيات أمام المحكمة والمراسيم القانونية ٠٠ الخ ٠٠

ولقد أشار المؤلف أن موضوع الوقفيات الدبلوماسية يدرس لأول مرة دراسة علمية إذ لا نجد ذلك في البحوث الدبلوماسية العثمانية التي ظهرت حتى الآن كدراسة المستشرقين (ل٠ فيكيت L. Fikit ــ كوبوكلو Kuboklu)(١) ٠

أما في الباب الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن (من ص ٦٥ الى ص ٣٠٨) فيستعرض تسع وقفيات باللغة العربية في يوغسلافيا ، أولها :

١ ــ وقفية (سنكر كاووش بك Senker Kaaush Bej) من مدينة مناستير ، ويعود تاريخها الى شهر ابريل ١٤٣٥ م (ص٧١ــ٨٨)٠ ويشير المؤلف الى أن هذه الوثيقة هي أقدم الوثائق المدونة من نوعها في اقليم يوغوسلافيا مما تم اكتشافه حتى الآن ٠

١ ــ وهما مستشرقان من الباحثين الضليعين في علم اللغة التركية ٠

٢ ـ وقفية (اسحاق بك Ishak Bej) من مدينة اسكوبيا وتاريخها فبراير ١٤٤٥ (ص ٩٥ ـ ١١٨) ٠

٣ ـ وقفية (سنان الدين جلبي Sinan Qelebi) وتاريخها عام ١٤٩١ (ص ١١٩ ـ ١٤٣) ٠

٤ ـ وقفية اسحاق جلبي من مدينة مناستير وتاريخها يونيو ١٥٠٦ م ٠

٥ ـ وقفية اسحاق جلبي من مدينة مناستير وتاريخها يونيو ١٥٠٨ م ٠

٦ ـ وقفية اسحاق جلبي من مدينة مناستير وتاريخها يونيو ١٥١١ م ٠

٧ ـ وقفية اسحاق جلبي من مدينة مناستير وتاريخها ايلول ـ تشرين أول ١٥١١ م (ص ١٥٢ ـ ٢١٨) ٠

من هذه الوقفيات الأربع اثنتان لاسحاق جلبي من مناستير(٢) واثنتان أخريان من سلانيك (٣) ٠

٨ ـ وقفية (مصلح الدين المارديني Musleh Din Mardini) وهو الذي بنى (خان قرشملي) في مدينة اسكوبيا ٠ ويعود تاريخها الى ٢١ ديسمبر ١٥٤٩ ـ ٢ يناير ١٥٥٠ م وهي احدى الوثائق التي اشتهر المؤلف بكتابتها بأسلوبه الرصين (ص ٢٢٥ ـ ٢٥٦) ٠

٩ ـ وقفية (كوجوسنان باشا Kyqy Sinan Basha) وتاريخها ٢٣ يوليو ١٥٥٦ م (ص ٢٧٨ ـ ٣٠٨) ٠

ويقدم المؤلف هذه الوثائق باللغة العربية ثم يتبعها بنسخها الأصلية لكي يتمكن الباحث العلمي من المقارنة بينها وبين أصولها ، ويمهد لكل وثيقة بدراسة عن انشاء الوقفيات قبل الحديث عن الوقفية نفسها ، فنرى مثلا دراسته عن الوزير / كوجوسنان باشا / اذ يقول : انه الباني الجنسية من (توبويان Tubujan) في منطقة (لوما Luma) انه يعطي لنا صورة حسية عن مزيد من الشخصيات الألبانية في هذا المجال ، وقد نجده يشك بالوقفية تاريخياً وفيلولوجياً ثم يعرض النص الأصلي والترجمة ٠ ولو بدأ بالترجمة ثم قدم النص الأصلي لكان من الأفضل وهو يحلل كل وثيقة على حدة تحليلا علمياً ٠

ولا يكتفي المؤلف بدراسة الوقفيات وترجمتها فحسب بل نجده يبين أموراً أخرى ذات أهمية علمية بالغة ٠ منها انه يقارن موقف الباحثين من كل مشكلة تاريخية ، ويعرفنا بالعناوين الكاملة للبحوث التي تطرقت لدراسة الوقفيات ويقدم لنا صورة حقيقية عن المؤلفين ومؤلفاتهم وسيرهم (٢٠٥ ـ ٣٤٨) وقد نراه يصحح لبعض المؤلفين الذين تطرقوا

---

٢ ـ مدينة في جنوب يوغوسلافيا ٠

٣ ـ مدينة في مقدونيا قريبة من بلاد اليونان ٠

لمشكلة الوقفيات . بعد دراسة جدية فان الأستاذ الدكتور (حسن كاليشي) يحاول أن يضع المشكلة في موضعها الحيقي فيحللهاتحليلاكاملا .

وبهذا يقدر على تصحيح النص في الوثيقة التي تأخذ بعد ذلك شكلها الحقيقي (الصفحات ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٦٠ ـ ١٦١).

وينبغي ألا تدهشنا نزعة المؤلف العلمية وترجمته الأمينة كما أشرنا فالأستاذ الدكتور (كاليشي) هو متمكن من اللغة العربية في البلاد اليوغسلافية . وفي أثناء تأليفه لهذا الكتاب رجع الى مصادر عديدة بلغات مختلفة من تركية وألمانية وانكليزية وافرنسية .

وفي الصفحات التي تقع ما بين ص ٣٠٩ الى ٣١٣ يختم المؤلف كتابه وتليه صفحات المصادر والمراجع ٣١٥ ـ ٣٢٠ . ونرى أن المؤلف قد اهتم اهتماماً كبيراً بتحقيق الكتاب فرجع الى مكتبات أنقرة واستانبول وبوسنة ومقدونيا وكوسوفا .

وختم الأستاذ الدكتور (حسن كاليشي) كتابه ٣٢١ـ٣٤١ باللغة الالبانية والألمانية. ولو قدمها بالعربية لكان أقرب الى العارفين بهذه اللغة وذلك أفضل بكثير لأن الكتاب يهتم بالثقافة العربية وانتشارها في الدول البلقانية .

وقد أورد في خاتمة الكتاب الأسماء الجغرافية والطوبوغرافية ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ وأسماء الأعلام ص ٣٤٨ ـ ٣٥٦ .

فالكتاب مكتمل من الناحية العلمية ،وقد بذل (د. كاليشي) جهداً ملحوظاً في تأليفه مع الاعتراف ببعض الهنات كما ذكرنا آنفاً ،لكنها لم تؤثر في ما قدم لنا المؤلف من دراسة وتحليل علمي وبحث .

ولهذا الكتاب أهمية ثقافية ولا سيما في مجالي التاريخ السياسي والقانون فهو يتطرق في مواضع جمة الى الحكم العثماني في يوغسلافيا، ومن خلال الوثائق المطبوعة في هذا الكتاب عرفنا أسماء عدد من منشئي الأوقاف الذين لعبوا دوراً فعالا في بناء منشآت كثيرة ثقافية وصحية ودينية واجتماعية وتاريخية وأدبية.

وقد كشف المؤلف بهذه الوثائق بعض الجوانب التي لم تكن مدروسة دراسة موضوعية نذكر على سبيل المثال أنه أظهر أن (خان قرشملي) في اسكوبيا لم يكن من بناء (جوستنيان Justinian)كما ذكر بل انشأه (المارديني) الذي أنشأ خاناً وحماماً في تريبجا Trepça و (سوق نوفي Nuvi Pazar) كما حل مشكلة بناء جامع سنان باشا في مدينة بريزرين Prezeren ومدينة (كاجانيك Kaçanik) .

ولا شك أن كتاباً من هذا النوع يتطلب تحقيقه الماماً بالمخطوطات العربية والتركية ومعرفة بأنواع المنشآت . ليس لنا الا أن نهنيء المؤلف متمنين أن يواصل عمله الثمين في هذا المجال .

فتحي مهديو

جامعة بريشتينا ـكوسوفا ـ يوغسلافيا

□ رسالة جامعية :

أبو علي الفارسي و« المسائل المنثورة »

رضوان الحسن
كلية الآداب – جامعة دمشق

نوقشت علناً في كلية الآداب بجامعة دمشق ، مساء الثلاثاء (في ١٨ شوال ١٤٠١ هـ ، ١٨ آب ١٩٨١) الرسالة الجامعية التي تقدم بها السيد مصطفى الحدري ، لنيل درجة الماجستير في الآداب ، وعنوان الرسالة : « أبو علي الفارسي وتحقيق كتابه : (المسائل المنثورة) » .

وكانت لجنة الحكم على الرسالة تتألف من السادة الأساتذة : الأستاذ الدكتور شاكر الفحام مشرفاً ورئيساً ، والأستاذ عبدالهادي هاشم عضواً ، والدكتور محمد علي سلطاني عضواً .

وشهد المناقشة لفيف من أساتذة كلية الآداب ، وجمهرة من طلبة الدراسات العليا فيها ، وعدد من المهتمين بالتراث العربي .

ولا بد لنا ، قبل أن نعرض للمناقشة ، ولما طرح في أثنائها من آراء وأفكار ، من أن نعرّف بأبي علي الفارسي ، مؤلف الكتاب ، وبكتابه « المسائل المنثورة » موضوع التحقيق والدراسة ، وبالطالب الذي حقق هذا الكتاب ، وقدم له بدراسة مفصلة عن أبي علي الفارسي .

التعريف بالمؤلف :

أبو علي ، الحسن بن أحمد ، بن عبدالغفار ، بن محمد ، بن سليمان ، بن أبان الفارسي(١) ، فارسي النسب من جهة الأب ، وأمه عربية من بني سدوس ، سدوس شيبان(٢) ولد في مدينة فسا(٣) القريبة من شيراز(٤) سنة ثمان وثمانين ومئتين(٥) ، ولذلك يقال له الفَسَوي ، نسبة الى فسا(٦) ، ويقال له أيضاً : الفارسي ، نسبة الى بلاد فارس التي هو منها ، وكان تلقيبه بالفسوي يكثر عند القدامى والمعاصرين لأبي علي ، أما المتأخرون من اللغويين ، والنحاة ، والفقهاء ، والمفسرين ، فانهم يدلون عليه بأبي علي ، أو بالفارسي ، أو بهما معاً(٧) .

ولخص الدكتور عبدالفتاح شلبي بيئة أبي علي المكانية بأزمانها على النحو التالي :

فارس : ٢٨٨ ــ ٣٠٧ ، العراق : ٣٠٧ــ ٣٤١ ، حلب ودمشق : ٣٤١ ــ ٣٤٦ ، العراق : ٣٤٦ ــ ٣٤٨ ، فارس : ٣٤٨ ــ٣٦٨ ، بغداد : ٣٦٨ ــ ٣٧٧ هـ (٨)

توفي أبو علي ، على أرجح الروايات ،سنة سبع وسبعين وثلاثمئة(٩) ببغداد(١٠) ، وكان أبو علي متهماً بالاعتزال(١١) ، خدم الملوك ونفق عليهم(١٢) ، فحصل على الأموال، وكان ذا وفر ، ويقال انه أوصى بثلث ماله لنحاة بغداد ، والقادمين عليها ، وكان ذلك ثلاثين ألف دينار(١٣) ٠

علت منزلته بالنحو ، حتى قال قوم من تلامذته : « هو فوق المبرد وأعلم منه »(١٤) ٠ وكان أبو طالب العبدي يقول : « لم يكن بين أبي علي وبين سيبويه أحد أبصر بالنحو من أبي علي ٠ » (١٥) ٠ وكان أبو علي شديد الاعتداد بالقياس ، حتى انه قال : « أخطىء في خمسين مسألة من اللغة ، ولا أخطىء في واحدة من القياس » (١٦) ٠ وبلغ من المنزلة العلمية حداً خطأ فيه الأصمعي الذي تجرأ على فحول الشعراء »(١٧) ٠

روى أبو علي القراءات عن ابن مجاهد، شيخ قراء بغداد في عصره ، وسمع شيئاً من الحديث من ابن معدان ، وروى عن أحمد بن محمد البصري ، وأخذ النحو عن أبي اسحق الزجّاج (١٨)، ثم نافره ، فقرأ النحو على أبي بكر ، محمد بن السري السراج ، وأخذ عنه كتاب سيبويه(١٩) ، وأخذ النحو عن أبي بكر مبرمان النحوي(٢٠) وأبي بكر بن الخياط(٢١) ٠

وكان لأبي علي عدد كبير من التلاميذ ،الذين أصبحوا فيما بعد من كبار العلماء والنحويين والمحدثين ، منهم أبو الفتح عثمان بن جني ، ويعدّ من أبرز تلامذته ، وعلي ابن عيسى الربعي(٢٢) واسماعيل بن حماد الجوهري ، صاحب الصحاح ، وابن بلبل ، وكثيرون غيرهم ٠

وتزيد الكتب التي تنسب الى ابي علي على ثلاثين كتاباً ، معظمها في اللغة والنحو ، ولم يطبع منها حتى الآن الا قطع من «الحجة»،و « الايضاح » العضدي ، و « شرح الأبيات المشكلة الاعراب » ، ورسالة صغيرة من رسائله وهي « أقسام الأخبار » ٠

ولعل أهم كتب أبي علي « الحجة » في علل القراءات ، و « الايضاح » في النحو ، و « التكملة » في التصريف ، و « التذكرة » ، و « الاغفال » ، و « المسائل المنثورة ، و «المسائل البغدادية » والبصرية ، والقصرية ٠٠ الخ ٠

وقد اهتم العلماء بكتابه « الايضاح » أكثر من اهتمامهم ببقية كتبه ، اذ اشتغل في شرحه ، وشرح شواهده ، والتعليق أو الاعتراض عليه ، أكثر من أربعين عالماً بين القرنين الرابع والسابع ٠

التعريف بالكتاب :

ليس لكتاب « المسائل المنثورة » ـ فيما نعلم ـ الا نسخة خطية وحيدة في العالم ، تضمها مكتبة « شهيد على » باستانبول ،وهذه النسخة موجودة في مجموع يضم خمسة كتب، أربعة منها لأبي علي الفارسي ، آخرها كتاب« المسائل المنثورة » • ورقم هذا المجموع /٢٥١٦/ ، وهو بخط أحمد بن تميم بن هشام اللبلي (نسبة الى لبلة) ، أحد العلماء الرحالين في طلب الحديث في القرنين السادس والسابع، وقد نقله من نسخة سقيمة الخط ، كثيرة الأغلاط والتصفيحات ، يقول اللبلي فيها :« علقها لنفسه ••• بمحروسة بغداد من أسقم نسخة » •

ويضم الكتاب (٣١٤) مسألة من مسائل النحو ، وقليل منها يتعلق ببعض مسائل التصريف • وقد أثبت المحقق بالأدلة القطعية أن هذا الكتاب الذي اشتهر باسم « المسائل المنثورة » ، ما هو الا تعليقة على كتاب سيبويه، رواها عن أبي علي تلميذه الأثير لديه أبو الطيب القصري • وهذه المسائل ـ كما أثبت المحقق ـ تحافظ في ترتيبها على ترتيب الأبواب التي في كتاب سيبويه • ويبدو أن أبا علي ـ كما يقول المحقق ـ لم يكن يعلق على كتاب سيبويه مباشرة ، وانما كان يعلق عليه من خلال المختصر الذي صنعه له أبو عمر الجَرْمي ، والذي اشتهر باسم « الفَرْخ » •

وتدور هذه المسائل ـ وجلها مسائل قصار ـ حول المصدر، وشرح الحال ، وشرح معاني حروف العطف ، وشرح باب النفي ••• واستمرت المسائل بعد ذلك تجري على سنن الأبوب التي في كتاب سيبويه •

التعريف بالطالب :

ولد السيد مصطفى الحدري في مدينة حماه ، سنة ١٩٤٥ ، وتلقى تعليمه في مدارسها ثم انتسب الى الجامعة سنة ١٩٦٤ ، فكان طالباً في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بدمشق • نال درجة الاجازة في الآداب سنة ١٩٦٨ •

عُين عام ١٩٦٩ مدرساً للغة العربية في محافظة حماة ، فدرّس العربية في كثير من مدارسها الثانوية ، ودار المعلمين فيها •

حقق في تلك الفترة كتاب « الأحاجي النحوية » للعلامة الزمخشري ، ونشره في دمشق سنة ١٩٦٩ ، وثناه برسالة الاشتقاق » لابن السراج ، ونشرت في دمشق أيضاً سنة ١٩٧١

انتسب سنة ١٩٧٦ الى الدراسات العليا بقسم اللغة العربية ، بجامعة دمشق ، الشعبة اللغوية ، ونال درجة دبلوم الدراسات العليا سنة ١٩٧٦ • وقع اختياره على كتاب «المسائل المنثورة » لأبي علي الفارسي ، فجعله موضوعاً لرسالة الماجستير التي سجلها في جامعة دمشق• ذهب الى المملكة العربية السعودية ، مدرساً معاراً ، سنة ١٩٨٠ ، واشتغل هناك بتحقيق كتابين في علم الحديث النبوي ، هما «المتجر الرابح » للدمياطي ، و « تذكرة الموضوعات» لابن القيسراني • (الكتابان تحت الطبع) • نوقشت رسالته التي أعدها لنيل درجة

الماجستير مساء الثلاثاء في ١٨ شوال ١٤٠١ ،(١٨ آب ١٩٨١) ونال بنتيجة المناقشة درجة الماجستير في الآداب من جامعة دمشق بتقدير / ممتاز / ٠

مخطط الرسالة :

تقع الرسالة في ثلاثة أبواب ، يتحدث الباب الأول عن أبي علي الفارسي ، ويتحدث الباب الثاني عن المسائل المنثورة ، وجعل المحقق النص المحقق الباب الثالث من الرسالة ٠وقد مهد المحقق للباب الأول بتوطئة ، تحدث فيها عن عصر أبي علي وبيئته ، وذكر الدول التي كانت في عصره ، ورصد بيئته المكانية منذ مولده الى وفاته ٠

وينقسم الباب الأول الى ستة فصول ، تحدث المحقق في الفصل الأول عما قيل عن أبي علي في المصادر القديمة ، وفي الفصل الثاني عما قيل عن أبي علي في الدراسات الحديثة ، وترجم لأبي علي الفارسي في الفصل الثالث، وخصص الفصل الرابع للحديث عن مشايخ أبي علي ، وطبقته ، وتلاميذه ، وجعل الفصل الخامس للحديث عن روايته ، والرواية عنه ، وتحدث في الفصل السادس عن كتبه ٠

أما الباب الثاني فقد جعله المحقق في خمسة فصول ، جعل أولها للحديث عن العلاقة بين « المسائل المنثورة » وكتاب سيبويه ، أما الفصل الثاني فقد جعله للحديث عن أبي الطيب القصري ، راوي الكتاب ، ووصف النسخة الخطية للكتاب « المسائل المنثورة » في الفصل الثالث ، وترجم لناسخ الكتاب أحمد بن تميم اللبلي في الفصل الرابع ، وختم الباب الثاني بالفصل الخامس الذي تحدث فيه عن أصول التفكير النحوي عند أبي علي الفارسي ٠

وقائع المناقشة :

قبل أن نبدأ بمحاولة نقل صورة لجلسة المناقشة ، تجدر الاشارة الى أننا لن نذكر كل ما ورد في هذه الجلسة من ملاحظات ، وآراء ، وتصويبات ، لأن ذلك أمر متعذر ، نظراً لكثرة هذه الملاحظات وتنوعها ، وتفصيل القول في بعضها ، ولم نستطع ــ وللأسف ــ أن نعرض بعض القضايا المهمة التي طرحت فيها ، وذلك لعدم اطلاعنا على النصوص المحققة ،موضوع النقاش ، لأن الرسالة ليست في متناول أيدينا، وعرض هذه الأمور ، وما دار حولها من نقاش وحوار ، يستلزم العودة الى تلك النصوص ، وقراءتها ، ثم التعليق عليها ٠

ولهذا عمدنا الى الاختيار والانتقاء ، وسنختار من الملاحظات والتصويبات التي طرحت في المناقشة ، ما نظن أنه يفيد الباحثين والمحققين بشكل عام ، وطلبة الدراسات العليا بشكل خاص ٠ وصرفنا النظر عن بعض الملاحظات اللفظية ، واللغوية ، والنحوية ٠ كما أغفلنا الملاحظات التي تتعلق بشكل الرسالة ، وسوء الطباعة فيها ٠ وكان اهتمامنا منصباً على الملاحظات المنهجية التي تتناول المبادىء الأساسية في تحقيق نصوص التراث ونشرها ، والملاحظات العلمية التي أخطأ المحقق فيها ٠ولننتقل الآن الى وقائع المناقشة ٠

افتتح الأستاذ الدكتور شاكر الفحام جلسة المناقشة بالتعريف بالطالب ، صاحب الرسالة ، وطلب منه أن يقدم موجزاً لعمله في الرسالة ، يبين فيه النتائج التي توصل اليها

في بحثه • فالقى الطالب كلمة بيّن فيها سبب اهتمامه بأبي علي الفارسي ، مشيراً الى خطته في التحقيق والدراسة ، موضحاًالمراحل التي قطعها ، ذاكراً المصادر التي اعتمدعليها، وتحدث أيضاً عن أبواب الرسالة وفصولها ،شارحاً مضمونها، مؤكداً أهمية الأشياءالجديدة التي أتى بها في رسالته •

وبعد أن أنهى الطالب خطبته ، قدم الاستاذ الدكتور الفحام عضو لجنة الحكم الأستاذ عبدالهادي هاشم ليدلي بملاحظاته حول الرسالة •

بدأ الأستاذ هاشم مناقشته بالثناء على صنيع الطالب ، وبيان مزايا التحقيق والدراسة ، فالطالب – كما يقول الأستاذهاشم – أحسن اختيار موضوعه من تصانيف القرن الرابع ، العصر الذهبي للحضارة العربية ، وجوّد في الترجمة لأبي علي الفارسي ، وبرّز في تحقيق كتاب « المسائل المنثورة »وتعليقاته عليه ، وبيان الصلة الواشجة بين هذه المسائل وكتاب سيبويه ، واهتدى الى مالم يهتد اليه قبله من نظروا في كتاب «المسائل المنثورة » لأبي علي الفارسي • يقول السيدالحدري في هذا الصدد : « وحينما حققت المسائل المنثورة ، وجدتها توجز أبواباً من كتاب سيبويه ، وتحافظ في ترتيبها على الترتيب الذي في كتاب سيبويه ، ووجدت الشواهدالقرآنية، والأبيات الشعرية ،والأمثلة النثرية ، معظمها من كتاب سيبويه » • وهذاالأمر لم ينته اليه – فيما نعلم– أحدممن كتبوا عن أبي علي الفارسي قبل السيد الحدري •وهذا كشف جيد ، حسن ، عن طبيعة الكتاب وتأليفه •

وقد أبدى الأستاذ هاشم تقديره للدراسة التي قدمها السيد الحدري عن أصول التفكير النحوي في كتاب « المسائل المنثورة » فذكر هذه الأصول ، ومثّل لكل منها بمثال منتزع من كتاب « المسائل المنثورة » الذي يحققه •من هذه الأصول التي تحدث عنها المحقق : الاستدلال ، القياس ، قياس العلة ، قياس الشبه ، قياس الطرد ، استصحاب الحال ، الخفة ، الثقل ، الفرق ، المعادلة ، الحمل على المعنى ، الحمل على النقيض ، الحمل على النظير ، القياس الأولى ، التقسيم ، الاستغناء، الاتساع ، قياس السؤال على الجواب ••الخ وهذه كلها – كا يقول الأستاذ هاشم – مبادىءمنهجية في أصول البحث عند علمائنا النحويين، عُنوا بها ، وتابعوا فيها – الى حد ما – ماصنفه الفقهاء قبلهم في أصول التفكير الفقهي •

ولم يقتصر المحقق على أقوال القدماء في هذه الأصول ، والاستشهاد على كل منها ببعض ما جاء في كتاب « المسائل المنثورة » ، وانما أضاف اليها ما رأى اضافته اليها ، كقياس الظواهر النحوية • فالبحث طريف في جملته ،وهو يدل على نهج الأقدمين من علمائنا في وضع أصول النحو ، وفي تعليلهم للقواعد التي قعدوها ، والعلل التي استنتجوها •

كما حمد الأستاذ هاشم للمحقق جهده الجاهد في قراءة صورة المخطوطة الوحيدة التي يعرفها لهذا الكتاب ، وخطها دقيق ،وموضوعها كؤود •

وبعد أن تحدث الأستاذ هاشم عن مزايا التحقيق والدراسة، تحدث عن الموقف الحيادي – اذا صح القول – الذي اتخذه السيدالحدري حيال بعض القضايا في الكتاب ، وتمنى لو

انتقل من الوصف والتقرير الى الفحص والتقويم ، حتى يتسم حديثه بالبحث العلمي، لا أن يكون توطئة للبحث العلمي · فالمحقق ـ عند سرده أصول التفكير النحوي لدى علمائنا القدامى ـ لم يبق لنا رأيه في قيمة هذه الأصول ، وركونه اليها ، أو ثورته عليها ، فهل اقتنع بفائدتها كلها ، وصحتها واطرادها ؟

ويقول المحقق (ص ٨٢) : « وقد رأيت المقولات العشر في كتاب (قاطيغورياس) في المنطق قريبة من هذا ··· وقد ترجم ابن المقفع بعض كتب المنطق اليوناني في وقت مبكر ، وذكر أن الخليل بن أحمد قد التقى به ، فهل يفتح هذا باب البحث فيما نتوجسه من صلة النحو العربي ، ابان نشأته المبكرة بالمنطق اليوناني ؟ لا أستطيع أن أنفي هذا أو أثبته ، وليس هذا ميدان بحثي ، ولكنه أمر جدير بالاهتمام والمتابعة · » ·

ولقد بين الأستاذ هاشم رأيه في هذا الموضوع قائلا ان المعاصرين اليوم درسوا الموضوع ، ورأت كثرتهم أن النحو العربي أصيل ، لم يتأثر بمنطق اليونان ولا بنحوهم ، ونحن اليوم نعرف النحو اليوناني ، ونعرف النحو العربي ، واذا حاولنا أن نقيم مقارنة بينهما وجدناهما متباعدين كل التباعد ،وماقد يبدو من تأثر فهو مما كان قد شاع في أوساط العلماء والمثقفين ، بمعنى أن الخليل، أو سيبويه ، أو الكسائي ، أو أبا علي الفارسي ··· لم يطلعوا على كتب اليونان أو الهنود ، وانما سمعوا أقوالا في حلقات علمية منسوبة الى هذا الجيل أو ذاك ، وهي لا تكفي للتحدث عن أثر واضح ، أو تأثير بيِّن·

ويذكر المحقق أنه وضع فهارس للآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ولكن ليس في الكتاب كله الا جملة واحدة كشف المحقق عن كونها حديثاً نبوياً ، وكان يجب أن يسترعي انتباه المحقق وجود حديث واحد فقط في كتاب يضم أكثر من أربعمئة تعليقة ، وأن يستنتج من هذا الأمر أشياء كثيرة ، وكان عليه أن يتساءل : ألا يريد أبو علي أن يستشهد بالحديث النبوي ؟ أليس في الأحاديث النبوية كلها ما يؤيد هذه المسألة أو تلك ؟ هل يدل هذا على موقف أبي علي من الاستشهاد بمؤدى الحديث ومعناه لا بصياغته ولفظه ؟

ـ أبو علي الفارسي ـ كما هو معروف ـ من جلة المعتزلة ، ونحن نعرف أن الاعتزال لم يكن مذهباً دينياً وفكرياً فحسب ، وانما كان مذهباً علمياً أيضاً ، يتصل بكثير من العلوم ، ومن بينها النحو · فهل وجد المحقق في هذه المسائل المنثورة كلها صلة تربط المذهب النحوي لأبي علي الفارسي بالمذهب الكلامي له ؟ هل كان لاعتداد أبي علي بالقياس مثلا صلة بمذهبه الكلامي ؟ ونحن نعرف أن أبا علي كان يقول : « أخطىء في خمسين مسألة من اللغة ، ولا أخطىء في واحدة من القياس» · كان ينبغي أن يطرح السيد الحدري على نفسه هذه الأسئلة ، وأن يحاول الاجابة عليها من خلال دراسته لمسائل أبي علي المنثورة ، لا أن يكتفي بالوصف والعرض ·

وهناك سؤال آخر : أليس في كتاب « المسائل المنثورة » ما يستوقف القارىء ؟ يقول الكثيرون ان في كتاب سيبويه الذي بين أيدينا نقصاً ، وخرماً ، واحالة ، فهل رأى المحقق شيئاً من هذا في تحقيقه لكتاب هو تعليقات على شطر من كتاب سيبويه ؟

هناك ، كما نرى ، بعض القضايا التي كان ينبغي أن يقف المحقق عندها ، وأن يتلبث ملياً ، وأن يبسط رأيه فيها ، ولكن المحقق لم يفعل ذلك ، واكتفى بالوصف والعرض ، ومنهج الرسائل الجامعية يقتضي أكثر من ذلك ٠

من حيث الفهارس ، لاحظ الأستاذ هاشم أن المحقق لم يصنف في الفهارس مسائل الكتاب وفق معانيها ، أو وفق اعرابها ، أو عللها ، أو وفق موضوعاتها ، واكتفى بسردها واحدة تلو أخرى ، في الفهرس ٠ وليس من اليسير على القارىء الاهتداء الى طلبته في الكتاب حتى لو اطلع على الفهرس كله ٠ وهذه المسائل التي يضمها الكتاب ما أعدت لكي تقرأ من أولها الى آخرها ، وانما أعدت لكي يرجع المرء الى احداها ، حتى يطلع على رأي سيبويه في هذا الموضوع أو ذاك ، وأن يعرف ماذا كان تعليق أبي علي عليه ٠ لذا كان لزاماً على المحقق أن يضع نوعاً من التصنيف لمسائل الكتاب ، يسهل على القارىء الرجوع اليها ٠

من ناحية أخرى ، قسم المحقق عمله الى قسمين ، جعل أولهما الدراسة ، وهي تشمل الباب الأول والثاني ، وجعل ثانيهما النص المحقق ، وعقب على الدراسة بسرد مصادرها ، ثم جعل في فهارس خاتمة الكتاب فهارس القسم الثاني منه ، وهو الباب الثالث ، وهذا يعني أن هنالك فهرسين للمصادر ، وهذان الفهرسان مستقلان ، ولا يغني أحدهما عن الآخر ٠ وكان من الممكن ــ وعمل الرسائل الجامعية منهج قبل كل شيء ــ أن يقسم كتابه قسمين متمايزين ، متباعدين ، يشتمل أولهما على ترجمة أبي علي ودراسته ، وفهارس ذلك كله ، ويشتمل الثاني على النص المحقق ، وعندئذ لا يقول المحقق ان كتابه يقع في ثلاثة أبواب ٠ واما أن يجعل الأبواب الثلاثة في كتاب واحد ، تعقبها كلها الفهارس الشاملة ٠

كما أن كثيراً من الكتب التي أثبتها المحقق في الفهرس قصّر في وصفها ، وأغفل عام طبعها ، وهذا لا يصح ، ولا سيما في كتب طبعت أكثر من مرة ، كما أن بعض الكتب المخطوطة التي عاد اليها المؤلف لم يشر الى مواطن وجودها ، وذكر هذه المعلومات ضروري جداً في الرسالة ٠

ثم انتقل الأستاذ هاشم الى بيان بعض الملاحظات التي تتعلق بالمنهج والدراسة ، من هذه الملاحظات :

عند الاستشهاد بدوائر المعارف ، أو بمعجم من المعاجم ، لا يشار عادة الى الجزء والصفحة ، وانما يشار الى المادة ، لأن الطبعات تختلف ، أما الأسماء والعناوين فلا تختلف ٠

أطال المحقق حديثه عن ناسخ الكتاب (أحمد بن تميم اللبلي) ، وكتب عنه ما يزيد على ثلاث صفحات ، تحدث فيها عن اسمه ، ونسبه ، وحياته ، ووفاته ، وألقابه ، ومشايخه ، وبلده ، (وفضائل هذا البلد !!) ٠٠ ولم يحظ الأستاذ عبدالفتاح شلبي الذي ألف كتاباً كبيراً عن أبي علي الفارسي ، يقع في أكثر من سبعمئة صفحة ، لم يحظ من حديث السيد الحدري الا بأسطر قلائل ، وكان الأستاذ شلبي أحق ، في هذا الصدد ، بالترجمة الواسعة ممن نسخ كتاباً لغيره ، على فضله وشهرته ٠

وطأ المحقق لكتابه بالحديث عن عصر أبي علي ، فتحدث عن الحيـاة السياسيـة ، والاجتماعية ٠٠ وذكر في الصفحة الأولى وحدها ، أسماء ثلاثين علماً ، من خليفة (عدد أسماء تسعة من الخلفاء الذين عاصرهم أبو علي) ، وحاكم ، وثائر ٠٠ وليس مـن الضروري أن يذكر المحقق ، لكتاب نحوي ، في صفحة واحدة ثلاثين اسماً لن يعلق بذاكرة القارىء أكثر من اسم أو اسمين ٠ فهـل أثر هؤلاء الخلفاء في تعليقات أبي علي على بعض مسائل سيبويه ؟ وهل أفاد المحقق من دراسته لعصر أبي علـي من مختلف النواحي ، في اعطـاء ضوء جديد يفيدنا في دراسة هذه المسائل ؟ ليس لأكثر ما ورد في هذا الفصل من صلة بأبي علي ٠ وحبذا لو اكتفى المحقق بذكر بعض الأمراء الذيـن اتصل بهم أبو علي كالحمدانيين مثلاً ٠ فدراسة العصر من مختلف النواحي ليست مطلوبة ، اذا لم يكن لهذه النواحي تأثير فيما يدرس ٠ والتمهيد ينبغي أن يتصل بالموضوع الذي يحقق أو يدرس ٠

وأشار الأستاذ هاشم الى أن الخطيئـات الطبعية كثيرة في الرسالة ، كما أن الخطيئات التي نتجت عن السهو كثيرة أيضاً ، هذا الى جانب غلط لغوي أو نحوي يقع فيه المحقق بين الفينة والفينة ٠

وفي ختام مناقشته للرسالة أشاد الأستاذ عبدالهادي هاشم بعمل السيد الحدري ، وأكد أن الملاحظات التي أبداها لا تنتقص من قيمة العمل الذي بذل فيه المحقق جهداً كبيراً يستحق الثناء والتقدير ٠

انتقل الحديث ، بعد ذلك ، الى الدكتور محمد علي سلطانـي الذي أثنى على عمـل الطالب ، قائلا ان الأستاذ هاشم قد تحدث عن كثير من حسنات المحقق ، فأغنى بذلك عـن تكرارها ٠ وتحقيق كتاب مثل «المسائل المنثورة» يرقى الى أن يكون جديرا برسالة أعلى من رسالة الماجستير ٠

ثم قدم الدكتور سلطاني مجموعة من الملاحظات المنهجية ، والعلمية ، واللفظيـة ، بدأها بالملاحظات المنهجية التي تتعلق بأبواب الرسالة وفصولها ، فالمحقق جعل الدراسـة في بابين ، يضم الباب الأول ستة فصول ، ويرى الدكتور سلطـاني أن يحذف الفصلان الأول والثاني حذفاً تاماً ، لأن الفصـل الأول ـ في رأيه ـ عبارة عن ثلاث وعشرين ترجمة نسخت نسخاً مباشراً (حرفياً) عن ثلاثـة وعشرين مصدراً ، ورصفت الى جوار بعضها رصفاً ، وكان عنوان هذا الفصل « ما قيل عن أبي علي في المصادر القديمة » ٠٠

والفصل الثاني الذي اقترح الدكتور سلطاني حذفه أيضاً هو « ما قيل عن أبي علي في الدراسات الحديثة » ٠ صنع فيـه المحقق صنيعه في الفصل الأول ، اذ رصف كل ما قيل عن أبي علي في الدراسات الحديثـة رصفاً ، ناسخاً اياه من تلك الدراسات ٠

لقد كان المحقق صادقاً في العنوانين ، الا أن المادة التي يضمها هذان الفصلان تحتاج الى كثير من التمحيص ، والبحث ، والتدقيق ٠ وجمع المادة ـ كما نعلم ـ هو المرحلة الأولى من مراحل البحث العلمي ، تليها مراحل أخرى ، تتعرض فيها المادة الأولية الى عمليات الغربلة والاختيار ٠

ومن ناحية ثانية ، جعل المحقق الدراسة في بابين ، وجعل النص المحقق الباب الثالث ، وكان مستغرباً أن يدخل النص المحقق في باب من أبواب الرسالة ، وأن يسميه المحقق «الباب الثالث » لأن النص المحقق لا ينبغي أن يكون باباً من أبواب الرسالة ، وانما يأتي مستقلا ·

والمحقق ــ من ناحيــة ثالثة ــ وصف النسخة الخطية لكتابه ، وتحدث عن منهجــه في تحقيق الكتاب في الباب الثاني ، وهو باب من أبواب الدراسة ، وليس مــن الطبيعي أن توصف المخطوطة ، وأن يتحدث عن منهــج التحقيق في باب من أبواب الدراسة ، هـــذا الكلام يأتي ــ عادة ــ في مطلع النص المحقق ، لأن المحقق ينهي دراسته كلياً ، ثم يلتفت بعد ذلك الى النص المحقق ، فيمهد له بوصف النسخة الخطية لكتابه ، أو النسخ اذا كان هنالك أكثر من نسخة ، وبالحديث عن منهجه في تحقيقــه لذلك النص · أما أن يأتي هذا الكلام في باب من أبواب الدراسة فهذا أمر غير طبيعي ·

وتعرض الدكتور سلطاني ، بعد ملاحظاته علــى أبواب الرسالة وفصولهــا ، لبعض القضايا التي كان ينبغي أن يكون للمحقق رأي فيها ، لا أن يتخذ حيالها موقفاً حيادياً · من هذه القضايا موقف عضد الدولة من كتاب « الايضاح » لأبي علي الفارسي ، اذ انتقص عضد الدولة من قيمة هذا الكتاب ، حين قال مخاطباً أبا علي : « هذا الذي صنعته يصلح للصبيان » ·

ونحن نرى أن عضد الدولة كان متجنياً على أبي علي في هذا الموقف ، وكان يجب أن يستثير المحقق ذلك التناقض بين موقف عضد الدولة من كتاب « الايضاح » ، وبين اهتمام العلماء به ، وكثرة شراحه ، وشراح شواهده ، والمهتمين بــه · وعندما اعترض عليــه ابن الطراوة سليمان بن محمد بكتابه « الافصاح ببعض ما جاء من الخطأ في كتاب الايضاح » ، نهض ابن الضائع (ت ٦٨٠ هـ) بعد قرن ونصف قــرن مــن الزمن ، ليرد علــى هــذه الاعتراضات · كما نظمه شعراً أبو العبــاس الأزدي الحمصي مع كتاب « التكملة » فأجاد في نظمه ·

هذا التناقض بين الموقفين كان يجب أن يستثير المحقق ، وأن يدفعه الى أن يكون له رأي في هــذا الموضوع ، لا أن يقف منــه موقفــاً محايداً ·

ومن هــذه الأمور التي لم يقف عندها المحقق أيضاً ، ما قيل عن أبي علي في الدراسات الحديثة ، من أنه يعد رأس مدرسة في النحو العربي ، تدعى مدرسة النحو الوظيفي ، بدأها أبو علــي ، وورثها عنــه ابن جني ، تلاهما عبد القاهر الجرجاني ، وختمت بالزمخشري · الا أن المحقق لم يكن له دور في بيان صحة هذه الأقوال وتأييدها ، أو بيان الملاحظات والمآخــذ عليها ، من خلال دراسته لمسائل الكتاب الذي يحققه ·

ومما أخذ الدكتور سلطاني على المحقق أنه أورد من بين كتب أبي علي المفقودة كتابين هما « الاغفال » الذي استدرك فيه على الزجّاج ، وكتاب « التذكرة » · واذا عدنا الى فهارس الكتب المخطوطة ، المحفوظة في مكتبات العالم ، وجدنا لكتاب « الاغفال » ثلاث نسخ خطية في

دار الكتب المصرية، أولاها برقم (٦٩٩) تفسير، والثانية برقم (٨٧٥) تفسير ، والثالثة برقم (٥٢) تيمورية • أما الكتاب الثاني الـذي يعده المحقق مفقودا ، وهو كتاب « التذكرة »، فقد تحدث عنه بروكلمان (١٩٤/٢) فقال: هناك نسخة موجودة في زنجان ، وأحال القارىء على مجلة لغة العرب (٩٢/٦) •

فهذان الكتابان اللذان يقول السيد الحدري أنهما مفقودان ، ليسا بمفقودين ، لأن لهما نسخاً خطية في بعض مكتبات العالم • ولعـل أفضل ما يقدمه الدارس للتراث العربي ،حين يتناول بالدرس علماً من أعلام التراث ، أن يستقصي أخبار كتبه ، وأن يصنفها في دراسته، مستقاة من فهارس المخطوطات ، وأن يشـير الى رمز هذه الكتب ، ورقم وجودها في مكتبات العالم ، وهذا ما قصر به المحقق ، لأنه لايذكر مكان وجود هذه الكتب ، ولا يشير الى رموزها وأرقامها ، فحرم الدارسين مـن تلك الفوائد العلمية، واستصفاها لنفسه، وهذا أمر لايجوز في البحث العلمي •

ومن المآخذ التي نأخذها على صنيع المحقق أنه أغفل تصنيف المسائل المنثورة الذي أشار اليه الأستاذ هاشم ، وهذا التصنيف أمر حيوي، ونحن لا نبالغ اذا قلنا ان هذه المسائل وحدها هي الجديرة بالتصنيف والفهرسة ، لأن هـذا الكتاب يقوم على هذه المسائل ، فاذا لم تصنّف بطريقة علمية فانها لا تعطي الفائدة المرجوة منها • لذا كان لزاماً على المحقق أن يضع لكل مسألة عنواناً مقتبساً من مضمونها ، ثم يصنف هذه العناوين ، وأن يقيم تصنيفاً آخر علـى أبواب النحو ، وبغير هذا لا يكون الكتـاب قد أدى دوره كاملا •

ووقف الدكتور سلطاني وقفة طويلـة عند تخريج المحقق للشواهد الشعرية ،فعرض مجموعة من الملاحظات المنهجية حول تخريجات المحقق ، من هذه الملاحظات أن المحقـق كان يخرّج الشواهد الشعرية التي يضمها كتاب « المسائل المنثورة » من كتب النحو ، وكتب اللغة ، قبل تخريجها من دواوين الشعراء •والتخريج من غير الديوان ليس صحيحاً اذاكان للشاعر ديوان • ينبغي أن يبدأ التخريج من الديوان أولا ، وبعد التخريج من الديوان قد نعرّج على بعض كتب اللغة • ولا بد مـن ذكر اختلاف الروايات ، لأن له شأنا عنـد النحاة ، يتلو ذلك تخريج الشاهد مـن كتب النحو ، وبيان موقف النحاة من هذا الشاهد ، فالنحاة ــ في التخريج ــ يأتون بعد الرواة ،وليس قبلهم •

ويلاحظ من تخريجات المحقق أنه لم يعرّج على الكتب المتخصصة بالشواهد ، لأن ذهنه انصرف الى كتب النحو ، لذا تخبط تخريجـه للشواهد تخبطاً لا نظير له ، وقد جاءت شروحه لبعض الشواهد سقيمة ، وذلك لاعتماد المحقق على كتب النحو التي تهتم عادة بشرح البيت فقط ، وشرح البيت مفرداً يؤدي ــ في بعض الأحيان ــ الى الانحراف بالمعنى ، بينما تهتم كتب الشواهد بالقصيدة، ومناسبتها ،وخبرها أيضاً •

لوحظ أن الترتيب الزمني مفقود في حواشي الكتـاب ، وهـذا أمر لا يجوز ، لأن المراجع يجب أن ترتب ترتيباً زمنياً ، اذ ليس من المنطق ، أو من الحكمة ، أن تأتي بكتاب

من القرن السابع يسبق كتاباً في القرن الثاني مثلا ، وليس من الصواب أن تأتي باللاحق قبل السابق .

ثم انتقل الدكتور سلطاني الى بيان بعض الملاحظات العلمية ، فقد فهم المحقق من كتابات بعض المتقدمين أن كلمة « المنثورة » تطلق على نمط من التأليف ، غير محرر ولا مستوفى ، على حين ذهب الدكتور عبدالفتاح شلبي الى أن سبب تسمية الكتاب بالمسائل المنثورة ، هو أنها لا تنتسب الى بلد بعينه ، اذ يبدو من اسمها أنها ألقيت هنا وهناك . واعترض المحقق على هذا الفهم قائلا : « ولا دليل من اللغة أو الاصطلاح على هذا الفهم ». وقد جانب المحقق الصواب في اعتراضه هذا ، ويرد عليه بدليلين : عقلي ونقلي . فالدليل النقلي ما ذكره اللغويون في شرح كلمة (نثر)، الفيروزآبادي يقول في القاموس المحيط : « نثر الشيء ينثره وينثره رماه متفرقاً » ، وجاء في اللسان قوله : « ونثراً كنثر الدقل ، أي كما يتساقط الرطب اليابس من العذق اذا هز » » .

أما الدليل العقلي فهو ما اشتهر من مسائل أبي علي في نسبتها الى البلدان ، فكان منها العسكريات ، والبصريات ، والحلبيات ، والشيرازيات ... أما هذه المسائل فلا تنتسب الى بلد بعينه . لقد كان المحقق متردداً في سبب تسمية المسائل بالمنثورة ، والمسائل المنثورة أمامه ، ومن دراسة هذه المسائل يمكن استخلاص الصفة ، أو الصفات التي دعت الى هذه التسمية ، ويبدو أنها مسائل لا يجمعها باب واحد في العلم الذي تنتمي اليه .

ومن الملاحظات العلمية التي بسط الدكتور سلطاني القول فيها ، أن الأستاذ سعيد الأفغاني فسّر عبارة « علّقها لنفسه » التي اعتاد نساخ المخطوطات أن يثبتوها في بعض الكتب التي ينسخونها ، بقوله : « علقها لنفسه : جعلها لنفسه خالصة ، ولم يرد وقفها على القراء » . واعترض المحقق على تفسير الأستاذ الأفغاني هذا قائلا : « ولا أدري من أين جاء أستاذنا الأفغاني بهذا التفسير .. أما أنا ، فيظهر لي ، من بحثي عن هذه اللفظة في كتابات تلك الفترة ، أن التعليق هو الكتابة السريعة من لفظ الشيخ ، كيلا يضيع شيء من المادة العلمية التي يمليها .. ولكن عبارة « علّقها لنفسه » التي وردت في كلام اللبلي ناسخ (المسائل المنثورة) ليست بهذا المعنى ، لأنه لا يقيد ما يسمعه من شيخ ، وانما ينقله من نسخة أمامه ، والمقصود من عبارة اللبلي أنه كتبها كتابة سريعة » .

ونحن لا نوافق المحقق على فهمه هذا لعبارة « علقها لنفسه » ، والمحقق نفسه أورد في رسالته ما ينقض فهمه هذا ، وذلك حين قال في موضع آخر من الدراسة . « ومن هذين النصين يظهر أنه ـ أي الناسخ ـ قضى في كتابة « المسائل المنثورة » أكثر من عشرين يوماً ، ويكون قد كتب في اليوم الواحد صفحتين أو يزيد » . فأين السرعة التي يركز عليها المحقق في فهمه لمعنى التعليق ما دام الناسخ لا يكتب في اليوم الواحد الا صفحتين أو يزيد قليلا .

ونحن نرى أن كلمة التعليق تشير الى نفاسة النص المنسوخ ، فهو جدير بالعلوق في النفس ، ومنه كان استعمالهم صفة المعلقات للقصائد المختارة في العصر الجاهلي ، وعندما

يكتب الناسخ « علقها لنفسه » فكأنما يريدأنه نسخها مدركاً أهميتها ، ضنيناً ببذلها ، لشدة اهتمامه بها ، واكباره شأنها ، وبهذا يكون فهمنا لهذه العبارة قريباً من فهم الأستاذ الأفغاني لها .

وزعم المحقق (ص ٨٠ من الدراسة)أنه تفرّد ، من دون الأقدمين ، بتخصيص فقرة خاصة لبحث الاتساع ، وغفل عما صنعه السيوطي في الأشباه والنظائر (١٤/١ ، ١٩) ، ومعلوم أن السيوطي بسط القول في بحث الاتساع ، وأشار بتواضع الى من سبقه من العلماء الذين بحثوا هذا الموضوع، وحين أشار السيوطي الى عمله قال : « وأنا أشبع القول في هذا الباب» .

وقع المحقق في التناقض حين عمد الى اثبات أن كتاب « المسائل المصلحة » لأبي علي هو نفسه كتاب « الاغفال » الذي استدرك فيه على الزجَّاج ، وعمد في موضوع آخر من الرسالة الى ايرادهما على أنهما كتابان ، فكيف أثبت أنهما كتاب واحد ، ثم عاد ليناقض نفسه فذكر أنهما كتابان ؟ !

وفي نهاية مناقشته للرسالة، أثنى الدكتور محمد علي سلطاني على صنع المحقق ، مؤكداً على أن تحقيق كتاب « المسائل المنثورة» يرقى الى أن يكون جديرا برسالة أعلى من رسالة الماجستير ، لأنه يحتاج الى نضج نحوي، وشعور بالمسؤولية أكبر ، وتلبث في تخريج النصوص ، وينبغي لمن يتصدى له أن يكون له رأي بين موقفي النحويين الكبيرين ، أبي علي الفارسي وسيبويه .

انتقل الحديث الى الأستاذ الدكتور شاكر الفحام الذي بدأ مناقشته للرسالة بالثناء على الجهود الطيبة الموفقة التي قام بها الطالب . وأبدى اعجابه بهذا الصبر الطويل الذي تحلى به المحقق ، وبهذا الجهد الكبير الذي بذله لطالب في قراءة المخطوطة الوحيدة لهذا الكتاب، وهي نسخة سقيمة جدا ، فيها سقط وتصحيف كثير ، قال ناسخها اللبلي انه « علقها لنفسه ... بمحروسة بغداد من أسقم نسخة »، واستطاع المحقق أن يصحح قسماً كبيرا من أخطائها ، وأن يجلو غوامضها .

وقال الأستاذ الدكتور الفحام ان تحقيق « المسائل المنثورة » لأبي علي الفارسي هو فاتحة لتحقيق بقية كتبه المخطوطة ، ودراسة أبي علي دراسة وافية ، وسيكون لقسم اللغة العربية بجامعة دمشق الفضل الكبير في هذا الباب ، فهناك طالب آخر من طلبة الدراسات العليا بقسم اللغة العربية ، يحقق «العضديات» ، وثالث يحقق « العسكريات» ، ورابع يحقق « البغداديات » . وهذا التحقيق لكتب أبي علي سيفتح الباب على مصراعيه لدراسة أبي علي دراسة شاملة ، ولا يمكن أن يدرس نحوي كأبي علي ، دون أن تحقق كتبه ،وتكون في متناول أيدي الباحثين . ولم يطبع من كتب أبي علي حتى الآن غير الجزء الأول من كتاب « الحجة » ، وجزء من كتاب « الايضاح العضدي » ، ورسالة صغيرة من رسائله نشرت في مجلة المورد ، لم يفطن اليها المحقق ، وهي « أقسام الأخبار » .

ومع اعجابنا بتحقيق السيد الحدري للمسائل المنثورة ، وتقديرنا لجهده فيه ، الا أنه كان يتعجل أحياناً في بعض القضايا ، بمعنى أنه كان ينبغي عليه أن يقف وقفة أطول أمام بعض النصوص ، وأن يتلبث في تحقيقه لها . ولكن قدرته ، وطاقته العلمية ، دفعتاه

الى أن يتعجل أحياناً . ولذا فان نقدنا له انما نستوحيه من أنه كان يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل ، وأن يقدم أفضل مما قدم ، وهو قادر على ذلك . وتظهر قدرته هذه في تحقيقه لبعض قضايا الكتاب .

ويبدو المحقق في تحقيقه لهذا الكتاب ،واثقاً من قدرته ، يتكىء علـى نفسه كثيراً ، ويعتمد على جهوده الشخصية ، وهـذا يعمد اليه كل انسان عنده قدرة علميـة ، وكثيرا ما كان يبدو شديد الاعتماد على نفسه ،وكأنه لا يريد أن يستعين بجهود مـن سبقه مـن الباحثين ، وهذا أمر مستغرب ، ولا نرتضيه له . ان عدم الاستفادة من الجهود التي بذلها السابقون مأخذ عام على الطالب ، لأنه لم يفد من دراساتهم ، مع العلم بأنهم كتبوا ما كتبوا ليفيد منه الباحثون اللاحقون ، وليضيفوا اليه فيما بعد . وفي تحقيق النص أمثلة كثيرة على اتجاه المحقق هذا ، فالمحقق مثلا أجهد نفسه في معرفة المواضع التي نقل فيها البغدادي ، صاحب الخزانة ، من كتاب « المسائل المنثورة » لأبي علي . واستطاع المحقق أن يتعرف على قسم كبير من هذه النقول ، الا أنه ـ وهـذا أمر طبيعي ـ لم يستطع أن يتبينها كلهـا . ولو رجع المحقق الى كتاب « اقليد الخزانة » للميمني ، لوجده يذكر بدقة كل المواضع التي نقل فيها البغدادي ، صاحب الخزانة ، مـن « المسائل المنثورة » . فلمَ هذا العناء ، ولمَ كل هذا الجهد ؟

وبذل المحقق ، من ناحية أخرى ، جهداً كبيراً في تخريجه للشواهد ، دون أن يطلع على كتاب « معجم شواهد العربية » الذي ألفـه الأستاذ عبدالسلام هارون . وكان المحقق في تخريجه لشواهد الكتاب ، يزيد أحياناً على التخريج الذي في كتاب الأستاذ هارون ،وكان ينقص عنه أحياناً ، وكان ينبغي ألا ينقص عنه شيئاً ، لأن الأستاذ هارون هو السابق ، وكتابه مطبوع منذ سنة ١٩٧٢ ، فكان لزاماً على المحقق أن يعود الى ذلك الكتاب ، وأن يحاول الاستفادة مما خرّجه الأستاذ هارون ، ثم يحاول ، بعد ذلك ، أن يزيد على تخريجاته ، ان استطاع . أما أن ينقص عنها فهذا أمر غير طبيعي .

ومما أخذ الأستاذ الدكتور الفحام على المحقق أنه لم يطلع على كتب أبي علي الفارسي الأخرى ، ولو اطّلع عليها لصحح كثيراً مـن مسائل الكتاب ، لأن أبا علي كان يكرر آراءه من كتاب الى كتاب ، ونجد كثيراً من المسائـل المنثورة مبثوثة في كتبه الأخرى ، كالبصريات مثلا ، وكذلك الشواهد .

واعتمد المحقق في تحقيقه لكتاب المسائل المنثورة ، على نسخة خطيـة له ، موجودة في مجموع يضم خمسة كتب ، أربعة منها لأبي علي الفارسي، آخرها كتاب «المسائل المنثورة»، ولم يطلع المحقق على بقية هذه الكتب ، ولو اطلع عليها لتوصل في دراسته الى نتائج أفضل .

وكما أن المحقق لم يفد من كتب أبي علي الأخرى ، فانه لم يفد أيضاً من كتب ابن جني، وابن جني ـ كما نعلم ـ ثمرة من ثمرات أبي علي الفارسي .

أما من حيث الفهارس فان في الكتاب أكثر من أربعمئة مسألة ، ولا يجوز في دراسة محققة ، مدققة لهذا الكتاب ألا تشتمل على فهرس للمسائل المنثورة ، يشير الى مضمون كل

واحدة من هذه المسائل . وأغرب ما في الأمرأن المحقق نفسه كان قد وعد في الصفحة ٦٢ من دراسته بصنع هذا الفهرس الضروري ،ولكنه ـ وللأسف ـ لم يف بوعده . وكان أبو علي نفسه يوحي بأنه لا بد من صنع هـذاالفهرس ، فكثيراً ما كان يضع في مقدمة بعض المسائل موضوعها وغرضها ، مثال ذلك مانجده في المسائل (٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥١) . لـذا كنا نود لو أن المحقق وضع لكل مسألة ، الى جانب رقمها ، عنواناً يدل على مضمونها ، ثـم يصنع لها فهرساً ، حتى لو كان هذا الفهرس فهرساً متسلسلا حسب ورود المسائل ، وذلك لنعرف مضمون هذه المسائل . ان مثل هـذاالفهرس لا يفيدنـا في معرفـة مضمون هـذه المسائل فحسب ، وانما يجعلنا ندرك الناظم لهذه المسائل جميعاً .

واذا كان قد خرّج المسائل من كتب النحاة تخريجاً جيداً ، فانه كان من الأهمية بمكان أن يصنع فهرساً خاصاً لما ذكره النحاة مـن كتاب « المسائل المنثورة » ، أي أن يشير الى ما نقلوه منها نقلا بنصه مع الاشارة اليه ، أونقلا دون عزو ، لأن هذا الأمر يدل على أهمية المسائل المنثورة وقيمتها على توالي العصور . وقـد أشـار المحقـق الى ما يماثـل المسائل المنثورة في كتاب سيبويه ، وكان يجب أن يشير أيضاً الى المسائل المنثورة ، وما وجد منها في مختلف كتب النحو .

ثم توقف الأستاذ الدكتور الفحام عند بعض الملاحظات المنهجية . من هذه الملاحظات أن الطالب ذكر عدداً من المصادر والمراجع في حواشي التحقيق والدراسة ، ولم يثبت هـذه الكتب في ثبت المصادر والمراجع ، واذا ذكر المحقق مصادره ومراجعه . فانه ، في كثير من الأحيان ، لا يذكر موضع الطبع ، أو سنة الطبع ، أو اسم المطبعة . وهذا أمر غير طبيعي ، ولا يجوز في الرسالة الجامعية . ان ذكر المصدر والمرجع ، ومعلومات الطبع ، أمر ضروري ، حتى يستطيع القارىء التعرف على الطبعة التي اعتمد عليها المحقق أو الدارس ، وأن يتبين سنة الطبع ، حتى يسهل عليه الرجوع الى الطبعة نفسها . وربما أغفل الطالب في بعض الأحيان ذكر مصادره ومراجعه ، كما فعـل عندما تحدث عن شيوخ أبي علي في علم الحديث (ص ٢١) ، وهذا لا يجوز أيضاً .

ومن هذه الملاحظات المنهجية أيضاً أن المحقق كان يعتمد ، في أحايين كثيرة ، على ما كتبه بعض الباحثين المحدثين ، دون أن يعود الى المصادر التي اعتمد عليها هذا الباحث أو ذاك ، والعودة الى تلك المصادر أمر مهم . لا بد من العودة الى تلك المصادر حتى نتأكد من دقة ذلك الباحث وأمانته العلمية في نقل النصوص ، أو الاقتباس منها ، وحسن فهمه لها . ولا يمكن أبداً الوثوق بما ينقله الباحثون المحدثون من المصادر القديمة ، أو ربما يقتبسونه منهـا ، لأنهم ربما فهموا النصوص فهماً خاطئاً .

ومما يلفت النظر في دراسة السيد الحدري ، أنه لم يلتزم ناظماً منطقيـاً في ترتيب أسماء تلاميذ أبي علي الفارسي ، وكان عليه أن يرتبهم بطريقة ما ، حسب وفياتهم مثلا ، أو أن يرتبهم على حروف المعجم ، أو وفق أي ترتيب يختاره هو ويرتضيه . أما أن يذكر عدداً كبيراً من تلاميذ أبي علي دون أي ترتيب. فهذا أمر غير مقبول .

ومما يلاحظ على الدراسـة أيضاً أن المحقق اهتم بأبي علي النحوي ، أكثر بكثير من

اهتمامه بأبي علي اللغوي ، ولذا كان الجانب اللغوي في الدراسة مطموساً ، على حين كان الجانب النحوي بارزاً جداً ، وكان من الضروري أن يعير المحقق الجانب اللغوي اهتمامه ، حتى يتم التوازن بين هذين الجانبين .

ومن الأخطاء المنهجية التي وقع فيها المحقق التكرار الذي نلمحه في بعض جوانب الدراسة ، اذ اختلطت على المحقق الأمور حين تحدث عن عصر أبي علي ، وبيئته ، وترجمته، فوضع هنا ما يجب أن يوضع هناك ، ووضع هناك ما كان قد وضعه هنا ، فوقع في الرسالة شيء من التكرار ، على الرغم من الايجاز الشديد الذي تتميز به الدراسة . وكنا نتمنى لو تجنب المحقق ذلك .

ثم نبه الأستاذ الدكتور الفحام الطالب على بعض الأخطاء العلمية التي وقع فيها ، فالطالب ، على سبيل المثال ، ذكر في دراسته أن عمر بن هبيرة كان عاملا لمروان بن محمد، وذكر في موضع آخر من الدراسة أنه كان عاملا لسليمان بن عبدالملك ، وقد أخطأ المحقق في كلا الموضعين ، لأن الذي كان عاملا لمروان بن محمد هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري.

وقد أخطأ المحقق مرة أخرى حين نسب ابن هبيرة الى عمر بن هبيرة ، والصحيح أنه ينسب الى يزيد بن عمر بن هبيرة .

وظن المحقق أن « العضديات » هي « القصريات » ، وهذا ظن في غير محله ، لأن العضديات غير القصريات ، وليست العضديات تصحيفاً للقصريات، كما ظن المحقق. وهناك اشارات كثيرة تدل بوضوح على أنهما كتابان. ولو قرأ المحقق « المسائل البصريات » لوجد على وجه الورقة الأولى منه النص التالي : « لأبي علي مسائل تسمى العضديات ، والقهستانيات ، والأصبهانيات ، والذهبيات» .

وقبل أن ينهي الأستاذ الدكتور الفحام مناقشته لعمل السيد الحدري أشار الى أن في تحقيق النص بعض السقط والسهو ، ونصح السيد الحدري ألا يطبع النص قبل أن يعيد مقابلته على النسخة الخطية التي اعتمد عليها.

وبعد الانتهاء من المناقشة ، رفعت الجلسة للمذاكرة . وبنتيجة المذاكرة قررت لجنة الحكم منح الطالب مصطفى الحدري درجة الماجستير في الآداب بتقدير ممتاز .

ملاحظات سريعة :

كانت المناقشة ، من الناحية العلمية ، غنية بمضمونها ، غنية بنزعتها العلمية ،غنية بمناقشاتها الخصبة البناءة ، مفيدة لطلبة الدراسات العليا ، لأنها كانت تركز على الأخطاء المنهجية ، والعلمية ، واللغوية التي يقع فيها أحياناً بعض المحققين والدارسين .

ولم يطلب الأساتذة المناقشون من الطالب أن يأتي بأشياء فوق طاقته العلمية ، بل كان نقدهم له ينصب على ما يستطيع القيام به ،ولكنه قصَّر فيه . وهذا ما صرَّح به الأستاذ الدكتور الفحام في مناقشته للطالب ، حين قال: « فان نقدنا له نستوحيه من أنه كان يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل ، وأن يقدم أفضل مما قدم وهو قادر على ذلك ، وتظهر قدرته هذه في تحقيقه لبعض قضايا الكتاب » .

وكان الأساتذة المناقشون يتحلون بالروح العلمية ، اذ أنهم أعطوا الطالب ما يستحقه من الثناء على رسالته ، والتشجيع له • وكان النقد الذي يوجه الى عمله رقيقاً ، رفيقاً ، غايته التنبيه على بعض الأخطاء التي وقع فيها الطالب ، كي يتجنبها في المستقبل • ولم تكن الغاية من ذلك النقد التشهير بتلك الأخطاء ، أو تعظيم شأنها ، بل على العكس من ذلك ، وجدنا الأساتذة المناقشين يرفقون بالطالب ، ويمهدون لنقدهم عمله بمقدمة رقيقة ، مؤكدين المرة تلو المرة أن تلك الملاحظات لا تنقص من قيمة عمله ، وانما هي متممة له ، ترشده الى بعض مواضع الخطأ والزلل ، وأن الانسان ليس معصوماً من الخطأ والنسيان •

ولم نلحظ طيلة المناقشة تسفيها لآراء الطالب ، أو تقليلا من شأنها ، على الرغم من أن الطالب كان أحياناً يخالف بعضهم الرأي •

وظهر من خلال الحوار الذي دار في جلسة المناقشة أن الأستاذ المشرف (د• فحام) كان يترك للطالب ، في أثناء تحضيره للرسالة ، الحرية في أن يعبر عن آرائه كما يشاء ، دون أن يفرض عليه رأياً أو موقفاً • فالطالب كان يتمتع بالحرية المطلقة في التفكير والكتابة ، على الرغم من أنه كان يخالف أستاذه المشرف الرأي في بعض الأحيان ، وكان صدر الأستاذ المشرف يتسع لذلك • وقد صرح الأستاذ الدكتور الفحام نفسه بأنه ليس مقتنعاً بكل ما كتبه الطالب عن معنى التعليق ، على الرغم من أن الطالب قد أطال الحديث في هذا الجانب ، وقد صارح الأستاذ الدكتور الفحام الطالب بذلك قائلا له : « لست مقتنعاً بكل ما كتبته عن معنى التعليق ، على الرغم من اطالتك فيه ، فللتعليق أكثر من معنى ، من هذه المعاني ••• ، وقد نبهتك الى ذلك في أثناء تحضيرك للرسالة ، وتركت لك الحرية ، كي تفكر كما تشاء ، وتعبر عن آرائك كما تشاء ، لأنني لا أريد أن أفرض آرائي على أحد • »

وهذه النزعة العلمية جديرة بالتقدير والاحترام ، وهي ــ دون شك ــ خصلة من أخلاق العلماء • فمن حق الطالب على أستاذه المشرف أن يمنحه الحرية في التفكير والدراسة • ولا ينبغي بأية حال من الأحوال أن يلزمه بمواقف معينة ، أو أن يفرض عليه بعض آرائه وأن يجعله يدور في فلك أفكاره • ويكون دور الأستاذ المشرف آنذاك دور الموجه ، والمرشد ، والناصح •

بهذا الغنى ، وهذا التنوع ، وبتلك الروح العلمية ، نوقشت رسالة السيد مصطفى الحدري ، وأعطت صورة مشرقة للرسائل الجامعية التي تناقش في كلية الآداب بجامعة دمشق • فالبحث ــ كما يقول الأستاذ هاشم ــ طريف في جملته ، وهو يدل على نهج الأقدمين من علمائنا الأوائل في وضع أصول النحو ، وفي تعليلهم للقواعد التي قعّدوها ، والعلل التي استنتجوها • ولا شك أن المكتبة العربية ستغنى غنى محمودا اذا طبع هذا الكتاب ، ووضع بين أيدي المعنيين بالنحو العربي ، الحراص الغيُر على تراثنا الحضاري الخصيب •

رضوان الحسن
كلية الآداب ــ جامعة دمشق

الحواشـي :

١ ــ معجم الأدباء ٢٣٢/٧ ، وفيات الأعيان ٨٠/٢ ٠

٢ ــ انباه الرواة ٢٧٤/١ ٠

٣ ــ تاريخ بغداد ٢٧٥/٧ وانظر معجم الادباء ٢٣٤/٧ ٠

٤ ــ معجم البلدان / فسا / ٤ / ٢٦١ ٠

٥ ــ وفيات الأعيان ٨٢/٢ ، شذرات الذهب ٨٩/٣ ٠

٧ ــ أبو علي الفارسي للدكتور عبدالفتاح شلبي ص ٥١ ٠

٨ ــ المرجع السابق ٦٤ ٠

٩ ــ تاريخ بغداد ٢٧٥/٧ ، معجم الأدباء ٢٣٣/٧ ٠

١٠ــ وفيات الأعيان ٨٢/٢ ٠

١١ــ تاريخ بغداد ٢٧٥/٧ ٠ وانظر : معجم الأدباء ٢٣٤/٧ ، وفيات الأعيان ٨٢/٢ ، شذرات الذهب ٨٨/٣ ٠

١٢ــ تاريخ بغداد ٢٧٥/٧ ، معجم الادباء ٢٣٤/٧ ٠

١٣ــ البلغة في تاريخ أئمة اللغة ٥٤ ٠

١٤ــ تاريخ بغداد ٢٧٥/٧ ٠

١٥ــ معجم الأدباء ٢٣٩/٧ ٠

١٦ــ الخصائص ٨٨/٢ ، وانظـــر معجم الأدباء ٢٣٨/٧ ، و ٢٥٤/٧ ٠

١٧ــ معجم الأدباء ٢٤٣/٧ ــ ٢٤٧ ٠

١٨ــ المصدر السابق ٢٣٣/٧ ٠

١٩ــ البلغة في تاريخ أئمة اللغة ٥٣ ٠

٢٠ــ بغية الوعاة ٧٤ ٠

٢١ــ معجم الأدباء ٢٣٣/٧ ٠

٢٢ــ المصدر السابق ٢٣٤/٧ ٠

المصادر والمراجع :

١ ــ أبو علي الفارسي : د٠ عبدالفتاح شلبي ٠ (القاهرة ،مكتبة نهضة مصر) ٠

٢ ــ انباه الرواة : جمال الدين علي بن يوسف القفطي ٠ تحقيق أبو الفضل ابراهيم ٠ القاهرة ، دار الكتب ٠

٣ ــ بغية الوعاة : جلال الدين عبدالرحمن السيوطي (مصر ،مط السعادة ١٣٢٦ هـ) ٠

٤ ــ البلغة في تاريخ أئمة اللغة : الفيروزآبادي ، تحقيق محمد المصري ٠ (دمشق وزارة الثقافة ١٣٩٢ هـ) ٠

٥ ــ تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي احمد بن علي (المدينة المنورة ، المكتبة السلفية) ٠

٦ ــ الخصائص : عثمان بن جني ٠ تحقيق محمد علي النجار٠ (القاهرة ، مط دار الكتب ١٣٧٤ هـ) ٠

٧ ــ شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي ٠ (بيروت : دار الآفاق الجديدة) ٠

٨ ــ معجم الأدباء : ياقوت الحموي ٠ (بيروت ، دار احياء التراث العربي) ٠

٩ ــ معجم البلدان : ياقوت الحموي ٠ (بيروت ، دارصادر)٠

١٠ــ وفيات الأعيان : ابن خلكان ٠ تحقيق د٠ احسان عباس(بيروت ، دار صادر) ٠

دراسات في تاريخ المدن الفراتية :

(١)

قرقيسيا

محمد ناشد مشوح

تقع على ضفة الفرات الشرقية عند مصب نهر الخابور في الفرات على مقربة منها رحبة مالك بن طوق وتبعد عن دير الزور ٣٥ كم شمال شرقي ٠

كان اسمها (تاباكان) ثم (شوبورا) ثم (سوكي) في عهد الآشوريين ٠

سماها اليونان (تركسيون) وسماها الرومان (سرسيوم) وسماها العرب عندما فتحوها (قرقيسيا) فيها معالم أقنية أثرية ٠كانت في عهد البابليين والرومان والعرب عامرة زاهرة كثيرة السكان وافرة الثروة ٠

ذكرها المؤرخون فقال ابن حوقل : لهابساتين وأشجار وفواكه وهي نزهة ٠ وقال ياقوت : بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندهامصب الخابور في الفرات فهي مثلث بين الخابوروالفرات ٠ سميت بقرقيسيا بن طهمورث الملك ٠ كان عدد سكانها في العهد الروماني(٦٠) ألفاً ٠

وقال حمزة الأصفهاني : قرقيسيامعرب كركيسيا وهو مأخوذ من كركيس وهو اسم لارسال الخيل المسمى بالعربية الحلبة ٠ وقالبطليموس: طولها ٦٤درجة و٤٥دقيقةوعرضها ٣٥° وهي من الاقليم الرابع طالعها السماك الأعزل ٠

لعبت قرقيسيا دورا في تاريخ المنطقة السياسي وقال ياقوت انها كانت مسرحاً للحوادث في عهد العباسيين ٠

نفذ اليها سعد بن أبي وقاص جيشاً عام١٦ هـ وهو بالمدائن على رأسه عمرو الزهري ولما فتح عياض بن غنم الجزيرة سنة ١٩ هـ وجه حبيب بن مسلمة الفهري الى قرقيسيا ففتحها على مثل صلح أهل الرقة ٠ فلما مات عياض وولي الجزيرة عمير بن سعد وولي

رأس عين سلك الخابور وما يليه حتى أتـى قرقيسيا وقد نقض أهلها فصالحهم على مثل صلحهم الأول ٠

ـ عندما هادن عبدالملك بن مروان امبراطور البيزنطيـين حينما أغـار على الثغور الاسلامية سنة ٧٠ هـ وخرج جيشه من دمشق حتى وصل الى أراضي الفرات لكنه رجع الى الشام عند ثورة عمر الأشدق فقتله ثم رجع الى العراق وحاصـر زفـر بن الحارث زعيم القيسية في قرقيسيا الذي كان يدعو لابن الزبير فصالحـه وانضوت القيسيـة تحت لـواء عبدالملك ٠

كما أن زفر بن الحارث الكلابي خرج الى قرقيسيـا بعد أن انقضى يوم مرج راهـط وتحصن بها وجعل يغير على بلاد كلب التي كانت تفعل ذلك بقيس وكان عمير بن الحباب السلمي يغير مع زفر ببني تغلب ٠

ـ دخل زفر بن الحارث قرقيسيا هارباً من مروان بن الحكم وأقام عمـير بن الحباب شيئاً على طاعـة بني مروان وأقبل ودخـل قرقيسيا على زفر فأقام معه بعد قتل عبيدالله ابن زياد وأقبل زفر يبكي قتلى مرج راهط وهي الحرب بين قيس وكلب ويقول :

لعمري لقد أبقت وقيعة راهـط ... لمروان صدعـا بيننـا متنائيـا

أتذهب كلب لـم تنلهـا رماحنـا ... ويترك قتلى راهط هي ما هيـا

فقد تنبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا ... وتثأر مـن نسوان كلب نسائيـا

أبعد ابن صفر وابن عمرو تتابعا ... ومصرع همـام أمني الأمانيـا

فأجابه ابن المخلاة الكلبي :

لعمري لقد أبقت وقيعة راهـط ... على زفر داء مـن الداء باقيـا

تبكـي على قتلـى سليم وعامـر ... وذبيان مغرورا وتبكي البواكيـا

وأقبل عمير يخطر فخرج من قرقيسيا يتطرف بوادي كلب فيغير عليها وعلى مـن أصاب من قضاعة وأهل اليمن ويحض كلباً ومعه تغلب وقد حمل عليه فوارس مـن كلب يطلبونه ولحقه مولى لكلب يقال له (شقرون) فجرح عمير وهرب حتى دخل قرقيسيا الى زفر ٠

استنزل عبدالملك بن مروان من قرقيسيا زفر بن الحارث الكلابي وأقعده معه علـى سرير ورآه ابن ذي الكلاع فبكى فقال لـه عبدالملك : ما يبكيك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين وكيف لا أبكي وسيف هذا يقطر من دماء قومي في طاعتهم لك وخلافه عليك ثم هو معـك على السرير ٠ وبلغ الأخطل ذلك فدخل على عبدالملك وأنشد شعرا فقال لـه عبدالملك : ما أخرج هذا منك يا أبا مالك الا خطة في رأسك قال : أجل والله يا أمير المؤمنـين حـين تجلس عدوالله هذا معك على السرير ، وهو القائل بالأمس :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى   وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فضرب عبدالملك صدر زفر برجله فقلبه عن السرير وقال : اذهب الله حزازات تلك الصدور · وقال زفر : ما أيقنت بالموت قط الا تلك الساعة حين قال الأخطل ما قال ·

ـ نزل عمران بن حطان بن ظبيان المكنى أبا سماك من شعراء الشراة والمقدمين بمذهبهم ، بزفر بن الحارث الكلابي بقرقيسيا فجعل شباب بني عامر يتعجبون من صلاته وطولها وانتسب لزفر · فقدم على زفر رجل من أهل الشام قد كان رأى عمران بن حطان بالشام عند روح بن زنباع الجذامي من سمار عبدالملك بن مروان ، فصافحه وسلم عليه · فقال زفر للشامي : أتعرفه قال : نعم! هذا شيخ من الأزد · فقال له زفر : أزدي مرة وأوزاعي أخرى ؟ ان كنت خائفاً آمناك وان كنت عائلا أغنيناك · فقال : ان الله هو المغني وخرج من عنده وهو يقول :

ان التي أصبحت يعني بها زفر   أعيت عناء على روح بن زنباع
أمسى يسائلني حولا لأخبره   والناس من بين مغدوع وخداع
حتى اذا انجذمت مني حبائله   كف السؤال ولم يولع باهلاع
فاكفف كما كف روح انني رجل   اما صريح واما نفعة القاع
أما الصلاة فاني غير تاركها   كل امرىء للذي يعني به ساع
فاكفف لسانك عن هزي ومسألتي   ماذا تريد الى شيخ لأوزاع
أكرم بروح بن زنباع وأسرته   قوماً دعا أوليهم للعلا داع
جاورتهم سنة فيما دعوت به   عرضي صحيح ونومي غير تهجاع
فاعمل فانك منعيٌّ بحادثة   حسب اللبيب بهذا الشيب من ناع

ثم خرج فنزل بعمان ثم بجانب الكوفة حتى مات ·

ـ أغار زفر بن الحرث الكلابي على أهل المصبح وقد أصاب أول النهار أهل ماء يقال له (خصيف) وفيه سيد بني الجلاح مصاد بن المغيرة بن أبي جبلة فأسره فأتى به قرقيسيا ثم من عليه وقتل عفيف حسان بن حصين من بني الجلاح · ثم مضى زفر الى المصبح فاجتمع من بها الى عمير بن حسان بن عمر بن جبلة فامتنعوا فقال لهم زفر : اني لا أريد دماءكم فاعطوا بأيديكم فأبوا وقاموا فقتلت منهم جماعة كثيرة وقتل معهم رجلان من تغلب · وكان قتلى يوم المصبح من كلب ثمانية عشر رجلا والتغلبيين وبقي الماء ليس فيه الا النساء فلما انصرف عنهم زفر أراد النساء أن يجررن القتلى الى بئر يقال له كوكب وقد وارت القليب أم عمير بن حسان كيسة بنت أبيّ رجال حميد بن حريث بن بجدل الذي لما علم ما حل بقومه أتى تدمر ليجمع أصحابه وليغير على قيس · وقد قتل

مطر بن عوص خليفة حميد بن حريث في تدمر النميريين وكانوا ستين رجلا . ولما بلغ زفر قتل النميريين بسط على كل من أدرك من كلب واستحل الدماء وأخذ في واد يقال له وادي الجيوش وقتل فيه أكثر من خمسمائة ولم يلقه حميد ثم انصرف الى قرقيسيا وذكر بعض بني نمير أن زفر أغار على كليب يوم حفير ويوم المصبح ويوم الفرس فقتل منهم أكثر من ألف رجل ثم أغار عليهم في يوم الاكليل فقتل منهم مقتلة عظيمة منهم حسان بن حصين من بني الجلاح فقالت امرأة من بني كلب ترثيهم :

أبعد من وليت في كوكب يا نفس ترجين ثواء الرجال

ـ لما ألح عمير بن الحباب بالغارات على كلب رحلت حتى نزلت غوري الشام . فلما صارت كلب بالموضع الذي صارت قيس انصرفت قيس في بعض ما كانت تنصرف من غزو كلب وهم من عمير فنزلوا بثني من أثناء الفرات بين منازل بني تغلب وكان (دويل) من فرسان بني تغلب ولأمه من بني تميم أعنز أخذها غلام من بني الحريش فشكوا ذلك الى عمير فلم يشكهم وقال معرة الجند . ولما رأى أصحابه ذلك وثبوا على بقية أعنزها وأخذوها وأكلوها . ولما أتاها دويل أخبرته بما لقيت لذا جمع جمعاً وأغار على بني الحريش ،فلما بلغ ذلك قيساً أغارت على بني تغلب بازاء الخابور فقتلوا منهم ثلاثة نفر واستاقوا خمسة وثلاثين بعيرا . فخرجت جماعة من تغلب فأتوا زفر بن الحرث وذكروا له القرابة والجوار وهم بقرقيسيا وقالوا : أتينا برحالنا وردوا علينا نعمنا فقال : أما النعم فنردها عليكم أو ما قدرنا لكم عليه ونكمل لكم نعمكم من نعمنا ان لم نصبها كلها وندي لكم القتلى قالوا له : فدع لنا قريات الخابور ورحل قيساً عنها فأبى ذلك زفر وأبوا هم أن يرضوا الا بذلك ثم جمعوا جمعاً وأغروا على ما قرب من قرقيسيا من قرى القيسية فلقيهم عمر بن الحباب وكان النميري الذي تكلم عند زفر أول قتيل وهزم التغلبيين . وقد دخل اياس بن الجزاز وكان شريفاً من عيون تغلب ، دخل قرقيسيا لينظر ويناظر زفر فيما كان بينهم وقتله يزيد بن بحزن القرشي فتذمم زفر وكان كريماً لا يحب الفرقة ، وأرسل الى الأمير ابن قرشة بن عمرو وقال له : هل لك أن تسود بني نزار فتقبل مني الدية عن ابن عمك ؟ فأجابه الى ذلك . وكان قرشة من أشراف بني تغلب . كما وجه زفر قوماً الى حي من ربيعة أكثرهم نصارى وأمر أن يرفقوا بهم فأتوا أخلاطاً من بني تغلب من مشارق الخابور فأعلموهم الذي وجهوا به فأبوا عليهم فانصرفوا الى زفر فردهم وصار اليهم عمير بن الحباب فلقيهم قريباً من ماكس على شاطىء الخابور بينه وبين قرقيسيا مسيرة أيام فأعظم فيها القتل . وقد استمر القتل ببني عتاب بن سعد والنمر وفيهم أخلاط تغلب فأسر القطامي الشاعر وأخذت ابله وأصاب عمير وأصحابه شيئاً كثيراً من النعم، وقتل عبدالله بن شريح رئيس تغلب كما قتل أخوه ومجاشع بن الأجلح وعمرو بن معاوية وغيرهم كثير وجعل عمير يصيح بهم: ويلكم لا تستبقوا أحدا . قال الصفار :

تمنيت بالخابور قيساً فصادفت منايا لاسباب وفاق على قدر

وقال جرير :

نبئت أنك بالخابور ممتنع ... ثم انفرجت انفراجاً بعد اقدار

وقال زفر بن الحرث يعاتب عميرا بما كان منه في الخابور :

ألا من مبلغ عني عميراً ... رسالة عاتب وعليك زار

أتترك حي ذي كلع وكلب ... وتجعل حر نابك في نزار

كمعتمد على احدى يديه ... فخانته بوهي وانكسار

ولما أسر القطامي أتى زفر بقرقيسيا فخلى سبيله ورد عليه مائة ناقة فقال يمدحه:

قفي قبل التفرق يا ضباعا ... ولا يك موقف منك الوداعا

قفي فادي أسيرك ان قومي ... وقومك لا أرى لهم اجتماعا

ألم يحزنك أن جبال قيس ... وتغلب قد تباينت انقطاعا

فلا تبعد دماء بني نزار ... ولا تقرّ عيونك يا قضاعا

ومن يكن استنام الى التوقي ... فقد أحسنت يا زفر المناعا

أكفراً بعد رد الموت عني ... وبعد عطائك المائة الرتاعا

فلم يبد سواك غداة زلت ... بي القدمان لم أرج اطلاعا

من البيض الوجوه بني نفيل ... أبت أخلاقهم الا اتساعا

ثم قال :

يا زفر بن الحرث بن الأكرم ... قد كنت في الحي قديم المقدم

وحقن الله بكفيك دمي ... من بعد ما جف لساني وفمي

وقال :

يا ناق خبي خبباً مزورا ... وقلّبي منسمك المغبرا

وعارضي الليل اذا ما اخضرّا ... سوف تلقين جوادا حرا

سيد قيس زفر الأغرّا ... ذاك الذي بايع ثم برّا

وقال :

كان في المركب حين راحا ... بدراً يزيد البصر انفضاحا

آلا ترى ما غشى الإكراحا ... وغشى الخابور والأملاحا

يصفعون بالأكف الراحا

وقـــال :

من مبلغ زفر القيسي مدحتــه ... مـن القطامـي قولا غـير افنـاد
فلـــن أبـدل بالنعمـاء مشتمـة ... ولـــن أبدل احسانـاً بافسـاد
فان هجوتـك مـا تمت مكارمتي ... وان مدحت فقد أحسنت اصفادي
لولا كتائب من عمرو يصول بها ... أرديت يا خـير من يندو له النادي
اذ يعتريك رجال يسألون دمـــي ... ولو أطعتهـم أبكيـت عـوّادي
والصيـد آل نفيـل خير قومهـم ... عند الشتـاء اذا مـا ضنّ بالزاد
المانعون غـداة الـروع جـارهم ... بالمشرفية من قاصٍ ومـن نـاد
فان قدرت على خـير جزيت بـه ... والله يجعـل أقوامـاً بمرصـاد

ـ عرض قوم من أهل الحدراء لابن الزبير الأسدي في طريقه من الشام الى الكوفة وقد نزل بقرقيسيا فاستعدوا عليه زفر بـن الحرث الكلابي وقالوا انه أموي الهـوى . وكانت قيس يومئذ زبيرية وقرقيسيا وما والاها في يد ابن الزبير فحسبه زفر أياماً وقيده وكان معه رفيق من بني أمية يقـال لـه أبوالحدراء فرحـل وتركـه في حبسه أياماً ثم تكلمت فيه جماعة من مضر فأطلـق فقال في ذلك :

أغـاد أبـو الحدراء أم مستروح ... كذاك النـوى مما تجدّ وتمزح
لعمري لقـد كانت بلاد عريضـة ... لي الروح فيهـا عنـك والمنسرح
ولكنه يدنو البغيض ويبعد الحبيـــب ... وينأى في المـزار وينـزح
ألا ليت شعري هل أتى أم واصل ... ذبول أعضوهـا بسـاقيّ تجـرح
اذا ما صرفت الكعب صاحت كأمها ... صريف خطاطيف بدلوين تمنـح
تبغي أباهـا في الرفاق وتنثنـــي ... وألوى به في لجـة البحر تمسـح
أمرتحـل وفـد العراق وغودرت ... تحـن بأبواب المدينـة صيـدح
فانـك لا تدرين فيمـا أصابنـي ... أريثك أم تعجيل سـيرك أنجـح
أظـــن أبو الحدراء سجني تجارة ... ترجى ومـــا كل التجـارة تربح

ـ قال سعد ابن أبي وقاص وقد أنفذجيشاً عـام ١٦ هـ وهو بالمدائـن الى هيـت وقرقيسيا ورئيسهم عمرو بن مالك الزهري فنزلوا على حكمه فقال عند ذلك :

ونحـن جمعنا جمعهم في حفـيرهم ... بهيت ولم نحفـل لأهـل الحفائر
وسرنا علـى عمد نريد مدينـــة ... بقرقيسيا سير الكماة المساعـر
فجئناهم في دارهم بغتـةً ضحىً ... فطاروا وخلوا أهل تلك المحاجـر
فنادوا الينا مـــن بعيد بأننـــا ... ندين بديـن الجزيـة المتواتـر
قبلنـــا ولم نردد عليهم جزاءهم ... وحطناهــم بعد الجزا بالبواتـر

وقال عمرو بن مالك الزهري في جيش سعد بن أبي وقاص عندما واقع أهل قرقيسيا:

تطاولت أيامي بهيت فلم أحم ... وسرت الى قرقيسيا سير حازم

فجئتهم في غرة فاحتويتها ... على عنن من أهلها بالصوارم

وقال الشاعر :

لعنْ سخطة من خالقي أو لشقوة ... تبدلتْ قرقيسياء من دارة الردم

ـ وقد صالح أهل قرقيسيا أبو طاهر سليمان أمير قرامطة البحرين على البصرة والكوفة سنة ٣١٥ هـ عندما وصل الى الرحبة، بأن يدفعوا له جزية سنوية خوفاً منه ثم استولى القرامطة على قرقيسيا عام ٩٢٨ هـ

مدن ونواحي وقرى قرقيسيا :

١ ـ **الشيبانية :** قرية قرب قرقيسيا من نواحي الخابور ·

٢ ـ **الشهلية :** بلدة قرب قرقيسيا على نهر الخابور بينها وبين ماكسين ·

٣ ـ **جحشية :** من قرى قرقيسيا الكبرى كالمدينة بينها وبين المجدل نحو أربعة أميال ·

٤ ـ **الدارة :** مدينة قرب قرقيسيا من أعمال الخابور · قال ياقوت : الدارة في أصل كلام العرب كل جوبة بين جبال في حزن أو سهل ، وقال الأصمعي الدارة رمل مستدير في وسطه فجوة وهي الدورة · وقال ابن الاعرابي : والدارة دارة القمر وكل موضع يدار به شيء يحجزه فاسمه دارة ويقال لمسكن الرجل دارة ·

المنتسبون الى قرقيسيا :

١ ـ دعبَل بن علي بن رزين بن سليمان الخزاعي أبو علي الشاعر المشهور المجيد لكنه كان بذيء اللسان مولعاً بالهجو والحط من أقدار الناس وهجاء الخلفاء · كان يقول: لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك » من كلامه : من فضل الشعر أنه لم يكذب أحد قط الا اجتواه الناس الا الشاعر فانه كلما زاد كذبه زاد المدح له ثم لا يقنع له بذلك حتى يقال له :أحسنت والله · توفي سنة ٢٤٦ هـ ·

٢ ـ محمد بن الحسن الشهيد القرقيسياني

٣ ـ ابن مرار : ولوه (بنو هاشم) مصر عندما كانوا في سلطانهم ، فأصاب بها مالا عظيماً ، وكانت له أمَة يقال لها (عتمة) كان يهواها ربيعة بن ثابت الرقي الأسدي وبلغه خبر ربيعة مع جاريته فأحضره وعرض عليه أن يهبها له فقال : لا تهبها لي فان كل مبذول مملول فاكره أن يذهب حبها من قلبي ، ولكن دعني أواصلها هكذا فهو أحب اليّ ·

محمد ناشد مشوح

رسالة من ألمانيا الديمقراطية

السيد رئيس اتحاد الكتاب العرب
الأستاذ علي عقلة عرسان المحترم :
تحية طيبة وبعد :

فيسرنا أن نرسل اليكم مقالتين الأولى حول دراسة الاستعراب في جمهورية ألمانيا الديمقراطية ، والأخرى حول الدراسات العربية في جمهورية ألمانيا الديمقراطية وتقاليدها • اضافة الى محاضرة ألقاها البروفسور الدكتور مانفريد فلايشهامر ، أستاذ في جامعة هالة ، في مركزنا الثقافي حول موضوع « عرض تاريخ الاسلام وحضارته في مؤلفات المستشرقين كارل بروكلمان ويوهان فوك » ونرجوكم بعد اطلاعكم على هذه المواد اعطاءها السيد الدكتور عبدالكريم اليافي رئيس تحرير مجلة التراث العربي التي يصدرها اتحاد الكتاب العرب لنشرها اذا كانت هناك امكانية لذلك •

ومن وجهة نظري كمستشرق وبعد اطلاعي على مجلة التراث العربي التي تحوي أبحاثاً قيمة أقترح ارسال نسخة دورية الى المعاهد التي تهتم بالتراث العربي في جمهورية ألمانيا الديمقراطية بالتبادل مع هذه المعاهد وما يصدر عنها من مجلات علمية • ونرسل اليكم لائحة بأسماء هذه المعاهد وعناوينها •

ننتهز هذه المناسبة لنعرب لكم عن فائق تقديرنا واحترامنا •

هـ • فايغولد

مدير المركز الثقافي لجمهورية ألمانيا الديمقراطية بدمشق

دراسة الاستعراب في جمهورية ألمانيا الديمقراطية

البرفسور الدكتور جيرت كوك
جامعة كارل ماركس – لايبزيج

بوسع المرء في ألمانيا الديمقراطية دراسة الاستعراب في ثلاث جامعات في البلاد٠ وتعد الدراسات العربية والاسلامية من فروع الدراسة المقررة في كل من جامعة مارتن –لوثر بهاله – وفتنبرج عدا علم الآثار الشرقية ٠ وفي جامعة كارل ماركس بلايبزج يتم تدريس علوم الشرق الأوسط بربط اللغة العربية بالتاريخ ٠ والاقتصاد والدولة والقانون والثقافة ، وباعداد مترجمين من الانجليزية الى العربية وكذلك من الفرنسية اليها ٠ وتقوم جامعة هومبولدت في برلين بتدريس اللغة والآداب العربية – الاستعراب – في اطار علوم غربي آسيا ٠

وتواصل منشآت التعليم والأبحاث المذكورة بذلك التقاليد التقدمية والانسانية الكبيرة لعلوم الشرق التي بادرت اليها البورجوازية الألمانية ٠ ويتم اكساب الطلبة القدرة على ادراك الظواهر والعمليات الاجتماعية في البلدان العربية في صلاتها المترابطة ، وعلى اتقان اللغة العربية وتنقل اليهم معارف علمية اجتماعية شاملة في الناحيتين النظرية والمنهجية ٠

وبعد تخرج المستعربين من الجامعات يكلفون بالعمل في مختلف مراكز الأبحاث العلمية لدراسة عمليات التطور في الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا وكذلك التاريخ والثقافة والاقتصاد والتعليم والعلوم ومسائل التنمية الخاصة بالبلدان المعنية ٠

وبغية الرفع من مستوى الدراسة الشيقة تم وضع مواد تعليمية ودراسية من قبل علماء ج أد خلال السنوات الماضية وهي جديدة من نوعها ، ومنها مثلا كتاب تعليم العربية الحديثة وقاموس ألماني – عربي ، ودليل العامية ، وآثار مختارة من النثر العربي الحديث ومما له أهمية في تعميق المعلومات التاريخية والاقتصادية مجلدات« تأريخ العرب »ومؤلفات أخرى تلقى الاهتمام في خارج البلاد أيضاً ٠

ويستعين علماء ج أد في اعداد الطلاب بزملاء عرب يمارسون في الغالب مهنة تعليم اللغة ٠ وهؤلاء يقدمون اسهامات كبيرة في الالمام الفعال باللغة العربية وفي اعداد المختصين لهذا الميدان ٠

وهناك في حقل الدراسات العربية صلات وعلاقات علمية مع المنشآت المماثلة في مختلف البلدان العربية ومنها مثلا مع جامعات دمشق والقاهرة وبغداد ومعهد بورقيبة في تونس ٠

د٠ جيرت كوك

الدراسات العربيـــة في ألمانيـا الديمقراطية وتقاليدهـا

كانت هناك في القرن الثامن عشر وتحت تأثير عهد التنوير البورجوازي جهـود بذلت كذلك من قبل علماء ألمان لدراسة لغات وتأريخ وحضارة الشرق الأدنى وشمالي افريقية بصورة علمية ومجردة من الأحكام المسبقة • وهم بذلك وقفوا بوجه ميول ذات دوافع مسيحية وكذلك ضد الشوفينية وجعل أوربا مركزا للامور • وقد قدم أولئك الدارسون اسهامات كبيـرة في نقل صورة سليمة عن الانجازات التأريخيـة والحضارة القيمة لشعوب الشرق الأدنى وتعميق هذه الصورة باستمرار •

وفي لايبزيغ عمل في القرن الثامن عشر مؤسس الاتجاه العلمـي للاستعراب ، عالم اللغة البارز يوهان ياكوب رايسكه (١٧١٦ـ١٧٧٤) • وفي القرن التاسع عشر شهدت الدراسات العربية تقدماً كبيرا ، فلقد تطورت جامعة لايبزيغ تحت ادارة هاينريش ليبريشت فلايشر (١٨٠١ ـ ١٨٨٨) الى مركز مرموق على المستوى العالمي لبحث وتدريس اللغـة والأدب العربيين وكان فلايشر بنفسه يتبادل صلات وثيقة مع ممثلين كبار شهيرين لعهد النهضة العربية • وسعى كغيره من العلماء الى احتواء المخطوطات العربية ودراستها ونشرها من خلال المكتبات الألمانيـة • وقام الشاعـر المستشرق فريدريش روكـرت (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦) بتقريب الأدب العربي المترجـم الى الجمهـور الألمانـي • وفيما بعـد اكتسبت الدراسات التأريخية والحضارية أهمية بالغة • وكان أن نشأت علوم الاسلام ، وكان بين رواد هذه الأبحاث كارل هاينريش بيكر (١٨٧٦ ـ ١٩٣٣) •

وبعد الحرب العالمية الثانية جرى في ألمانيا الديمقراطية مواصلة التقاليد الانسانية الكبيرة للمستشرقين الألمان على مستوى أعلى • وهي ترتبط بأسماء علماء بارزين مثـل كارل بروكلمان في هاله ، الخبيـر العبقري باللغات والآداب الشرقيـــة ، وباسم باحث الاسلام يوهان فوك في هاله أيضاً ، وكذلـك باسم عالم الاسلام والمؤرخ ريشارد هارتمان في برلين •

وقد اتجهت السياسة الثابتة لألمانيا الديمقراطية منذ البداية نحو مبدأ التضامـــن المناهض للامبريالية والصداقة بين الشعوب ، وسعت الى تبادل وتطوير علاقات متنوعة مع الدول العربية • وهذا أدى بدوره الى نهضة لا مثيل لها في الدراســات العربية في منشآت الأبحاث والتعليم في جمهورية ألمانيا الديمقراطية •

وفي اطار الحفاظ على التقاليـد التأريخية الكبيرة ركزت الدراسات بالدرجة الأولى على حركات التحرر العربية في مختلف جوانبها • وارتفع عدد الطلاب بسرعة ، وتم اصدار ووضع مؤلفات أولية مهمة لتعلم واتقان اللغة العربية ولأبحاث التأريخ والاقتصاد والقانون والثقافة في البلدان العربية •

ويسعى علماء ج أد في ذلك الى التعاون بصورة متينة مع زملاء لهم في الاتحاد السوفياتي وسائر البلدان الاشتراكية ومع علماء الشرق الأوسط وشمالي أفريقيا • وهكـذا تطورت كذلك علاقات وثيقة مع المؤسسات العلمية في البلدان العربية •

د• جيرت كوك

عرض تاريخ الإسلام وحضارته في مُؤلفات كارل بروكلمان وَيوهان فوك

الأستاذ الدكتور مانفريد فلايشهامر
جامعة مارتن لوثر بهالة
جمهورية ألمانيا الديمقراطية

Professor Dr. Manfred Fleischhammer
Martin-Luther-Universität Halle-Wittenberg. DDR

من بين الموضوعات التي يعنى بها هــذا الملتقى الثقافي للتعرف على الفكر الاسلامي، هي نظرة المؤرخين غير المسلمين الى الاسلام والحضارة الاسلامية · ان عدد المصنفات التي تتناول هذه الموضوعات قد ازداد بمرور الأيام ازديادا يتعذر معه على باحث فرد أن يلقي نظرة عليها أو يبدي رأياً فيها ·

وغني عن البيان أن بعض هذه المؤلفات يتفاوت تفاوتاً شديدا في الاجادة · فاذا ضربنا صفحاً عن نظرة أحد المؤلفين الأساسية الى الاسلام وحضارته ، التي تتضح من الخطة التي يجري عليها في معالجة موضوع ما، والتي تؤثر تأثيرا جوهرياً في الغاية من أقواله ومنحاها ، نقول اذا ضربنا صفحا عن هــذا فان الذي يحدد الى درجة كبيرة جودة أقواله هي معرفته أو جهله بلغة ، أو بلغات المصادر التي لا بد له من الرجوع اليها في بحوثه ودراساته · ان المؤرخ الذي لا علم له بواحدة أو كثر من اللغات التي كتبت بها المؤلفات الأساسية عن الاسلام وحضارته ، وأخص هنا بالذكر اللغة العربية ثم الفارسية والتركية ، مثل هذا المؤلف يجد نفسه منذ البداية في موقف حرج ، اذ لا مفر له من الاعتماد على مؤلفات زملائه من العارفين بعلوم الشرق ولغاته وعلى قلة من المصادر الاسلامية المترجمة، وبذلك لا يسعه الا أن ينقل عن هؤلاء دون أن يكون في مقدوره امتحان معلوماتهم بمعارضتها بالنصوص الاصلية · وفوق ذلك فانه عرضة دائماً لخطر التخلف عن ركب الدراسات الشرقية ·

اسمحوا لي بعد هذه اللمحة القصيرة عن موقف المؤرخ الذي يشتغل بالاسلام وبحضارته أن أخوض في موضوع محاضرتي الأصلي · انني أود ، بقدر ما يسمح لي الوقت ، أن أتحدث على سبيل الاختصار عن مؤلفات المستشرقين كارل بروكلمان ويوهان فوك التي تدخل في موضوعنا هذا · وعندما أقوم بهــذا ، فانني على يقين بأن أكثركم قد سمع بهذين العالمين · ذلك أن بعضاً من أنفس مؤلفاتهم قد نقلت جزئياً أو كلياً الى العربية منذ سنوات · وأقصد بذلك: « تاريخ الأدب العربي» «Geschichte der arabischen Litteratur»
و « تاريخ الشعوب الاسلامية » Geschichte der islamischen Völker und Staaten

لكارل بروكلمان ، و « العربية : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب » Arabiya, Untersuchungen zur arabischen Sprach-und Stilgeschichte ليوهان فوك ٠ وسآتي على هذه المؤلفات بالتفصيل في أثناء كلامي ٠ وليس هذان العالمان مؤرخين بمعنى أنهما لم يشغلا الا بتاريخ الاسلام وبتاريخ حضارته فحسب ، بل هما لغويان ومشتغلان بالعلوم الاسلامية ، لا سيما يوهان فوك ،كما يظهر جليا من كتبهما ومقالاتهما المنشورة في مجلات الاستشراق التي تنتمي بالمعنى الواسع الى مجال التاريخ في تخصصهم ٠

كان كارل بروكلمان (ولا يزال) فوك منذ سنوات طويلة من أعضاء هيئة التدريس في جامعة مارتين لوثر بمدينة هالة ٠ لقد لقي هذان العالمان جزاء أبحاثهما تكريماً عظيماً ، فانتخبا عضوين أصليين وعضوي شرف في كثير من جمعيات الاستشراق في ألمانيا وخارجها ٠ ومن ذلك تعيين كارل بروكلمان عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق ــ المجمع العلمي العربي سابقاً ــ وتعيين يوهان فوك عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ٠ وليس هذا فحسب ، وانما منحت حكومة جمهورية ألمانيا الديمقراطية بروكلمان في عام ١٩٥١ وفوك بعد ذلك بخمس سنوات جائزة الدولة تقديرا لجهودهما في تطوير فروع تخصصهما العلمي ٠

ولد كارل بروكلمان سنة ١٨٦٨ في مدينة روستوك ٠ وقد قادته ميوله العلمية المبكرة وموهبته اللغوية البارعة الى الاتجاه لدراسة الشرقيات واللغتين اليونانية واللاتينية والتأريخ ٠ وفي عام ١٨٩٠ نال درجة الدكتوراة في الفلسفة باشراف تيودور نولدكه Theodor Nöldeke الذي قدم للدراسات العربية في كتابه « تاريخ القرآن » Geschichte des Qorans دراسة رائدة عن سوره ٠ كان موضوع الرسالة التي نال بها بروكلمان درجة الدكتوراه هو « صلة كتاب الكامل في التاريخ لابن الاثير بكتاب أخبار الرسل والملوك للطبري » Das Verhältnis von Ibn-el-Atirs Kamil fit-Ta'rih zu Tabaris Ahbar er rusul wal muluk وشغل بروكلمان بعد ذلك خلال حياته الطويلة منصب أستاذ اللغات السامية وأيضاً الدراسات التركية من بعد ، في كثير من الجامعات ، من بينهما مرتين في جامعة هاله لمدة طويلة ٠ وكانت المرة الأولى في مرحلة ما بين ١٩١٠ و ١٩٢٢ ٠ وبعد أن أحيل الى المعاش من احدى الجامعات ، عاد في سنة ١٩٣٧ مرة أخرى الى هاله ، لأن فيما تضمه مكتبة جمعية المستشرقين الالمانية Bibliothek der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft بهذه المدينة من مراجع خير عون له في أبحاثه ودراساته ٠ وعمل أستاذا مرة أخرى بجامعتها منذ عام ١٩٤٧ الى أن توفي في عام ١٩٥٦ ٠

لقد حقق بروكلمان في أثناء اشتغاله بالبحث انتصارات باهرة في مختلف فروع الاستشراق ٠ تشهد بذلك القائمة التي وضعها يوهان فوك بمؤلفاته التي تربو عناوينها على ٥٥٠ ، ولم يؤهله لذلك قدرته التي لاتبارى على العمل فحسب ، وانما قبل كل شيء ذاكرة قوية تحفظ كل شيء بعد القراءة الأولى ، وبصيرة نافذة وميل الى الترتيب أمكنه فيما يبدو من السيطرة على مواد هائلة دون عناء ٠ وأخيرا القدرة على صوغ أفكاره في يسر وسرعة ، بحيث استطاع غالباً أن يدفع بالمسودة الأولى كما هي الى المطبعة ٠

وسأذكر هنا طرفاً يسيرا من بين المؤلفات العديدة التي جلبت له الشهرة ، ولا تدخل في مجال الدراسات العربية والاسلامية ، ففي الساميات ألف « الأساس في نحو اللغات السامية المقارن » Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen فسر فيه المادة اللغوية السامية الهائلة باستخدام مناهج البحث اللغوي التاريخي، كما عرضها عرضاً مرتباً واضحاً • كان كتاب « الأساس » أحب كتبه اليه ، ولم يفقد الكتاب مكانته حتى اليوم رغم كل ما طرأ على البحث من تغير • وقد نهض ببحث اللغة السريانية القديمة وآدابها بمعجمه «القاموس السرياني» Lexicon Syriacum وبنحوه الذي طبع مرات عديدة •

ومن بين مؤلفاته التركية يبرز كتابه « مفردات التركية الوسيطة حسب ديوان لغات الترك لمحمود الكاشغري Mitteltürkischer Wortschatz nach Mahmud al-Kasgaris Divan lugat at Turk ومن مؤلفاته الأخيرة « نحو التركية الشرقية للغات الأدبية الاسلامية بآسيا الوسطى Osttürkische Grammatik der islamischen Litteratursprachen Mittelasiens

والان نستعرض الكتب التي ألفها بروكلمان في مجالي العربية والاسلام والتي تهم موضوعنا بصفة خاصة • كان بروكلمان مولعا في المرتبة الأولى بعلم اللغة وفقهها •

وكما فعل في سائر الفروع الأخرى المذكورة ، فقد أسهم أيضاً في هذين المجالين بتيسيره الاستفادة من المصادر التي يعتمد عليها البحث في الاسلام وحضارته • فألف كتاباً في نحو العربية الفصحى طبع حتى اليوم ١٧ مرة • ونشر ديوان لبيد وكتاب « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، واشترك في تحقيق كتاب « الطبقات الكبرى » لابن سعد ، كاتب الواقدي • غير أن أهم مآثره في هذا الحقل هو من غير شك كتابه « تاريخ الأدب العربي » • ذلك المؤلف الضخم الذي ظهر أولا في مجلدين بين عامي ١٨٩٧ و ١٩٠٢ ، ثم استكمل بذيل من ثلاثة مجلدات في السنوات ما بين ١٩٣٧ و ١٩٤٢ • وأعيد طبعه في ١٩٤٣ و ١٩٤٩ • وبهذا الكتاب أقام بروكلمان بحث الأدب الاسلامي العربي للمرة الأولى على أساس وطيد • ولما كان بروكلمان يدرك أنه ليس من الممكن تبعاً لحالة البحث العلمي آنذاك أن يعرض لأطوار نمو الأدب العربي الداخلية ، فقد صح عزمه على أن يفهرس الأدب العربي الذي لا يزال موجودا اليوم مطبوعا أو مخطوطاً فهرسة كاملة بقدر الامكان وأن يذكر بايجاز سير المؤلفين • ويستحق الجزء الثالث من الذيل الذي ظهر عام ١٩٤٢ اهتماماً خاصاً ، ذلك أن بروكلمان قدم هنا عرضاً شاملا لتطور الأدب العربي الحديث ابتداء من العقد الثامن من القرن ١٩ • فهو لم يعط هنا مجرد ملاحظة قصيرة عن المؤلف وعناوين مؤلفاته ، وانما بسط محتويات كثير من الكتب ، وأشار الى النظائر والى النماذج الأدبية • التي احتذيت وعلق على لغة المؤلف وأسلوبه وحاول في كثير من الحالات أن يقيم هؤلاء تقيماً أدبياً •

هذا الاشتغال الواسع بالأدب العربي والمعرفة التامة به هما اللذان دفعا بروكلمان في وقت مبكر الى الاهتمام بالخلفية السياسية والحضارية لهذا الأدب ، الأمر الذي أفضى به بالضرورة الى العلوم الاسلامية • ومن ثمة أخذ منذ عام ١٨٩٥ الى ١٩١٤ يطلع بانتظام

عن أحدث المؤلفات عن تاريخ الاسلام في « حوليات علوم التاريخ » Jahrbuch der Geschichtswissenschaft وفي عام ١٩١٠ كتب في اطار تاريخ للعالم وصفاً للاسلام منذ ظهوره الى العصر الحديث. وباعادة النظر في هذا الوصف ظهر عام ١٩٣٩ الكتاب المشهور « تاريخ الشعوب الاسلامية »، وظهرت الطبعة الثانية منه عام ١٩٤٣ . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ترجم الى العربية والفرنسية والانجليزية والبولندية والتركية.

ذكر بروكلمان في مقدمة الكتاب أنه نظرا لحالة البحث العلمي فانه لا يزال من قبيل المخاطرة كتابة تاريخ للشعوب الاسلامية ودولها ، حيث استفاد بالجيد من كتابات زملائه في المواضع المختلف فيها .

يبدأ الكتاب بوصف الأحوال في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام ، ثم يصور حياة النبي العربي ويشرح تعاليمه . وبعد ذلك يصف الأحداث في عصر الخلفاء الراشدين ثم يختم بعرض تاريخ الدولة الأموية . يعالج الجزء الثاني الامبراطورية الاسلامية في عهد العباسيين منذ قيامها ثم انقسامها الى عدد من الدول المستقلة حتى سقوطها على يد المغول. وموضوع الجزء الثالث هو قيام الدولة العثمانية وازدهارها ثم اضمحلالها البطيء حتى نهاية القرن ١٨ . أما الجزآن الأخيران من الكتاب فيعالجان باسهاب موقف الاسلام وتطوره في القرن ١٩ ، ثم الوضع في الشرقين الأدنى والأوسط ، وشمالي أفريقيا في مرحلة ما بين الحربين العالميتين .

لم يقنع بروكلمان ، كما يبدو لأول وهلة من هذا السرد لعناصر كتابه ، باعطاء فكرة عامة عن التطور السياسي لهذه البقعة . وانما لم يدع فرصة تمر دون أن يشير الى أوجه التطور المختلفة التي حدثت في الاسلام ابان ١٣٠٠ سنة . وبهذا يتناول التيارات والمذاهب في نطاق الدين وفي الفقه الوثيق الصلة بالدين وفي الأدب والفن ، مثلما يشير الى الصلات بين تلك الظواهر وبين العمليات الاجتماعية الجارية وقتذاك من ناحية ، وبينها وبين العوامل السياسية المؤثرة فيها من ناحية أخرى . لقد أولى بروكلمان ، في الجزء الأخير من كتابه ، عناية خاصة ليقظة الوعي السياسي والثقافي عند الشعوب الاسلامية ولا سيما العرب ، هذه اليقظة التي تتجلى بوضوح في الكفاح الطويل ضد الاستعمار الأوربي ، وما صاحبه من نهضة في الاسلام وما يتصل به من حضارة في مختلف أنحاء العالم العربي ويتكرر في ثنايا هذا الكتاب كما يتكرر في المواضع المناظرة من كتاب « تاريخ الأدب العربي » تأييد بروكلمان للاماني السياسية والحضارية للأمة العربية وللشعوب الاسلامية ولجهودها التي داوم على متابعتها . ذلك التأييد الذي أكسبه شهرة وصيتا في العالم الاسلامي .

وتكمن قيمة هذا الكتاب في وصفه لتاريخ الاسلام وحضارته وصفاً رزيناً موضوعيا، خالياً من التعصب والتحامل . وهذه القيمة لا يغض منها اليوم تقدم البحث التاريخي وما يلزم عنه من تعمق النظر في جوانب عدة ، ولا ما تلقاه بعض آراء بروكلمان وأحكامه من نقد بسبب تغير وجهة النظر الى العوامل المحركة في التاريخ .

★ ★ ★

بعد أن وفينا بروكلمان بعض ما يستحق نأخذ في الحديث عن يوهان فوك ومؤلفاته المتعلقة بتفهم الاسلام وتأريخه وحضارته ٠

يبلغ يوهان فوك من العمر الان ٧٨ سنة وهو أستاذ متقاعد لفقه اللغات السامية والعلوم الاسلامية يقيم في مدينة هاله ويعمل بها ٠ بدأ فوك دراساته عام ١٩١٣ في جامعة هاله مع كارل بروكلمان ٠ ثم انتقل حينئذ الى فرانكفورت (على نهر ماين) ماراببرلين وهناك نال درجة الدكتوراة في الفلسفة ببحث أدبي تاريخي عن ابن اسحاق مؤلف سيرة النبي Muhammad Ibn Ishaq, Literarhistorische Untersu chungen باشراف يوسف هوروفتس Josef Horovitz وهو من أحسن العارفين بالقرآن والأدب العربي القديم ٠ وفي عام ١٩٣٠ لبى دعوة للقيام بالتدريس لمدة خمس سنوات في دكا عاصمة جمهورية بنجالادش حالياً ٠ وفي عام ١٩٣٨ قدم الى مدينة هاله أستاذا بجامعتها ٠

وقد بقي فوك مخلصاً في كل أعماله لذلك الاتجاه الذي بدأ في منشوراته الأولى وفي رسالته للدكتوراه : وقوام ذلك الاتجاه هو الربط بين المنهج اللغوي المتين وبين التعمق في معالجة المسائل التي أصبحت على مر التأريخ مهمة لفهم الاسلام وحضارته ٠ ظهر كتابه النفيس الموسوم ب « العربية : دراسات في اللغة واللهجات والأساليب » عام ١٩٥٠ وبعد ذلك بعام ترجم الى العربية ثم الى الفرنسية في عام ١٩٥٥ ٠ ان هذا الكتاب لا يدل فحسب على معرفته الواسعة بالعربية في عصورها المختلفة ، وانما يدل كذلك على احاطته الواعية بالتطور الروحي والعقلي للاسلام ٠ دون فوك بطريقة بارعة في هذا الكتاب ، مستعيناً بطائفة ضخمة من المصادر والمواد ، تأريخ اللغة العربية الفصحى منذ بدايتها حتى العصر السلجوقي مشفوعاً بنظرة الى أحوالها في العصر الحديث ٠ ولكتابه هذا يدين المشتغلون بالعربية بالفضل ، اذ أتاح لهم القاء نظرة على الميكانيكية التي أدت عبر العصور الى التغيرات الداخلية في بنية اللغة العربية ٠ وكان من نتائجها ما اصطلح عليه فوك مذ ذاك باسم « العربية الوسطى » . Mittelarabisch

ثمة عدد آخر له من الدراسات التي تنحو جميعاً هذا المنحى وبحثت فيها مسائل خاصة ٠ أذكر على سبيل المثال : « الفهرست » لابن النديم وتأريخ رواية كتاب « الصحيح » للبخاري أو اضافات الى طبعة « كتاب الاثار الباقية » للبيروني ٠

وهذه الأبحاث بالغة الأهمية في تفاصيلها ونالت لذلك الاعجاب والتقدير ٠ ولعله أدخل في موضوع بحثنا أن نشير الى ثلاثة مقالات والى بحث شارك به في تأليف مرجع ، وظهرت هذه الدراسات في مدى ٢٥ سنة وشغل فوك فيها ببعض المسائل الأساسية في العلوم الاسلامية ٠

ظهرت أولى هذه المقالات عام ١٩٣٦ تحت العنوان المبدئي « أصالة النبي العربي » . Die Originalität des arabischen Propheten. ZDMG 90 (1936) وكانت نقطة البداية في بحثه هو تحليله النقدي لمؤلفين ظهرا قبل ذلك بقليل ويطبقان مناهج بحث سابقة غرضها

اثبات تبعية محمد للديانتين السماويتين اليهودية والنصرانية • وقد حاول فوك أن يجيب على مسألة اذا ما كان من الممكن على هذا النحو فعلا أن ننصف شخصية النبي وتعاليمه ونفيه حقه • وفي أثناء كلامه بذل فوك كل ما في وسعه دفاعاً عن أصالة محمد وأهمية شخصيته وتعاليمه ، موردا أدلة مقنعة على ذلك • ويرى فوك في الاستمرار والنجاح اللذين أتيحا للاسلام وحضارته عبر القرون خير دليل على أصالة التجديد الذي دخل التاريخ بظهور محمد •

وعلى أساس هذه الآراء فحسب كان من المنطقي أن يحاول فوك في مقال ظهر بعد ذلك بثلاث سنوات بعنوان « دور النقل في الاسلام » Die Rolle des Traditionalismus im Islam. ZDMG 93 (1939) بيان أهمية واحد من تلك المبادىء التي لعبت دورا هاماً في تأريخ الاسلام وتوضيح فعاليته • ويقصد فوك بالنقل في هذا الصدد : الحقيقة الملحوظة خلال التأريخ الاسلامي كله ، ألا وهي نظرة المسلم الدائمة الى السنة النبوية والى الأسوة الحسنة » التي يتحدث عنها القرآن في الآية ٢١ من سورة الأحزاب ، على أنهما خير دليل يجب اتباعه في الحياة الدنيا والمعاملة • ويبين فوك في الحاح كيف يتجلى هذا المبدأ في كثير من كتب الأدب ، وأنه أحد العلل الأساسية وراء الوحدة الشاملة للحضارة الاسلامية على الرغم من اختلاف الزمان والمكان ومما ينشأ عن ذلك من خواص •

وفي عام ١٩٥١ نشر فوك مقالا بعنوان «محمد ـ شخصية وتأسيس دين » Muhammed - Persönlichkeit und Religionsstiftung. Saeculum III (1951) كتب لعامة القراء • وشغل في هذا المقال مرة أخرى بمجموعة المسائل التي عالجها في مقاله حول أصالة النبي العربي سالف الذكر • وبعد عرض موجز للآراء المختلفة التي قيلت عبر التاريخ في شخصية محمد وأثره ، يؤكد من جديد الملامح التي تتفرد بها شخصية محمد والدين الاسلامي الذي بشر به • وبهذا نشأت دراسة بارعة عن واحدة من أهم الشخصيات وأروعها في تاريخ العالم ، وتقرن بالسير الأخرى التي ألفت عن محمد •

وفي سنة ١٩٧١ ظهر بحث شارك به في « مرجع الدراسات الشرقية » Handbuch der Orientalistik تحت عنوان « دين الاسلام السنّي » Die Religion des Sunnitischen Islams وفي هذا البحث سعى فوك الى أن يعرض في ايجاز ، ولكن بطريقة تأسر القلوب ، أحد المذاهب الهامة في الاسلام • ولكي ندرك سعة المادة التي استوعبها هنا بحسبنا أن نذكر باختصار عناوين الفصول واحدا بعد الاخر مع مراعاة ما بينها من تلاحم : ديانة القرآن ، الامامة وانشقاق الشيعة ، بداية المذهب السنّي ، القدَرية والجبرية والجهمية ، المعتزلة ، احياء السنة ، علم الكلام السني ، القدرية والجبرية والجهمية ، المعتزلة ، احياء السنة ، علم الكلام السني ، ابن حزم ، السياسة الدينية عند السلجوقيين الأوائل ، الغزالي ، ابن تومرت ، ابن تيمية ، الوهابية ، المعتزلة المحدثون ، التجديد الاسلامي في مصر ، محمد اقبال والتجديد الاسلامي ـ الهندي ••

★ ★ ★

واذا شئنا الآن ، في الختام أن نحاول في بضعة كلمات أن نتكلم على أهمية أو قيمة ما أسلفنا ذكره من مؤلفات كارل بروكلمان ويوهان فوك في تأريخ الاسلام وحضارته فان ذلك لا يستقيم لنا الا بالنظر الى هذه المؤلفات في اطار التأريخ الطويل لدراسة اللغة العربية والاسلام في أوروبا . ان يوهان فوك نفسه قد نشر كتاباً في عام ١٩٥٥ ، أسماه «الدراسات العربية في أوربا الى بداية القرن العشرين » Die arabischen Studien in Europa bis in den Anfang des 20. Jahrhunderts ورسم في هذا الكتاب صورة واضحة لتطور هذا الفرع من العلوم عرض فيها الآراء المختلفة حول الاسلام وشخصية نبيه ابتداء من العصور الوسطى في أوربا ثم في عصر الاصلاح الديني والتنوير والرومانسية حتى عصر النظر التأريخي في القرن ١٩ .

وبمقارنة هذه الدراسات بالآراء التي ظهرت عند هذين العالمين حول الاسلام وحضارته نلحظ التقدم الواسع الذي حدث بمرور الزمن . لقد أرسى بروكلمان بكتابه « تأريخ الأدب العربي» أسساً وطيدة ليقوم عليها البحث من بعد . وقدم لجمهور كبير بكتابه « تأريخ الشعوب الاسلامية » صورة تتفق مع حالة البحث في عصره حول الاسلام وحضارته في نطاقه الواسع وكذلك لأهميته في تأريخ الانسانية . وأضاء فوك بأبحاثه الممتازة حول المسائل الأساسية في الموضوع نفسه جوانب بعيدة الغور . وقد أسهم كلا العالمين اسهاماً هاماً في التغلب على الاراء القديمة المتحاملة نوعاً ما التي عاشت طويلا في ثنايا البحث الاوربي . وطورا بذلك معرفتنا تطويرا جوهرياً . ان المستشرقين بجامعة هاله فضلا عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية ليفخرون بالانجازات العلمية التي حققها هذان العالمان ، وسيواصلون تمحيص نتائج أبحاثهم في تأريخ الاسلام والحضارة الاسلامية ، والافادة منها .

د. مانفريد فلايشهامر

□ ● □

كتاب «الباهر في الجبر»

تأليف : السموءل المغربي

« أبو فراس السباعي »

استول المحققان الفاضلان ، الأستاذان صلاح أحمد ورشدي راشد ، الكتاب بمقدمة أكدا فيها ما يلقاه الباحث من الصعوبة في « تاريخ الرياضيات عند العرب بشكل شامل ودقيق » ، معللين مقولتهما بان النصوص الرياضية ، التي خلفها العلماء العرب في العصر الوسيط ، ما زالت مغمورة في مختلف مكتبات العالم ولما ينشر منها الا النزر اليسير ، وذلك بالرغم من جهود مؤرخي الرياضيات وبخاصة تلك التي بدأت في القرن التاسع عشر ••• وانتهيا الى القول ان الاجابة عن السؤال عن « اصول الرياضيات العربية » ، مستحيلة قبل معرفة هذه النصوص معرفة كاملة وجيدة •

ثم يبدي المحققان اهتماماً بدراسة « النمو الداخلي للرياضيات عند العرب » ، آخذين بعين الاعتبار المسالك المتعددة التي اتبعها هذا النمو••«فاذارجعناالى الجبر ، وهو الموضوع البارز في هذا الكتاب ، وجب أن نفرق بين نهجين أساسيين لنموه : الأول تطوير الجبر بالهندسة ، وذلك باستخدام الأشكال الهندسية لاستخراج جذور بعض المعادلات ، والثاني تطبيق الحساب على الجبر وتوسيع مفهوم العدد بمحاولات غير مباشرة • وعلى هذا النهج الأخير ستتوضح الفكرة الأساسية في تاريخ الجبر ، ألا وهي استقلال العمليات الجبرية عن التمثيل والتصور الهندسي » • هذا النهج بدأ ، في القرن الحادي عشر الميلادي، عند العلماء المسلمين ، الذين أقروا بأن وحدة الموضوع الجبري هي في « عمومية العمليات » لا في « عمومية الكائنات الرياضية » ،فالكائنات الرياضية يمكن أن تكون خطوطاً هندسية أو أرقاماً عددية ، وأما العمليات ، فهي التي يحتاج اليها لرد مشكلة ما الى معادلة ، وبمعنى أدق لوضعها في صورة احدى المعادلات « القانونية » ، التي أوردها الخوارزمي (في كتابه « الجبر والمقابلة » تحقيق علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد) وكملها من بعده الرياضيون مثل : ابن الفتح وأبي كامل والكرجي والخيام ، أو تلك التي تلزم لايجاد حلول خاصة تدعى عادة بالدساتير أو الصيغ ••• وهكذا أصبح الجبر « علم المعادلات » ، وظل كذلك حتى قرون متأخرة •

ورغبة من المحققين في تقديم وثيقة للباحثين ترسم هذه الانعطافة في حركة الأفكار الجبرية، وفي اعطاء صورة عن الحالة العامة التي كان عليها الجبر في القرن الثاني عشر الميلادي وحرصاً منهما على البدء « في دراسة موضوعية للتراث العربي العلمي وبيان منجزات العرب العلمية ودورهم الحقيقي الذي لعبوه في تاريخ الفكر العلمي » ••• لذا وقع اختيارهما على كتاب السموءل المغربي ، لأنه شرح لأعمال أبي بكر محمد بن الحسين الكرجي وايضاح وتدقيق وتطوير لها ، ولأنه يشتمل أيضاً على عرض موسع للجبر في ذلك العصر ، فضلا عن الاعتقاد بأن ليس ثمة كتب كثيرة من نوعه •

وبعد ، من هو السموءل المغربي ؟

يقول عنه ابن أبي أصيبعة ، في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » : كان فاضلا في العلوم الرياضية ، عالماً بصناعة الطب ، أصله من بلاد المغرب ، سكن بغداد ثم انتقل الى بلاد العجم ولم يزل بها الى آخر عمره ، وكان أبوه أيضاً يشدو شيئاً من علم الحكمة. ويضيف ابن أبي أصيبعة نقلا عن غيره : كان السموءل يهودياً وأسلم ، وبلغ من العدديات مبلغاً لم يصله أحد من زملائه ، وكان حاد الذهن جدا ، بلغ من الصناعة الجبرية الغاية القصوى ، وأقام بديار بكر وأذربيجان ،وله رسائل في الجبر والمقابلة يرد فيها على ابن الخشاب النحوي ... وقال ابن القفطي : أتى السموءل الى المشرق،وارتحل الى أذربيجان، وخدم بيت البهلوان وأمراء دولتهم ، وأقام بمدينة المراغة ، وأولد أولادا هناك سلكوا طريقته في الطب ، وارتحل الى الموصل وديار بكر ، وأسلم فحسن اسلامه ، وصنف كتاباً في اظهار معايب اليهود وكذب دعاويهم في التوراة ومواضع الدليل على تبديلها وأحكم ما جمعه في ذلك . ومات بالمراغة قريباً من سنة ٥٧٠ (١١٧٥ م) .

وفي ترجمته لنفسه ، يقول السموءل في أحد مؤلفاته :

كان أبي « يقال له الراب يهوذا بن أبون من مدينة فاس التي بأقاصي المغرب .والراب لقب ليس باسم ، وتفسيره الحَبر ، وكان أعلم أهل زمانه في علوم التوراة ... وكان اسمه المدعو به بين أهل العربية « أبا البقاء بن يحيى بن عباس المغربي » . وكان اتصاله بأمي في بغداد وأصلها من البصرة ، وهي احدى الأخوات الثلاث المنجبات في علوم التوراة والكتابة بالعلم العبري ، وهن بنات اسحاق ابن ابراهيم البصري الليوي ... وكان اسحاق هذا ذا علوم يدرّسها ببغداد ، وكانت أمهن نفيسة بنت أبي نصر الداودي المصري، وهذا الداودي من رؤسائهم المشاهير وذريته الآن في مصر ...

« وشغلني أبي بالكتابة بالعلم العبري ثم بعلوم التوراة وتفاسيرها . حتى اذا أحكمت علم ذلك عند كمال السنة الثالثة عشرة من مولدي ، شغلني حينئذ بتعلم الحساب الهندي وحل الزيجيات عند الشيخ الأستاذ العالم أبي الحسن الدسكري ، وقرأت علم الطب على الفيلسوف أبي البركات هبةالله بن علي رحمه الله تعالى والتأمل في علاج الأمراض ومشاهدة ما ينفع من الأعمال الصناعية في الطب والعلاجات التي يعالجها خالي أبو الفتح الطيب البصري .. » .

ويشهد المحققان أن السموءل كان ، في كتابه الباهر ، منهجياً ونقدياً ، فالرجل كان معنياً بنظرية البرهان وارساء البراهين السابقة بشكل دقيق ... وفي ذلك يقول السموءل : « حللت جميع تلك الكتب (الرياضية) ، وشرحتها ووردت على من أخطأ فيها وأظهرت أغلاط مصنفيها وعزمت فيما عجزوا عنه تصحيحه وتحقيقه . اذ دربت على اقليدس في ترتيب أشكال كتابه بحيث أمكنني اذا غير نظام أشكاله أن استغني عن عدة منها لا يبقى اليها حاجة ، بعد أن كان كتاب اقليدس معجزا لسائر المهندسين اذ لم يحدّثوا أنفسهم بتغيير نظام أشكاله ولا بالاستغناء عن بعضها » .

ولقد قسم السموءل كتابه الى أربع مقالات :

المقالة الأولى : **في المقدمات والضرب** والقسمة واستخراج الجذور .

المقالة الثانية : **في استخراج المجهولات.**

المقالة الثالثة : **في المقادير الصم** ·

المقالة الرابعة : **في تقاسيم المسائل** ·

ثم انه فرّع كل مقالة الى أبواب ،والباب الى فصول ، وعندما يتشعب مجال القــول في المقالة الواحدة يفرعها الى جمل قبل أن يفرع الجملة الى أبواب وفصول ·

استهل مؤلّفه بقوله :

« هــذا الكتاب الذي جمعنا فيــه أصول صناعة الجبر والمقابلة ، وبرهنا منها على ما لم نجد أحدا برهن عليه ، وكملنا بما أودعناه من الأعمال المبتكرة والأشكال المبتدعة ما كان في أيدي الناس من هذه الصناعة ، وعللنا فيه ما زعم فيثاغورس أنه أدركه بطريق الوحي ، وجنبناه صفوا منزهاًمن التمويهات والشوائب، لم نخلط كلامنا بكلام من تقدمنا ، لكنانسبنا الى أقدم من نقل ذلك عنه » ·

وبدأ المقالة الأولى (الباب الأول في مقدمات يحتاج اليها) بقوله :

« كل عدد يضرب في نفسه فان الحاصل من الضرب يسمى مالا ومربعاً ومجذورا،وذلك العدد الذي ضرب في نفسه يسمى ضلعاًوشيئاً وجذرا ، وقد بيَّن اقليدس ، في الشكل ١٩ من المقالة ٧ ، انه اذا كان مسطــح الأول في الرابع مساوياً لمسطح الثاني في الثالث ، فان نسبةالأول الى الثانيكنسبة الثالث الى الرابع· فيلزم أن تكون نسبةالواحد الى الشيء كنسبة الشيء الى المال · لأن الواحد اذا ضرب فيالمال خرج من الضرب مربع الشيء · واذا ضرب المال في الشيء سمي الحاصل مكعبا ، وذلــك الشيء هو ضلعه · واذا ضرب الكعب فيالشيء سمي المبلــغ مال مال ، وسمي ذلــك الشيء ضلعه وجذر جذره ، وقد بـين اقليدس ، في الشكل ١٨ من المقالة ٧ ، أنه اذا ضرب عدد في عددين فان العددين الخارجين بالضربعلى نسبة ذينك العددين · وقد قلنــا ان الشيء ضرب في الشيء فخرج مال ، وفي المال فخرج كعب ، وفي الكعب فخرج مــال مــال ، فنسبة الشيء الى المال كنسبة المال الى الكعب ··· الــخ » ·

ان الحضارة العربية الاسلامية ، المنفتحة على التراث الفكري العالمي الذي سبقهــا في غرب وشرق ، قد أتاحت للسموءل أن يضــع مؤلفات عدت بالعشرات · وهذا ثبت بما تم العثور عليه أو الاشارة اليه في كتب التراجم والفهارس ، مما ألفه السموءل وصنفه مـن الكتب والرسائل (عدا الباهر في الجبر) :

١ ــ **الزاهر في الجبر**
٢ ــ **شرح لكتاب ديوفنطس الاسكندراني**
٣ ــ **رسالة في التحليل والتركيب**
٤ ــ **رسالة الموجز المضوي في الحساب**
٥ ــ **التبصرة في علم الحساب**
٦ ــ **كتب القوامي في الحساب الهندي**
٧ ــ **رسالة الى ابن الخشاب في مسائل حسابية، جبر ومقابلة**
٨ ــ **الكافي في حساب الدرهم والدينار**
٩ ــ **قصيدة في حساب اليد**
١٠ــ **كتاب في اعجاز المهندسين**
١١ــ **كتاب المثلث القائم الزاوية**
١٢ــ **كشف أعوار المنجمين**
١٣ــ **المفيد الأوسط في الطب**

١٤ـ **نزهة الأصحاب في معاشرة الإحباب**

١٥ـ **المنبر في مساحة الجواهر المختلطة لاستخراج مجهولها**

١٦ـ **بذل المجهود في افحام اليهود (نشر في نيويورك عام ١٩٦٤) ٠٠**

في تحقيقهما كتاب « الباهر » ، اعتمد المحققان المخطوطة الموجودةفي مكتبة أياصوفيا، المنسوخة عام ٧٢٥ للهجرة ، وهي مصورة ومودعة صورتها في معهد الوثائقوالمخطوطات بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية ٠ واعتمدا كذلك مخطوطة أخرى للكتاب مماهو محفوظ في مكتبة عزت أفندي (باستنبول)٠

وقد عمد المحققان الفاضلان الى اعداد ملخص للباهر باللغة الفرنسية ألحقاه بالكتاب ، تعميماً للفائدة ، جزاهما الله خيرا بقدر ما أسديا من فضل الى العلم ، والى الأمة ، والى السموءل المغربي ٠٠

استغرق الكتاب ٢٦٤ صفحة ، فضلاعن ٨٤ صفحة أخرى بالفرنسية ٠ وهو مطبوعءام ١٩٧٢ في مطبعة جامعة دمشق ٠ وقد تولت نشره وزارة التعليم العالي في القطر ، التي أخذت على عاتقها نشر بعض أمهات الكتب العلمية ، محققة أو مترجمة ، لتضعها مراجع بين أيدي الباحثين والجامعيين ، في سورية العربية وفي كل قطر عربي ٠

« أبو فراس السباعي »

□ ● □

من تراثنا التشكيلي الحديث

سمير الكرد

سيرة الفن هي سيرة البشرية ، ووراءكل حضارة فن يؤرخها ٠

ومن هنا كان الفن مواكباً للحضارة ومقياساً لها وأرضنا العربية عرفت تطور الحضارة منذ الألف الرابعة قبل الميلاد حتى يومنا هذا ، فكانت حضارة بلاد الشام والعراق ومصر من أقدم الحضارات العربية والانسانية على الاطلاق ٠

وتراثنا في الفن التشكيلي ، أعطى من الناحية الجمالية المسلمات الأساسية التي قدمتها الحضارة العربية الاسلامية ، والتي ظلت مرتبطة ارتباطاً عميقاً بالمجتمع ، وبتطوره من جميع نواحيه في الرسم والعمارة والخط ٠

فالفن الاسلامي هو محصلة للفنون التي سبقته ، وموجه لها ، قدم القيم الانسانية التي نادى بها العرب في رسالتهم ، فكان الفن تجسيداً عاماً وشاملا للحياة ، أجرى التعديلات المختلفة على جميع الفنون السابقة لتلائم هذه القيم الجديدة ، فلم يرفضها بل أبدل مضمونها ٠

هذا ولم يفهم الفن العربي فهماً صحيحاً ، ذلك لأنه قدم لنا رؤى جمالية لها ظروفها وامكاناتها الخاصة المرتبطة بالواقع العربي ٠ ونتيجة لاحتكاك الفن العربي الحديث ، وأعطى الغربيون الفن العربي تحديدات ، فنحلوه صفة الزخرفة والخيال ، دون أن يحيطوا بجميع آفاقه واتجاهاته وطواعيته فكان الفن العربي عند العديد من النقاد فناً زخرفياً لا حياة فيه ، وصوفيا غامضا ٠

ولم يدركوا أهدافه ومعانيه ٠ وأرجعوا كل فن صحيح الى التصوير ، ذي المضمون الانساني وربطوا كل تصوير عربي بالحضارات السابقة واللاحقة ، وأكدوا على قضية تحريم التصوير ، وربطوها بلجوء الفنان الى الزخرفة ٠ وقالوا : ان هذه الصياغات ترتبط بالتجريد الأوربي فقط ، مظهرين ان العرب هم السباقون الى التجريد ، وعليهم الاستمرار فيه اذا أرادوا فناً متميزاً متناسين أن تراثنا العربي حافل بمختلف الأشكال الفنية من التصوير الملون والزخرفة المجردة والتداخل بينهما ، معتمدا ربط العضوي بالهندسي ، وان لكل شكل وتعبير تلاؤما مع الظرف والمكان ٠ فما يرسم في كتاب يتلائم تقنياً معه وما يرسم على جدار حمام يتلاءم معه ، ويختلف بالضرورة القصر والمسجد بزخارفهما التي هي من نوع « الأرابسك » ومع أن لفظ الأرابسك أصبح متداولا ومتعارفاً في الوقت الحاضر فانه يجدر بنا أن نلم بطائفة من تفسيراته (الارابسك): اختلفت تفسيراتها ففسرها بعضهم انها شكل من (التوريق) وفسرها آخرون على أنها « حسن استخدام الخطوط متلاقية متعانقة ثم متجافية متلاسمة متهامسة » وبعضهم أرادمنها

صيغة هندسية « تبدأ من أشكال هندسية (مخمس ، مربع ، مثلث) تتضاعف وتتشابك لكي تستخرج منها أشكال لا حصر لها من الخيط العربي » وان كلمة أرابسك هي لفظة جديدة تعتمد على جدلية معينة في الأشياء التي نراها ، وعلى حركية قائمة بين هذه الأشياء ، تجعلنا نرى في العلاقات ما هو جدلي ، فاذا كانت في الخطوط وحركتها دلت لا نهائية الخط المتحرك واستمراره عبر الأشكال والأشخاص وحركتها (١) •

وكان الفن العربي ذا وحدة وشخصية ثابتة مهما اختلفت الأقطار والتقنيات ، معبرا عما هو مطلق من تكرار الشكل الحسي والبصري • بحيث نصل الى هندسة متداخلة معبرة عن السرمدي اللامتناهي • هذه الشخصية الموحدة للفن المرتبط بالحياة اليومية ، وبحاجات المجتمع الذي عايشه الفنان ، تجعل الفن تجميلا للاشياء ، وتطبيقاً مرتبطاً بحاجاتنا • فكل أداة يستعملها يجب أن تكون جميلة مزخرفة •

ولم يرسم الفنان العربي (اللوحة المحمولة) التي تباع وتشترى ، كما هو في المجتمع الأوربي ، بل رسم على الجدران ولم تكن له مسالة جمالية خالصة ، بل طرح موضوعات مختلفة لجوانب الحياة العربية • ففي رسومات قصر الحمراء : نجد الكثير من الحرف التي مارسها العرب في حياتهم اليومية ، من نجارة، وحدادة ، وبناء ، وموضوعات الصيد والاستحمام والموسيقا ، والرياضة ، والفتوحات العربية ، فكان تصويرا جدارياً يكشف الحياة بكاملها • وقد ارتبط الفن بشفاء الناس أحياناً • كما قال : محمد بن زكريا الرازي

« ان الصور الجميلة اذا جمعت الى صورتها حسن الأصباغ المألوفة من الأصفر ، والأحمر، والاخضر ، والابيض ، مع ضبط نسبة المقادير فانها تشفي الأخلاط السماوية ، وتزيل الهموم الملازمة لنفس الانسان ، وتزيل الكدورة عن الأرواح ، لأن النفس تلطف وتشرف بالنظر الى هذه الصور ، فيتحلل ما فيها من الكدورة »

وكذلك ارتبط الفن بالأدب والقصص، فرأينا الرسوم تزين الكتب ، والمخطوطات • ومن كبار الفنانين التشكيليين العرب الذين عملوا في هذا المجال الفنان محمد بن يحيى الواسطي الذي سطر أكبر ابداع عرف في تراثنا العربي، حيث عرف مصورا ، وملونا ، ورسام منمنمات، وقدم لنا بعض أحداث مقامات الحريري بأسلوب فني معبر ، غير متقيد بالنص • مقدما لنا الاطار التاريخي للاحداث بأسلوب واقعي، معبر عن تطور جاد وهام في التصوير العربي • وقد أطلق على رسومه اسم «الواقعية الجديدة» لما فيها من رؤى واقعية ، على الرغم من الغاء البعد الثالث ، والعمل ضمن منظوره العربي الخاص مجسدا أسلوبه ، متميزا برسومه ، لمواكبتها الواقع بمختلف عناصره وأشكاله وتشير المخطوطات ، المصورة ، الموجودة في متاحف العالم ، الى ازدهار فن التصوير في الكتب ، وارتباطه بالفروع الأخرى للتصوير العربي (الفسيفساء ـ التصوير على الجدران)، مما يعطيه أهمية خاصة تفوق التوضيح ، وكما قيل في رسوم كليلة ودمنة : بأنها رسمت بألوان مختلفة لتزيد من بهجة القارىء ، ولتجعل المفاهيم الواردة في النص أكثر تأثيرا •

ربما أفاد الفن العربي من الحضارات الأخرى ، ولكنه • دمجها وتجاوزها تجاوزا فنياً عجيباً ، لهذا كان للفن العربي أثر واضح في الفن العالمي ، لتجاربه العديدة في أكثر من

١ ـ الحياة التشكيلية •

طريقة ، وحسب مختلف المراحل والحاجات ، ففي لوحات عصر النهضة نجد تمثيلا لسجاجيد شرقية وألبسة عربية ووجوه عربية ·

وأخذت التأثيرات أهميتهـا في القرن التاسع عشر ، فسجل الفنان ، دولا كروا في زيارتـه للمغرب العربي عدة رسوم حيث أثرت في شخصيته الفنية ·

وتعمقت هـذه التأثيرات أكثر فأكثر في القرن العشرين حين زار « مايتس وبول كليه» المغرب العربي ، وقدما تجاربهما التي عكست بوضوح تأثرهم بالفن العربي ، وتحديـد شخصيتهم الفنية ·

واليوم نجد تجارب متعددة ، تقدم لنا « الفن البصري » والفن « الحركي » ـ تجارب ڤازاريللي ـ ونتائجه المواكبة للزخرفة العربية التي انطلق بها العرب لتقديم الفن بشكلـه الهندسي المتميز ، بعلاقاته الرياضية ، التي توصل الى ما يدعى اليوم بالخداع البصري· ومن الواضح أن تراثنا يمثل بالنسبة للفنان التشكيلي عنصرا هاما ، يجعل للفن العربي وجوده المستقل عن الفنون الأجنبية الأخرى· لهذا يرجع اليه الفنان ، ليعبر عـن أصالته ليكون سلاحاً فعالا لتأكيد الوجود · وهناك العديد من الفنانين العرب في سورية الذيـن تأثروا بتراثهم ، ففي المرحلة الأولى «البداية» مـن جيل الرواد نلاحظ أن مرحلة تصعيـد المواجهة مع (الاستعمار) قـد دفعت هؤلاء الفنانين الى تقديم موضوعات لهاصلة بالتاريخ فنجد زخارف الفنان توفيق طارق في لوحـة (مجلس الخليفة المأمون) سجلها بدقة ، مع أن فنـان هذه المرحلة لم يتجـاوز التجارب التسجيلية ·

كذلك نجد في لوحات الفنان سعيدتحسين بعض عنـاصر التراث الفني كما في لوحـة (صلاح الدين الأيوبي) وكذلك ترى تجارب فنية أخرى سجلت الحياة اليوميـة من أزياء وأحياء قديمة ، نضعها فنياً تحت راية التراث· ومن المهتمين في هذا المجال الفنان خالد معاذ الذي لعب دورا هاما في توثيق الفن العربي·

وأتت المرحلة الثانية ، التي أخذ فيها الفنان عناصره من التراث العربي ، فطورها ، وقدمها في قالب جديد ، وقد بدأ هذه التجربة الفنان الراحل أدهم اسماعيـل حيث استخدم الخط اللامتناهي ، مثبتاً أن التراث العربي ، ليس مجرد زخارف جميلة فقط ، ولا تجريد لـه أبعاد هندسية وموسيقية ، بل يمكن أن يعالج جميع الموضوعات المطروحة · وكذلـك قدم الفنان الراحل نعيم اسماعيل في المرحلة نفسها عدة تجارب ، بدأت من التراث ، فحذف التكرار ورفد الحركة بتجديد الزخارف ، وأدخل على حركة الخط اللامتناهي ، التي قدمها شقيقه أدهم تطويرا انطلق من تثبيت مفهوم الأرابسك·

وتنوعت التجارب وأخذت عدة اتجاهات، منها ما ارتبط بالكتابة العربية ، ومنهـا ما ارتبط بالزخرفة ، وفي هذا المجال تجارب اعتمدت على الكتابة العربية للفنان محمود حماد حيث اكتشف أن الحرف العربي ،وحركته يصل الى لغة تجريدية متميزة ، وربط الحرف بالخلفية ·

وكذلك أعطى الفنان عبدالقادر أرناؤوط تجربته بأخذ الجانب الجمالي ، والمبسط من الكتابة العربية ، مستخدماً ألوانه وتقنياتـه الشافة ، معطياً شاعرية متميزة ·

وكذلك نجد التأثيرات التراثية في لوحات الفنان الياس زيات (المصلوبة) • التي ربطت عناصره التشكيلية ، والتجريدية ، وجعلت له عالمه الخاص • أما الفنان نذير نبعة ،فقد قدم لنا عناصر مختلفة من تراثنا العربي ، بدقة وعمق ، ورسوخ •

وقد أخذ بعض الفنانين يبحثون عما هو أكثر عمقاً ، كما فعل الفنان فاتح المدرس ، والفنان خزيمة علواني •

ومن الفنانين الذين بحثوا للوصول الى لغة فنية لها أكثر من قالب ، الفنان تركي محمود بك ، اذ قال فيه الدكتور عبدالكريم اليافي : « وانا لنجد فيه جرأة البناء وبساطته وصراحة الألوان وتوكيدها ،وانسجام الخطوط واتساقها ، وائتلاف الأشكال والتئامها ، وتجريد العناصر وحسن توزيعها، حتى ليذكرنا فنه بتلك الزخرفة العربية الفكرية الفنية ، كما تذكرنا ألوانه المشبعة فاقعة أو قانئة أو ناضرة أو زاهية بفنون الخزف الاسلامي البديعة التي جعلت بعض الشعراء فيما مضى « يعشقون بعض آثارها (عشقاً) على حد تعبير الرواة القدماء • كذلك يخيل الينا في بعض لوحاته كأننا نلمس فن السجاد والأقمشة الشعبية العريق في هذا الشرق أو نرى في سكنات الاشخاص الشعبيين الذين يرسم أشكالهم ويلخص سماتهم المجردة حركاتهم المميزة فوق ملابسهم التقليدية التي توائم بيئاتهم وتراثهم»

وهذا كله لا ينسينا أن هذه الأشكال الفنية من التعابير التي بلورت قيمنا الحضارية ، والفنية ، وعبرت عن عصرها ، دخلت في دوامة الانحطاط حتى أصبح الفن تقليداً • بعد أن كان فناً أصيلا ذا جذور عميقة • فيه العديد من الأشكال •

وان تطوير هذا التراث ، واعادته الى الأجيال ، من المهام الجديرة بالعمل الجاد •

سمير الكراد

□ ● □

إحيـــاء التـــراث ودراستـه*

د. نسيب نشاوي

من الكتب التي نشرت في ميدان احياء التراث ودراسته :

كتاب « معالم فكرية في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية » ـ تأليف العلامة الدكتور عبدالكريم اليافي عضو مجمع اللغة العربيـة بدمشق وأستاذ الدراسات العليا في كلية الاداب بجامعة دمشق .

يقع الكتاب في ٢١٥ صفحة ـ نشر بدمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

أبان فيه المؤلف مكانة علماء الحضارة العربية الاسلامية كابن خلدون والجاحظ وابن زهر الطبيب والغزالي وابن سينا والبيروني وابن عربي .. في دراسة مقارنة بآخرين من المشاهير الأوربيين، وأوضح ما في التراث الحضاري العربي الاسلامي من « مناجم زاخرة غنية وكنوز ثمينة غالية متنوعة يجد فيها كل باحث ماينقع غليله ويمتع فؤاده أيا كان ميدانه في الاقتصاد وعلم النفس وعلم الجمال وعلـم الاجتماع وغيرها من المعارف القديمة والحديثة» كالطب والفلك والاقتصاد وعلم السكان ..

ومن البحوث التي عرضها المؤلف في الكتاب: الظواهر النفسية الاجتماعية لدى الفقريات في رأي الجاحظ ، وآفاق أبي الريحان البيروني العلمية في الفلك والتنجيـم ووصـف آلات الارصاد والاصطرلاب والأطوال وقياس الزمن والحساب وعلم المعادن والصيدنة ، وأسرار النفس في عينية ابن سينا ، والنسل وقضيـة تحديده عند الغزالي ، وكتـاب الاقتصاد في اصلاح الأنفس والأجساد لابن زهر ، ومكانة الطبيب في الحضارة العربية وصلاتها بالحياة الاجتماعية ، وبيت بني زهر ، وتاريخ نشوء علم السكان ومنزلة ابن خلدون منه ، والفتوة في الحضارة العربية وصلاتها بالحياة الاجتماعية ، وختم المؤلف الكتاب ببحث عن المرأة في

* المجلة بصدد التعريف بكتب التراث المهداة الى مكتبتها .

مرآة الشرق والغرب ورد فيه : « ان اكبار ابن عربي للمرأة يتجلى في سطور نمقها حب الرجل لها ، ويتلامح وراء هذه السطور سمومكانتهافي نفس هذا العارف الجليل» القائل :«وخلقت منفصلة عنه ليحن اليها حنين من ظهرت سيادته بها فهو يحبها محبة من أعطاه درجة السيادة» .

والكتاب نادر المثال وهو من أخص الدراسات بالتراث لما فيه من التفهم العميق لنظريات الحضارة العربية والافادة منها في البحوث العلمية والانسانية المعاصرة .

* * *

سير أعلام النبلاء ـ تصنيف الامام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٧٤ م حققه عددمن الاساتذة المتخصصين .

صدر منه ٨ أجزاء متوسط عدد صفحات كل جزء ٥٥٠ صفحة ـ دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

قدم له الأستاذ الدكتور بشار عوادمعروف رئيس قسم التاريخ بكلية الاداب في جامعة بغداد ، وذكر في مقدمته أن جامعة الدول العربية أخرجت من هذا الكتاب منذ ثلاثين سنة نزرا يسيرا كثر فيه السقط ..

وهو كتاب التراجم الموسوعي المشهور الذي قصره الذهبي على سير الأعلام المشهورين جدا من الخلفاء والصحابة والأمراء الوزراء والقضاة والقراء والمحدثين والفقهاء وأدباء العربية وشعرائها وعلمائها وأرباب الملل والفلاسفة .. وقد آثر المحدثين على غيرهم اذ أكثر من ذكر أعلامهم .

يشتمل الكتاب على تراجم الأعلام الذين عاشوا في أنحاء العالم الاسلامي من الأندلس غرباً الى أقصى المشرق خلال مرحلة زمانية طويلة بلغت سبعة قرون أولها بداية الاسلام الى سنة ٧٠٠ هـ جعلها المؤلف في ٣٥ طبقة تستوعب كل طبقة منها ٢٠ سنة وأفرد المجلدين الأول والثاني للسيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين ، ولم يكتبها الذهبي وانما أحال ذلك على كتابه « تاريخ الاسلام » ، ولهذا فان الجزء الأول المطبوع يبدأ بترجمة أبي عبيدة بن الجراح فطلحة فالزبير فعبدالرحمن بن عوف فسعد فسعيد ..

وتحتوي كل ترجمة مواد كثيرة وغالباًماتبدأ بذكر اسم المترجَم ونسبه ولقبه وتاريخ مولده وأحوال نشأته ونشاطه وتلاميذه ...وتنتهي بتحديد تاريخ وفاته ويدقق الذهبي في ذلك تدقيقاً بارعاً ، ومن شأنه أن يحيل القارىء على مصادر أوسع حين يقتضي الأمر، كماأكثر من ايراد الأحاديث النبوية والعناية بالتعليق على الاسناد والمتن . وحرص على تقديم الترجمة الكاملة والمختصرة في آن واحد وراعى في ذلك قيمة الانسان وشهرته لا يضيره أن يكون العلم متفقاً معه في العقيدة أومخالفا، وقد تطول تراجم الشعراء البارزين أو كبار النحويين أو أعلام الصوفية والسلاطين .

وقد بذل المحققون جهودا كبيرة لاخراج الكتاب في طبعة علمية صحيحة خالية من التصحيف والتحريف مزودة بالتعليقات والحواشي المساعدة على تفهم النصوص والرجوع الى مظانها ·

★ ★ ★

العروض وموسيقى الشعر العربي ــ تأليف الأستاذ الدكتور محمد علي سلطاني
أستاذ علوم اللغة في كلية الاداب بجامعة دمشق ·

١٢٨ صفحة ــ نشر بجامعة دمشق ١٤٠٢هـ/١٩٨٢ م

أورد المؤلف فيه رأيه في ماهية موسيقى الشعر الخارجية والداخلية ، وجوانب أهمية القافية ، ثم عرض نشأة علم العروض ومصطلحاته ودوائره ، وطريقة الخليل بن أحمد الفراهيدي في بيانها ، وانتقل بعدذلك الى الكلام على بحور الشعر العربي الستة عشر أوزانها وشواهدها والزحافات والعلل ،وختم الكتاب بتعريف القافية وحروفها وحركاتها وأنواعها وعيوبها ·

★ ★ ★

فصول في النحو ــ تأليف الأستاذ الدكتور محمد علي سلطاني

٢٦٨ صفحة ــ نشر جامعة دمشق ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م

استهله المؤلف بشرح بعض مسائل الخلاف في النحو وما دار حولها من نقاش حاد بين مدرستي الكوفة والبصرة النحويتين ، وخص القسم الثاني من الكتاب بالأدوات النحوية وشواهدها وأثرها في تلوين المعاني وتغيرها «حتى سميت عندهم بحروف المعاني » وبسط الكلام على ٤٠ أداة أقرتها المجالس الجامعية للتدريس وصنفها في منهج لا يعتمد على الدور المعنوي للادوات وانما يأخذ بنظرية العامل ولذلك فقد رتبها على أساس عملها ، وقسمها مجموعات تشتمل على : أدوات التعريف ، أدوات النفي ، أدوات الشرط ،الحروف المشبهة بالفعل ، حروف الجر ، أدوات الاستثناء ، حروف العطف ، ثم أدوات مختلفة ــ وقد ألحق بكل بحث شواهده التطبيقية · وكثيرا ما يبين المؤلف رأيه فيما ورد من قواعد في المصادر المتخصصة في سبيل اعطاء وجهة النظر التوفيقية بينها ·

★ ★ ★

فارس الجزائر الأمير عبدالقادر الجزائري ١٨٠٧ ــ ١٨٨٧ م ــ تأليف العماد مصطفى طلاس ·

٢٠٢ صفحة ــ نشر بدمشق ·

صدّره المؤلف بمقدمة أرخ فيها حياة الأمير عبدالقادر الجزائري ووصف شخصيته وملامحه الجسدية والنفسية، ووضع في الفصل الأول دراسة جيوبوليتيكية عن طبيعة أرض الجزائر وسكانها واقتصادها ، وفي الفصل الثاني والثالث أرخ للاحتلال الفرنسي للجزائر

وبداية المقاومة الوطنية له، وانتقل في الفصول التالية الى بيان فروسية الأمير عبدالقادر الجزائري في ميادين المقاومة وانتصاراته في معركة الغزوات وسيدي موسى ، ثم اشتداد الضغط عليه ونفيه الى مدينة طولون بفرنسة عام ١٨٤٧ م ، ثم اقامته بدمشق بعد عام ١٨٥٥ م ، وموقفه النبيل من أحداث لبنان في فتنة عام ١٨٦٠ م

ويتضمن الكتاب كثيرا من النصوص النثرية التي قالها الأمير ومقتطفات من رسائله وأحاديثه تتعلق بحياته الخاصة والعامة ، وفي آخره نصوص وثائقية لصك البيعة للامير عبدالقادر الجزائري ورسالة الأمير الى رجال القبائل ٠ والجدير بالذكر أن مخطوطة ديوان الأمير عبدالقادر محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٤٨٦٣ و ٢٤٥ وفي آخر الديوان نبذة في ترجمته ، وقد بلغ عدد أوراقه ٤٩ ورقة و ٤ ورقات ٠

★ ★ ★

ولاة دمشق في عهد المماليك ـ تأليف الأستاذ محمد أحمد دهمان

٢٨٠ صفحة ـ الطبعة الثانية ـ دمشق ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م

عرض فيه المؤلف أحداث دمشق في عهد المماليك منذ سنة ٦٥٨ الى سنة ٨٠٣ هـ ورتبها على ترتيب الولاة ، وصنع في أول الكتاب بحثاً ضافياً لأعمال المماليك وجهاز حكومتهم في القاهرة ودمشق ٠ ثم تأتي تراجم ولاة دمشق في عهد المماليك ٠

والكتاب مزود بالخرائط والصور التي توضح الأماكن الأثرية والتقسيمات الادارية لبلاد الدولة المملوكية ، وفيه تفصيل عن احتلال التتار لدمشق مرتين ، ووقعة عين جالوت والأحداث التي تلت خروج التتار ٠

★ ★ ★

شرح المقصور والممدود ـ تاليف أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ـ تحقيق الأستاذين ماجد الذهبي وصلاح محمد الخيمي

٦٤ صفحة ـ دمشق ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١م

وفيه سبعة أبواب بنيت على شرح قصيدة مؤلفة من خمسين بيتاً من مجزوء الكامل أنشدها ابن دريد في الحكم والمواعظ وعلّق عليها ببعض الشروح وقصد الى أن تكون مشتملة على الأسماء المقصورة والممدودة التي يتفق لفظها ، وأولها باب « ما يفتح أوله فيقصر ويمد والمعنى مختلف » ومثاله :

لا تركننّ الى الهوى ... واحذر مفارقة الهواء

وآخرها « باب ما يضم أوله فيقصر ويفتح فيمد والمعنى مختلف » ومثاله :

شمس الضحى طلعت عليـ ... ـك ولا ترى شمس الضحاء

★ ★ ★

قانون البلاغة في نقد النثر والشعر ـ تاليف الشاعر أبي طاهر محمد بن حيدر البغدادي المتوفى سنة ٥١٧ هـ ـ تحقيق الدكتور محسن غياض عجيل الأستاذ في جامعة بغداد وجامعة الامارات العربية المتحدة ·

١٧١ صفحة ـ بيروت ١٤٠١ هـ /١٩٨١ م

وأول الكتاب تعريف البلاغة وبيان حدودها ، ثم نعوت المعاني ، ومذاهب البلاغة وفضلها ، والقسم الثاني منه في بلاغة الشعر ونقده وأقسام البديع كالطباق والجناس ·· وعد في هذا القسم نحو خمسين نوعاً ،وخاتمة الكتاب في صناعة الشعر ودواعيه واختلاف الشعراء في الطبع ، والنقد والنقاد ·

★ ★ ★

لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر ـ تاليف نجم الدين محمد بن محمد الغزي الدمشقي ٩٧٧ ـ ١٠٦١ هـ/١٥٧٠ ـ ١٦٥١ م ـ تحقيق الإستاذ محمود الشيخ ·

السفر الأول ٢١٦ و ٤٣٠ صفحة ـ نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م وقد صدر الجزء الثاني مؤخرا ١٩٨٢ م

يشتمل على تراجم أعيان عصر الغزي في البلدان العربية وبخاصة أعيان بلاد الشام قدم له المحقق ب ٢١٦ صفحة ، ثم تفتتح أبواب الكتاب بالتراجم وأولها المحمدون ، ثم الأحمدون ، ثم سائر الأسماء مرتبة بحسب حروف المعجم وتبدأ بحرف الألف ، وينتهي الجزء الأول مع نهاية حرف الحاء ، وأول السفر الثاني حرف الخاء ·

وجاء في مقدمة الغزي قوله : « أما بعد ، فهذا ذيل على كتابي المسمى ب « الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة » ألفته لتمام سنة ثلاث وثلاثين بعد الألف وهي السنة التي جاءت بكل عجاب ،وكانت طبقة الأعيان المندرجين فيها رابعة لطبقات ذلك الكتاب، فخطر لي أن أبادر مرور الزمان بتقييد تراجم تلك الأعيان » ·

★ ★ ★

ديوان الشيباني الموصلي ومختصر الشرح الجلي على بيتي العلامة الموصلي ـ جمعه وحققه ونشره صلاح الدين خليل الشيباني الموصلي ·

٢٦٤ صفحة ـ دمشق ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م

وفيه ما عثر عليه المحقق من شعر الأديب القاضي عبدالرحمن الموصلي الشيباني ١٠٣١ ـ ١١١٨ هـ/١٦٢٢ ـ ١٧٠٦ م ،وقد بلغ مجموع الشعر في هذا الديوان نحو ألف بيت ، وزينه المحقق الأستاذ صلاح الشيباني بالرسوم والصور الأثرية ، وأضاف اليه تعليقات وتقريظات ، ثم ختمه بشروح وحكم وفوائد تراثية رآها مفيدة للمطالعين ·

★ ★ ★

المعجم المشتمل على ذكر أسماء شيوخ الأئمة النبل ـ تأليف الحافظ ابن عساكر أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي ٤٤٩ ـ ٥٧١ هـ تحقيق الأستاذة سكينة الشهابي ·

٣٣٦ صفحة ـ دمشق ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م

يترجم الكتاب بايجاز للأئمة أصحاب كتب السنن الستة وشيوخهم ، ويضم ١١٩٩ ترجمة لهؤلاء الأعلام مرتبة أسماؤهم على نسق حروف المعجم ·

والكتاب متخصص بخدمة العاملين في تحقيق تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر وسائر كتب الحديث النبوي ، وقد نذرت المحققة وقتها وجهدها للاسهام مع العاملين في مجمع اللغة العربية لاخراج آثار الحافظ ابن عساكر محققة تحقيقاً علمياً وأمضت عشر السنوات الأخيرة في هذا الميدان ·

★ ★ ★

فهرس مخطوطات العلوم والفنون المختلفة عند العرب في دار الكتب الظاهرية ـ وضعه الأستاذ مصطفى سعيد الصباغ ·

٥٥٢ صفحة ـ نشر مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م

وصف فيه الأستاذ مصطفى الصباغ نحو مئتي مخطوط تخص العلوم والفنون عند العرب مما هو محفوظ في المكتبة الظاهرية بدمشق ، رتبها بحسب الموضوعات على النسق التالي :

ـ كتب الطب والصيدلة والأعشاب والسموم وعددها ٢٥
ـ كتب عبارة الرؤيا وتفسير الأحلام وعددها ١٣
ـ كتب علم الرمل والتنجيم وعددها ٢٢
ـ كتب علم النجوم والأنواء والفلك والهيئة وعددها ٣٩
ـ كتب علوم مختلفة عددها ٦٢ تشتمل على علم البيطرة والخيل والفروسية وعلم الروحانيات وعلم الطبيعة والفراسة والفلاحة والقبان والأوزان والشطرنج والنرد والموسيقى وعلم النميات (النقود) وغيرها ·
ـ كتب الكيمياء والصنعة والاكسير والسيمياء وعددها ٣٩ ·

وكان منهجه في الفهرسة أن ينقل فاتحة كل مخطوط وخاتمته واسم مؤلفه مع شرح قد يكون موسعاً لما يشتمل عليه من موضوعات، ويذكر عدد أوراقه ونوع الخط واسم ناسخه وتاريخ نسخه ، يتقدم ذلك كله رقم المخطوط في الظاهرية ، وبعد ذلك يحيل الأستاذ الصباغ القارىء على المراجع التي ذكرت المؤلف والكتاب ·

وقد ذكر في المقدمة انه أمضى أربع سنوات في صنعه وطلب فيها الى الباحثين الاقبال على نشر التراث راجياً أن يكون عمله مساعداً لهم ·

د· نسيب نشاوي

□ كتب تراثية

محمد نجيب بو طالب

ـ « الفكر العربي في بواكيره وآفاقه الأولى »

يمثل هذا الكتاب الجزء الثاني من « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بداياته حتى المرحلة المعاصرة » ، الذي بدأ الدكتور طيب تيزيني باصداره منذ سنوات قليلة، فقد أصدر كتاب « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط » وهو الذي أشار فيه الى هذا المشروع وقضاياه ٠٠ ويمثل كتابه « من التراث الى الثورة ـ حول نظرية مقترحة في قضية التراث العربي » الجزء الأول، وقد طبع ثلاث طبعات، وهذا المشروع يتألف من اثني عشر جزءا ٠ واذا كان الجزء الأول قد تعرض الى المسائل النظرية والمنهجية التي يقترحها الدكتور التيزيني لدراسة التراث، عبر نظرية « الجدلية التاريخية التراثية » ٠ فان الجزء الثاني يمثل دراسة تطبيقية لتلك النظرية المنهجية التي يبدو أنها لم تكتمل بعد، بل انها خاضعة للحوار العلمي النقدي من ناحية ، وبالتالي (فانها تكتسب مشروعية امتدادها في الجزء الثاني من « مشروع الرؤية ») المذكور ٠

صدر هذا الكتاب عن « دار دمشق للطباعة والنشر » في طبعته الأولى (نيسان ١٩٨٢) في مجلد يتألف من ٥٥٤ صفحة ويتألف الكتاب من مقدمة وأربعة أقسام :

يتناول القسم الأول بعض المفاهيم الشائعة في دراسة التاريخ والتراث العربيين ، الا أن معالجة مفهوم « الجاهلية » تأخذ مجالا أوفر من هذا القسم، انه المفهوم الذي يسلب المرحلة التاريخية لما قبل الاسلام محتواها الانساني والمعرفي والاجتماعي ٠ كما يتناول مفهومي « التاريخ العربي » و « التاريخ الاسلامي » ويتوصل الى أنهما وجهان لأمر واحد ٠ ويتناول أيضاً المنطلقات العلمية للتاريخ العربي القديم منطلقاً من أن شعوب المنطقة العربية ، في المرحلة المدروسة ، كانت تمثل وحدة تاريخية اثنوغرافية ٠

وفي القسم الثاني يتعرض الى الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تحيط بالفكر ابان تلك المرحلة ٠

أما القسم الثالث فيدرس خصائص الفكر العربي القديم ويستكشف تخومه ،كما يركز على دراسة بعض روافده كالسحر والاسطورة والدين ، ثم يتعرض الى بعض الاشكاليات التي تتعلق بآفاق ذلك الفكر وكيفية الخروج منها ٠

وفي الأخير ينتقل الى دراسة بعض المسائل المنهجية المتولدة عن البحث ودلالاتها اللاحقة في مجال البحث التراثي ، ولا يفوتنا أن نشير الى أهمية المعلومات والنصوص التاريخية التي استشهد بها الدكتور التيزيني في كتابه الجديد ٠

« قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي »

تأليف الدكتور محمد عابد الجابري أستاذ الفلسفة بكلية الاداب ـ جامعة محمد الخامس ، الرباط ـ المغرب ـ ٤٠٨ صفحات من الحجم الصغير دار الطليعة ببيروت ـ ١٩٨٠

وهو يضم مجموعة من الدراسات تعيد قراءة بعض قمم الفلسفة العربية ٠ وهي دراسات كتب بعضها بمعزل عن بعض ، غير أنها تصدر عن منهج واحد ورؤية واحدة كما يشير الى ذلك المؤلف ، ويبدأ الكتاب بمدخل عام يعرض فيه مبادىء القراءة الجديدة للتراث والمنهج المتبع ، مبدياً رأيه في كيفية التعامل مع التراث العربي وفي الموقف من البحوث والدراسات الحديثة والمعاصرة المتعلقة به ٠

ويذهب في ذلك المدخل المنهجي الى تفسير « القراءة » بأنها ليست مجرد بحث أو دراسة ، لأنها تتجاوز البحث الوثائقي أو التحليلي أو التجميعي بل تقترح تأويلا يعطي المقروء « معنى » يجعله في آن واحد ذا معنى لمحيطه الفكري ـ الاجتماعي ـ السياسي ، ولنا نحن القارئين ٠ وأما كون تلك القراءة **معاصرة** فمن حيث حرصها على **جعل المقروء معاصرا لنفسه** ومحيطه الخاص من جهة ، وجعله معاصراً لنا على صعيد الفهم والمعقولية من جهة أخرى : (جعل المقروء معاصرا لنفسه معناه فصله عنا ٠ وجعله معاصرا لنا معناه وصله بنا ٠٠ ان قراءتنا تعتمد ، اذن ، **الفصل والوصل** ، كخطوتين منهجيتين رئيستين ٠)

ثم ينتقل الكاتب الى نقد النزعات الدراسية للتراث فيقسمها الى محاور ثلاثة هي : النزعة السلفية والنزعة اللبرالية ـ الاستشراقية التي يمكن أن نطلق عليها (نزعة المركزية الأوربية) ، والنزعة اليسارية ٠ وهو يرفض هذه القراءات الثلاث **لأنها** قراءات « سلفية » تشترك في أنها تفتش عن سلف تتكىء عليه ، كما تتفق في اتباع منهج القياس القائم على « **قياس الغائب على الشاهد** » ٠

فبالنسبة للنزعة الأولى فان الماضي الذي أعيد بناؤه بسرعة قصد الارتكاز عليه لتحقيق النهضة العربية ، أصبح لدى هؤلاء هو نفسه مشروع النهضة ٠

أما بالنسبة للنزعة الثانية فانها تقرأ التراث العربي قراءة أوربية من منظومة مرجعية ٠

وأما النزعة الثالثة فانها رغم تبنيها المنهج الجدلي فانها لا تتبناه منهجاً للتطبيق بل تتبناه منهجاً مطبقاً ، ومن الخطأ الذي يقع فيه هؤلاء انهم فضلوا الواقع التاريخي على القوالب النظرية وتلك القراءة برأي الكاتب، غير تاريخية ٠

ثم يعرض الكاتب خطوات المنهج ومستويات القراءة التي اتبعها ٠ فهو يؤكد ضرورة القطيعة مع الفهم التراثي للتراث ، أي نبذ الأسلوب الذي قوامه قياس الغائب على الشاهد

بلا مراعاة للشروط التي تجعل هذا القياس منهجاً علمياً • وهو في هذا المجال ، لا يدعو الى القطيعة مع التراث بالمعنى اللغوي الدارج بقدر ما يدعو الى التخلي عن الفهم التراثي للتراث وفي المقدمة : القياس النحوي والفقهي والكلامي في صورته الآلية اللاعلمية التي تقوم على ربط جزء بجزء ربطاً ميكانيكياً ،والتي تفكك الكل الى أجزاء فتفصلها عن اطار الكل الزماني ـ المعرفي ـ الأيديولوجي ، وتلك القطيعة هي التي تحولنا من « كائنات تراثية» الى كائنات لها تراث • أي الى شخصية يشكل التراث أحد مقوماتها ، ثم يتعرض الكتاب الى دعائم الموضوعية في دراسة التراث ، وهي :

- **المعالجة البنيوية (أي ضرورة محورة فكر صاحب النص حول اشكالية واضحة) •**
- **التحليل التاريخي (أي ربط فكر صاحب النص الذي أعيد تنظيمه ، بمجاله التاريخي بكل أبعاده) •**
- **الطرح الايديولوجي (أي ضرورة الكشف عن المضمون الايديوجي للفكر ، فهو الوسيلة الوحيدة لجعله فعلاً لنفسه ، مرتبطا بعالمه) •**

وفي اطار عرض خطوات المنهج يركز الجابري على مشكلة الاستمرارية التي يعبر عنها بـ (وصل القارىء بالمقروء) ، وهذا الوصل أقرب الى الحدس الرياضي والى الرؤية المباشرة الريادية الاستكشافية ، عبر حوار جدلي بين الذات والموضوع •

أما القسم الثاني فهو تلك القراءات الفلسفية التي جاءت عناوينها كما يلي :

- **مشروع قراءة جديدة لفلسفة الفارابي السياسية والدينية •**
- **ابن سينا وفلسفته المشرقية (حفريات في جذور الفلسفة العربية الاسلامية في المشرق) •**
- **المدرسة الفلسفية في المغرب والأندلس (مشروع قراءة جديدة لفلسفة ابن رشد) •**
- **ابستمولوجيا المعقول واللا معقول في مقدمة ابن خلدون •**
- **ما تبقى من الخلدونية (مشروع قراءة نقدية لفكر ابن خلدون)**

وأخيرا يمكن تلخيص النتائج التي توصل اليها الكاتب من خلال هذه القراءات المعاصرة في النقاط التالية :

١ ـ اثباته أن الفلسفة الاسلامية كانت تمثل جزءا من الصراع القائم في المجتمع العربي ، وانها من صلب التراث العربي الاسلامي • ومن هنا يرد على التصور السائد عند المستشرقين وتلاميذهم من أن الفلسفة الاسلامية ما هي الا نقل للفلسفة اليونانية •

٢ ـ اثباته أن الفكر العربي الحديث بتطلعاته المستقبلية بحاجة الى الأخذ بالعقلانية الرشدية والتاريخية الخلدونية •

٣ ـ ان الفكر العربي الحديث والقديم بحاجة الى الدراسة النقدية والتاريخية ، فقد أخطأ الفكر الحديث في اعتماده منهج قياس الغائب بالشاهد وخاصة في تطلع الرعيل الأول من الباحثين المحدثين الى الفكر الأوربي ٠

٤ ـ ان مهمة الفلسفة في الوطن العربي أساسية ، وهي اعادة تأسيس الذات العربية في حاضرها حيث تستطيع مواجهة مشاكلها الحاضرة مواجهة سليمة ٠

مجلات تراثية

« فكر »

ـ صدر العدد الرابع والخمسون من مجلة « فكر » وهو العدد الأول من سلسلة **فكر ـ التاريخ** » وذلك في شهر نيسان ١٩٨٢ بيروت

يتألف العدد من بعض الدراسات والاراء والوثائق التي تهتم بالجانب التاريخي والتراثي العربي ٠ وقد جاءت الافتتاحية لتؤكد الوجهة العلمية التي تتبعها المجلة وردها على الدراسات التي تنطلق من المنطلق الايديولوجي أولا ، والتي تعتمد الأسلوب التبريري والمساير للنظرية المسبقة ثانيا ٠ وتتبع « فكر ـ التاريخ » أسلوب الرد على الفكر الانعزالي بنشر بعض وثائقه التي تكشف ارتباطه وانفصاليته ٠ على أنها تدعو الى دراسة تلك الاراء دراسة علمية نقدية ٠ كما تشير المقدمة الى أهمية دراسة التاريخ والتراث في عصرنا فتقول : « للتاريخ ماض مشبع بالبحث والتنقيب ٠ وللتراث حضور ملموس في حياتنا الثقافية ، حضارة وفنا وابداعا ٠ ولعل القيمة الأساسية تكمن في أن التاريخ والتراث صارا مصدري الهام لكثير من الدراسات التي تتحدد على نتائجها ممارسة فكرية وسياسية ٠٠٠)

ولعل أهم ما يمكن استنتاجه من هذا العدد ، تحمله مسؤولية الرد على « الفكر التاريخي » الانعزالي الذي يقرأ التاريخ لتبرير مشروع سياسي جاهز « عندما يجعل من هذه المنطقة ٠ مشروع أقليات تاريخية لم تتحقق بحكم ظروف خارجية وداخلية ٠٠٠ وهم يستدلون على مصداقية مشروعهم بدراسة التاريخ من زاوية النفعية الآنية لمواقفهم السياسية ٠٠ » ٠

كما أن أهم ما يمكن أن أوجهه من نقد لهذا العدد ، تركيزه على جزء معين من الوطن العربي (الاقليم السوري) ٠ وانطلاقا من أن الجزء لا يمكن فصله عن الكل دائما ، لا يكون المشروع التاريخي والتراثي الذي يتبع النقد العلمي ، كاملا ، الا اذا كان المنطلق والهدف القومي العربي أساسا من أسس ذلك المشروع ٠ وتلك الملاحظة أوردها انطلاقا من استقراء المادة المنشورة باستثناء الدراسة الطريفة والهامة لملامح الصراع السياسي في كتاب البخلاء ٠

« المناهــل »

صدر العدد الثاني والعشرون من مجلة « المناهل » التي تصدرهـا وزارة الشـؤون الثقافية بالمغرب · وذلك بتاريخ ــ يناير ١٩٨٢م في ٧٣٣ صفحة ·

وهو عدد خاص بالحركة الفكرية في مدينة « سبتة » المغربية ·

من أهم المواضيع التي وردت :

- سبتة ، رجالاتها ومكانتها وصلاتها العلمية
- كتاب الشفا للقاضي عياض ·
- أبو الحسن المسفر فيلسوف سبتي في عهد الموحدين ·
- ابن أبي الربيع السبتي امام أهل النحو في زمانه ·
- الرحالتان السبتيان ابن رشيد والتجيبي ·
- شيوخ العلم وكتب الدرس في سبتة ·

« أخبــار التراث العربــي »

بدأ معهد المخطوطات العربية في الكويت ، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، باصدار نشرة جديدة توزع مـرة واحدة كل شهرين بعنـوان « أخبـار التراث العربي » ·

في العدد الأول (أيار ــ حزيران ١٩٨٢) : أخبار المعهد ، أخبار التراث العربـي ، أخبار مراكز التراث ومعاهده ، رسائل عن التراث في الجامعات العربية ·

محمد نجيب بوطالب

□ ● □

تحقيق سيرة ابن سينا ونشرها

فريد جحا

لابن سينامكانة متميزة ، لا في تاريخ الحضارة العربيةوالاسلامية فحسب ، بل في تاريخ الحضارة الانسانية أيضاً ٠٠ ولقد استحق ابن سينا هذه المكانة لأسباب كثيرة نعد منها :

أولا : كونه المفكر الموسوعي الذي عالج جميع مناحي الثقافة المعروفة في عصره ، نجد ذلك في التراث الضخم الذي خلفه لنا ، والذي تناول المنطق والاجتماع والأدب والشعر وعلم اللغة والعلوم الطبيعية والرياضيات والموسيقا، والذي تناول ـ قبل كل شيء ـ أمرين : الفلسفة بمعناها الشامل ، والطب والعلوم اللازمة له ٠

ثانياً : الكتب والرسائل الكثيرة التي خلفها لنا والتي بلغت في كتاب الأب جورج شحادة قنواتي « مؤلفات ابن سينا »(١) مائتين وستة وسبعين مؤلفاً* ، وهو تراث ضخم لا يزال أكثره مع الأسف مخطوطاً ٠

ثالثا : التأثير العظيم الذي تركه تراثه في «التطور اللاحق للعلم في جميع بلاد العالم»(٢) فلقد ترجمت كتبه الى اللاتينية في وقت مبكر وكان لها أثرها الكبير في الفلسفة المدرسية في العصر الوسيط ، كما بقي كتابه « القانون في الطب » يدرس في جامعات أوربا الى نهاية القرن السابع عشر ٠

رابعاً : كونه من المفكرين القلائل في تراثنا ، الذين خلفوا لنا سيرتهم الذاتية ، تلك السيرة الهامة التي أملى قسما منها بنفسه ، وأكملها تلميذه ومريده أبو عبيد الجوزجاني ٠

وعلى الرغم من الأهمية البالغة لهذه السيرة ، فانها تحقق ، ولم تطبع حتى الآن طبعة علمية ، مشروحة ومضبوطة ٠ صحيح أنها موجودة في ثلاثة كتب (٣) ، وأن هذه

١ ـ ألفه بتكليف من الجامعة العربية للمهرجان الألفي الذي أقيم ببغداد في عام ١٩٥٢ ، وطبع في عام ١٩٥٠ بمطبعة المعارف بمصر ٠

* هذا وقد انجزت السيدة عصام صبري فهرساً بمؤلفات ابن سينا بالاعتماد على كتاب قنواتي وعلى كتاب مهدوي الذي هو احدث منه وأكثر تدقيقاً بالاضافة الى بروكلمان ، ونشرت المجلة بحثها في العدد المزدوج الخاص بابن سينا ٠

(المجلة)

٢ ـ من نص القرار الذي اتخذه المؤتمر العام للمنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) في دورته المنعقدة بباريس بين تشرين الأول وتشرين الثاني ١٩٧٨ م ٠

٣ ـ هي كتب البيهقي « تاريخ حكماء الاسلام » ، والقفطي « اخبار العلماء باخبار الحكماء » ، وابن أبي اصيبعة « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ٠

الكتب متداولة وموجودة ، ولكن هذه الكتب لم تحقق ولم تطبع حتى الان طبعة علمية دقيقة يمكن الركون اليها ، ففيها أخطاء وتصحيفات، والأعلام وأسماء الأمكنة لم تضبط بالشكل الكافي ، ولم يعرف بها التعريف الذي يفيد النص ، ويجعله في متناول القراء والدارسين •

لذلك عمدنا أنا والزميل محمود فاخوري الى تحقيق هذه السيرة، ونشرها، معتمدين على نصها الوارد في كتاب « اخبار العلماء بأخبار الحكماء » للقفطي ، ومقارنين هذا النص بنص تلك السيرة الواردة في الكتابين الآخرين «تاريخ حكماء الاسلام » للبيهقي و « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة • ثم قام الصديق الدكتور حكمت حمص ، بترجمة نص السيرة الى اللغة الفرنسية(٤) •

٤ ــ صدرت السيرة في نصها العربي والفرنسي عن مطابع الادارة السياسية في الجيش العربي السوري في عام ١٤٠٢هـ ١٩٨٢ م •

وقد عملنا جهدنا ، على ضبط النص ضبطاً دقيقاً ، ومقابلته بما ورد في عيون الأنباء ، وتاريخ حكماء الاسلام ، وفي المصادر التي اختصرت سيرة ابن سينا كـ «وفيات الأعيان» و « خزانة الأدب » وصححنا كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها الناشر الأوربي ، كما فسرنا من الألفاظ ما يحتاج الى توضيح ، وعرفنا بالأعلام وأسماء الأمكنة الكثيرة التي وردت في النص ، وكل ذلك له أهميته في جلاء جوانب السيرة ، مستفيدين من المراجع التي أوردناها في نهاية البحث ، ومقدمين بكلمة عن السيرة، ومصادرها ، ومقارنة النصوص الواردة فيها، وما تقدم من فوائد لدارسي حياة ابن سينا ، تلك السيرة التي نجد فيها أسماء بعض أساتذة الشيخ الرئيس ، وتلامذته ، وتفصيلات كثيرة عن حياته ونفسيته ودراسته، وهي تقدم لنا كذلك قائمة بأشهر مؤلفاته ، تبين لنا المدن والقرى التي ولد فيها ، أو عاش فيها حياته ، وأخيرا تفصيلات أخرى عن جوانب جزئية دقيقة من أعماله ، وصورته ، وحياته الخاصة •

فريد جحا

□ ● □

مؤتمر التعريب وتوصياته

سهيرة السمان

حضارات الأمم ورقيها ماثلة من بعض الجوانب في لغاتها • فاللغة أساس الرقي والعلم والمعرفة • انها وطن الأمة وذاكرتها • انها خزانة تراثها • انها وسيلة التفاهم • انها أداة التفكير وحاملة القيم القومية • هي جسر يصل حاضر الأمة بماضيها ومستقبلها • انها المادة التي ينبغ فيها كبار الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين •

واذا كانت للغة جميع هذه الصفات فان اللغة العربية بماضيها التليد وتراثها الحافل المجيد وعراقتها التاريخية تأتي في طليعة اللغات أصالة وسعة وطواعية وتجددا وملاءمة على أن كل لغة على تفاوت المزايا والخصائص مرتبط تقدمها بتقدم أبنائها •

واذا كانت لكل لغة مشكلات فان مشكلة اللغة ليست ذاتية • بل هي في كون المتكلمين والكاتبين بها من أبناء البلاد النامية • فالى جانب مشكلات التنمية والتقدم والحداثة تأتي مشكلة اللغة ازاء تقدم التكنولوجيا والعلوم ومصطلحاتها الزاخرة التي هي كل يوم في ازدياد والتي يجد أساتذة الجامعات في البلاد العربية الحاجة الماسة الدائمة في نقلها الى لغتهم المرنة المطواع •

لقد عالجت منذ فجر النهضة العربية مشكلة التعريب والترجمة هيئات رسمية وغير رسمية في البلاد العربية ولا سيما مجامع اللغة وعقدت ندوات ومؤتمرات مفيدة في هذا الشأن لبحث هذه القضايا والدعوة الى التعاون في هذا المضمار • وكان القطر العربي السوري سباقاً في الاعتزاز بلغته وفي تعهدها الدائم والحفاظ عليها على رغم محاولات الاستعمار في الاقلال من أهميتها وترويج لغته • ان هذا القطر مع تفتحه على اللغات الأجنبية قد جعل لغة الأم هي اللغة الأساسية في مدارسه ومعاهده وجامعاته ، كما عمد الى الافادة ما استطاع من خزائن التراث العربي الغنية الواسعة وتحت شعار التعريب واللغة العربية انعقد مؤتمر تعريب التعليم الجامعي في اطار المؤتمر العام الرابع لاتحاد الجامعات العربية في رحاب جامعة دمشق بين ٦ ـ ٩ رجب ١٤٠٢ هـ الموافق ٢٩ نيسان ـ ٢ أيار ١٩٨٢ م برئاسة رئيس جامعة دمشق الدكتور محمد زياد الشويكي في جلسات صباحية ومسائية تليت فيها أبحاث قدمها أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الأعضاء ، وجرى فيها تداول الاراء ومناقشتها في اللجان الأربع التي تفرع اليها المؤتمر وكان قد اشترك فيه ما يقارب ستاً وثلاثين جامعة

اضافة الى ممثلي الأمانة العامة للاتحاد والى ممثلي مكتب تنسيق التعريب بالرباط •
وفي الجلسة الختامية تليت التوصيات التي توصل اليها المجتمعون فأقروها وهي الاتية :

١ ـ **ان استكمال تعريب التعليم الجامعي قد تأخر في كثير من الأقطار العربية ولا بد من قرار سياسي وخطوة حازمة تتجاوز عوامل التردد والقصور وتضع الجيل المعاصر حكوماته وجامعاته أمام مسؤولياته التاريخية تجاه المستقبل العربي المنشود • ولم يعد الوقت يتسع للمؤتمرات والندوات التي تضع الافتراضات والنظريات وتُصلت حولها النقاش المعاد العقيم ، ولا بد من وضع الخطوات العملية الكفيلة بتحقيق تعريب التعليم الجامعي واستكماله في وقت قريب منظور أسوة ببعض الأقطار العربية التي اتخذت خطوات هامة وايجابية في هذا المضمار •**

٢ ـ ان الأفراد المشتغلين بالعلم في الجامعات والمؤسسات التعليمية مدعوون الى النهوض بمسؤولياتهم في نشر العلم باللغة العربية وجعل هذه اللغة وعاء لاقصى ما تصل اليه معارفهم العلمية انطلاقا من ايمان راسخ باللغة العربية وقدرتها على استيعاب جميع العلوم والمعارف في الحاضر والمستقبل •

٣ ـ **يهيب الاتحاد بالأمة العربية التي تملك لغة من أعظم اللغات تراثا حضاريا علميا ومرونة أن تعمل على انجاز تعريب التعليم الجامعي في بلادها • وينبه الى تجارب الشعوب الأخرى التي كانت لغاتها قد أوشكت أن تندثر أو لم يكن للغاتها تراث حضاري يعتد به • ومع ذلك استطاعت باصرار أفرادها وعزمهم وايمانهم بأهدافهم أن يحققوا تعليما جامعيا كاملا بلغاتهم •**

٤ ـ توصية الجامعات العربية بالاستفادة مما أقرته مؤتمرات التعريب العربية من مصطلحات في مختلف العلوم •

٥ ـ **اعداد جماعات من العاملين في التعريب من بين أعضاء هيئات التدريس في الجامعات بمختلف فروعها ووحداتها العلمية يتفرغون للتعريب كليا أو جزئيا ، والأخذ بالمنهجية الموحدة التي تضم المبادىء الإساسية في وضع المصطلح العلمي العربي واختياره •**

٦ ـ أن يتبنى الاتحاد مشروعا للتعاون مع الأجهزة المتخصصة القائمة على تنفيذ برامج تعريب التعليم العالي في الجزائر والأقطار العربية الأخرى التي تمر بتجربة مماثلة، بغية تحقيق الاهداف المتوخاة من هذه البرامج ، ووضع الخطط لتظل عملية التعريب في هذه الأقطار العربية حية متطورة •

٧ ـ **التمسك بأن يتقن طلبة الجامعات العربية اللغة العربية عند قبولهم في الجامعات ومدة دراستهم فيها ، وأن يكون أعضاء هيئات التدريس في الجامعات متمكنين من اللغة**

العربية قادرين على تدريس موضوعاتهم بلغة عربية سليمة ، واقامة دورات تدريبية خاصة بأعضاء هيئات التدريس الذين يحتاجون الى اجادة لغتهم العربية .

٨ ـ اقامة دورات تعليمية وتدريسية خاصة للطلبة الذين تكون لغتهم العربية قاصرة عند التقدم للقبول في الجامعات العربية ، لأوضاع خاصة ، سواء كانوا من العرب أو من غير العرب ، لتمكينهم من متابعة دراساتهم الجامعية باللغة العربية كسائر الطلبة .

٩ ـ تأصيل الاهتمام بتحقيق المخطوطات العربية في الجامعات بتدريب الطلبة على ذلك وجعل تحقيق التراث ونشره من ضمن النهج الجامعي بغية تكوين جيل يعنى بالتراث على أساس علمي وتيسير السبيل الى جمع المصطلحات القديمة ما كان منها معرباً أو موضوعاً بالعربية للاستعانة بها على وضع المصطلحات الجديدة .

١٠ ـ اقرار برامج واسعة لتبادل أعضاء هيئات التدريس بين الجامعات في جميع الفروع العلمية لتيسير تبادل الخبرات والقدرات في مجال تعريب التعليم الجامعي .

١١ ـ تعاون الجامعات العربية على تبادل الكتاب الجامعي العلمي المعرب لضمن الاطلاع والاستفادة من الجهود المتحققة في هذا المجال .

١٢ ـ استخدام سائر وسائل الاعلام ، بما في ذلك القمر الصناعي العربي ـ المرتقب ـ والاتجاه ببرامجها نحو الجدية في خدمة اللغة والعلم والمجتمع .

١٣ ـ الاستفادة من تجارب الاقطار العربية التي قطعت خطوات جادة في تعريب التعليم الجامعي .

وفي الختام شكر الدكتور محمد زياد الشويكي المشاركين في المؤتمر وقدم شعار المؤتمر الى الأمانة العامة لاتحاد الجامعات .

سهيرة السمان
جامعة دمشق

□ ● □